البؤساء

الرواية كاملة

في خمسة مجلدات



البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

١

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

البؤساء

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مقدّمة

اذا كانت « البؤساء » قد حظيت حين نشرها ، ولا تزال تحظى الى اليوم ، في فرنسة والديار الاوروبية والاميركية ، بمكانة أدبية تكاد لا تدانيها عند جمهور القراء أيما مكانة لأيما رائعة من الروائع الانسانية الخالدة ، فليس من شك في انها تُعتبر أعظم الخوالد الكلاسيكية الغربية شهرةً في العالم العربي ايضاً ، لا استثني من ذلك حتى مسرحيات شكسبير نفسها . وآية هذا ان من النادر ان تجد انساناً في العَرَب اليوم لم يسمع باسم « البؤساء » لفيكتور هيجو أو لم يقرأ عنها ، أو يطالع مختصراً من مختصراتها الكثيرة التي صدرت بالعربية في عشرات الطبعات ، أو لم يشاهدها على الشاشة البيضاء . فمنذ ان اصدر شاعر مصر البائس ، حافظ ابراهيم ، بضعة فصول من الرواية في جزءين صغيرين لا يبلغان عشر الاصل ، أو اقلّ من ذلك قليلاً ، وشخصيةُ « جان فالجان » الخالدة حيةٌ في مخيلة الناشئة العربية جيلاً بعد جيل ، فهي تحبّها وتأسى لها وتُكبر فيها خيرية الانسان القاهرةَ شرورَ المجتمع كلها ، الخارجةَ من اتون تلك الشرور وهي اصفى جوهراً ، وخيرٌ صِقالاً . ومن هنا كان في ميسورنا ان نقول ان « البؤساء » خالطت الوجدان العربي ، وعملت على إيقاظه مسهمةً في خلق الوعي الاجتماعي

الجديد الذي ننعم به اليوم في ارض العرب من اقصاها الى اقصاها .

ومن أسف ان يكون اطلاع الاجيال العربية على « البؤساء » منذ عهد حافظ ابراهيم حتى هذه الساعة ، اطلاعاً منقوصاً مشوهاً لم يَسْلَمْ معه من تلك الملحمة الانسانية الراسخة رسوخ الاطواد غير هيكلها المجرّد ، واحداثها العاطفية المثيرة . اما التحليل النفسيّ ، واما التعبير الشعريّ الذي يغلّف كل صفحة من صفحات الكتاب ، واما التصوير الفني البارع الذي اشتهر به هيجو ، واما اللوحات التاريخية التي انتثرت في حنايا الاثر ، فقد كُتِبَ على ذلك كله أن يُسْحَق ويُزاح من الطريق لكي يكون في الامكان ضَغْطُ ألفين وخمسمئة صفحة من القطع الكبير في ثلاثمئة او اربعمئة صفحة صغيرة ليس غير ! ذلك لأن اياً من الاقلام العربية لم يجرؤ – برغم نشاط حركة الترجمة نشاطاً متعاظماً – على ان ينقل الى العربية هذا الاثر الادبي الخالد نقلاً كاملاً لا حذف فيه ولا تشويه ، وذلك لأن اياً من الناشرين العرب لم يجرؤ – برغم نشاط حركة النشر نشاطاً متعاظماً ايضاً – على التفكير في عمل كهذا وإخراجه للناس . لكأنه قُدّر على القارىء العربي ان ينتظر الذكرى السبعينية * لوفاة شاعر فرنسة العظيم حتى يَنْعَمَ لاول مرة بقراءة « البؤساء » كاملة غير منقوصة .

وأياً ما كان فقد تطورت منذ عهد هيجو مقاييس الفن الروائي واختلفت مفاهيمه ومذاهبه ، ولكن تطوّر المقاييس واختلاف المفاهيم وحدهما لا يَصْلحان ذريعةً لأغفال الخوالد الادبية وتجاوزها الى النماذج الحديثة دون غيرها ، لأن الاثر الادبي الممتاز يتمرّد على هذه القواعد ويزري بها لما يضجّ به من حياة باقية على الدهر ، ومن قيمة ذاتية هي فوق القوالب والاساليب . وهل غضّ تطوّر المفاهيم الفنية والمقاييس

* تصادف هذا العام ذكرى انقضاء سبعين سنة على وفاة هيجو (٢٢ نوار ١٨٨٥) . ومن محاسن المصادفات ان يصدر الجزء الاول من هذه الترجمة في يوم الذكرى بالذات ايضاً .

النقدية من ادب المعري ، وديكنز ، وبلزاك ، وتولستوي ، ومكسيم غوركي ، وذهبَ بجدته ؟ إن الآثار الادبية الانسانية كالآثار المعمارية والفنية لا تزداد مع الايام الا حُرمـــةً ونفاسةً بل واشراقاً في بعض الاحيان . وانما يتأكد هذا المعنى اكثر حين تكون القضايا التي يعالجها الاثر الخالد مطروحةً ، ما تزال ، في بلادنا ، سواء على الصعيد النظري او على الصعيد العملي ، او على الصعيدين النظري والعملي جميعاً . ومن هنا ندرك حاجتنا الماسة الى ترجمة صحيحة للبؤساء — ولو بعد قرابة مئة سنة من نشرها — بالاضافة الى انه لا يجوز ان تخلو المكتبة العربية وحدها بين مكتبات الامم الحية كلها من ترجمة كاملة للبؤساء ، بل لا يجوز ان تخلو من ايما اثر ادبي خالد من آثار الفكر الانساني لمجرّد انه عتيق . وعلى أية حال فالبؤساء ابعد ما تكون عن العتق او الشيخوخة . ألم يقل هيجو في الاسطر القليلة التي قدم لها بها :

« ... ما دامت مشكلات العصر الثلاث — الحطّ من قدر الرجل
« بالفقر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل —
« لمّا تُحلّ بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في
« بعض البقاع ... ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ،
« فان كتباً مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .»

وبعد ، فمن الخير ان نقدم الى القراء الآن كلمة موجزة في حيـــاة المؤلف وآثاره .

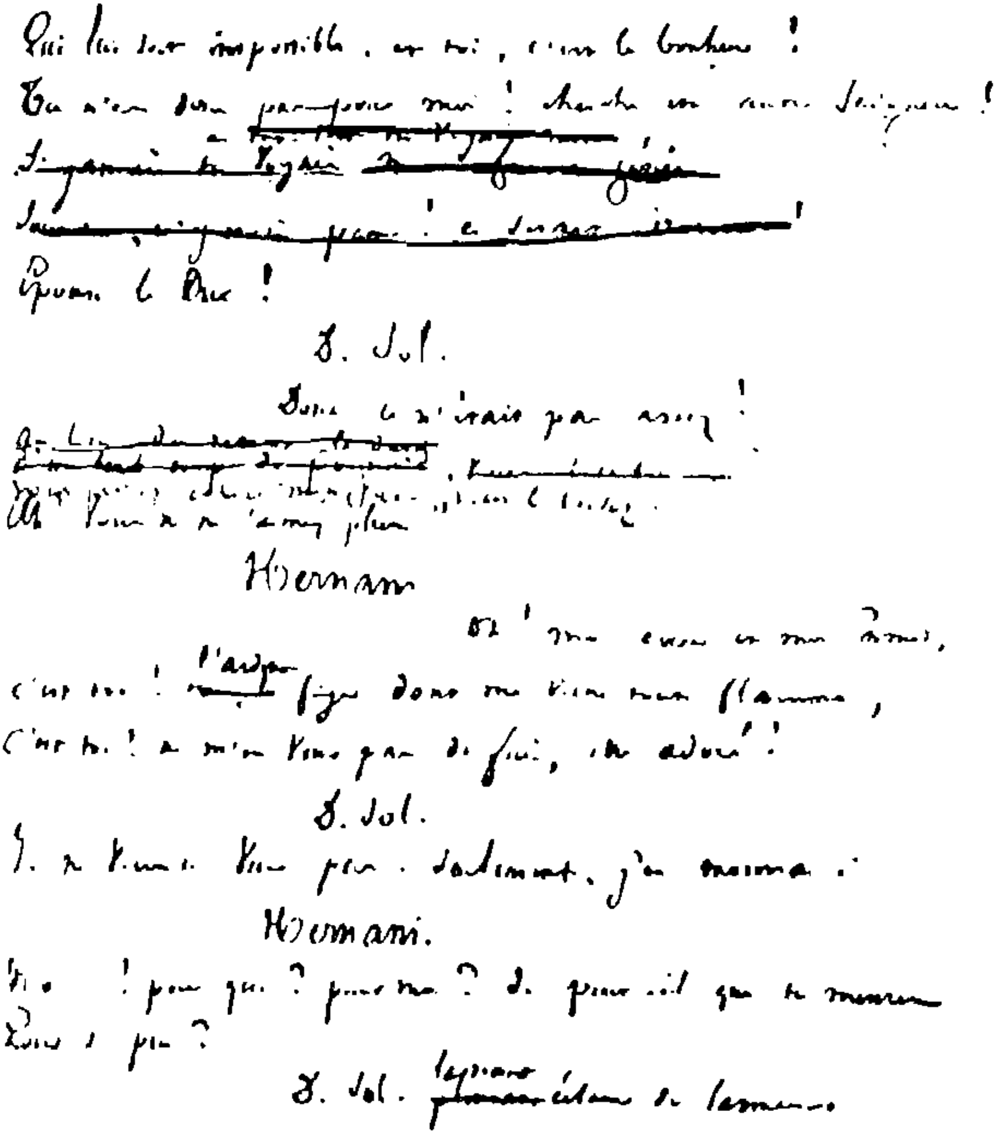
●

حياته

ولد فيكتور هيجو في بيزانسون ، عاصمة الـ « فرانش كونتيه » ، شرقيّ فرنسة ، في ٢٧ شباط سنة ١٨٠٢ من أبٍ كان ضابطاً في جيش الامبراطورية ثم غدا جنرالاً . وانتقل هيجو الفتى مع أبيه الى ايطالية ،

وكورسيكة ، وجزيرة ألبا ، ثم الى اسبانيــة (سنة ١٨١١) حيث قضى عاماً واحداً مع أخيه اوجين في كلية النبلاء بمدريـــد . وفي عام ١٨١٢ رجع الى باريس حيث تلقى العلم على « أمّه وعلى كاهن عجوز وحديقة » ، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك *Polytechnique* ، ولكن الهموم الأدبية شغلته في سنّ مبكرة ، فاشــترك في مسابقة نظمتها الاكاديمية الفرنسية ، وهو بعدُ في الخامسة عشرة من العمر ، ففاز بجائزة شعرية لقصيدتــه « حسنات الدراسة » . وفي اواخر سنة ١٨١٩ أسس مع اخويه ، وبمساعدة « سوميه » و « فينيي » صحيفة « المحافظ الادبي » *Conservateur littéraire* ، فلم تعش غــير سنة ، وقد كتب هو فيها ٢٧٢ مقالةً . وفي سنة ١٨٢٢ اجرى عليه لويس الثامن عشر راتباً بعد نشر ديوانه الاول الموسوم بـ « **نشائد** » *Odes* وفي هذه الفــترة تزوج من آديل فوشيه فأنجبت له اربعة اولاد ، ثم توفيت سنة ١٨٦٨ .

وابتـــداء من عام ١٨٢٧ الذي صـــدرت فيه مسرحيته التاريخية « **كرومويل** » *Cromwell* بمقدمتها الشهيرة التي شنّ فيها حرباً لا هوادة فيها على المفاهـــيم المسرحية الكلاسيكية اعتُبِرَ هيجـو زعيم الحركة الرومانتيكية . وتعدُّ هذه الفترة التي امتدت حتى عام ١٨٤٣ اخصب عهوده بالانتاج الأدبي اذ وضع فيها مقطوعاته « **الشرقيات** » *Les Orientales* ، ومسرحية « **هـــيرناني** » *Hernani* وقصة « **نـــوتر دام دو باري** » *Notre - Dame de Paris* حتى اذا كان عام ١٨٤١ انتُخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية بعد أن أخفق في ذلك أربع مرات متعاقبات . وطوال العشر السنوات التي تلت انصرف هيجـو الى النضال السياسي ، مجنّداً نفسه في خدمة الافكار الديموقراطية والجمهورية . وبعد ثورة ١٨٤٨ انتخب عضواً في الجمعية التأسيسـية ، ثم في الجمعية التشريعية . وفي تلك الفترة شرع في كتابة روايته الكبرى « **البؤساء** » . حتى اذا تمّ انقلاب كانون الاول سنة ١٨٥١ ، وأطاح نابوليون الثالث بالجمهورية ليعلن في العـــام التالي



صفحة من مسرحية « هيرناني » لفيكتور هيجو بخط يده .

قيام الامبراطورية الثانية ، وقف فيكتور هيجو في صفوف المعارضة ، فنُفي الى بروكسل ، ومنها انتقل الى جيرزي واخيراً الى غورنيسي وهما جزيرتان من الجزائر الانكليزية النورماندية * وأكسب النفي عبقريته الشعرية رحابةً وقوة جديدتين فمهر الادبَ في هذه الفترة باروع آثاره : « التأملات » (١٨٥٦) *Les Contemplations* ، والقسم الاول من « خرافة العصور » (١٨٥٩) *La Légende des Siècles* « والبؤساء » (١٨٦٢) *Les Misérables* وفي ٥ ايلول سنة ١٨٧٠ رجع الى باريس فشهد اهوال الحرب وذل الهزيمة ، ثم انتخب عضواً في الجمعية الوطنية ، عام ١٨٧١، فعضواً في مجلس الشيوخ ، عام ١٨٧٦ . ذلك كان عهد الشيخوخة ، ولقد ظلّ خصباً حافلاً . وفي سنة ١٨٨٢ احتفلت الامة الفرنسية احتفالاً مهيباً ببلوغه الثمانين من العمر . وما هي الا سنوات معدودات حتى قضى نحبه (٢٢ نوار سنة ١٨٨٥) فأقامت له باريس مأتماً عظيماً . وفي نوار – حزيران من عام ١٩٣٥ احتفلت فرنسة بالذكرى الخمسينية لوفاته احتفالاً يعزّ نظيره .

عبقريته

يجمع النقاد ، او يكادون ، على ان فيكتور هيجو أعظم شاعر غنائي فرنسي ، وواحد من اعظم شعراء العالم في مختلف العصور . ورأس مواهب هيجو قوةٌ خارقةٌ على الخيال الموضوعي ، وبراعة عجيبة في التصوير تردفها قدرة فريدة على السموّ بالكلمة حتى لتصبح نغماً .

وقد لا تكون حساسيته الشعرية على مثل العمق الذي يميز الحساسية الشعرية عند لامرتين ، او على مثل الجَيَشان الذي يطبع الحساسية الشعرية عند ألفرد دو موسيه ، ولكنها تتمتع برحابة او بسعة اعظم بكثير . إنها تتبدّى نابضة بالحياة ، مشبوبة بخاصة حين توجّهُ نحو الاطفال

* هي مجموعة من الجزر الانكليزية القائمة على الشاطىء النورمندي.

والمستضعفين من الناس . *

ولئن لم يتّسم تفكير هيجو بأصالة الخلق وعمق الابتداع فليس من ريب في انه امدّ انتاجه الشعري بغذاء من الافكار غنيّ . انه لم يُجرِ القلم قطّ على قرطاس إلا ليمجّد افكاراً عظيمة ، أو ليدافع عن افكار عظيمة . وما الشاعر ، عنده ، إلا المنارة التي يتعين عليها ان ترشد الجماهير وتهديهم سواء السبيل ، والصوت المقدّس الذي يحمل اليهم انجيلهم . ** ومن هنا أثار عدداً كبيراً من المشكلات الاخلاقية والاجتماعية التي يتناظر فيها الفلاسفة : الخير والشر ، والانسان والله ، والله والخلق ، والحكمة والعلم ، والجهل والشر ، والرذيلة والبؤس ، والسعادة والتقدم ، معبراً عن ذلك كله في صور قوية ساطعة .

شعره

كان هيجو شاعراً غنائياً في المحل الاول . ولكن غنائيته كانت دون غنائية لامرتين عفويةً وصميمية ، وان تكن اكثر منها تنوّعاً . والحق ان هيجو وصف نفسه فقال إنه « نَفَسٌ من البلور » و « صدىً رنان » ، يعني أنه قد عكس ، ورجّع ، وكثّر ، وافرغ في نظام أوركستريّ جميع الاغراض الغنائية . لقد غنى ، قبل كل شيء ، جميع انطباعات عصره فكأن روح القرن التاسع عشر الشعرية تحيا في قصائده من جديد . وغنّى جميع العواطف الانسانية ، من مثل الحب البنويّ ، والحب الأبوي ، والآمال ، والاحزان ، والاسرة ، والوطن . ثم اضاف الى هذا كله الألم الفلسفي ، والتطور الديني ، ولغز الموت والمجهول ، وتوق الانسان الى الجمال والخير ، والتأسّف للعدالة ، وايمانه بمستقبل قوامه الحرية والتقدم . وعلى الجملة ، فقد كانت أشبه بموسوعة

* راجع Quillet ; *Dictionnaire Encyclopédique* p. 2282.

** المصدر السابق نفسه .

غنائية للعصر الذي عاش فيه . *

واشهر آثاره الغنائية « **نشائد** » (١٨٢٢) *Odes* ، و « **نشائد جديدة** » (١٨٢٤) *Odes Nouvelles* ، و « **الشرقيات** » (١٨٢٩) *Les Orientales* ، و « **أوراق الخريف** » (١٨٣١) *Les Feuilles d'automne* ، و « **الاصوات الداخلية** » (١٨٣٧) *Les Voix Intérieures* ، و « **الاشعة والظلال** » (١٨٤٠) *Les Rayons et les Ombres* ، و « **التأملات** » (١٨٥٦) *Les Contemplations* .

وكان كذلك شاعراً ملحمياً أعطى الادب العالمي لوحات تاريخية خالدة هي أشبه ما تكون بلحمة في الانسانية تمثل لنا العصور الغابرة ، والحقبة المعاصرة ، وحروب القرن التاسع عشر الكبرى . وهذا التراث الضخم تنتظمه كله فكرة التقدّم ، وتصعيد البشرية البطيء نحو النور عبر الصراع المخوف بين الخير والشر . وما هذه الملحمة غير « **اسطورة العصور** » *La Légende des Siècles* ، وقد نشرت في ثلاثة اجزاء متعاقبة (سنة ١٨٥٩ ، و ١٨٧٧ ، و ١٨٨٣) .

مسرحياته

واقتحم هيجو ميدان التأليف المسرحي بدرامة « كرومويل » التي عُدّت مقدمتها الشهيرة بمثابة « البيان » أو « المانيفيستو » للمدرسة المسرحية الناشئة التي نادت بضرورة الأخذ بشكل مسرحي اكثر حرية . ولكن هيجو لم يوفق على العموم في هذا الميدان ، فشخوصه « غنائيون » اكثر مما ينبغي . وبسببٍ من أنهم غنائيون لم يكن في ميسورهم ان يكونوا « مسرحيين » . انهم ليسوا ارادات تعمل ، ولكن احاسيس تتلاعب بها الظروف الخارجية وكأنها دمية من الدمى .

* راجع Des Granges ; *Histoire de la Littérature Francaise* , p. 794.

وأياً ما كان فأشهر مسرحيات هيجو « **كروموبل** » ، وهي شعرية (١٨٢٧) ، و « **هيرناني** » وهي شعرية (١٨٣٠) ، و « **الملك يلهو** » وهي شعرية ايضاً (١٨٣٢) *Le Roi s'amuse* ، و « **ولوكريس بورجيا** » وهي نثرية (١٨٣٣) *Lucrèce Borgia* ، و « **ماري تيودور** » وهي نثرية (١٨٣٣) *Marie Tudor* .

رواياته : « البؤساء »

واعطى هيجو روايات عديدة منها « **نوتر دام دو باري** » (١٨٣١) و « **الرجل الذي يَضحَك** » (١٨٦٩) *L'Homme qui rit* ، و « **ثلاثة وتسعون** » (١٨٧٢) Quatre - vingt - treize . اما اعظم رواياته جميعاً وأبقاها على الدهر فهي « **البؤساء** » ، وقد شرع في كتابتها ، كما رأينا ، قبل عام ١٨٥٠ ولم ينجزها الا عام ١٨٦٢ . وإنما وضع هيجو روايته هذه تحت تأثير التعاليم الانسانية والاشتراكية التي نادى بها « كابيه » * و « برودون » ** فدافع فيها عن قضية جميع اولئك الذين يحتقرهم المجتمع ، والذين ينبغي ان تُعزى جرائمهم الى فساد ذلك المجتمع نفسه .

والواقع ان « البؤساء » هي في المحل الاول رواية اجتماعية قصد بها هيجو الى التنبيه على المظالم التي يرزح تحت عبئها المعذبون في الارض باسم النظام حيناً ، وباسم العدالة حيناً ، وباسم الاخلاق حيناً ، وباسم

* Cabet مفكر فرنسي (١٧٨٨ – ١٨٥٦) تخيل مدينة فاضلة اشتراكية في كتابه « رحلة في إيكاريه » *Voyage en Ycarie* . ولقد حاول ان يحقق نظرياته من طريق انشاء مدينة نموذجية في تكساس ، ثم في ايلينويز ، ولكنه اخفق .

** Proudhon اشتراكي فرنسي (١٨٠٩ – ١٨٦٥) وضع نظريات مشهورة في الملكية الشخصية ، وحاول ان يوفق ما بين البورجوازية والبروليتاريا لكي ينشيء منها طبقة وسطى . ومن مؤلفاته : « ما الملكية الشخصية ؟ » و « تناقضات اقتصادية . »

الشعب دائماً . ورواية تاريخية ارادها صاحبها معرضاً لافكاره الديموقراطية ونزعاته التحررية ، فزيّنها — على حساب الفن القصصي احياناً — بلوحات قلمية جسّد فيها تاريخ فرنسة في حقبة من اخطر الحقب لا في حياة ذلك البلد فحسب ، بل في حياة اوروبة كلها ، اعني تلك الحقبة المنسحبة على عهدي نابوليون بونابرت ولويس فيليب بما حفلا به من انتفاضات ثورية وانتكاسات رجعية ... وهي الى هذا وذاك قارورة طيب ، ووعاءُ فلسفة ، وملحمة نضال . انها بكلمة ، نشيد الحرية ، وانجيل العدالة الاجتماعية ، وسيمفونية التقدم البشري — عبر العرق والدمع والدم — نحو الغاية التي عمل من اجلها المصلحون في جميع العصور : تحقيق إنسانية الانسان وإقامة المجتمع الامثل . ولعل اروع صفحاتها تلك التي صوّر فيها شخصية الاسقف ميرييل ، وآلام فانتين ، وفرار جان فالجان ، ومعركة واترلو ، وثورة عام ١٨٣٢ . بل لعل اروعَ ما فيها قلبُ هيجو الكبيرُ النابضُ من وراء كل كلمة من كلماتها ، وكل فكرة من فكراتها ، وشاعريتُهُ العارمة الخيّرةُ التي تتخطى الحدود والسدود ، ولا تعرف هدفاً غير المحبة ، والعدل ، والخير العام .

●

وبعد ، فيسعدنا ان نزف الى القراء الكرام في سلسلة « خوالد التراث الكلاسيكي » هذه اول ترجمة صحيحة كاملة للبؤساء ، راجين ان يكون في صنيعنا هذا * سدٌ لبعض النقص الذي ما تزال مكتبتنا الحديثة تعانيه من دون سائر مكتبات الشعوب الحية ، أعني حاجتَها الى نسخة عربية كاملة عن كل اثر من الآثار الانسانية الشامخة التي ابدعها الفكر البشري في قديم الايام وحديثها .

بيروت ، ٥ نوار ١٩٥٥

منير البعلبكي

---

* وفي ترجمتنا النصّ الكامل لرائعة تشارلز ديكنز « قصة مدينتين » التي تؤلف الحلقة الاولى من هذه السلسلة .

كلمة اولى

ما دام ثمة ، بسبب من القانون والعرف ، هـــلاك اجتماعي يخلق صناعياً ، وعلى مرأى من الحضارة ومسمع ، ضروباً من الجحيم على الارض،ويعقد في قضاء بشري محتوم مصيرا هو الـهي؛ ما دامت مشكلات العصر الثلاث – الحط من قدر الرجل بالفقر، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل – لمّا تحل بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ؛ وبكلمة اخرى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضاً ، ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتـــاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .

هوتفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيجو

القسم الأول

فانتين

الكتاب الأول

رَجُلٌ مُستقيم

١
مسيو ميرييل

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بيينفنو ميرييـــل هو أسقف د ... * كان رجلاً في الخامسة والسبعين ، وكان قد شغل اسقفية د ... منذ عام ١٨٠٦ .

وبرغم ان بعض التفاصيل لا تمس بطريقة ما اساس القصة التي سنرويها ، فليس من غير المفيد – ولو من اجل الدقة في الاشياء جميعاً على الاقل – ان نشير هنا الى الاقاويل والاشاعات التي نشأت على حسابه منذ ان وفدَ الى الابرشيـــة .

* يقصد مدينة ديني Digne حاضرة احدى المقاطعات الفرنسية الواقعـــة في اقصى الجنوب الشرقي على بعد ٧٦٤ كيلومتراً جنوبي شرقي باريس .

وسواء أكان ما يُقال عن الرجال صدقاً ام كذباً فـــأنه كثيراً ما يترك في حيَواتهم ، وفي مصائرهم بخاصة ، اثراً اعظم من ذلك الذي تتركه افعالهم . كان مسيو ميريل ابن مستشار لبرلمان إيكس * فهو يتمتع بشرف النبالة الذي كان يُخلع على رجال القانون . وإذ أحب الاب ان يخلفه ابنه في منصبه ذاك ، فقد عمد الى تزويجه في سن مبكرة جداً — في الثامنة عشرة ، او العشرين — وفقاً لعرف سائد عند الأسر البرلمانية . ولقد قيل ان شارل ميريـــل كان ، برغم زواجه ، موضوع اهتمام القوم واحاديثهم . كان شخصه مُفرغاً في قالب رائع . وكان على الرغم من قِصَر قامته أنيقاً ، كيّساً ، ظريفاً . لقد وقف الشطر الاول من حياته ، كلّهُ ، على الحياة الاجتماعية وملذاتها . ثم جاءت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعاً ؛ وتشتتت الأسر البرلمانية ، بعد ان قُتل منها خلقٌ كثيرٌ ، وبعد ان طوردت ولوحقت . وعند اندلاع الثورة ، هاجر مسيو شارل ميريل الى ايطالية . وهناك ، توفيت زوجته من علة في الرئتين طالما تهددت حـــياتها بالخطر . ولم تخلّف ايما ولد . ولكنْ ايّ جديد طرأ على مصائر مسيو ميريل بعد ذلك ؟ هل اثار تفسّخُ المجتمع الفرنسي القديم ، وسقوطُ أسرته نفسهـــا ، ومشاهدُ عام ١٧٩٣ الفاجعة ، التي كانت اشد فظـــاعة في اعين المهاجرين الذين رأوها من بعيد وقد ضخّمها الذعر — هل اثار ذلك كله افكاراً تـــدعو الى الاعتزال وقهر الذات ؟ هل اصيب فجأة ، وسط موجة من موجات الانفعال وشرود الذهن التي استغرقت حياته آنذاك ، بواحدة من تلك الضربات الرهيبة الغامضة التي تصرع احياناً — بطعنة في القلب — الرجلَ الذي عجزت الكوارث العمومية عن زعزعته ، بأن تسدّد جُمع كفها الى حياته او قدَرِه ؟ ذلك ما لم يكن احد بقادر على الاجابة عنه . كل ما عرفه الناس انه حين رجع من ايطالية كان يرتدي ثوب الكهنوت .

وفي سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميريل كاهن بـ ... (بريِنيُولّ) ** . كان

* Aix عاصمة « البروفانس » القديمة ، وتقع على بعد ٢٨ كيلومتراً عن مرسيليا .

** Brignolles بلدة صغيرة من اعمال مقاطعة فار (وعاصمتها تولون) على الساحل الجنوبي الشرقي من فرنسة .

آنذاك رجلاً عجوزاً ، وكان يحيا في عزلة مطلقة .

وحوالى عهد التتويج * دعته مسألة صغيرة متصلة بوظيفته الدينيـــة – ولم يبقَ في الامكان معرفة تلك المسألة الآن – الى ان يقصد الى باريس .

وهناك زار الكاردينالَ فيش فيمن زارهم من رجال السلطان خدمةً لبعض مصالح رعيته .

وذات يوم ، حين وفدَ الامبراطور لزيارة عمـــه ، التقى في طريقه بالكاهن الجليل ، الذي كان في غرفة الانتظار . وإذ لاحـظ نابوليون ان الرجل العجوز نظر اليه في شيء من الفضول ، استدار وتساءل في خشونة : « من هذا الرجل الساذج الذي ينظر اليّ ؟ »

فقال مسيو ميرييل : « مولاي ، إنك لترى الى رجـل ساذج ، وإني لأرى الى رجل عظيم . وفي ميسور كل منا ان يفيد من ذلك . »

وتلك الليلة سأل الامبراطورُ عمه الكاردينال ما اسم الكاهن . وبعـد فترة وجيزة غمر الدهش مسيو ميرييل إذ عرف أنه عُيّن اسقفاً لمدينة د ...

وفيما عدا ذلك ، لم يعلم أحدٌ ايّ قدْر من الصحة كانت تنطوي عليـه تلك الحكايات التي سارت بين الناس ، والتي تتصل بالشطر الاول من حيـــاة مسيو ميرييل . ولكنّ أسراً قليلة كانت تعرف أسرة ميرييل قبل الثورة .

وتعيّن على مسيو ميرييل ان يذعن للقَدَر الذي يُلمّ بكلّ وافد جديـــد الى مدينة صغيرة ، حيث توجد ألسنٌ كثيرة تتكلم ، ورؤوس قليلة تفكر . لقد تعيّن عليه أن يذعن برغم انه كان أسقفاً ، ولأنه كان أسقفاً . وعلى اية حال ، فقد كانت الاقاويل المتصلة باسمه مجرد أقاويل ليس غير : لغـــطٍ ، وحديث ، وكلمات ، بل اقلّ من كلمات : *palabres* كما يعبّر اهل الجنوب في لغتهـــم العنيفة .

ومهما يكن من أمر ، فبعد تسع سنوات من نهوضه بأعباء الاسقفية وإقامته في د ... تضاءلت جميع تلك الحكايات وموضوعات اللغو ، الـــتي تشغَلُ ،

* اي تتويج نابوليون بونابرت امبراطوراً ، في ١٨ نوار سنة ١٨٠٤ .

باديء الأمر ، المدنَ الصغيرة والناسَ الصغار ، وغرقت في نسيان عميق . إن احداً ما عاد يجرؤ على ان يتحدث عنها ، بل إن احداً ما عاد يجرؤ على ان يتذكّرها .

وحين وفد مسيو ميرييل على مدينة د ... كانت تصحبه عانسٌ تدعى الآنسة بابتيستين . وكانت هذه العانس هي أختَهُ ، وكانت اصغر منه بعشر سنوات . وكانت خادمتها الوحيدة امرأة في مثل سنّ الآنسة بابتيستين تدعى السيدة ماغلوار . وبعد ان كانت هذه السيدة تُعرف من قبل بـ « خادم السيد الكاهن » غدت الآن تحمل هذا اللقب المزدوج : وصيفة الآنسة ، ومدبّرة منزل صاحب السيادة .

وكانت الآنسة بابتيستين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجه ، مهزولة الجسم ، رقيقة الحاشية . كانت تحقيقاً للصورة المثالية التي تعبّر عنها لفظة « محترمة » ؛ إذ يبدو وكأن من الضروري ان تكون المرأة أمّاً لكي تكون جليلة . إنها لم تكن جميلة في يوم من الايام . وكانت حياتها كلها ، التي لم تكن غير سلسلة موصولة من أعمال التقى ، قد خلعت عليها ضرباً من البياض الشفاف ، حتى اذا شاخت اكتسبت ما يمكن ان ندعوه جمال الصلاح . إن ما كان في صباها هزالاً انتهى الى ان يصبح في كهولتها شفافية ؛ وهذه الاثيرية كانت تمكّن الناظر اليها من أن يرى الملاكَ الذي في ذات نفسها . كانت روحاً اكثر منها عذراء فانية . كان شخصها أشبه بالطيف ، فليس فيها من الجسد ما يكفي لأن يوقع في نفس المرء فكرة الجنس – قليل من المادة ينطوي على شرارة – عينان واسعتان مطرقتان الى الارض ابداً ؛ ذريعة تتخذها الروح للبقاء على هذه الارض .

أما السيدة ماغلوار فكانت امرأةً عجوزاً ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ، بدينةً ، نشيطةً ، مشغولةً على نحو مطّرد . كانت دائماً مبهورةً منقطعة النَفَس ، بسبب من نشاطها الموصول ، أولاً ، وبسبب من داء الربو الذي تشكو منه ثانياً .

وكان مسيو ميرييل ، لدن وصوله الى المدينة، قد أنزل في قصره الاسقفي ، محوطاً بآيات الأجلال المنصوص عليها في المراسيم الامبراطورية التي تجعل الاسقف في رتبة تلي رتبة قائد الجيش مباشرة . كان العمدة والرئيس يقومان بزيارته قبل زيارتها أيما شخصية اخرى في المدينة ، وكان هو بدوره يخلع الشرف نفسه على الجنرال والمحافظ .

حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف الى العمل .

٢

مسيو ميرييل يصبح مونسينيور*بيينفينو

كان قصر الاسقف في مدينة د ... محاذياً للمستشفى : كان صرحاً رحباً جميلاً ، شيّده من الحجارة ، في اوائل القرن الماضي صاحب السيادة هنري بوجيه – وكان دكتوراً في اللاهوت من جامعة باريس ، ورئيس دير سيمور – الذي غدا اسقف د ... في عام ١٧١٢ . كان ذلك القصر ، في الحق ، نُزُلاً أميرياً فخماً ، وكانت سيما الأبهة تغلب على كل شيء فيه : حُجرات الاسقف ، والابهاء، والغرف ، وقاعة الشرف – التي كانت رحبة جداً تحيط بها ردهات ذات اقواس رفعت على الطراز البندقي**العتيق – والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة .

وفي قاعة الطعام كان رواق طويل فخم مستوٍ مع سطح الارض ، منفتح على الحديقة . وكان صاحب السيادة هنري بوجيه قد اقام مأدبة كبرى ، في ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، لصاحب السيادة شارل برولار دو جينليز ، كبير اساقفة ايمبرون ، وأنطوان دو ميسغريني الكبوشي ، أسقف غراس ، وفيليب دو

* او صاحب السيادة ، وهو اللقب الخاص بالاساقفة .
** أو : الفلورنسي .

ڤاندوم ، كبير رؤساء الاديار في فرنسة ، ورئيس دير سان اونورية دو ليرين ، وفرانسوا دو بَرْتون دو غريّون ، رئيس اساقفة ڤنس ، وسيزار دو سابران دوفوركالكييه ، رئيس اساقفة غلانديف ، وجان سوروانـين ، كاهن كنيسة الأوراتوار ، وواعظ الملك ، ورئيس اساقفه سينيز . وكانت صور هؤلاء الرجال السبعة الموقرين تزين القاعة ، وكان هذا اليوم التاريخي ، يوم ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ، منقوشاً بأحرف من ذهب على لوحة رخامية بيضاء .

أما المستشفى فكان بناء منخفضاً ضيقاً ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة .

وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا تمت الزيارة دعا المديرَ الى ان يفد عليه في قصره .

وقال لمدير المستشفى : « كم مريضاً عندك ، يا سيدي ؟ »

— « ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . »

فقال الاسقف : « أي كما عددتُهم أنا . »

فتابعَ المديرَ : « ان اجنحة المستشفى تغصّ بالسرُر التي حُشرت فيها حشراً . »

— « لقد لاحظتُ ذلك . »

— « وليست الاجنحة غير غرف صغيرة ، غرف ليس في الامكان تهويتها بسهولة . »

— « هذا ما يبدو لي . »

— « وفوق ذلك ، فحين ترسل الشمس اشعتها الدافئة تضيق الجنينة الصغيرة بالناقهين » .

— « ذلك ما كنت افكر فيه . »

— « ومن الاوبئة عرفنا التيفوس هذا العام . ومنذ سنتين كان عندنا الحمى العسكرية ، وبلغ عدد مرضانا المئة . إننا لا ندري ما الذي ينبغي ان نصنعه . »

— « ذلك ما خطر لي تماماً . »

فقال مدير المستشفى : « اي شيء نستطيع أن نصنعه ، يا صاحب السيادة ؟

يجب ان نفوّض أمرنا الى الله . »

وانما دارت هذه المحادثة في قاعة الطعام من الدور الارضيّ .

وصمت الاسقف بضع لحظات . ثم التفت فُجاءةً الى مدير المستشفى .

وقال : « كم سريراً تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم يا سيدي ؟ »

فصاح المدير مشدوهاً : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »

وأجال الأسقف عينيه في القاعة ، وبدا وكأنه يقيس طولها وعرضها ويحسب .

وقال مخاطباً نفسه : « انها تتسع لعشرين سريراً . » ثم رفع صوته وقال : « إسمع ، يا سيدي المدير ، الى ما سأقوله . إن ههنا خطأ من غير شك . انتم ستة وعشرون شخصاً تشغلون خمس غرف او ست غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ، ومع ذلك فنحن نحتل مكاناً يتسع لستين . اقول لك ان هنـاك خطأ . انتم تحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . أعيدوا بيتي اليّ . وانزلوا هنا في هذا المكان ، فهو لكم . »

وفي اليوم التالي نُقِل المرضى البائسون الستة والعشرون الى قصر الاسقف وانتقل الاسقف الى المستشفى .

ولم يكن صاحب السيادة ميريبل يملك ثروةً ما، بعد أن دمرت الثورة أسرته . كان لاخته مِلكٌ تتصرف به طوال حياتها ولا يحق لها ان تتنزل عنه لاحد، ولكن هذا الملك ما كان يعود عليها باكثر من خمسمئة فرنك ، كانت - قبل ان يغدو أخوها اسقفاً - تسدّ نفقاتها الشخصية . حتى اذا رُفع مسيو ميريبل الى مقـام الاسقفية تقاضى من الحكومة راتباً مقداره خمسة عشر الف فرنك . ويومَ انتقل الى بيته الجديد في بناية المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ ، مرةً والى الابد ، على الاغراض التالية . وها نحن اولاء ننقل ههنا هـذا الثبت الذي كتبه هو بخط يده .

ثبت بتنظيم نفقاتي المنزلية

– للمعهد الاكليركي الصغير	الف وخمسمئة ليرة .
– رهبانية الارسالية	مئة ليرة .
– لعازاري موندیدیه	مئة ليرة .
– معهد الارساليات الاجنبية في باريس	مئتا ليرة .
– رهبانية الروح القدس	مئة وخمسون ليرة .
– المؤسسات الدينية في الارض المقدسة	مئة ليرة .
– الجمعيات الخيرية التي ترعى الأمومة	ثلاثمئة ليرة .
– علاوة لجمعية آرل المهتمة بالامومة	خمسون ليرة .
– لتحسين الاوضاع في السجون	اربعمئة ليرة .
– لاسعاف السجناء واطلاق سراحهم	خمسمئة ليرة .
– لتحرير ارباب الأسر المسجونين بسبب الديون	الف ليرة .
– علاوات على رواتب مدرسي الابرشية الفقراء	ألفا ليرة .
– مخزن الحبوب الشمي في مقاطعة الألب العليا	مئة ليرة .
– جمعية سيدات د . . . ومانوسك وسيستيرون لتعليم الفتيات المدمات بالمجان	الف وخمسمئة ليرة.
– للفقراء	ستة آلاف ليرة .
– نفقاتي الشخصية	الف ليرة .
المجموع	خمسة عشر الف ليرة .

ولم يُحدث مسيو ميريبل ايما تغيير في هذه الخطة طوال المـــدة التي تولّى خلالها أسقفية د ... كان يدعوها ، كما نرى ، « تنظيم نفقاته المنزلية » .

وتقبلت الآنسة بابتيستين هذا التدبير في إذعان مطلق . فقد كان مسيو ميرييل هو أخاها واسقفها في آن معاً ؛ كان صديقها برابطة الدم، ورئيسها بحكم السلطة الاكليركية . كانت تحبه وتحترمه في غير تكلّف . فاذا ما تكلم ، أنصتت ، واذا ما عمل منحته تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتهما ، فكانت تتذمر بعض الشيء . وكان الأسقف ، كما رأينا ، قد احتفظ لنفسه بألف فرنك ليس غير ، فاذا أضيف هذا المبلغ الى دخل الآنسة بابتيستين أمسى الفاً وخمسمئة فرنك سنوياً . وبهذه الالف والخمسمئة فرنك تعيّن على هؤلاء العجائز الثلاثة ان يعيشوا .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة ايما كاهن من كهان القرى يَفِدُ على د ... وإنما يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الآنسة بابتيستين .

وذات يوم – وكان قد انقضى نحو من ثلاثة اشهر على مقامه في د ... – قال الاسقف : « ومع هذا كله أجدني في ضائقة مالية شديدة . »

فصاحت السيدة ماغلوار : « أنا اظن ذلك ايضاً . ان صاحب السعادة لم يطالب حكومة المقاطعة حتى بنفقات مركبته في البلدة ، ونفقاتها اثناء جولاته في الابرشية . لقد كان جميع الاساقفة السابقين يفيدون من هذه المخصصات . »

فقال الاسقف : « اجل ! أنت على صواب ، ايتها السيدة ماغلوار . »

وطالب بحقه ذاك .

وبعد برهة اقرّ مجلس المقاطعة العام مطلب الاسقف ، وصوّت على قرار بمنحه تعويضاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف فرنك تحت هذا العنوان : « تعويض للاسقف يسدّ به نفقات عربته ، ونفقات جولاته الرعائية في ارجاء الابرشية . »

واثار ذلك بورجوازيي البلدة اثارة بالغة . ولهذه المناسبة كتب احد شيوخ الامبراطورية – وكان من قبلُ عضواً في مجلس الخمسمئة * ، ومناصراً لحركة

* Conseil des Cinq - Cents وكان يتألف من خمسمئة عضو ويشكل ، هو « ومجلس القدماء » السلطة التشريعية وفقاً لدستور السنة الثالثة من الجمهورية . وقد حلهما نابوليون في ١٨ برومير .

١٨ برومير * ، وكان يُقيم الآن في مقرّ له فخم قرب د ... — كتب الى السيد بيفو بريبامينو ، وزير العقائد ، رسالةً مهتاجة وسرّية نقتطف منها الفقرة التالية :

« نفقات عربة ! وما حاجته اليها في بلدة يقلّ عدد سكانها عن اربعة آلاف ؟ نفقات زيارات رعائية ! وايّ فائدة لهذه الزيارات ، في المحل الاول ؟ وفوق ذلك ، كيف السبيل الى التجوّل بمركبة البريد في هذه المنطقة الجبلية ؟ ليس ثمة طرق . وليس في ميسور المرء أن يقصد الى هناك إلا على صهوة الجواد . وحتى الجسر القائم فوق الـ « دورانس » عند شاتو آرنو لا يكاد يحمل عربات الثيران إلا بشق النفس . ان هؤلاء الكهان هم هكذا دائماً : طمّاعون أشحاء . ولقد قام هذا الكاهن بدور الرسول الصالح بُعَيد وصوله ؛ وها هو ذا الآن يسلك مسلك الآخرين . إنه يريد عربةً ومركبة أجرة . إنه يبتغي الترف مثل الاساقفة السابقين . اوه ! تباً لهذا الكهنوت كله ! سيدي الكونت ، إن الاحوال لن تغدو خيراً مما هي إلا اذا أنقذَنا الامبراطور من كهان المكرونة هؤلاء ، فليسقط البابا ! (كانت العلاقات قد ساءت مع رومة) أما من ناحيتي ، فأنا لقيصر وحده الخ . الخ . »

وسرّ الطلب الذي تقدّم به الاسقف الى مجلس المقاطعة العام السيدةَ ماغلوار ، من ناحية ثانية ، سروراً عظيماً فقالت للآنسة بابتيستين : « لقد استهلّ صاحب السيادة أعماله بالتفكير في الآخرين ؛ ولكنه وجد آخر الامر ان عليه ان ينتهي بالاهتمام بنفسه . لقد سوّى مهامه الخيرية كلها ، وها قد حصلنا على ثلاثة آلاف فرنك خالصة لنا ، في النهاية . »

---

* برومير Brumaire هو الشهر الثاني من التقويم الذي اصطنعه الجمهوريون بعيد الثورة الفرنسية ، وهو يقع ما بين ٢٣ تشرين الاول و ٢١ تشرين الثاني . اما يوم ١٨ برومير فهو اليوم الذي اطاح فيه نابوليون بونابرت — اثر عودته من مصر — بحكومة الادارة يعاونه « فوشيه » و «سييس » واخوه لوسيان بونابرت (٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، في السنة الثامنة من الجمهورية .)

وفي الليلة نفسها كتب الاسقف مذكرة ضمّنها الكلمات التالية وقدمها الى شقيقته :

نفقات العربة والتجول

– لتقديم مرق اللحم الى مرضى المستشفى	الف وخمسئة ليرة
– لجمعية « ايكس » الخيرية المهتمة بالامومة	مئتان وخمسون ليرة
– لجمعية « دراغوينيان» الخيرية المهتمة بالامومة	مئتان وخمسون ليرة
– للقطاء	خمسئة ليرة
– لليتامى	خمسئة ليرة
المجموع	ثلاثة آلاف فرنك

تلك كانت ميزانية الاسقف ميرييل .

اما دَخْلُ الاسقفية من إجازات الزواج ، والاعفاء من بعض أحكام الدين ، والتعميد الخصوصي ، والعظات ، ومنح البركة للكنائس والمعابد، وإجراء مراسيم الزواج الخ . فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كان يوزعه بهما على الفقراء .

وما هي الا برهة حتى تدفقت التقدمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء يقرعون باب الاسقف ؛ كان بعضهم يُقبل ليقدّم الصدقات ، وكان بعضهم الآخر يُقبل ليفوز بها . وفي اقل من سنة غدا الاسقف خازناً لفاعلي الخير جميعاً ، ومانحاً للمحتاجين جميعاً . لقد مرت بين يديه مبالغ من المال ضخمة . ومع ذلك ، فلم يغير قط طريقته في الحياة ، ولم يُضِف اقل الترف الى الكفاف الذي يحيا عليه .

على العكس . فما دام في الطبقات الدنيا دائماً فقرٌ يزيد على ما عند الطبقات العليا من إنسانية ، فقد كان كل ما يُقدَّم يُوَزَّع ، اذا جاز التعبير ، قبل ان

يُستَلم ، لكأنه الماء فوق ارض عطشى . وكان من الخير ان يتدفق المال عليه ، لانه ما كان يحتفظ بشيء منه . والى هذا ، فقد كان يحرم نفسه ويسلبها.

واذ كان العرف يقضي بأن يتوّج جميع الاساقفة اوامرهم ورسائلهم الرعائية باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف – بدافع من ضرب من الغريزة الودود – ذلك الاسم الذي كان اقوى عندهم دلالةً ، فهم ينادونه دائماً ، مونسينيور بيينفينو . * ولسوف نقتفي اثرهم ونسمّيه هكذا منذ اليوم . والى هذا ، فقد كان ذلك الصنيع يوقع الحبور في قلبه ، فهو يقول : « إني احب هذا الاسم . إن « بيينفينو » تصحح « مونسينيور » وتوازنها . »

ونحن لا نزعم ان الصورة التي نرسمها هنا صورة حقيقية . إن في ميسورنا ان نقول إنها تشبهه ، ليس غير .

٣

اسقف صالح ـ اسقفية جافية

ولم ينقطع الاسقف ، بعد ان حوّل عربته الى صدقات ، عن القيام بجولاته الرعائية النظامية ولم يطفّفها ؛ ولقد كان ذلك الصنيع ، في ابرشية د ... ، عملاً مرهقاً . كانت الاراضي السهلية قليلة جداً ، وكانت المرتفعات الجبليـــة كثيرة جداً ، ولم يكن ثمة طرق ، تقريباً ، من غير شك . كان في الابرشية اثنـــان وثلاثون مركزاً كهنوتياً ، واحدى واربعون نيابة اسقفية ، ومئتان وخمسة وثمانون مركزاً كهنوتياً فرعياً . وكان في زيارة هذه المواطن كلها نَصَبٌ بالغ ، ولكن الاسقف نهض بهذا العبء الثقيل . كان يمشي على قدميـــه حين يكون المكان الذي يقصد اليه مجاوراً ، ويصطنع عربة صغيرة حقيرة ذات عجلتـــين ومظلة ، في السهل ، على حين يصطنع في الجبال سلة مزدوجة ملقاة على متن احد

* Bienvenu وتفيد معنى « الفائز بحسن القبول . »

البغال. وكانت المرأتان العجوزان ترافقانه عادة. فاذا اتفق ان كانت الرحلة شاقة اكثر مما ينبغي فعندئذ كان يمضي منفرداً.

وذات يوم بلغ سينيز، وكانت من قبل مركز اسقفية، ممتطياً حماراً. كان كيس دراهمه فارغاً جداً في ذلك الحين، فهو لا يمكّنه من اصطناع وسلة افضل، من وسائل النقل. وخرج عمدة المدينة لاستقباله عند باب المقرّ الاسقفي، فلم يكد يرى اليه يترجل عن حماره حتى اخذه الدهش المنطوي على الخيبة. وضحك بعض البورجوازيين من حوله. فقال الاسقف: «سيدي العمدة، سادتي البورجوازيين. انا ادري ما الذي يحملكم على الدهش. انكم تعتقدون ان من الغرور البالغ ان يركب كاهن مسكين المطية عينها التي ركبها يسوع المسيح. فأنا اؤكد لكم اني اتخذتها بحكم الضرورة، لا زهواً وعُجباً.»

وكان في جولاته تلك سَمْحاً سهل الخليقة، وكان يعظ أقلّ مما يتحدث. ولم يكن يضع أيما فضيلة في طبق لا سبيل الى بلوغه؛ أو يورد أسباباً وأمثلةً مُتكلّفةً غير مألوفة. كان يجعل من منطقة ما مثلاً يضربه لأبناء منطقة اخرى مجاورة. ففي الاقضية التي يُعامل فيها المعوزون بقسوة كان يقول: «انظروا الى أبناء بريانسون. لقد منحوا الفقراء والأراملَ واليتامى الحقّ في ان يحصدوا مروجهم قبل ثلاثة ايام من سائر القوم. واذا ما خربت بيوت اولئك البائسين جدّدوا بناءها لهم من غير ان يتقاضوا منهم فلساً. وهكذا فهي ارض باركها الربّ. وطوال قرن كامل من الزمان لم تعرف تلك الديار قاتلاً واحداً.»

وفي القرى التي تعصف شهوة الربح بسكانها في ايام الحصاد، كان يقول: «انظروا الى إيبرون. اذا ادرك موسمُ الحصاد ربّ أسرة فيها بعد ان التحق اولاده بالجيش واشتغلت بناته في المدينة، وكان هو مريضاً، اوصى به الكاهنُ في مواعظه، فما إن تطلع شمس الاحد، وينتهي القداس، حتى يندفع سكان القرية كلهم، رجالاً ونساء واطفالاً، نحو حَقْل الرجل البائس، ويحصدوا له محصوله، ويحملوا التبن والحنطة الى مخزن حبوبه.» وللأسَر المتنازعة على مسائل الملك والأرث كان يقول: «انظروا الى جبليي ديفولني، وهو اقليم موحش

الى درجة تجعل العندليب لا يُسمع في ارجائه مرةً كل خمسين عاماً . حين يموت ربّ الاسرة في تلك الديار ينطلق اولاده الذكور ساعـــين في طلب الرزق ، ويتركون ممتلكاتـــه للبنات لكي يكون في ميسورهن أن يَفُزْنَ بأزواج . »

وفي تلك الاقضية المولع اهلها بالدعاوى القضائيـــة ، حيث يشتري المزارعون الخراب والافلاس بالاوراق المثقلة بالطوابـع كان يقول : « انظروا الى فلاحي وادي كيراس . إن عددهم لا يتجاوز الثلاثة الآلاف . يا الـهي ، لكأنهـــم يعيشون في جمهورية صغيرة ! إنهم لا يعرفون لا القاضي ولا حاجب المحكمـة . والعمدة هناك ينهض بجميع الأعباء . إنه يقسّط الخراج ، ويفرض الضريبة عـلى كلٍّ وفقاً لما يحكم به الضمير ، ويقضي في المنازعات بالمجـان ، ويقسم التركات بينهم من غير أجر ، ويصدر الاحكام من غير ان يتقاضى رسوماً ، وهم يطيعونه لانه رجل عادل بين رجال بسطاء . » وفي القرى التي يعوزها المدرّسون كان يضرب مَثَل وادي كـيراس ايضاً ، فيقول : « اتدرون ماذا يفعلون ؟ لما كانت المنطقة الصغيرة المؤلفة من اثني عشر بيتاً أو خمسة عشر بيتاً لا تقـــوى دائماً على النهوض بنفقة مدرّس فان اهل الوادي جميعاً يتعاونون على دفـــع رواتب المعلّمين، فيتنقّل هؤلاء من قرية الى قرية، مُنفقين اسبوعاً هنا، وعشرة ايام هناك ، حيث يدرّسون الناشئة . وكان هؤلاء المعلمون يشهدون الاسواق العامة ، حيث رأيتهم بعيني . وهم يُعرفون بريش الكتابة الذي يعلّقونه بعصائب قبعاتهم . فأما الذين يعلّمون القراءة وحسب فيحملون ريشة واحدة ، وامـــا الذين يعلّمون القراءة والحساب فيحملون ريشتين اثنتين . واما الذين يعلّمون القراءة والحساب واللاتينية فيحملون ثلاث أرياش . وكان ذوو الارياش الثلاث هؤلاء علماء كباراً . ولكن ما أشنع العار الذي يلحقه الجهل بالمرء ! اعملوا مثل ابناء كيراس ! »

هكذا كان يتكلم ، في وقار رجرْس أبويّ . واذا ما عـدم الامثلة اخترع القصص الرمزية ، مقتحماً موضوعه اقتحاماً مباشراً ، في عبـارات قليلة ، وصور كثيرة . وهل كانت بلاغة يسوع المسيح المقنعة المفحمة شيئاً غير ذلك ؟

٤

الاعمال تتكافأ مع الاقوال

كان حديثه أنيساً عذباً . لقد كيّف نفسه وفقاً لمدارك العجوزين اللتين تعيشان معه . واذا ما ضحك كان ضحكه اشبه بضحك تلميذ من التلاميذ .

وكانت السيدة ماغلوار تخاطبه ، عادة ، بقولها « يا صاحب العظمة ! » وذات يوم نهض عن كرسيه ذي الذراعين ومضى الى مكتبته التماساً لكتاب ما . وكان ذلك الكتاب على احد الرفوف العالية . واذ كان الاسقف أميل الى القصَر فقد عجز عن ان يبلغه . فقال: « أيتها السيدة ماغلوار . ايتيني بكرسي . انَ عظمتي لا تمتدّ الى هذا الرفّ ! »

وكانت الكونتس دو لو ، وهي سيدة يربطها به نسبٌ غير قريب ، نادراً ما تدع الفرصة تمرّ من غير ان تعدّد في حضرته ما دعته « آمال » ابنائها الثلاثة . ذلك بأنه كان لها عدة أنسباء بلغوا من السنّ مبلغاً عالياً وغدوا على شفا الموت : انسباء كان اولادها هم وارثيهم الشرعيين . فاما اصغر الثلاثة فكان مقدراً له ان يفوز من عمة ابيه بدخل سنوي مقداره مئة الف ليرة . واما ثانيهم فكان مقدراً له ان يرث لقب « دوق » من عمه . واما اكبرهم سناً فسوف يرث رتبة الامارة الاقطاعية من جده . وكان من دأب الاسقف ان يسمع في صمت لهذا التباهي الأمومي البريء الجدير به ان يُغتفر . بيد انه بدا ، ذات يوم ، اشدّ استرسالاً في التفكير الحالم منه في ايما وقت سلف ، وكانت السيدة دو لو تعيد تفصيل هذه المواريث جميعاً ، وهذه « الآمال » جميعاً . فما كان منها الا ان كفت عن الكلام ، فجأةً ، وصاحت في شيء من البرم ونفاد الصبر : « يا الـهي ! ولكن ما الذي تفكر فيه ، يا ابن العم ؟ » فأجابها الاسقف : « اني افكر في شيء غريب وردَ في ما اعتقد عند القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم في ذلك الذي لن يُورث ابداً ! »

وفي مناسبة اخرى تلقّى نعيَ شريفٍ من اشراف البلاد أُدرجت فيه لائحة

طويلة لم تنتظم رتب الفقيد فحسب بل ألقاب أنسبائه، جميع أنسبائه، الاقطاعية. فصاح : « ما اقوى ظَهْرَ الموت ! ايّ حِمل رائع من الالقاب سوف يحمله في ابتهاج ! وما اعظم الظرف الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان حتى يتخذ من شاهد القبر وسيلة لاشباع غروره ! »

وكان يرسل بين الفينة والفينة بعض السخريات العذبة المنطوية دائماً، تقريباً، على فكرة جدية. وذات يوم، في اثناء الصوم الكبير، وفدَ نائب اسقفي شاب على د ... وألقى عظة في الكاتدرائية. كان على جانب من الفصاحة غير يسير. وكان موضوع عظته الاحسان. لقد دعا الاغنياء الى ان يجودوا بالصدقات على الفقراء اذا ما رغبوا في اجتناب عذاب السعير، الذي صوّره تصويراً مروّعاً الى ابعد الحدود، وبالفوز بالجنة التي صوّرها بهجةً فاتنة. وكان بين المصلين تاجر غنيّ متقاعد، انصرف الى الاشتغال بالربا بعض الشيء، يدعى السيد جيبوران، وكان قد جمع نصف مليون ليرة من صنع الجوخ، والنسيج الصوفيّ الغليظ، والاقمشة الصوفية الضيقة الخفيفة، والطرابيش الفرنسية. ولم يتصدّق السيد جيبوران، طوال حياته، بشيء ما، على فقير بائس. ولكن الناس لاحظوا، بعد هذه العظة، انه شرع يعطي كل يوم احد، على نحو مطّرد، جزءاً من عشرين من الفرنك للشحاذات العجائز القائمات عند باب الكاتدرائية. وكان عددهن ستاً يُفترض فيهنّ ان يتوزعن هذه الفلوس القليلة في ما بينهن. واتفق ان رآه الاسقف، ذات يوم، يجود بصدقته هذه، فابتسم وقال لاخته:

« ها هو السيد جيبوران يشتري من الجنة ما قيمته جزء من عشرين من الفرنك ! »

وكان اذا التمس العون لعمل خيريّ ما لا يثنيه الرفض ولا يثبط همته. وما كانت الكلمات التي تحمل السامعين على التفكير لتعوزه بحال. كان يجمع الصدقات للفقراء، ذات يوم، في أحد أبهاء المدينة. وكان في ذلك البهو المركيز دو شانتيرسيه، وهو ثريّ عجوز شديد الشحّ، اكتشف السبيل الى ان يكون ملكياً متطرفاً وفولتيرياً متطرفاً في آن معاً. ولم يكن هو الممثل الاوحد لهذه

الفئة من الرجال ، في ذلك العهد . فما ان انتهى الاسقف اليه ، حتى مسّ ذراعه وقال : « يا حضرة المركيز ، ينبغي ان تعطيني شيئاً . » فالتفت اليه المركيز وقال في جفاف : « مونسينيور ، إن عندي فقرائي . » فقال الاسقف : « أعطني إياهم . »

وذات يوم ألقى هذه العظة في الكاتدرائية :

« اخوتي الاثيرين عليّ ، واصدقائي الطيبين ! إن في فرنسة مليوناً وثلاثمئة وعشرين الفاً من أكواخ الفلاحين ليس لها غير ثلاث فتحات ، ومليوناً وثمانمئة وسبعة عشر الف كوخ لها فتحتان : الباب ونافذة واحدة ، واخيراً ثلاثمئة وستة واربعين الف كوخ ليس لها غير فتحة واحدة : الباب . وما ذاك إلا نتيجة لما يدْعونه الضريبة على الابواب والنوافذ . وفي هذه الاسر الفقيرة ، بين النسوة العجائز والاطفال الصغار الساكنين في هذه الأكواخ ، ليس اكثر من الحميات والامراض ! واأسفاه ! إن الله يعطي النور للناس ثم يأتي القانون فيبيعه . أنا لا ألوم القانون ، ولكني أبارك الله . ففي إيزير ، وفي ڤار ، وفي اقليمي الألب الاعلى والادنى ليس عند الفلاحين حتى العجلات الصغيرة ذات الدولاب الواحد فهم ينقلون الزبل على ظهورهم ، وليس عندهم شموع فهم يشعلون اكواز الصنوبر وقطعاً من الحبال مغموسةً بصمغ البطم . والشيء نفسه يصحّ في الجزء الاعلى من دوفينيه برمّته . إنهم يعجنون الدقيق مرةً كل ستة اشهر ، ويخبزونه على زبل البقر الجاف . وفي الشتاء يتصلب هذا الخبز الى درجة تحملهم على ان يكسّروه بالفأس ، وينقعوه بالماء ، اربعاً وعشرين ساعة لكي يصبح في ميسورهم ان يأكلوه . ايها الاخوة ، كونوا رحماء ! انظروا كم يقاسي الناس من حولكم ! »

واذ كان من مواليد بروفانس فقد ألِفَ في يُسرٍ جميع لهجات الجنوب ، من مثل لهجة لانغدوك السفلى ، ولهجة منطقة الالب الدنيا ، ودوفينيه العليا . وكان هذا يُبهج الناس كثيراً ، ويمهد له السبيل الى افئدتهم . كان يشعر في الكوخ والجبل وكأنه في بيته . وكان يعرف كيف يقول أرفع الاشياء في تعابير عامية

الى ابعد الحدود . واذ كان يتكلم اللهجات كلها ، فقد نفذ الى النفوس كلها .

والى هذا فقد كان مسلكه مع الاغنياء هو عينَ مسلكه مع الفقراء .

إنه لم يشجب شيئاً من غير روية ، ومن غير ان يأخذ بعين الاعتبار مختلف الظروف والملابسات . وكان من دأبه ان يقول : « لننظر ايّ طريق سلكه الذنب او الخطأ . »

واذ كان – كما وصف نفسه وهو يبتسم – آثماً سابقاً فلم يكن على شيء من وعورة المتزمّتين . وكان يعلن في كثير من الجرأة – حتى تحت ابصار المتعصبين الشرسين المغضَبة – مذهباً يمكن ان يُصاغ في الكلمات التالية تقريباً : –

« إن للانسان جسداً هو عبء عليه وأداة إغواء له في آنٍ معاً . إنه يجرّه حيثما ذهب ، ويذعن له .

« يجب على الانسان ان يراقب ذلك الجسد ، ويكبح جماحه ، ويكبته ، ولا يطيعه إلا في اقصى حالات الضنك والشدة . وقد يكون من الأثم ان يطيع المرء جسده حتى في تلك الحال ، ولكنه يكون عندئذ إثماً عرَضياً وخطيئة غير مميتة . إنه سقوط ، ولكنه سقوط على الركبتين قد ينتهي بصاحبه الى الصلاة .

« إن كون المرء قديساً هو الشذوذ . وإن كونه مستقيماً هو القاعدة . هِمْ على وجهك ، وتردَّدْ ، وأثم ، ولكن كنْ مستقيماً .

« إنّ اقتراف اقلّ قدْر ممكن من الآثام هو القانون البشري . اما الحياة من غير إثم فحلُم ملاك من الملائكة . وكل ما هو أرضيّ عرضة للاثم . ان الاثم ضرب من الجاذبية . »

وكان اذا ما سمع الناس جميعاً يصيحون ويعبّرون عن اعظم السخط يبتسم قائلاً : « اوه ! اوه ! يبدو ان هذه جريمة ضخمة اقترفها الناس جميعاً . عجباً للرياء المروّع كيف يسارع الى الدفاع عن نفسه ، والاختفاء تحت أيما حجاب ! »

كان سمحاً مع النساء ، ومع الفقراء الذين تقع على عاتقهم اكثر من غيرهم أثقالُ المجتمع البشري . وكان يقول : « إن خطيئات النساء ، والاطفال ، والخدم ، والضعفاء ، والفقراء ، والجهلة هي خطيئات ازواجهن ، وآبائهم ،

وأسيادهم ، وخطيئات الاقوياء ، والاغنياء ، والعلماء . »

ويقول : « علِّم الجاهلَ ما وسعك التعليم . إن المجتمع ليُجرمُ حين لا يزوّد كل امريء بالعلم المجاني . انه لمسؤول عن الظلام الذي يحدثه . وحين تُترك النفس في الظلام ، فعندئذ تُقترَف الآثام . والمجرم ليس ذلك الذي يقترف الاثم ، ولكنه ذلك الذي يُحدث الظلام . »

وهكذا نرى أنه كانت له طريقة غريبة وخصوصية في النظر الى الاشياء . وأحسب انه اكتسب طريقته تلك من الانجيل .

سمع ذات مرة ، في احد الصالونات ، حديثاً عن قضية جنائية كانت المحكمة على وشك النظر فيها . وتتلخص هذه القضية في ان رجلاً بائساً اغراه حبه لاحدى النساء وللولد الذي انجبته له ، بأن يعمد الى تزييف النقد بعد ان نضبت موارده وسُدّت في وجهه اسباب العيش . وكان الموت لا يزال هو عقابَ المزيِّف في ذلك العهد . والقي القبض على المرأة وهي تروّج اول قطعة نقدية زيّفها الرجل . وزُجّ بها في غياهب السجن ، ولكنْ لم يكن ثمة أيما دليل ضد عشيقها . كانت هي وحدها القادرة على ان تشهد عليه ، وان تدينه باعترافها . وأنكرت ان يكون هو المجرم . وأصرّوا . ولكنها كانت عنيدة في إنكارها . وعندئذخطرت للنائب العام الملكيّ فكرة . لقد صوّر لها ان صاحبها غير مخلصٍ لها ؛ ومن طريق بضعة اجزاء من رسائل ضُمّ بعضها الى بعض في براعة وُفّق الى ان يُقنع المرأة المسكينة بأن لها منافِسةً ، وأن هذا الرجل قد خدعها . حتى اذا عصفت بها الغيرة ، وشت بعشيقها ، واعترفت بكل شيء ، مقيمةً الدليل على إجرامه . وكان متوقّعاً ان يحاكم في إيكس ، بعد بضعة أيام ، مع شريكته في الجريمة ، وكانت إدانته مؤكدة . ولم يكد القوم يستمعون الى القصة حتى أخذهم الذهول لبراعة النائب العام . إن إعمالَهُ الغيرةَ مكّنهُ من ان يكشف عن الحقيقة من طريق الغضب ، وبذلك انبجست العدالة من الانتقام . وأصاخ الاسقف الى ذلك كله في صمت حتى إذا سكت القوم تساءل :

— « اين سيحاكم هذا الرجل وهذه المرأة ؟ »

– « في محكمة الجنايات . »

– « والنائب العام الملكي ، اين سيحاكم ? »

ووقعت في د .... حادثة فاجعة . لقد صدر الحكم على رجل بالموت لاقترافه جريمة القتل . وكان ذلك المسكين على ثقافة هزيلة ، ولكنه لم يكن جاهلاً بالكلية . كان يسلي الناس ببعض ألعاب القوة والرشاقة في الاسواق الموسمية ، ويعمل كاتباً عمومياً . واستأثرت المحاكمة باهتمام اهل المدينة . وقبل اربع وعشرين ساعة من الموعد المضروب لأنفاذ حكم الموت في الرجل مرض واعظ السجن . فنشأت الحاجة الى رجل دين يرافق السجين في لحظاته الاخيرة . واستدعي الكاهن ، ولكنه رفض ان يذهب قائلاً : « هذا أمر لا علاقة لي به . وما صلتي بهذه السُّخرة ، أو بذاك المشعوذ ? والى هذا ، فانا مريض ايضاً . وفوق ذلك كله ، فليس ذاك المكان مكاني . » وحين نُقل هذا الجواب الى الاسقف قال : « إن الكاهن على صواب . ذلك المكان ليس مكانه . إنه مكاني ! »

ومضى ، لتوّه ، الى السجن ، وهبط الى محبس « المشعوذ » المظلم وناداه باسمه ، وأمسك بيده ، وانشأ يحدّثه . لقد قضى الى جانبه النهار كله ، والليل كله ، ناسياً الطعام والرقاد ، مصلياً الى الله من اجل روح الرجل المحكوم عليه بالموت ، حاضّاً هذا الرجل على ان يشاركه في الصلاة . لقد حدثه حديث الحقائق الفضلى ، التي هي اكثر الحقائق بساطة . كان أباً ، واخاً ، وصديقاً ؛ ولم يكن أسقفاً إلا لكي يباركه وحسب . لقد علّمه كل شيء ، بأن شجعه وأوقع العزاء في قلبه . ذلك بأن هذا الرجل كان على وشك ان يموت يائساً . فقد كان الموت ، في نظره ، أشبه بهاوية . واذ وقف مرتعد الاوصال أمام هذه العتبة المروّعة ، ارتدّ الى الوراء وقد عصف به عاصف من الذعر . انه لم يكن جاهلاً الى درجة تُسلمه بلامبالاة مطلقة . وكانت الصدمة الفظيعة التي اصيب بها إثر صدور الحكم عليه بالموت قد مزّقت بمعنى من المعاني ، ههنا وههناك ، ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن سر الاشياء ، والذي ندعوه الحياة . ومن خلال تلك الثغرات المشؤومة

راح ينظر الى ما وراء هذا العـــالم نظراً موصولاً فلم يوفق الى رؤية شيء غير الظلام . لقد أراه الاسقف النور .

وفي اليوم التالي ، حين وفدوا ليساقوا الرجل البائس الى الموت ، كان الاسقف هناك . ومضى في اثره . وبرز امام أعين الحشد بردائه البنفسجي القصير الذي يغطي الصدر ، والصليب الاسقفي يطوّق جيده ، ووقف جنبـاً الى جنب مع ذلك المخلوق البائس الموثق بالحبال .

وامتطى العربة معه ، وصعد الى المشنقة معه . فاذا بوجه الرجل الذي كان مكفهراً مذعوراً في المساء يغدو الآن مشرقاً بالامل . لقد أحسّ بأن نفسه قـد أرضيت ، وهو عظيم الرجاء بالله . وعانقه الاسقف ؛ وفي اللحظة الـتي اوشكت فيها السكين ان تحتزّ عنقه قال له : « ان النفس التي يزهقهـا الانسان يعيدهـا الله الى الحياة . ومن يطرده إخوته يجد الله أمامه . صلّ ، آمن ، أُدخل الى الحياة ! ان الربّ هناك ! » وحين غادر المشنقة كان في سيما وجهه ما جعل الناس يرتدون الى الوراء . ومن العسير ان نقول أيهما كان اروع : شحوبه ام طمأنينته . حتى اذا دخل المنزل المتواضع الذي كان يسميه ، وهو يبتسم ، قصرَه قال لأخته : « كنت احتفل بقداس حبري ! »

واذ كانت الاشياء الاكثر سمـواً هي في الوقت نفسه الاشياء الـتي تحظى من الناس بأقل الفهم ، فقد وُجد في المدينة من يقول تعليقاً عـــلى مـلك الاسقف هذا : « ذلك تصنّع . » ولكن مثل هذه الافكار كانت مقصورة عـلى الطبقات العليا . اما أبناء الشعب الذين لا يبحثون عن الدوافع الخبيثة في الاعمال الدينيـة فقد قابلوا ذلك باعجاب وإشفاق .

وأما الاسقف فقد أوقع مشهد المقصلة صدمة في نفسه لم ينجُ من آثارها إلا بعد فترة طويلة .

والحق ان للمشنقة حين تُعدّ وتُنصب أثراً في النفس كأثر الهلوسة أو الوهم . فقد لا نبالي بعقوبة الموت كثيراً او قليلاً ، وقد لا نعلن عن رأينا قائلين نعم أو لا ، ما دمنا لا نشهد مقصلة ما بأعيننا . ولكن ما إن نرى الى واحدة حـــتى

تعصف بنا صدمة هي من العنف بحيث تحملنا على ان نقرّر ونتخذ موقفاً إما مع تلك العقوبة وإما ضدّها . ان بعض الناس ، مثل دو ميتر* ، ليمتدحونها ، وان بعضهم ، مثل بيكاريا** ، ليشجبونها. إن المقصلة هي تخثُّر القانون ، وهي تدعى المنتقمة . انها غير حيادية ، ولا تسمح لك بأن تظل حيادياً . وكل امرىء يراها يُزَلْزَل بارتجافات ليس اعجب منها ولا اشدّ غموضاً . ان جميع القضايا الاجتماعية لتطرح علامات استفهامها حول هذه الفأس . المشنقة خيال . المشنقة ليست مجرد هيكل منجور ؛ المشنقة ليست ماكينة ؛ المشنقة ليست آلة ميكانيكية جامدة لا حياة فيها ، مصنوعة من خشب ، ومن حديد ، ومن حبال . انها تبدو كائناً من نوع ما ، ذا اصل مظلم لا نعرف عنه شيئاً ؛ وفي ميسور المرء ان يقول ان هذا الهيكل المنجور يرى ، ان هذه الماكينة تسمع ، إن هذه الآلة الميكانيكية تفهم ، إن لهذا الخشب ، ولهذا الحديد ، ولهذه الحبال ، ارادة . وفي الهواجس المروّعة التي يقذف مشهدها بالنفس الانسانية الى خضمّها ، تبدو المشنقة فظيعة ، وممتزجة بصنيعها الرهيب . المشنقة شريكة الجلاد في الاثم . انها تفترس ؛ إنها تأكل اللحم ؛ انها تشرب الدم . المشنقة غولٌ من ضرب ما ، يصنعه القاضي والنجار . انها شبح يبدو وكأنه يحيا بضرب من الحياة راعب ، مستَمَدّ من كل الموت الذي سببته .

وكانت الانطباعة مخيفة وعميقة ايضاً . ففي صبيحة الاعدام ، وطوال عدة ايام بعدها ، بدا الاسقف مفتتّاً واهناً . كانت الطمأنينة الموشكة ان تكون عنيفة ، والتي طفَتْ على محياه في اللحظة المشؤومة ، قد زايلته ، ليستبدّ به منذ ذلك الحين طيف العدالة الاجتماعية . لقد أمسى — وهو الذي كان يلتفت في العادة الى جميع أعماله في رضاً بالغ الاشراق — امسى الآن موضوع توبيخٍ ذاتي .

* de Maistre مفكر فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٢١) وضع عدة مؤلفات في القضايا الدينية والسياسية ، مدافعاً عن مبادىء الحكم المطلق ، مناهضاً الثورة الفرنسية .

** César de Beccaria فيلسوف ايطالي (١٧٣٨ — ١٧٩٤) ، وضع مؤلفاً شهيراً في الجرائم والعقوبات شجب فيه المحاكمة السرية ، وتعذيب المتهمين ، وعدم تساوي العقوبات بين شخص وشخص ، ووحشية العقوبات .

وانشأ يخاطب نفسه بين الفينة والفينة ، ويتمتم في همس بمناجاة ذاتية فاجعة . وذات مساء سمعته اخته ، اتفاقاً ، وهو يخاطب نفسه فالتقطت قوله : « انا لم أعتقد انها ستكون فظيعة الى هذا الحد . من الخطل ان يستغرق المرء في القانون الديني الى درجة تجعله يعمى عن القانون الانساني . إن الموت ملكُ الله وحده . فبأيّ حق يمسّ الناس هذا الشيء المجهول ؟ »

ومع الايام ، خبَتْ هذه الانطباعات ، ولعلها ان تكون انمحت . ومع ذلك ، فقد لوحظ ان الاسقف اجتنب ، منذ ذلك الحين ، المرور بساحة الاعدام .

كان في ميسور القوم ان يَدْعوا مونسنيور ميرييل ، في ايما ساعة من الساعات ، الى سُرُر المرضى والمحتضرين . كان يعرف جيداً ان واجبه الاسمى وعمله الاعظم هما ، في الحقّ ، هناك . ولم تكن الأسر المرمّلة او الميتّمة في حاجة الى أن تدعوه لزيارتها . كان هو يمضي اليها بنفسه . كان يعرف كيف يجلس صامتاً ، طوال ساعات وساعات ، الى جانب الرجل الذي فقَدَ الزوجة التي يحبّ ، او الى جانب الأم التي احتسبت ولدها . وكما عرف متى ينبغي له ان يصمت ، كذلك عرف متى ينبغي له ان يتكلم . إيه ، ايها المعزّي الرائع ! إنه ما كان يسعى الى محو الالم بالنسيان ، بل الى تعظيمه وتشريفه بالأمل . فهو يقول : « إحترسْ من الطريقة التي تفكر فيها بالأموات . لا تفكر بالذي بليَ وفسد . أنظرْ مليّاً ، تجد الاشراق الحيّ الذي كان لفقيدك الاثير على قلبك في اعماق السماء . » كان يعرف ان الأيمان صحيّ . وكان يسعى الى ان ينصح الرجل القانط ويوقع الهدوء في نفسه بان يُريه الرجل الراضي بمشيئة الله ، ويعمل على ان ينجي المساكين من الالم الذي يحدّق الى القبر ، بان يريهم الالم الذي يحدّق الى النجم .

٥

كيف جعل مونسينيور بيينفينو
ثوبه الكهنوتي يعمر طويلاً

كانت حياة مسيو ميرييل الخاصة حافلةً بمثل الافكار المالئة حياتَه العامة. والواقـــع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف د .. خليقٌ به ان يكون مشهداً خطيراً بقَدْر ما هو فاتنٌ، في نظر من استطـاع ان يرى اليه عن كثب.

ومثلَ جميع الشيوخ، ومثلَ معظم المفكرين، لم يكن ينـام الا عراراً. ولكن نومه القصير ذاك كان عميقاً. كان يقضي ساعة من ساعـــات الصباح في التأمل، ليتلو بعد ذلك قداسهُ، سواء في الكاتدرائية او في منزله هو. حتى اذا تمّ له ذلك أفطرَ على خبز الجاودار مغموساً في حليب بقراتـه؛ وانصرف الى العمل.

والاساقفة رجال مشغولون جداً. إن على الواحد منهـم ان يستقبل كل يوم أمين الابرشية، وهو عادةً كاهن قـــانوني، وان يستقبل وكلاءه الكبـار كل يوم تقريباً. ان ثمة أخويّات يتعيّن عليه ان يديرها، وإجازات يجب ان يمنحها، وكتباً اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع – بعضها كتب صلوات، وبعضها كتب في التعليم المسيحي لابناء الابرشية، وبعضهـــا كتب في أقسام الفرض الكنائسي – ورسائل رعائيـــة يجب ان يكتبها، وعظات ينبغي ان تُجاز، وكهاناً وعُمَداً يتعيّن عليه أن يُصلح مــــا بينهم، ومراسلات اكليركية، ومراسلات ادارية – مع الحكومة من ناحية، ومـع السدّة الرسولية من ناحية اخرى – وآلافاً من المسائل.

فاذا ما تركت له هذه المسائلُ كلها وقداساته الاحتفالية وكتـابُ فرْض الكهنة فراغاً ما، قدّمه قبل كل شيء الى المعوزين، والمرضى، والمكروبين.

فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقية من ذلك الفراغ أنفقه في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احياناً ، وكان يقرأ ويكتب احياناً . ولم تكن عنده غير كلمة واحدة لهذين الضربين من العمل . كان يدعوهما « بستنة » . » وكان يقول : « الروح بستان . »

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيتمشى في الحقول ، او في المدينة، طارقاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحقيرة . كان الناس كثيراً ما يرونه يمشي وحده متثاقلا ، مستغرقاً في افكاره ، مطرق الرأس ، متوكئاً على عصاه الطويلة ، مرتدياً بُرْدَه الشتوي البنفسجي ، المبطن الكثير الدفء ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل ، وقبعته المسطحة التي تدلت من زواياها الثلاث ثلاثة ازرار ذهبية على شكل بزور نبات الاسباناخ .

كانت الفرحة تحلّ حيثما برز . وفي ميسور المرء ان يقول انه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . فقد كان الشيوخ والاطفال يخرجون الى عتبات بيوتهم التماساً الاسقف كما يخرجون اليها التماساً للشمس . كان يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يُرْشَدون الى بيته.

وبين الفينة والفينة ، كان يقف ويتحدث الى الصبية والصبايا ، ويبتسم لامهاتهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه ملأى بالمال . اما حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

واذ قد أطال في عمر ثوبه الكهنوتي دهراً ليس بالقصير ، وما كان ليرغب في ان يراه الناس على جسده ، فانه لم يقصد الى المدينة قط الا ببرده البنفسجي المبطن . وكان ذلك يضايقه بعض الشيء ، في الصيف .

حتى اذا عاد، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء.

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخته ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفهما ، في انتظار القيام بأيما خدمة يسألانها اياها . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر تقشفاً من هذا العشاء وأمعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعواً الى تناول العشاء على مائدته فعندئذ كان من دأب السيدة ماغلوار

ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعدّ للمونسينيور بعض سمكات البحيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف . كان كل كاهن ذريعة تُتّخذ لاعداد مائدة جيدة ، وما كان الاسقف ليعترض على هذا . وفي ما عدا ذلك ، لم تكن مائدته العادية لتتألف من غير الخضر المسلوقة ، او الحساء المُعدّ بالزيت . وهكذا سار بين ابناء المدينة هذا القول : « حين لا يكرم الاسقف وفادة كاهن ، يكرم وفادة راهب من الرهبان الترابيستيين . » *

وبعد العشاء ، كان من دأبه ان يتحدث نصف ساعة مع الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار ، ليمضي إثر ذلك الى غرفته ويكتب ، على قصاصات من الورق مستقلة احياناً ، وعلى هوامش بعض كتبه الكبيرة أحياناً . كان حسن الثقافة ، بل كان عالماً الى حدٍّ ما . لقد خلّف خمس مخطوطات او ست مخطوطات غريبة . وكان بينها بحث حول هذه الآية من سفر التكوين : « **في البدء كان روح الله يرفّ على وجه المياه .** » وهو يقابلها بنصوص ثلاثة : النص العربي الذي يقول : « **كانت رياح الله تهبّ** » ، ونصّ فلافيوس جوزيف ** الذي يقول : « **إن ريحاً من الاعالي هبطت على الارض** ، » وترجمة اونكيلوس الكلدانية التي تقول : « **ان ريحاً من لدن الله هبت على وجه المياه .** » وفي بحث آخر يدرس آثار هوغو ، اسقف بتوليمايس ، اللاهوتية — وهو احد انسباء مؤلف هذا الكتاب الابعدين — ويثبت ان مختلف المصنفات الموجزة التي نشرت في القرن الماضي تحت اسم « باركيكور » المستعار ينبغي ان تعزى الى هذا الاسقف .

وفي بعض الاحيان كان يستغرق فُجاءةً — وهو في غمرة من مطالعته ، أياً ما كان الكتاب الذي بين يديه — في تأمّل عميق لا يكاد يخرج منه حتى يدوّن بضعة اسطر على صفحات الكتاب نفسها . وكثيراً ما لا تكون لهذه الاسطر

* Trappist وهي رهبنة أسسها في القرن السابع عشر الراهب دو رانسه في سوليني لا تراب Soligny - La - Trappe في فرنسة . واشتهر رجالها بالصمت والتقشف .

** مؤرخ يهودي ، ولد في القدس نحو سنة ٣٧ وتوفي نحوسنة ١٠٠ وعمل في خدمة الرومان .

علاقة ما بالكتاب الذي دوّنت على حواشيه . وتحت عينينا الآن ملاحظة كتبها على احد هوامش كتاب من قطع الربع عنوانه « **مراسلات اللورد جيرمين مع الجنرالين كلينتون وكورنواليس واميرالات المستعمرة الاميركية . يباع في فوكاي بمكتبة بوانسو ، وفي باريس بمكتبة بيسّو ، رصيف الاوغوسطينيين .** »

وهذه هي الملاحظة :

« إيه ، أهذا الذي في السموات !

« إن سفر الجامعة يدعوك الكلي القدرة ؛ واسفار المكابيين تدعوك الخالق ؛ ورسالة بولس الرسول الى اهل أفسس تدعوك الحرية ؛ وباروخ * يدعوك السّعة التي لا حدّ لها ؛ والمزامير تدعوك الحكمة والحق ؛ وسفر يوحنا يدعوك النور ؛ وسفر الملوك يدعوك السيد ؛ وسفر الخروج يدعوك العناية ؛ وسفر اللاويين يدعوك القداسة ؛ وسفر عزرا يدعوك العدالة ؛ وسفر التكوين يدعوك الرب الالٓه ؛ وابن البشر ** يدعوك الاب ؛ ولكن سليمان يسميك المَرْحمة ؛ وهذا هو اجمل اسمائك جميعاً . »

وكان من عادة الامرأتين ان تأويا، حوالى الساعة التاسعة مساءً، الى غرفتيهما في الدور الثاني ، تاركتين اياه وحده ، حتى الصباح ، في الدور الاول .

وهنا من الضروري ان نعطي فكرة دقيقة عن منزل اسقف د . . .

٦
كيف كان يحمي بيته

كان المنزل الذي احتله يتألف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثانٍ : ثلاث غرف في الطابق الارضي ، وثلاث في الدور الثاني ، وعلّية فوقها .

* هو باروخ بن نيريا الذي دون نبوءات ارميا (سنة ٦٠٠ ق . م .)
** اي السيد المسيح .

ووراء المنزل انبسطت حديقة مساحتها نحوٌ من ربع أكثر . وكانت الامرأتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يحيا في الطابق الارضي . وكانت الغرفة الاولى ، المنفتحة على الشارع ، هي غرفة طعامه ، والثانية هي مهجعه ، والثالثة هي مُصلاّه . ولم يكن في ميـورك ان تغادر هذا المصلى من غير ان تجتاز بالمهجع ، وان تغادر المهجع من غير ان تجتاز بغرفة الطعام . وكان في اقصى المصلى مُخدَعٌ * موصدٌ ينطوي على سرير للضيف ، فيرقد فيه الكهان الريفيون كلما دعتهم شؤون ابرشيتهم وحاجاتها الى ان يفدوا على د ...

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير يحاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد حُوّلت الى مطبخ وبيت للمؤونة .

وكان في الحديقة ايضاً اصطبل ، كان في ما سلف مطبخ المستشفى ، أنزل فيه الاسقف بقرتين . وكان من عادة الاسقف ان يُرسل ، كل صباح ، نصف ما تجودان به من لبن ، بالغاً ما بلغ ، الى مرضى المستشفى . وكان يقول : « إني ادفع عشوري . »

كانت غرفته رحبة جداً ، وكانت تدفئتها عسيرة جداً في ايام الشتاء . واذ كان الحطب غالياً جداً في د ... فقد خطر له ان يقتطع من مأوى البقرتين غرفة موصدة ذات حاجز خشبيّ ، فهو يُمضي فيها لياليه حين يكون الجو قارساً جداً . وكان يدعو تلك الغرفة «صالونه الشتوي» .

ولم يكن في الصالون الشتوي هذا ، شأن غرفة الطعام ، غير طاولة خشبية بيضاء مربعة ، واربعة كراسيّ من القش . بيـد ان غرفة الطعام كانت تحتوي ، فوق ذلك ، على خزانة قديمة للآنية وادوات الطعام مصبوغةٍ باللون الازهر . ومن خزانة مماثلة مجللة على نحو ملائم بغطاء كتاني ابيض ووشيٍ زائف ، اتخذ الاسقف المذبحَ الذي زانَ مصلاه .

وكان تائبوه الاغنياء ونسوة د ... الورعات كثيراً ما يتبرعون بالمال لاقامة

---

* المخدع ، في المعاجم ، بيت داخل البيت الكبير . وقد اصطنعناها هنا لتؤدي معنى التجويف الذي يُجعل في جدار الغرفة ويوضع فيه سرير ، او ما يقابل كلمة alcove الفرنجية .

مذبح جديدٌ جميل لمصلّى صاحب السيادة . ولكنه كان يأخذ المال ، كل مرة ، ويوزعه على الفقراء . وكان يقول : « خير مذبح على وجه الارض روح رجل بائس نعمتْ بالعزاء وتوجهت الى الله بالشكر . »

وفي مصلاه كان كرسيان قشّيان من كراسي التعبّد ، على حين كان في مهجعه كرسي ذو ذراعين مصنوع من القش ايضاً . فاذا اتفق ان ضمّ منزلهُ سبعة زوّار او ثمانية زوار في آنٍ معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية ، او بعض التلاميذ من المعهد الاكليركي الصغير ، اضطرّ الاسقف الى ان يمضي الى الاصطبل التماساً لكراسيّ الصالون الشتوي ، والى المصلّى التماساً لكرسيي التعبّد ، والى المهجع التماساً للكرسي ذي الذراعين . وهكذا كان في ميسوره ان يجمع احد عشر مقعداً لزائريه . وعند كل زيارة جديدة ، كانت احدى الغرف تُجرّد من أثاثها .

وقد يتفق في بعض الاحيان ان يبلغ عدد الزائرين اثني عشر شخصاً . وعندئذ كان الاسقف يخفي تحرّجَ الموقف بان يلتزم الوقوف امام نار الموقد اذا كان الفصل شتاء ، وبان يقترح القيام بجولة في الحديقة اذا كان الفصل صيفاً .

وكان في مُخدع الضيوف الموصد كرسيّ اضافي ، ولكنه فاقدٌ نصف قشه . ليس هذا فحسب ، بل لم تكن لهذا الكرسي غير قوائم ثلاث ، فليس في المستطاع استعماله الا مُسنَداً الى الجدار . وكان في غرفة الآنسة بابتيستين ايضاً كرسيّ موسّد ضخم جداً ، مصنوع من الخشب ، كان من قبلُ مذهّباً ومغطىً بحرير مزدان برسوم الزهور . ولكن لما كانوا قد اضطروا الى ان يُدخلوا هذا الكرسي ، اول مرة ، من خلال النافذة ، بسبب ضيق السلّم اكثر مما ينبغي ، فلم يكن في وسعهم ان يَعُدّوه في جملة الأثاث المنقول .

وكانت الآنسة بابتيستين ترجو دائماً ان تتمكن ذات يوم من شراء اثاث صالون موسّد بمخمل اوترخت الاصفر المزدان بالزهور ، على ان يكون خشب الماهوغاني على شكل أعناق البَجَع ، مع أريكة . ولكن ذلك كان

خليقاً به ان يكلفها خمسة فرنك على الاقل . حتى اذا وجدت انها لم توفق الى ان تقتصد لهـــذا الغرض غير اثنين واربعين فرنكاً ونصف فرنك طوال خمس سنوات ، اضطرت الى ان تتخلى عن مطمحها ذاك . ولكن من ذا الذي يوفّق دائماً الى تحقيق مثله الأعلى ؟

وليس في إمكان شيء ان يكون أيسر على التصوّر من مهجع الاسقف : نافذة ، هي في الوقت نفسه بابٌ ، تطلّ على الحديقة . وتجاه هذه النافذة كان السرير ، وهو حديدي من سرر المستشفيات تحيط به سُجفٌ خُضر من نسيج صوفي غليظ . وفي ظل السرير ، خلف احدى الستائر ، كانت ادوات الزينة لا تزال تنمّ عن العادات الانيقة التي ألفها الرجل المترف . وكان للغرفة بابان احدهما قرب المستوقَد ، ويؤدي الى المصلّى ، والآخر قرب المكتبة ، وينفتح على غرفة الطعام . وكانت المكتبة ، وهي خزانة ضخمة مزججة ، ملأى بالكتب . اما المستوقد المغطى بخشب دُهِنَ بلون الرخام فكان خلواً من النار ، في العادة . وفي المستوقد كان منتصبان حديديان مزدانان بزهريتين نقشت عليهما اكاليـــل وخطوط طُليت ذات يوم بالفضة على نحو كان في ذلك العهد ضرباً من التـــرف الاسقفي . وفوق المستوقد في الناحية التي توضع فيها المرآة عادة نهض تمثـــال المصلوب نحاسيّ زايله الطلاء الفضي ، مركّزٌ على قطعة من المخمل الاسود البالي يحيط بها إطار من خشب نصَلَ طلاؤه الذهبي . وقرب النافـــذة كانت طاولة عريضة عليها دواة ، وقد أثقلت بالاوراق المبعثرة والمجلدات الضخام . وتجـــاه الطاولة كان الكرسي القشّي ذو الذراعين . وتجاه السرير كان كرسيُّ تعبّـــدٍ مستعارٌ من المصلّى .

وكانت لوحتان في اطارين بيضيّي الشكل تتدليان على الجدار عنـد جانبي السرير . وكانت بعض الخطوط الصغيرة المذّهبة المرقومة على خلفية القماش الحرة الى جانب الصورتين تشير الى ان احدى اللوحتين تمثّـــل الراهب دو شاليو ، اسقف سان كلود ، على حين تمثل الاخرى الراهب تورتو ، نائب « آجـــد » الاسقفي العام ، ورئيس دير « غران شان » ، للرهبانية السيتووية ، في ابرشيـة

شارتر . وإنما وجد الاسقف هاتين الصورتين حين خلَف مرضى المستشفى في هذه الغرفة ، فتركهما حيث هما . كانا كاهنين ، ولعلهما ان يكونا ممن جادوا على المستشفى بالهبات – وهما سببان يحملانه على احترامهما . وكل ما عرفه عن هاتين الشخصيتين ان الملك عيّنهما – الاول في اسقفيته ، والثاني في منصبه الديني ذي العائدات – في يوم واحد ، هو اليوم السابع والعشرون من نيسان سنة ١٧٨٥ . ذلك ان السيدة ماغلوار نزعت الصورتين ، ذات يوم ، لكي تنفض الغبار ، فاذا بالاسقف يجد هذه الواقعة مدوّنة بحبر ناصل اللون على قصاصة من الورق صغيرة مربعة أحالت الايام لونها الى الصفرة ، وقد أُلصِقتْ بأربع برشامات خلف الصورة التي تمثل رئيس دير « غران شان » .

وكانت على نافذته ستارةٌ عتيقة من قماش صوفيّ غليظ انتهت الى ان تصبح باليةً الى درجة اضطرت السيدة ماغلوار ، لكي تجتنب شراء ستارة جديدة ، الى ان ترقعها رقعةً ضخمة في وسطها تماماً . وكانت هذه الرقعة على شكل صليب ، وكان الاسقف كثيراً ما يلفت النظر اليها ويقول : « ما احسن الاثر الذي يتركه هذا في النفس ! »

وكانت جميع غرف المنزل ، في الطابق الارضي والدور الثاني ، من غير ما استثناء ، مبيّضةً بماء الكلس ، وفقاً للعُرف الشائع في الثكنات والمستشفيات .

بيد ان السيدة ماغلوار وجدت في السنوات الاخيرة ، تحت ورق الجدار ، كما سنرى بعد ، رسوماً زينت غرفة الآنسة بابتيستين . ذلك بان هذا المنزل كان قبل ان يُتخذ مستشفى ، ديواناً يجتمع فيه المواطنون البورجوازيون ، ومن هنا هذه الرسوم . وكانت ارض الغرف مرصوفة بآجرّ احمر يُنظف كل اسبوع ، وقد نُشرت جدائل القشّ امام الفُرُش . والحق ان هذا المنزل ، وقد تولت امره سيدتان ، كان ينعم بنظافة ممتازة من اعلاه الى اسفله . وكان ذلك هو الترف الوحيد الذي سمح به الاسقف ، قائلاً : « ان هذا لا يسلب الفقراء شيئاً . »

ومع ذلك فينبغي ان نعترف بأنه ظل يحتفظ بما كان يملكه من قبل بستة

اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألقت فوق غطاء المائدة الكتاني الابيض الخشن . واذ كنا نصوّر ههنا اسقف د . . . كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة : « من العسير عليّ ان أقلع عن تناول الطعام بآنية الفضة . »

وينبغي أن يُضاف الى هذه الآنية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اخت لجدّه . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكانا ينهضان عادة فوق مستوقد الأسقف . فاذا اتفق أن تناول طعام الغداء مع الاسقف ضيفٌ ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة .

وكانت في غرفة الاسقف ، عند رأس سريره ، خزانة جدارية صغيرة تعوّدت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكنْ يتعيّن علينا ان نقول ان المفتاح لم يُنزع من تلك الخزانة قط .

أما الحديقة التي أفسدتها بعضَ الشيء تلك المنشآت القبيحة التي تحدثنا عنها من قبل ، فكانت تتألف من اربعة مماشٍ متصالبة عند بالوعة تتوسط الحديقة . وكان ثمة ممشىً آخر يمتدّ حول الحديقة في محاذاة الجدار الابيض الذي يطوقها . وكانت هذه المماشي تترك في ما بينها اربعة مربّعات يحدّها شجر البقس . * وفي ثلاثة من هـــذه المربعات زرعت السيدة ماغلوار شيئاً من الخضر . وفي رابعها زرع الاسقف بعض الازهار . وكانت تقوم هنا وهناك بضع أشجار مثمرة .

وذات يوم قالت له السيدة ماغلوار في ضرب من اللوم الرفيق : « مونسنيور ، أنت تحرص دائماً على ان تفيد من كل شيء ، ومع ذلك فههنا رقعة من الارض قد أُهملت فليس فيها غَناء . ولقد كان من الخير لنا لو جعلنا فيها سَلَطةً بدل باقات الزهور . » فأجابها الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار : انت مخطئة . ليس الجميل اقلَّ غَناءً من المفيد . » وسكتت لحظةً ثم أضاف : « بل لعله اكثر منه غَناءً . »

وكان هذا المربّع ، المؤلف من ثلاث مساكب او أربع ، يَشْغَل الاسقفَ

* البقس : شجر كالآس ورقاً وحبّاً .

بقدر ما تشغله كتبُهُ تقريباً . كان من دأبه ان يقضي نصفَ ساعة او ساعتين ، مقلّماً الاغصان ، مستأصلاً الاعشاب ، حافراً ههنا وهناك ثقوباً يغرس فيها البذور . إنه لم يكن معادياً للحشرات عداء البستانيّ لها . وما كان ليدعي شيئاً من المعرفة في علم النبات ، جاهلاً الفصائل واسباب الامراض . كان لا يبالي اقلّ ما تكون المبالاة بأن يفاضل بين تورنفور * والطريقة الطبيعية . ولم يكن يتعصّب للحويصلات على الفلَقات ، ولا لـ « جوسيو » ** على « لينّي » *** إنه لم يدرس النباتات ؛ ولكنه احبّ الازهار . كان عظيم الاحترام للعلماء ، ولكنّ احترامه للجهلة كان اعظم . ومن غير ان يُعوزه هذان الاحترامان كان يسقي مساكبه كلّ ليلة من ليالي الصيف برشّة صفيحية دُهنت بلون أخضر .

ولم يكن لايما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المنفتح ، كما أسلفنا ، على اراضي الكاتدرائية كان من قبلُ مثقلاً بالمغالق والمزالج مثل ابواب السجون . فأصدر الاسقف أمره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يُقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء ، الا بسقّاطة . وكان في ميسور عابر السبيل ، في ايما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحه بمجرد دفعه دفعاً رفيقاً . وفي بادىء الامر عصف القلق بالامرأتين بسبب من هذا الباب الذي لا يُقفل ابداً. ولكن اسقف د... قال لهما : « ضعا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنهما انتهتا الى ان تشاركاه ثقته ، آخر الامر ، او الى ان تسلكا وكأنهما تشاركانه هذه الثقة ، على الاقل . بيد ان السيدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات ذعر طارئة . اما فيما يتصل بالاسقف ، ففي ميسورنا

---

* Tournefort نباتيّ ورحالة فرنسي (١٦٥٦ — ١٧٠٨) كان له فضل كبير في تصنيف المملكة النباتية .

** انطوان لوران جوسيو Jussieu نباتي فرنسي شهير ولد في ليون ومات في باريس (١٧٤٨ — ١٨٣٦) وكان صاحب نظام طبيعي في تصنيف النباتات ادى الى إلغاء طريقة العالم ليني .

*** شارل دو ليني Linné نباتي سويديّ شهير (١٧٠٧ — ١٧٧٨) صنّف النباتات اربعة وعشرين صنفاً على اساس الصفات المنتزعة من عدد الانسجة وانتظامها .

ان نجد فكرته مشروحة ، او مشاراً اليها على الاقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظلُّ المعنى : إن باب الطبيب يجب ان لا يُغلق ابــداً . وإن باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحاً ابداً . »

وفي كتاب آخر موسوم بـ **«فلسفة العلم الطبي»** دوَّنَ هذه الملاحظـــة أيضاً : « ألستُ طبيباً مثلهم ؟ إن عندي ، انا ايضـــاً ، مرضاي . عندي أولاً رضاهم الذين يدعونهم معتلّي الاجسام ، وعنـــدي بعد ذلك مرضاي الذين أدعوهم المساكين . »

وكتب أيضاً في موضع آخر : « لا تَسَلْ ذلك الذي يلتمس منك فراشاً يأوي اليه عن اسمه ما هو . لان الرجل الذي يُثقله اسمُهُ ويضايقه هو أشد الناس حاجة الى المأوى . »

ولقد خطر لكاهن جليل لستُ أدري بعدُ أكان كاهن كولوبرو أم كاهن بومبيري ان يسأله ذات يوم ، ولعله فعل هذا بتحريض من السيدة ماغلوار ، ألا يظن سيادته ان ثمة شيئاً من الخطل في ترك بابه ، ليلاً ونهاراً ، تحت رحمة ايما راغب في الدخول ؟ ألا يخاف آخر الامر ان تحلّ مصيبة ما بمثل هذا البيت الذي لا يتمتع بأقلّ الحراسة ؟ فوضع الاسقف يده على كتفه ، في رفق وقال :

« *Nisi Dominus custodierit domum , in vanum vigilant qui custodiunt eam* . » *

ثم انتقل الى الكلام في موضوع آخر .

وكثيراً ما كان يقول : « للكاهن شجاعته ، كما أن لقائد سلاح الفرسان شجاعته . » ثم يضيف : « ولكن شجاعتنا ينبغي أن تكون هادئة . »

٧
كرافات

هذا هو المكان الملائم لذكر حادثة ينبغي ان لا نُغفلها ، لأنها احدى تلك

* قول لاتيني معناه : « اذا لم يصن الاله بيتاً من البيوت عبثاً يحرسه حرّاسه » .

الحوادث التي ترينا باكثر ما يكون من الوضوح أيّ رجلٍ كان اسقف د . . .

بعدان قضي على عصابة غاسبار بيس التي عاثت فساداً في مخارم اوليفول ،فزع احد قادتها ، واسمه كراڤات ، الى الجبال . لقد توارى عن العيـــان فترة من الزمن ، مع قطاع طرقه وهم فلول قوات غاسبــــار بيس ، في ولاية نيس ، ثم اتخذ سبيله الى بييدمونت ليعاود الظهور في فرنسة ، قرب اقليم بارسولونيت . لقد رُئي اول الامر في جوزييه ، ثم في توريل . لقد اختبـــأ في كهوف جوغ دوليغل ، ومن هناك كان يهبط الى الدساكر والقرى عـــبر واديي « اوباي » و « اوبايت » . بل لقد تجرأ على ان يندفع حتى ايمبرون ؛ واقتحم ذات ليـلة الكاتدرائية وسلب مخزن الامتعة المقدسة . وخربت غاراته تلك الديار ودعت سكانها الى هجرها . وجُرّدت عليه سرايا الدرك ، ولكن عبثاً . كان يفرّ دائماً ، وفي بعض الاحيان إثر مقاومة عنيفة . كان بائساً جريء الفؤاد . وفي غمرة من هذا الهول كله وصل الاسقف . كان يقوم بجولته الرعائية . وفي شاستيلار أقبل العمدة للقائه وحضّه على العودة . فقد كان كراڤات يبسط سلطانه على الجبال حتى آرش وما وراءها . وثمة خطر على الاسقف حتى ولو كان محوطاً بحرس . وقد يعرّض ذلك حياةَ ثلاثةٍ او اربعة من رجال الدرك المساكين للهلاك ، على غير طائل .

فقال الاسقف : « وهكذا فأنا اعتزم ان امضي من غير حرس . »

فصاح العمدة : « اتفكر بشيء مثل هذا ، يا صاحب السيادة ؟ »

— « اني افكر في ذلك الى حد يحملني على ان ارفض حراسة الدرك رفضاً باتاً ، وعلى ان انطلق بعد ساعة . »

— « تنطلق ؟ »

— « اجل ، أنطلق . »

— « وحدك ؟ »

— « وحدي . »

« مونسنيور ، انك لن تقدم على ذلك . »

فأجاب الاسقف : « إن هناك في الجبل جماعةً صغيرة حقيرةً لم أرها منـــذ ثلاث سنوات . إن افرادها من اصدقائي الخلّص ، وهم فلاحون أمناء ذوو وداعة . إنهم يملكون شاةً واحدة من ثلاثين يرعونها . وهم يصنعون خيوطـــاً صوفية جميلة ذات الوان متعددة ، ويعزفون الحانهم الجبلية على مزامير صغيرة في كل مزمار منها ستة ثقوب . وهم في حاجة الى من يحدّثهم ، بين الفينة والفينة ، عن رحمة الله . وما الذي سوف يقولونه في اسقف يُـــلمّ به الخوف ؟ ما الذي سوف يقولونه اذا لم أفِدْ عليهم ؟ »

— « وقطاعُ الطرق ، يا صاحب السيادة ؟ واذا التقيتَ بقطاع الطرق ؟ »

فقال الاسقف : « صحيح . أنا لم أفكر في هذا . انت على صواب . قـــد ألتقي بهم . لا ريب أنهم هم ايضاً في حاجة الى من يحدّثهم عن رحمة الله . »

— « مونسينيور ، ولكنها عصابة ! إنها قطيع من الذئاب ! »

— « لعل يسوع قد جعلني راعيَ ذلك القطيع بالذات ، يا سيدي العمـدة . من ذا الذي يعرف اساليب العناية الالـهية ؟ »

— « ولكنهم سوف يسرقونك ، يا صاحب السيادة . »

— « ليس معي شيء . »

— « اذن ، فسوف يقتلونك . »

— « يقتلون كاهناً عجوزاً بسيطاً يمضي لسبيله متمتماً بصلواته ؟ لا ، لا ، اي نفع يكسبونه من ذلك ؟ »

— « آه ، يا الـهي ! إفرضْ انك التقيت بهم ! »

— « عندئذ اسألهم صدقةً لفقرائي . »

— « مونسينيور ، لا تذهبْ ، بحقّ السماء ! إنك تعرّض حياتك للخطر . »

فقال الاسقف : « وهو كذلك ، يا سيدي العمدة . أنا لم أوجد في هذا العالم لكي اصون حياتي ، ولكن لكي أصون نفوس الناس . »

ولم يكن في ميسور العمدة ان يثنيه عما اعتزم . فانطلق وليس يصحبه غير غلام تطوّع ان يكون له دليلاً . كان عناده حديث المقاطعة ، ولقد خشي القوم

كلهم عواقبه .

ولم يشأ ان يصطحب لا اخته ولا السيدة ماغلوار . واجتاز الجبل على متن بغل ، ولم يلتقِ انساناً ما ، وانتهى آمناً سالماً الى « اصدقائه الخلّص » الرعاة . واقام هناك خمسة عشر يوماً ، واعظاً ، مانحاً الاسرار الدينية ، معلّماً ، منذراً . حتى اذا أوشك على مفارقتهم اعتزم ان ينشد « تسبحة الشكر » على نحو احتفاليّ . وتحدث الى الكاهن في ذلك . ولكن كيف السبيل الى إنفاذه ؟ لم يكن ثمة ُحلَل" أسقفية . ولم يكن في مستطاعهم ان يقدموا اليه غير مخزن حقير من مخازن الامتعة المقدسة القروية ، وبضع حلل كهنوتية عتيقة من دمقس مهترىء مزدانة بأشرطة حريرية زائفة .

وقال الاسقف : « لا بأس . ايها الكاهن المحترم ، اعلن في الموعظة اننا سوف نؤدي تسبحة الشكر . ولا بدّ ان يسوّي الامر ُنفسَه ُ بنفسه . »

وبحثوا في الكنائس المجاورة ، ولكنّ كل الامتعة المترفة التي ُجمعت من هذه الابرشيات المتواضعة على اختلافها لم تكن كافية لالباس منشد كاتدرائي واحد على نحو ملائم .

وفيما هم في غمرة من هذا الحرَج حمل فارسان مجهولان صندوقاً ضخماً الى دار الكاهن وتركاه هناك من اجل الاسقف ، ثم غادرا الدار في الحال . وُفتح الصندوق ، فاذا فيه غفّارة * من جوخ مذهب ، وتاج اسقفي مزدان بالماس ، وصليب من الصلبان التي يحملها رؤساء الاساقفة ، وعصا اسقفية فخمة ، وجميع الملابس الاحتفالية التي ُسرقت منذ شهر من كاندرائية ايبرون . وكان في الصندوق ورقة ُكتبت عليها هذه الكلمات : « **من كرافات الى مونسينيور بيينفينو** » .

وقال الاسقف : « لقد قلت ان الامر سوف يسوّي نفسه ُ بنفسه . » ثم اضاف في ابتسامة : « إن من يقنع بقميص الكاهن الخارجي يرسل الله اليه غفّارة رئيس اساقفة . »

---

* الغفارة رداء يلبسه احبار الكنيسة في الكنيسة .

وغمغم الكاهن وهو يهز رأسه ويبتسم : « مونسينيور ، الله ..... أو الشيطان . »

ونظر الاسقف الى الكاهن نظراً موصولاً ، وقال في قوة : « الله ! »

حتى اذا انقلب الى شاستيلر احتشد الناس على طول الطريق بحدوهم الفضول الى رؤيته . وفي دار الكاهن هناك ، وجد الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار تنتظرانه ، فقال لأخته :

«واخيراً،ألم اكن على صواب؟لقد قصد الكاهن الفقيرصفرَ اليدين الى هؤلاء الجبليين الفقراء ، ثم رجع مليء اليدين . لقد مضيتُ متكلًا على الله وحده ، وها قد عدت حاملًا كنوز كاتدرائية بكاملها . »

وفي المساء اضاف ، قبل ان يؤوي الى فراشه : « لا يأخذنكم الخوف من اللصوص والقُتّاك ابداً . مثل هذه المخاطر خارجية ، وهي اصغر المخاطر واضألها شأناً . يجب ان نخشى انفسنا . إن الضغائن هي هي اللصوص ، وإن الرذائل هي هي القُتّاك . ان الاخطار العظمى كامنة في داخلنا . واي بأس في ان تتعرضّ رؤوسنا او اكياس نقودنا للخطر ؟ ينبغي ان لا نفكر الا بما يتهدد نفوسنا . »

ثم التفت الى اخته وقال : « ايتها الاخت ، يتعيّن على الكاهن أن لا يتخذ أيما وقاية ضد جاره . إن ما يفعله جاره يسمح به الله . فلنقتصر على الصلاة لله حين نرى الى الخطر يتهدّدنا . فلنتضرع اليه ، لا من اجل ذواتنا ، بل لكي لا يتورّط أخ لنا في الاثم ، بسبب منا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الاحداث نادرةً في حياته ، وانما نقصّ ههنا ما نعرفه منها . ولكنه كان ينفق حياته ، عادةً ، بأن يفعل الاشياء في اللحظات نفسها . كان الشهر من سَنَته يشبه الساعة من يومه .

أما ما حلّ بـ « كنوز » كاتدرائية ايمبرون فذلك ما يُربكنا أن نُسأل عنه الآن . كانت بينها اشياء كثيرة فاتنة جداً ، مغرية جداً ، صالحة جداً لان تُسرَق لمصلحة المساكين . لقد سبق لآخرين ان سرقوها من قبل . ولقد تم

نصف المغامرة ؛ فلم يبقَ الا أن تُغيّر وجهة السرقة ، وأن تحوّل الى ناحية الفقراء . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً اكثر في هذا الموضوع . كل ما نستطيع ان ننصّ عليه أنه وجدت بين اوراق الاسقف مذكرة شديدة الغموض لعلّها تتصل بهذه المسألة ، وهي تقول : « **إن السؤال هو هذا : أينبغي ان تُعاد هذه الى الكاتدرائية أم الى المستشفى ؟** »

٨

فلسفة ما بعد الغداء

كان عضو مجلس الشيوخ الذي اشرنا اليه من قبل رجلاً ذكياً شقّ طريقه في الحياة في استواء هدف لم يبالِ البتة بجميع تلك العقبات التي تعترض سبيل الناس ، والتي ندعوها الضمير ، والوفاء المعزّز بقَسَم ، والعدل ، والواجب . لقد اندفع نحو هدفه اندفاعاً مستقيماً من غير ان يحيد ذات مرة عن جادة تقدّمه ومصلحته . كان في ما مضى وكيلاً قضائياً ، ألانه النجاح ، ولم يكن رجلاً رديئاً بحال . وكان يقدّم جميع الخدمات الصغيرة التي قدرَ عليها الى ابنائه ، وأصهاره ، وانسبائه على وجه العموم ، وحتى الى اصدقائه ، متخيّراً في حكمة جانبَ الحياة البهيج ، مفيداً من جميع فُرَصها المتاحة الطيبة . أما ما عدا ذلك فكان يبدو في عينيه عملاً ممعناً في الحمق . كان مرحاً طروباً ، وكان على قدر من العلم كافٍ لان يجعله يحسب نفسه تلميذاً من تلاميذ أبيقور ، في حين أنه لم يكن — في ما يبدو — اكثر من ثمرة من ثمرات بيغو لوبران * . كان يضحك في عفوية واستمتاع من أشياء خطيرة وأزلية ، ومن « الكلام الباطل الذي ينطق به الاسقف الطيّب . » وكان يضحك منها أحياناً ، وعلى وجهه سيما الرجل

* Pigault — Lebrun كاتب فرنسي (١٧٥٣ — ١٨٣٥) وضع عدّة روايات داعرة خليعة المذار .

المتنازل ، في حضرة الاسقف نفسه الذي كان يُصغي .

ولست ادري في ايّ من الحفلات نصف الرسمية تناول الكونت ... (وهو عضو مجلس الشيوخ هذا) وصاحب السيادة ميرييل طعام الغداء في منزل المحافظ. وحين قُدّمت الفاكهة صاح الشيخ وقد استخفّه الثمل بعض الشيء ، وإنْ لم تفارقه سيما الوقار :

— « بربّك يا سيدي الاسقف ، دعنا نتحدث . إن من العسير ان يلتقي اسقف وعضو في مجلس الشيوخ من غير ان يتغامزا . نحن عرّافان . وان عندي اعترافاً أريد أن أدلي به اليك ؛ إنّ لي فلسفتي الخاصة . »

فأجابه الاسقف : « أنت على صواب . كما يصنع المرء فلسفته ، كذلك يرقد . انت ترقد على فراش ارجواني ، يا سيدي الشيخ . »

ووجد الشيخ في ذلك ما شجعه ، فأضاف :

— « لنكن ولدَين صالحين . »

فقال الاسقف : « بل عفريتين صالحين ايضاً . »

فتابع عضو مجلس الشيوخ : « اؤكد لك ان المركيز دارجان * ، وبيرّون ، ** وهوبس ، *** والسيد نيجون **** ليسوا اوغاداً . إن جميع فلاسفتي مذهّبو الحوافي في خزانة كتبي . »

فقاطعه الاسقف : « مثلك انت ، يا سيدي الكونت . »

وتابع عضو مجلس الشيوخ قائلاً :

— « انا اكره ديدرو . إنه ايديولوجي ، غوغائي ، ثوريّ ، مؤمن في قرارة

---

* Marquis d'Argens اديب فرنسي (١٧٠٤ — ١٧٧١) وضع آثاراً عديدة يرشح بعضها بالشك في الله .

** Pyrrhon اول الشكوكيين الاغريق الكبار في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان ينكر ان يكون بلوغ الحقيقة في ميسور الانسان .

*** Hobbes فيلسوف انكليزي (١٥٨٨ — ١٦٧٩) ، وكان ينادي — في حقل الفلسفة — بالمادية ، وفي حقل الاخلاق بغلبة المصلحة الانانية ، وفي حقل السياسة بالطغيان .

**** Naigeon اديب فرنسي (١٧٣٨ — ١٨١٠) عُرف بتفكيره الماديّ الالحاديّ .

نفسه بالله ، وأشدّ تعصباً من ڤولتير . لقد سخر فولتير من نيدهـام * ولم يكن في هذا مصيباً . ذلك بأن أنقليسات ** نيدهام تثبت ان الله غير ذي غناء . إن نقطة من الخل في ملعقة من العجين قد سدّت مسدّ الـ *fiat lux* ***. ولنفرض ان النقطة كانت اكبر وان الملعقة كانت أضخم ، وعندئذ يتمّ لنا هذا الكون . إن الانسان هو الانقليس . واذن فأيّ فائدة للأب الازليّ ، بعد ذلك ؟ ان فرضية يَهوَه**** تتعبني، يا سيدي الاسقف. انها لا تصلح لشيء غير انتاج اناس مهزولي الاجسام فارغي الرؤوس . فليسقط هذا « الكليّ » الكبـير الذي يزعجني ويقضّ مضجعي ! وليحيَ « الصفر » الذي يورثني الراحة والطمأنينة ! وبيني وبينك ، ولكي أفضي بسريرة نفسي ، وأعترف لكاهني ، كما ينبغي لي ، فسوف اقرّ بأن عندي حصافة . انا لست مجنوناً بيسوعك الذي يبشّر عند كل حقل بالتنسّك والتضحية . تلـك نصيحة البخيل للشحاذين . التنسّك ! لماذا ؟ التضحية ! من اجل ماذا ؟ انا لا ارى غير ذئب يضحي بنفسه من اجل سعادة ذئب آخر . فلنلازم الطبيعة اذن . نحن في القمة ، ولتكن لنا فلسفة اسمى . وماذا يفيدنا تربّعنا في القمة اذا لم نستطع ان نرى الى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش في مرح وابتهاج ؛ فالحياة هي كل ما نملك . أما القول بأن للانسان حياة ثانية ، في مكان آخر ، فوق ، تحت ، في أيما مكان – فزعمٌ لا اصدق كلمة واحدة منه . آه ، انهم يوصونني بالتضحية ، والتنسّك، وبأن الزم الحذر في كل ما اعمله ، وبأن احطّم رأسي في التفكير بالخير والشر، والعدل والظلم، وبالحلال والحرام. لماذا؟ لأن عليّ ان اقدم حساباً عن أعمالي . متى ؟ بعد الموت . أيّ حلمٍ جميل ! انني

* Needham طبيب انكليزي ولد في لندن وتوفي في بروكسل (١٧١٣ – ١٧٨١) وقد دارت بينه وبين فولتير مساجلات عنيفة .

** الانقليس او الحنكليس : ضرب من السمك معروف.

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نور ! ». وفي ذلك اشارة الى ما جاء في سفر التكوين : « وقال الله ليكن نور فكان نور . » وقد انتهى هذا الاصطلاح الى ان يفيد معنى الخلـق او الابداع من عدم .

**** اسم الله في العهد القديم (التوراة) .

بعد ان اموت لفي حاجة الى اصابع ناعمة لكي تلتقطني . وكم اتمنى لو ارى يداً من الظلّ تلتقط حفنة من الرماد . لنقل الحقيقة ، نحن الذين اطّلعنا على الاسرار ورفعنا تنورة ايزيس : ليس ثمة خير ولا شرّ. ليس ثمة غير وجود جسدي فحسب ، فلنلتمس الحقيقة . فلننبشْ كل شيء . فلنذهب الى الاعماق . ينبغي ان نستروح الحقيقة ، ان نحفر الارض التماساً لها ، ونضع يدنا عليها . وعندئذ تمنحنا الحقيقة مباهج عذاباً ، وعندئذ نغدو اقوياء . انا مقتنع ، أوطد الاقتناع ، يا سيدي الاسقف ، بأن خلود الانسان سراب . أوه ، يا للوعد الفاتن ! توكل عليه اذا شئت ! تلك رسالة التوصية التي كانت لآدم ! إن لنا ارواحاً ، واننا سوف نصبح ملائكة ، وان اجنحة زرقاء سوف تنمو عند اكتافنا . قل لي ، الآن ، أليس ترتوليان * هو الذي يقول ان السعداء الطوباويين سوف يذهبون من كوكب الى آخر ؟ حسناً ، واذن فسوف نصبح جراد السماوات . وعندئذ سنرى الله . هيء ، هيء ، هيء ! سخيفةٌ هذه الجنات كلها . وليس الله غير اسطورة هائلة . انا لن اقول ذلك في صحيفة ال « مونيتور » طبعاً ، ولكني اهمس به بين اصدقائي . *Inter pocula* ** ولأن يضحي المرء بالارض من اجل الجنة اشبهُ شيء بالتخلي عن الفريسة للتعلق بالظلّ . انا لست مغفلاً بحيث تخدعني اللانهاية . انا لا شيء . انا أدعو نفسي الكونت لا شيء ، عضو مجلس الشيوخ هل وُجدتُ قبل ولادتي ؟ لا . هل سأوجد بعد موتي ؟ لا . اي شيء انا ؟ قليل من الغبار ركّمَهُ جسم عضريّ . ما الذي ينبغي لي ان افعله على سطح هذه الارض؟ انا مخيّر بين واحد من اثنين : ان أكابد أو ان استمتع . الى اين تقودني المكابدة ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد كابدت . الى اين يقودني الاستمتاع ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد استمتعت . لقد اخترت سبيلي . يجب ان آكل أو أن أؤكل . وأنا اختار ان آكل . انا اؤثر ان اكون السنّ لا العشب . تلك هي فلسفتي . وبعدها ، كما اقول لك ، يجيء حفار القبور .. البانتيون ***

* Tertullien لاهوتي نصراني من ابناء شمال افريقية . (١٥٠ ؟ – ٢٤٠ م)

** اصطلاح لاتيني معناه : بين الاقداح أو في مجلس الخمر .

*** Pantheon الاثر الباريسي الشهير حيث يرقد نفر من عظماء الرجال الفرنسيين .

بالنسبة الينا نحـــن . ولكننا كنا نسقط في الهوة العظيمة النهـــاية ، التصفية الكامـــلة . هذه هي نقطة التلاشي . إن الموت ميت . صدّقـــني . انا اسخر مـــن الفكرة القائلة بأن ثمة كائناً مـــا عنده شيء يقوله لي . ذاك من اختراع المرضمـــات : الفزّاعة * الاطفال ، ويَهُوه الرجال . لا ؛ إن غدنا ظلام . وليس وراء القبر غير أعدام ** متساوية . لقد كنتَ ساردانابال *** او كنتَ فنسان دو بول **** — لا فرق . تلك هي الحقيقـــة . فلنعِش ، إذن ، فوق كل شيء . إستعمِل شخصيتك ما دمت مالكاً لها . في الحـــق ، اقول لـــك يا سيدي الاسقف ، إن لي فلسفتي وإن لي فلاسفتي . انا لا اسمح لنفسي بأن اقع في شرك الهذر والهراء . ولكن من الضروري ان يكون ثمـــة شيء لمن هم دوننـــا من الناس ، للحفاة ، لشاحذي السكاكين ، للبؤساء . نحن نقدم اليهم الخرافات، والاوهام ، والروح ، والخلود، والجنة، والنجوم لـــكي يبتلعوها . إنهم يمضغون ذلك . انهـــم ينشرونه على خبزهم الجاف . فمن عَدِمَ كل شيء ، لم يعدم الله الخيّر ذلك اقل ما يستطيع ان يفوز به من خـــير . انا لا اعترض على ذلك ، ولكني احتفظ بالسيد نيجون لنفسي . إن الله الخيّر لا يصلح إلا للشعب . »

وصفق الاسقف ، وصاح : « ذلك هو الرأي . هذه المادية شيء ممتاز ، شيء رائع حقاً ، فليرفضها من اراد . آه ! حين تتمّ هذه المادية لامريء ، فعندئذ لا

---

* ما يخوّف به ، وما ينصب في المزرعة تخويفاً للوحش .

** جمع عدَم .

*** ساردانابال : شخصية خرافية تزعم الاساطير القديمة انها ملك اشوري حكم من سنـــة ٨٣٦ الى سنة ٨١٧ ق . م . وكان آخر من تحـــدر من الملكة الاسطورية سميراميس . ولا يزال ساردانابال الى اليوم رمزاً للامير الفاجر المخنث .

**** St. Vincent de Paul مصـــلح فرنسي كاثوليكي (١٥٧٦ — ١٦٦٠) رفع الى مقام القديسين .

يبقى غِرّاً مخدوعاً ، ولا يسمح لنفسه ، في بلاهة بأن يُنفى مثل كاتو * او يُرجم بالحجارة مثل اسطفان **،او يُحرق حياً مثل جان دارك . إن اولئك الذين فازوا بهذه المادية الرائعة يسعدون بالشعور بأنهم غير مسؤولين ، وبالتفكير في ان باستطاعتهم ان يلتهموا كل شيء في طمأنينة : الاماكن ، والمناصب التي تُجري على اصحابها الرواتب من غير ان تقتضيهم عملاً ما ، والرتب ، والسلطان سواء اكتُسب بالاساليب الخيّرة او الاساليب الشريرة ، وضروب الانكار المُربحة ، والخيانات المفيدة ، وتسخير الضمير على نحو عَذب لذيذ ، وانهم سوف يدخلون قبورهم وقد اتمّوا واجبهم الهضميّ . ما اجمل هذا وما احبه الى النفس! انا لا اقول ذلك من اجلك ، يا سيدي الشيخ . ومع هذا ، فليس في ميسوري الا ان اهنئك . إن لكم ايها السادة الكبار ، كما تقول ، فلسفة خاصة بكم ، جُعلت لمنفعتكم الذاتيـة — فلسفة ممتازة ، رفيعة ، ليست في متناول احد غير الاغنياء ؛ فلسفة تصلح في جميع الاحوال ، وتضيف التوابل إضافة رائعة ، الى ملذات الحياة . هذه فلسفة يُغاص عليها في الاعماق البعيدة ، ولا يفوز بها إلا باحثون مخصوصون . ولكنكم امراء طيبون ، ولستم تجدون ضرراً ما في ان يكون الايمان بالله الخيّر هو فلسفة الشعب ، كما ان الاوز بالكستناء هو ديك الفقراء الرومي المطبوخ مع الكمأة ، على وجه التقريب . »

٩
الاخ كما تصوره الاخت

ولو اردنا ان نقدم صورة عن حياة اسقف د ... المنزلية ، وكيف أخضعت

* Cato زعيم وخطيب روماني (٢٣٢ – ١٤٧ق . م.) اشتهر بتزمته وبعدائه الشديد لقرطاجة ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « يجب ان تدمر قرطاجة » .

** القديس اسطفان : اول شهداء النصرانية ، وقد رُجم بالحجارة في بيت المقدس .

هاتان المرأتان الطيبتان امالهما ، وافكارهما ، بل وغرائزهمـا الذوية التي يسهل توزيعها ، لعادات الاسقف ومقاصده من غير ان يجشم نفسه مجرد الكـلام التمييز عنها ، فلن نجد خيراً من ان ننسخ رسالة كتبتهـا الآنسة باتيستين الى رفيقة صباها السيدة الفيكونتيس دو بواشيفرون . ان هذه الرسالة بين ايدينا .

د .... ، ١٦ كانون الاول سنة — ١٨

« سيدتي الطيبة . لا ينقضي يوم إلا ونتحدث عنك . لقد غدا ذلك عادة من عاداتنا ، ولكنّ لدينا الآن سبباً اضافياً . هل تصدقـين ان السيدة ماغلوار اكتشفت بعض الاكتشافات وهي تغسل السقوف والجـدران وتنفض عنها الغبار ؟ ان غرفتينا المغطاة جدرانهما بالورق العتيق المبيّض بماء الكلس ما عادتا تشوّهان قصراً مشيداً على طراز قصرك . لقـد نزعت السيدة ماغلوار ذلك الورق كله ، فاذا بها تجد أشياء خلفه . ان صالوني العاطـل عن الاثاث والذي نصطنعه لنشر الملابس المغسولة حتى تجف ، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، ويبلغ كلٌ من طوله وعرضه ثمانية عشر قدماً ، وله سقف ازدان في ما مضى بالتصاوير المذهبة ، سقفٌ ذو عوارض خشبية كالتي في منزلك . وكان ذلك مغطى بنسيج القنّب منذ ان كان منزلنا مستشفى . واخيراً ، هناك البطانة الخشبية التي ترقى الى عهد جداتنا . ولكن غرفتي الخاصة هي التي ينبغي لكِ ان تَرَيها . لقـد اكتشفت السيدة ماغلوار ، تحت عشر طبقات من الورق على الاقل ، بعض الصور التي قد لا تكون جيدة ، ولكنها مقبولة . فصورة تمثل تيليماك* على صهوة جواده ، ومينيرفا تستقبله . واخرى تمثّله في الحدائـق — لقد نسيتُ اسمهـا . وثالثة تصوّر المكان الذي آوت اليه السيدات الرومانيات ليلةً ليس غير . ايّ شيء اقوله لكِ بعدُ ؟ إن عندي رومانيات ورومانيين (هنا كلمة غير مقروءة) وحاشيتهم كلها . لقد نظفت السيدة ماغلوار ذلك كله ، ولسوف تُصلح خلال

---

* Télémaque ابن اوليس وبينيلوب . كان طفلاً حين قصد ابوه الى طروادة ، ولقد انطلق هو في ما بعد للبحث عنه تقوده مينيرفا ، الآهة الحكمة والفنون .

هذا الصيف بعض العيوب الصغيرة ، وتعيد صقل الرسوم كلها ، وعندئذ تصبح غرفتي متحفاً حقيقياً . كذلك وجدت في احدى زوايا العلّية منضدتَيْ بهو منحنيتي القوائم من الضرب الذي يُسنَد الى الحائط . ولقد اقتضانا اهل الصناعة دينارين فضيين من ذوات الستّ ليرات لاعادة تذهيبها ، ولكنّ من الخير ان نقدّم ذلك الى الفقراء . والى هذا ، فهما قبيحتان جداً ، وانا أوثر عليهما منضدةً مستديرة من خشب الماهوغاني .

« انا سعيدةٌ دائماً . إن اخي طيّب جداً . إنه يقدّم كل ما يملك الى الفقراء والمرضى . نحن جدّ متضايقين . فالجوّ قارس جداً في الشتاء ، ويتعيّن على المرء أن يُسدي خدمةً ما الى المعوزين . نحن على الاقلّ نتمتّع بالدفء والنور ، وانت تعرفين أن الدفء والنور مُتعَتان كبيرتان .

« إن لأخي عاداته الغريبة . وهو حين يتحدث يقول ان الاسقف ينبغي ان يكون هكذا . تصوّري أن باب المنزل ليس يُغلق أبداً . ان ايّا امرىء يستطيع ان يدخله ، فاذا هو في الحال ضيف اخي . إنه لا يخشى شيئاً ، حتى في الليل . وهو يقول ان هذه هي شجاعته الخاصة .

« إنه يودّ أن لا يأخذني الخوف عليه، وأن لا يستبدّ الجزع بالسيدة ماغلوار ايضاً . وهو يعرّض نفسه لضروب المخاطر جميعاً ، ويُؤْثر ان لا نبدو وكأننا نعي ذلك بمجرد وعي . ان على المرء ان يعرف كيف يفهمه .

« إنه ينطلق تحت المطر ، ويخوّض في الماء ، ويطوّف في البلاد إبانَ الشتاء . إنه لا يخشى الليل ، او الطرق الخطرة ، او اولئك الذين قد يلتقيهم .

«في العام الماضي قصد وحده الى منطقة يعيث فيها اللصوص فساداً . انه لم يشأ ان يصطحبنا . لقد ظل خمسة عشر يوماً غائباً عن البيت . حتى اذا آبَ من رحلته ، وكنا نظنه قد مات ، كان في حالٍ جيدة لم يُصبْه شيء ما . وقال : « أنظرا ، كيف سرقوني ! »وفتح صندوقاً مليئاً بجواهر كاتدرائية ايمبرون التي قدّمها اللصوص اليه .

«وفي تلك المناسبة ، لدنْ عودته ، وكنت قد ذهبتُ لاستقباله على مبعدة فرسخين اثنين مع طائفة من اصدقائه ، لم اتمالك عن ان ألومه بعض الشيء ، محاذرةً ان أتكلم إلا

حين كانت العربة تُحدث ضجة ، لكي لا يكون في ميسور أيما شخص آخر ان يسمع.

« في البدء كنت اقول لنفسي : انه لا يبالي بايما خطر . ذلك شيء فظيع . أما الآن فقد أَلِفْتُ ذلك . إني اومىء الى السيدة ماغلوار لكي لا تعارضه ، فهو يركب متن المغامرة كما يحلو له . وعندئذ أستدعي السيدة ماغلوار ، وآوي الى غرفتي ، فأصلي من أجله ، وأنام أنا مطمئنة ، لاني اعلم جيداً انه اذا ما ألمّ به اذى فعندئذ تحين منيّتي. عندئذ يتعين عليّ ان أمضي الى الرب الرحيم مع اخي واسقفي. ولقد وجدتِ السيدة ماغلوار عسراً اكثر في ان تروض نفسها على ان تألف هذا الذي تدعوه تهوّره وعدم تبصّره . اما الان فقد تعوّدنا ذلك . نحن نصلي معاً ، ونحن نُروَّع معاً . ثم نأوي الى الرقاد . ولو قد أراد الشيطان نفسه ان يفد على المنزل ، اذن لما اعترض احد سبيله . واياً ما كان ، فأي شيء يدعو الى الخوف في ذلك المنزل ؟ ان معنا دائماً من هو أشد بأساً من كل أحد . ان الشيطان قد يُلمّ بدارنا ، ولكن الرب يسكنها .

« حسبي هذا المقدار . لم يعد اخي في حاجة الى ان ينطق بكلمة واحدة . أنا أفهمه من غير ان يتكلم ، ونحن نسلم نفسينا الى العناية الالهية.

« وكذلك ينبغي ان يكون الامر مع رجل نبيل الروح الى هذا الحدّ .

« لقد سألت اخي ان يُدلي اليّ بالمعلومات التي طلبتِها عن اسرة دو فو . انت تعرفين مدى اطلاعه البعيد في هذا الميدان وغزارة ذكرياته ، اذ كان دائماً مَلكياً صميماً ، وهذه اسرة نورماندية عريقة من مقاطعة «كان» . إن ثمة خمسمئة عام من سلالة راوول دو فو ، وجان دو فو ، وتوماس دو فو ، الذين كانوا من الاشراف ، وكان احدهم سيد روشفور . اما آخرهم فكان غي ايتيين ألكسندر الذي كان قائداً عسكرياً ، وكان يحتل رتبة ما في سلاح الفرسان في بروتانيْ . ولقد تزوجت ابنته ماري لويز من آندريان شارل دو غرامون نجل الدوق لويس دو غرامون ، احد نبلاء فرنسة الكبار ، وقائد الحرس الفرنسي ، وأحد ضباط الجيش المقدّمين . واسم هذه الاسرة يرسم على وجوه مختلفات :

Faux و Fauq و Faoucq .

« عسى ان تسألي نسيبك القدُّسي ، السيد الكاردينال ، أن يصلي من اجلنا ياسيدتي العزيزة . اما غاليتك سيلفاني فقد احسنت صنعاً إذ لم تضـــع اللحظات القصار التي تقضيها الى جانبك في الكتابة اليّ . انها في خير ، كما تقولـين ، وهي تعمل وفقاً لمشيئتك ، وما تزال تحبني - ذلك كل ما أطمع فيه . لقـــد تلقيتُ التذكار الذي بعثتِ به اليّ ، من طريقك ، واني لسعيدة بذلك . ان صحتي ليست سيئة جداً ، ومع ذلك فانا ازداد هزالاً يوماً بعد يوم .

« وداعاً . لقد طفحت ورقتي ، فيتعين عليّ ان اكفّ عن الكتابة . وتقبلي الفاً من التمنيات الطيبة .

« باتيستين

« حاشية — ان السيدة زوجة أخيك هي هنا دائماً مع أسرتها الفتيّة . وان حفيد اخيك لفاتن حقاً . هل تعرفين انه سوف يبلغ الخامسة من عمره وشيكاً؟ لقد مر به ، امس ، جواد وُضعت له رُكَيبات * فصاح : « ما هذا الذي على رُكبه ؟ انه غلام لطيف جداً ، وان اخاه الصغير ليسحبُ مكنسة عتيقة في الغرفة وكأنها عربة ، ويقول : هي ! »

وهكذا نرى ، من هذه الرسالة ، ان هاتين المرأتين عرفتا كيف تتكيّفان وفق اسلوب الاسقف في الحياة ، بتلك العبقرية النسوية التي تفهم الرجل خيراً مما يستطيع الرجل ان يفهم نفسه . والواقع ان اسقف د ... كان يقوم في بعض الاحيان ، تحت هذه الانطباعة العذبة البيضاء القلب التي لم تتغير قط ، بأعمالٍ عظيمة ، جريئة ، رائعة ، من غير ان يبدو وكأنه يعي ما يفعل . كانتا ترتعدان ولكنهما لم تتدخلا . وكانت السيدة ماغلوار تحـــاول في بعض الاحيان ان تحذره قبل ان يُقدم على عمل ما ، ولكنها ما كانت لتفعل ذلك وهو يقوم به ، او بعد ان يقوم به على الاطلاق . ان احداً لم يحاول ، في يوم ، ان يزعجه بكلمة او باشارة حول عمل استهله . وفي بعض الاحوال ، حين لا يكون في حاجة الى

* الرُكَيبة كلمة وضعناها لتقابل كلمة genouillère الفرنسية وكلمة knee-cap الانكليزية وتعني غطاء الركبة .

ان يقول ذلك ، او لعله حين يكون على غير وعي له ، كانت بساطته كاملةً الى درجة تجعلها تحسان احساساً غامضاً انه يعمل كأسقف ؛ وعندئذ ما كانتا لتزيدا على كونهما مجرد ظلين في البيت . كانتا تخدمانه من غير اعتراض ، حتى اذا قضت الطاعة بالاختفاء ، اختفتا . لقد ادركتا ، برقة غريزية رائعة ، أن بعض ضروب العناية المحبة المشفقة خليقة بان تزعجه . فهما — حتى حين يبدو لهما انه في خطر — تفهمان طبيعته ، ولا اقول فكره ، الى درجة تحملهما على الكف عن رعايته والسهر عليه . كانتا تسلمان أمره الى الله .

والى هذا ، فقد قالت باتيستين ، كما رأينا ، أن موت أخيها يعني موتها . اما السيدة ماغلوار فلم تقل ذلك ، ولكنها عرفته .

١٠

الاسقف في حضرة ضياء مجهول

وقبيل تاريخ الرسالة التي أثبتناها في الصفحات السابقة قام الاسقف بعمل اعتقدت البلدة كلها انه اشد تهوراً وأحفل بالخطر من رحلته عبر الجبال التي يهيمن عليها قطاع الطرق .

ففي الريف المجاور لبلدة د ... كان رجلٌ يحيا في عزلة . وكان هذا الرجل — وانقل الكلمة الضخمة المذهلة من غير ما مقدمة — عضواً في «المؤتمر الوطني».* كان يدعى ج ...

وفي عالم د ... الصغير كان الناس يتحدثون عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا في ضرب من الرعب . عضو في « المؤتمر الوطني » ، هل تتصور ذلك ؟ إن هذا

* Convention Nationale البرلمان الثوري الذي خلف « الجمعية التشريعية » في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ وحكم فرنسة حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن أعماله أنه أعلن الجمهورية ، وأدان لويس السادس عشر . وكان يتألف باديء الامر من احزاب ثلاثة : الجيرونديين ، وحزب الجبل Montagnards وحزب السهل la Plaine .

يرقى الى ذلك العهد الذي كان الناس يتخاطبون فيه بضمير المفرد (١٥) ويقولون : « أيها المواطن ! » لقد كاد ذلك الرجل ، أن يغدو هُولةً * أو غولاً . إنه لم يصوِّت مع إعدام الملك ، ولكنه اوشك ان يفعل . كان نصف قاتلٍ من قتلة الملوك ؛ وكان فظيعاً . وإلا فكيف جاز ان لا يُدعى هذا الرجل ، لدنْ عودة الامراء الشرعيين ، الى المثول أمام محكمة عسكرية ؟ ومن يدري ؛ فلعلّ تلك المحكمة ما كانت خليقةً بأن تصدر حكمها بقطع رأسه ، ولكن حتى لو أخذ القضاة بأسباب الشفقة إذن لكانوا خليقين بأن يحكموا عليه بالنفي مدى الحياة . والواقع انها كانت جديرةً بأن تجعل منه آخر الامر امثولة لغيره ، الخ . الخ . والى هذا فقد كان زنديقاً ، شأنَ اولئك القوم جميعاً — ثرثرة إوزّ ضدّ النسر .

ولكن هل كان ج ... هذا نسراً ؟ نعم ، اذا كان للمرء ان يحيب على اساسٍ من وحشية عزلته . ذلك بأنه وقد أحجم عن التصويت لقتل الملك لم تشمله أحكام النفي ، فهو قادرٌ على البقاء في فرنسة .

كان يحيا على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من البلدة ، بعيداً عن اية دسكرة أو طريق ، في أخدود منعزل من أخاديد وادٍ موحش جداً . لقد قيل إنه كان له هناك ضربٌ من القبر ، أو قل كان له هناك جُحر أو كهف . فلا جيرانَ ، بل لا عابري سبيل . فمنذ ان اقام في هذا الوادي الضيّق غمر العشبُ الطريقَ المؤدية الى مأواه ذاك ، وطفق الناس يتحدثون عن ذلك الموضع وكأنه بيتُ جلاّد .

ومع ذلك ، وبين الفينة والفينة ، كان الاسقف يلتفت مفكّراً نحو الافق حيث كانت احدى الغياض تنتصب شاهداً على وادي البرلماني العجوز ، ويقول : « هناك تعيش نفسٌ متوحّدة . »

وفي اعماق تفكيره كان يضيف : « انا مدين له بزيارة . »

بيد انه يتعين علينا ان نعترف بان تلك الفكرة ، برغم انها بدت طبيعية أول الأمر ، ما لبثت ان تراءت له بعد لحظة من التأمل غريبةً ، متعذرة ، بل وكريهة تتقزز منها النفس أو تكاد . ذلك بأنه كان في أعماق ذاته يشارك القوم

* الهولة : العجب . يقال : وجهه هولة من الهَوَل .

انطباعاتهم عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا ، وكان الرجل العجوز يوقع في نفسه، من غير ان يدرى كيف ، تلك العاطفة التي هي تخم الكراهية ، والتي تعبّر عنها لفظة الاشمئزاز احسن تعبير .

ولكنّ الراعي ينبغي أن لا يجفوَ الخروف المريض . آه ، ولكن ايّ خروف !

واستبدّ الارتباك بالاسقف الصالح : لقد مشى أحياناً في ذلك الاتجاه ، ثم انقلب على عقبيه .

وأخيراً سرى ذات يوم ، في البلدة ، نبأ يقول بأن فتىً من الرعاة كان يخدم عضو«المؤتمرالوطني» ج... في مأواه البريّ قد وفد على المدينة التماساً لطبيب. وان الأثيم العجوز يُحتضر ، وان الشلل قد ألمّ به ، فليس في استطاعته ان يعيش حتى مطلع الفجر . واضاف بعض القوم : « شكراً لله ! »

واخذ الأسقف صولجانه ، وارتدى معطفه ، لان ثوبه الكهنوتي كان بالياً جداً ، كما سبق منا القول ، ولأن ريح المساء كانت على وشك ان تهبّ ، وانطلق .

كانت الشمس تجنح للمغيب ، وكانت قد مسّت الافق أو كادت عندما انتهى الاسقف الى البقعة اللعينة المُحرّمة . واستشعر بعض السرعة في النبض فيما هو يقترب من الجُحر . ووثب فوق حفرة ، وازال بعض الأشواك المعترضة . وشق طريقه عبر سياج من الاغصان الملتفّة ، فاذا به يجد نفسه في وسط جُنينة خربة . ثم انه تقدّم في جراءة خلال الارض الموات فاكتشف فجأةً ، خلف دغل عالٍ ، مغارة الرجل العجوز .

كانت كوخاً خفيضاً حقيراً ، كوخاً صغيراً نظيفاً قام عند واجهته عريش مُستَتِر .

وامام الباب ، وفي كرسي عتيق ذي دواليب ، جلس رجل أشيب ، وأنشأ يحدّق الى الشمس المحتضرة في نظرة باسمة .

والى جانب العجوز الجالس في كرسيه وقف غلام غضّ العود ، هو الراعي

الصغير . لقد قدّم الى العجوز وعاء من اللبن .

وفيا الاسقف ينظر ، رفع العجوز صوته :

— « شكراً . انا لن احتاج بعدُ الى شيء . »

وفارقت ابتسامتُهُ الشمس لكي تستقرّ على الغلام .

وتقدّم الاسقف الى امام . واحدثت خطواته بعض الضجة ، فتلل الرجل العجوز رأسه ، وعبّر محياه عن اعظم مقدار من الدهش يمكن لامريء ان يعرفه بعد حياة طويلة .

وقال : « هذه اول مرة يزورني فيها زائر منذ أن أقمت هنا . من انت ، يا سيدي ؟ »

فأجاب الاسقف : « انا أدعى بيينفينو ميرييل . »

— « بيينفينو ميرييل ؟ لقد سمعتُ هذا الاسم من قبل . أأنت ذلك الذي يدعوه الناس مونسينيور بيينفينو ؟ »

— « انا هو . »

واضاف الرجل العجوز بنصف ابتسامة : « إذن ، فانت أسقفي ؟ »

— « جائز . »

— « أدخل ، يا سيدي . »

وبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده الى الاسقف ، ولكنه لم يمسّها . لقد اكتفى بالقول :

— « انا سعيد بأن أجد أنهم قد خدعوني . إنك لا تبدو في عينيّ مريضاً حقاً . »

فأجاب الرجل العجوز : « سوف أشفى عما قريب . »

وتمهّل لحظة ثم قال : « سوف اموت في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات . »

وبعد ذلك اضاف :

— « انا طبيب الى حد ما . انا اعرف الخطوات التي يقترب الموت بها . أمس كانت رجلاي وحدهما باردتين . أما اليوم فقد زحف البرد الى رُكبتيّ . وها انا

أحسّ به الآن يتقدّم حتى الخصر . وحين يمسّ القلبَ ، فعندئذ أنتهي . إن الشمس جميلة ، أليس كذلك ؟ لقد كرّرتُ كرسيي هذا بنفسي لكي ألقي نظرةً أخيرة على الطبيعة . في استطاعتك ان تتحدث اليّ . إن ذلك لن يُتعبني. لقد احسنتَ صنعاً بمجيئك لترى رجلاً في النزع الاخير . فمن الجميل ان يشهد هذه اللحظات بعضُ الشهود . ان لكل منا اطواره الغريبة ؛ فأنا أودّ لو اعيش حتى يرتفع الضحى ، ولكني أعلم أن الاجل لن يمتدّ بي اكثر من ثلاث ساعات على وجه التكثير . وعندئذ سوف يهبط الظلام . ولكن ايّ بأس في ذلك ! إن الانتهاء مسألة هيّنة . والمرء لا يحتاج في هذا الى صباح . ليكن الامر كذلك . سوف أموت في ضوء النجوم . »

والتفت الرجل العجوز الى الراعي الحدث :

— « اذهب الى الفراش ايها الغلام الصغير . لقد سهرتَ الليلة البارحة . انت متعَب . »

ودخل الغلام الكوخ .

وأتبعَهُ الرجل العجوز نظرَةً واضاف وكأنه يخاطب نفسه : « فيما هو نائم ، سوف أسلم الروح . وهكذا يكون في ميسور الرقادَين ان يتجاورا مجاورة حسنة . »

ولم يغلب التأثر على الاسقف بقدر ما كان منتظراً . فهو ما كان يعتقد بأن في ميسور المرء ان يتروح عبق الله بالموت على هذه الشاكلة . والحقّ ان علينا ان نقول كل شيء ، فالتناقضات الصغيرة التي تتردّى فيها القلوب الكبيرة يجب ان يُنصّ عليها . ومن هنا يتعيّن علينا ان نذكر انه هو الذي طالما ضحك ضحكاً قلبياً من لقب « صاحب العظمة » أصيب بعض الشيء بصدمة حين لم يُدعَ مونسينيور او صاحب السيادة، وكان على وشك ان يُغرى بالردّ فيخاطب ذلك الرجل العجوز بقوله : « ايها المواطن ! » لقد استشعر رغبة في اصطناع تلك الدالة الفظة الشكسة المألوفة عند الاطباء والكهنة ، والتي لم يتعودها هو. فقد سبق لهذا الرجل ، على اية حال — هذا العضو القديم في « المؤتمر الوطني » ، هذا

النائب عن الشعب ـ أن كان قوة على هـذه الارض . ولعلها اول مرة استشعر الاسقف فيها نزعة الى ان يكون قاسياً .

ومع ذلك فقد عامله عضو « المؤتمر الوطني » في احترام ومودة محتشمة ربما كان في ميسور المرء ان يلمح فيهما تلك الوداعة التي تليق بمن كان على مثل هذا القرب من توسد التراب .

اما الأسقف فلم يستطع ـ برغم احترامه على العموم من سلطان الفضول الذي كان في اعتقاده محاذياً للعدوان ـ ان يجتنب مراقبة عضو « المؤتمر الوطني » في انتباه كان ضميره خليقاً بأن يؤنبه عليه ـ بوصفه غـــير منبثق عن العطف والمشاركة الوجدانية ـ لو تكشف عن مثله نحو ايما رجل آخر . بيد انه كان ينظر الى عضو في « المؤتمر الوطني » نظرته الى خارج على القانون ، حتى عـــلى قانون المحبة .

كان ج ... برباطة جأشه ، وجلسته التي توشك ان تكون منتصبة ، وصوته المتهدج ، واحداً من اولئك المعمّرين ذوي الوجوه النبيلة ، البالغين سن الثمانين ، والمثيرين دهش علماء الفيزيولوجيا . والواقع ان الثورة قد أنجبت كثيراً من هؤلاء الرجال المتكافئين وتلك الحقبة . إن المرء ليحسّ ههنا انه امام رجل تمرس بالتجاوب . لقد احتفظ بمظاهر الصحة كلها ، رغم انـه أمسى من الموت قاب قوسين أو ادنى . ولقد بدت نظراته المشرقة ، ولهجته الحـــازمة ، وحركات كتفيه القوية وكأنها تكاد تبلبل الموت وتحيره . والحق ان عزرائيل ، ملاك الموت عند المسلمين ، كان خليقاً بأن ينكص على عقبيه ظانّاً أنه قد أخطأ الباب. لقد بدا ج ... وكأنما يموت لانه اراد ان يموت . كان ثمة حرية في نزعه الاخير . كانت ساقاه وحدهما مشلولتين . لقد تشبثت به الظلمات من هناك. كانت قدماه ميتتين باردتين ، ولكن رأسه عاش بقوة الحياة بكاملها ، وبدا مشرقاً يحف بـه النور . لقد بدا ج ... في تلك اللحظة المهيبة اشبه شيء بذلك الملك الذي زعمت الحكاية الشرقية ان نصفه الاعلى كان من لحم ، ونصفه الادنى كان من رخام .

وكان ثمة حجر ، فجلس عليه الاسقف . وكان استهلال الخطاب فجائياً ومن

غير ما مقدمة .

قال الاسقف في جرس مؤنب : « إني اهنئك . انت على الاقل لم توافق على إعدام الملك . »

ولم يَبْدُ ان عضو « المؤتمر الوطني » قد لاحظ التوكيد المرير الكامن في كلمتي « على الاقل » . فأجاب ، وقد فارق الابتسام كله وجهه :

– « لا تهنئني اكثر مما ينبغي ، يا سيدي . لقد أعطيت صوتي لتحطيم الطاغية . »

كانت هي لهجة الصرامة تواجه لهجة القسوة .

وسأله الاسقف : « ماذا تعني ؟ »

– « اريد ان اقول ان للانسان طاغية ، هو الجهل . لقد اعطيت صوتي للقضاء على هذا الطاغية . لقد ولّد هذا الطاغية الملكية ، وهي السلطة المنبثقة من الزيف في حين ان العلم هو السلطة المنبثقة من الحقيقة . ينبغي ان لا يُحكم إلا بسلطان العلم . »

– « والضمير . » كذلك اضاف الاسقف .

– « لا فرق . إن الضمير هو العلم الفطري الذي في ذات نفوسنا . »

وأصغى مونسنيور بيينفينو ، دهشاً بعض الشيء ، لهذه اللغة التي لم يسمع مثلها من قبل .

وتابع عضو « المؤتمر الوطني » كلامه :

– « في ما يتعلق بلويس السادس عشر : لقد قلتُ لا . انا لا اعتقد ان لي الحق في ان اقتل إنساناً ؛ ولكني اشعر ان من الواجب عليّ ان استأصل الشرّ . لقد أعطيت صوتي لأسقاط الطاغية . يعني لانقاذ المرأة من البغاء ، والرجل من العبودية ، والطفل من الجهل . لقد اعطيت صوتي لهذا ، حين أعطيته للجمهورية . لقد صوّتُ للمساواة ، للوفاق ، للنور . لقد ساعدت على إسقاط الاحقاد والاخطاء . إن انهيار الاخطاء والاحقاد يبعث النور . لقد قوّضنا دعائم العالم القديم ؛ حتى اذا انقلب ذلك العالم ، وهو إناءٌ من الشقاء ، على الجنس البشري ،

غدا قارورة من الابتهاج . »

فقال الاسقف : « إنه ابتهاج مشوب ، غير صاف . »

- « في استطاعتك ان تقول : ابتهاج كدر . والان ، بعد عودة الماضي المشؤومة التي ندعوها ١٨١٤ * ولى الابتهاج . وا أسفاه ! انا اقر بان العمل كان منقوصاً . لقد هدمنا النظام القديم في الاعمال ، ولكنا لم نستطع ان نقضي عليه قضاء كاملاً في الافكار . إن تحطيم الفساد وحده لا يكفي ؛ يتعين علينا ان نغير العادات . لقد ذهبت الطاحونة الهوائية ، ولكن الريح ما تزال هناك . »

— « لقد هدمتم . إن الهدم قد يكون مفيداً ، ولكني لا أثق بهدم يمازجه الغضب . »

— « إن للعدالة غضبها ، يا سيدي الاسقف . وغضب العدالة عامل من عوامل التقدم . وعلى الرغم من جميع المزاعم فان الثورة الفرنسية هي اعظم خطوة خطاها الجنس البشري ، في ميدان التقدم ، منذ مجيء المسيح . قد تكون غير كاملة ، ولكنها سامية رفيعة الذرى . لقد حلّت جميع روابط المجتمع السرّية . لقد رقّقت جميع القلوب . لقد سكّنت ، وهدّأت ، وأنارت . لقد جعلت امواج المدنية تجري على وجه الارض . لقد كانت طيبة . الثورة الفرنسية ... إنها تكريس الانسانية . »

ولم يستطع الاسقف إلا ان يتمتم : « أجل ، ٩٣ ! » **

فرفع عضو «المؤتمر الوطني» نفسه ، في كرسيه ، بجلال يكاد يكون فاجعاً ، وصاح على قدر ما يستطيع محتضرٌ ان يصيح :

— « آه ، لقد وصلت ! عام ٩٣ ! لقد كنت اتوقع ذلك . سحابة تشكلت طوال الف وخمسمئة سنة ، وعند نهاية تلك القرون الخمسة عشر انفجرت . إنك

---

* هو العام الذي شهد سقوط نابوليون ونفيه الى جزيرة ألبا (٢٠ نيسان ١٨١٤)

** يقصد عام ١٧٩٣ الذي زرحت فيه فرنسة الجمهورية تحت وطأة « الهول » Terreur ابتداء من سقوط الجيرونديين (٣١ نوار ١٧٩٣) الى سقوط روبسبيير (٢٧ تموز ١٧٩٤) وقد تميز بالنفوذ المطلق الذي تمّ للجنة السلامة العمومية في باريس ، ونشر « قانون المشبوهين » ، وإعدام المواطنين بأعداد كبيرة .

تدٍ من الصاعقة . »

واستشعر الأسقف ، وربما من غير ان يعترف بذلك ، أن شيئاً في ذات نفسه قد أوذي . ولكنه تقبّل الامر في صبر وأجاب :

— « ان القاضي يتكلم بلسان العدالة ؛ أما الكاهن فيتكلم بلسان الرحمة ، التي لا تعدو ان تكون عدالة أسمى وأرفع . إن الصاعقة ينبغي ان لا تخطيء . »

قال هذا ثم اضاف محدقاً الى عضو « المؤتمر الوطني » :

— « ولويس السابع عشر ؟ »

فبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده وأمسك بذراع الاسقف .

— « لويس السابع عشر . دعنا نرى ! على من تبكي ؟ على الطفل البريء ؟ ليكن ذلك اذن . انا ابكي معك . على الطفل الملكي ؟ انا اطلب مهلة للتفكير . ذلك بأني اعتقد ان اخا كارتوش * ، وهو طفل بريء علق بحبل وُضع تحت ذراعيه في ساحة «غريف» حتى مات، وكلّ جريمته انه اخو كارتوش ، ليس اقل اثارة للشجن من حفيد لويس الخامس عشر ، وهو طفلٌ بريء قُتل في برج الـ « تامبل » وكلّ جريمته انه حفيد لويس الخامس عشر . »

فقال الاسقف : « انا اكره هذا الربط بين الاسماء ، يا سيدي . »

— « كارتوش أم لويس الخامس عشر ؟ على ايهما تعترض ؟ »

وران الصمت لحظة . وكاد الاسقف أن يندم على مجيئه . ومع ذلك ، فقد استشعر ان عاطفة الشفقة قد اثيرت فيه على نحو غامض لا سبيل الى تفسيره .

واردف عضو « المؤتمر الوطني » :

— « اوه، يا سيدي الكاهن! أنت لا تحبّ قسوة الحق، ولكن المسيح أحبها. لقد تناول سوطاً وطهّر الهيكل . ولقد كان سوطه البارق ناطقاً خشناً بالحقائق ؛ وهو حين قال « دعوا الاولاد يأتون الي » لم يميز بين الاطفال . انه لم

---

* Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، ولد في باريس ، وأميت على دولاب التعذيب في ساحة غريف . (١٦٩٣ – ١٧٢١)

يتألم للجمع ما بين ابن باراباس * البكر وبين ابن هيرودس ** البكر . ان البراءة هي تاجُها عينُهُ ، يا سيدي ، وليس للبراءة الا ان تعمل حتى تغدو نبيلة ! انها فخيمة في الاسمال البالية بقدر ما هي فخيمة في الغلائل الموشاة بازهار السوسن ! »

فقال الاسقف في جَرْس خفيض : « هذا صحيح . »

فتابع الرجل العجوز : « اكرر . لقد ذكرتَ لويس السابع عشر . دعنا نبكي معاً جميع الابرياء ، جميع الشهداء ، جميع الاطفال ، سواء منهم من كان وضيعاً أو من كان رفيعاً . أنا واحدٌ منهم . ولكن عندئذ ، كما سبق ان قلت لك ، يتعين علينا ان نرجع الى ما قبل عام ٩٣ ، ويتعين على دموعنا ان تبدأ قبل لويس السابع عشر . أنا مستعدٌ لأن أبكي أولاد الملوك معك ، اذا بكيت معي أبناء الشعب الصغار ! »

فقال الاسقف : « انا أبكيهم جميعاً . »

فصاح ج ... : « على قدم المساواة ! واذا رجحت كفة الميزان فليكن بكاؤك في جانب الشعب . لأن ابناء الشعب قاسوا الآلام منذ عهد أبعد بكثير . »

وران الصمت ، كرة اخرى ، ليقطعه آخر الامر عضو «المؤتمر الوطني». لقد رفع نفسه على احد مرفقيه ، وحصر جزءاً من خدّه بين ابهامه وسبابته المثنيّة كما يفعل المرء على نحو ميكانيكي حين يستجوب أو يحاكم ،ووجّه الخطاب الى الأسقف في نظرة حافلة بطاقات النزع الاخير كلها. وكاد كلامه ذاك ان يكون انفجاراً .

ــ « اجل يا سيدي ، لقد قاسى الشعب الآلامَ منذ عهد أبعد بكثير . وليس هذا ، بعدُ ، هو كل شيء . لماذا جئتَ تستنطقني وتحدثني عن لويس

---

* باراباس يهودي كان قد القي به في السجن ، حين سيق يسوع الى والي « اليهودية » بيلاطس البنطي ، بتهمة القتل . حتى اذا خير بيلاطس اليهود ، لمناسبة الفصح ، بين اطلاق سراح باراباس واطلاق سراح المسيح آثروا المجرم ، على البريء . ولا يزال الاوروبيون يقولون في امثالهم الى اليوم : « فلان يفضل باراباس على يسوع . »

** ملك « اليهودية » من عام ٣٩ الى عام ٤ ق . م .

السابع عشر ؟ انا لا أعرفك . منذ ان وفدتُ على هذا الاقليم وأنا أعيش وحيداً ضمن هذه الجدران ، غير منطلق الى ما وراءها البتة ، غير مشاهدٍ احداً غير هذا الطفل الذي يساعدني . صحيح أن اسمك قد انتهى اليّ على نحوٍ مختلطٍ غامض ، وان يكن ، كما ينبغي ان اقول ، محوداً بعض الشيء ، ولكن هـذا لا يغير من الامر شيئاً . ان للمهرة من الناس اساليب كثـيرة لمخادعة هذا الشعب البسيط الطيب . فأنا ، مثلاً ، لم أسمع جَلَبَة مركبتك . ولا ريب في انـك قد غادرتها خلف الغابة ، هناك عند مَفرقِ الطريق . لقد قلتَ لي انك كنتَ اسقفي ، ولكن هـذا لا يعطيني ايما فكرة عن شخصيتك الخُلُقية . وعلى اية حال ، فأنا اكرر سؤالي : من أنت ؟ انتَ اسقف ، أمير من امراء الكنيسة ، واحد من اولئك الرجال المثقلين بالذهب ، وأشعرة الشرف ، * والـثروة ، الفائزين بدخـل ضخم – دار أسقفية د .... ، خمسة عشر الف فرنك ثابتة ، وعشرة آلاف فرنك عارضة ، تبلغ في مجموعها خمسة وعشرين الف فرنك – واحـد من اولئك الرجال الذين ينعمون بمطابخ ، وبخدم وأتباع ، والذين يولمون الولائم الجيدة ، ويأكلون دجاج الماء يوم الجمعة ، والذين يتبخترون في مركباتهم المزخرفة ، كالطواويس ، يتقدمهم الخدم من أمام ، ويتبعهم الخدم من وراء ، والذين يسكنون القصور ، وينطلقون في العربات باسم يسوع المسيح الذي كان يمشي حافياً ! أنت حَبر من الاحبار . عائـدات سنوية ، وقصور ، وجياد ، وخدم ، وموائد شهية ، وجميع ملذات الحياة الحسية – كل ذلك تملكه كما يملكه غيرك من الناس ، وكل ذلك تستمتع به كما يستمتع به غـيرك من الناس . حسن جداً ، ولكن هذا ينطق باكثر مما ينبغي ، أو بـما هو دون الكفاية . انه لا يلقي ضوءاً على قيمتك الذاتيـة والجوهرية ، انت الذي لا يُستبعَد ان تكون قد جئتَ الى هنا بدعوى تزويـدي بالحكمة . مع مَنْ أتحدث ؟ من انت ؟ »

* جمع شعار .

وحنى الاسقف رأسه وأجاب : . *Vermis sum* *

فغمغم عضو المؤتمر الوطني : « دودة ارض في عربة ! »

لقد جاء دور الرجل العجوز في الصَلَف ، ودور الاسقف في التواضع .

واجاب الاسقف في دماثة :

— « ليكن ذلك يا سيدي . ولكن اشرَحْ لي كيف تستطيع عربتي الواقفة على بضع خطوات وراء الاشجار ، ومائدتي الحافلة ، ودجاج الماء الذي أطعَمْتُهُ يوم الجمعة ، ودخلي البالغ خمسة وعشرين الف ليرة ، وقصري ، وخدمي — كيف يستطيع هذا كله أن يقيم الدليل على أن الشفقة ليست فضيلة ، وأن الحلم ليس واجباً ، وان عام ٩٣ لم يكن خلواً من الرحمة ؟ »

وأمرّ عضو المؤتمر الوطني يده عبر جبينه ، وكأنه يطرد سحابة .

وقال : « قبل ان اجيبك ، ألتمس منك العفو . لقد ارتكبت خطأ ، يا سيدي . أنت في منزلي ؛ انت ضيفي . ان لك عليّ حق اللطف والبشاشة . إنك تناقش آرائي ، فمن الخير ان اقصر نفسي على دحض حججك . إن ثروتك ومناورفك هي أشياء تقوّي مركزي في مناظرتك ، ولكن حسن الذوق يقضي بأن لا أفيد منها . انا اعدك بأن لا اصطنعها كرة اخرى . »

فقال الاسقف : « أشكرك . »

وتابع ج .... : « لنعد الى الشرح الذي سألتني إياه . اين كنا ؟ ما الذي كنت تقوله لي ؟ ان عام ٩٣ كان خلواً من الرحمة ؟ »

فقال الاسقف : « اجل ، خلواً من الرحمة . ما قولك في مارا ** يصفّق لدى المقصلة ؟ »

— « وما قولك في بوسوويه *** ينشد تسبحة الشكر فوق مجازر

---

* تعبير لاتيني معناه : أنا دودة .

** Marat احد زعماء الثورة الفرنسية . كان عضواً في « المؤتمر الوطني » شديد الوطأة على الجيروندبين ، وعلى الملك لويس السادس عشر يوم محاكمته . مات قتلاً بطعنة سددتها اليه شارلوت كورداي . (١٧٤٣ — ١٧٩٣)

*** Bossuet اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه التي تعتبر آية في البلاغة . (١٦٢٧ — ١٧٠٤)

« الدراغوناد » * ؟

كان الجواب قاسياً ولكنه اصاب هدفه بمثل مضاء الخنجر . وارتعد الاسقف ، ولم يحر جواباً . ولكن صدمَه الحديث عن بوسوويه على هذه الشاكلة . والواقع ان لأكرم الناس اوثانهم التي يعبدونها ، وانهم ليشعرون في بعض الاحيان ان قلة الاحترام التي يبديها المنطق نحو تلك الاصنام تكاد تسحقهم سحقاً .

وشرع عضو «المؤتمر الوطني» يلهث . كان بُهْرُ النزع الذي يمتزج بالنَفَس الاخير قد جعل صوته متقطعاً خافتاً . ومع ذلك فقد كانت عيناه ما تزالان تؤذنان بصحو كامل . وتابع :

— «لنقل بضع كلمات اخرى في هذا الموضوع او ذاك — انا ارغب في ذلك . ففي خارج الثورة التي كانت ، اذا نُظر اليها ككلّ ، توكيداً انسانياً ضخماً ، يُعتبر عام ٩٣ ، واأسفاه ، هو الجواب الاخير . انت تعتبره خلواً من الرحمة ، ولكن ما قولك في الملكية كلها ، يا سيدي ؟ لقد كان كارييه ** قاطع طريق ، ولكن اي اسم تطلقه على مونتروفيل ؟ وكان فوكييه تينفيل *** صعلوكاً ، ولكن ما رأيك في لاموانيون بافيل ؟ **** وكانت مايّار ***** مروّعة ،

* لفظ يطلق على حركة الاضطهاد التي انزلت ببروتستانت فرنسة الجنوبية قبل براءة « نانت » وبعدها ، والتي نظمها فرسان الملك المعروفون بالـ « دراغون » dragons ، ومعناها في الاصل التنين . (١٦٨١ — ١٦٨٥)

** Carrier احد اعضاء « المؤتمر الوطني » . ارتكب فظائع مروعة في نانت . وقد اعدم عام ١٧٩٤ .

*** Fouquier - Tinville هو النائب العام في المحكمة الثورية . وكان يزود المقصلة ، في عهد الارهاب ، بسيل من الضحايا لا ينضب . اعدم سنة ١٧٩٥ .

**** Lamoignon Baville محافظ مونبلييه ، اشتهر بقسوته في اضطهاد البروتستانت (١٦٤٨ — ١٧٢٤)

***** Stanislas - Marie Maillard ثائرة فرنسية شهيرة شاركت في الاستيلاء على الباستيل وفي مجازر ايلول . (١٧٦٣ — ١٧٩٤)

ولكن اي شيء تقوله في سولكس تافان * من فضلـك ؟ وكان « الاب دوشين »** ضارياً ، ولكن اي صفة يمكن ان نخلعها على « الاب لوتيليه »؟ *** وكان جوردان قاطع الرؤوس **** غولاً ، ولكنـه كان دون المركيز دو لوڤوا ***** وحشية . ياسيدي ، ياسيدي ، أنا أرثي لماري أنطوانيت ، بوصفهـا كبيرة الدوقات وملكة ، ولكني ارثي ايضاً لتلـك المرأة الهوغونوتية ****** البائسة التي جُرِّدت من ثيابها حتى الحصر ، يا سيدي ، سنة ١٦٨٥ ، وفي عهد لويس الكبير ******* ، وشُدَّت الى وتد وقد حُمِـل رضيعها على مسافة منها ، وتفجر ثديها لبنـاً ، وتفطّر قلبها أسىً . حتى اذا وقعت عينا الرضيع ، الجائع الشاحب ، على الثدي ، بكى بكاءً مريراً . فقال الجلاد للمرأة ، للأم المرضعة : « ارتدّي عن دينك ! » مخيّراً اياها بين موت طفلها وموت ضميرها. ما قولك في هذا التعذيب التانتاليّ ******** يُنزَل بأمّ ؟ يا سيدي ، لا تنسَ هذا : إن للثورة الفرنسية اسبابها. إن المستقبل سوف يغفر لها غضبها . أما نتيجتها ، فهي العالم الافضل . ومن ضرباتها الأشد فظـاعة تنبثق

* Saulx Tavannes مارشال فرنسة (١٥٠٩ — ١٥٧٣) وكان من منظمـي مذبحة القديس برتيلماوس الشهيرة والموحين بها .

** Le Père Duchesne هو الاسم المستعار لـ « هيبر » احد زعماء الثورة الفرنسية وكان يصدر بهذا الاسم صحيفة امتازت بعنفها المنالى فيه . (١٧٥٧ — ١٧٩٤)

*** Le Tellier كاهن يسوعي كان آخر مرشد للويس الرابع عشر (١٦٤٨ — ١٧١٩) .

**** Jourdan Coupe - Tête احد ارهابي « البروفانس » البارزين . وقد أعدم سنة ١٧٩٤ .

***** de Louvois سياسي فرنسي نظم جيش لويس الرابع عشر وانزل بالبروتستانت افظع الاضطهاد . (١٦٤١ — ١٦٩١)

****** يقصد بالهوغونوت Huguenote بروتستانت فرنسة .

******* لويس الرابع عشر ، وقد حكم فرنسة من سنة ١٦٤٣ الى سنة ١٧١٥

******** نسبة الى « تانتال » أو تانتالوس Tantalus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقيـة ملك غني ، ابن زيوس وابو « بيلوبس » و « نيوب » . وعقاباً له على افشائه اسرار زيوس غُطس حتى ذقنه في الماء وقد تدلت فوق رأسه الثمار اليانعة ولكن كلّاً من الماء والفاكهة كان يفر منه كلما حاول ان يذوقه .

ملاطفةً للجنس البشري . يجب ان اوجز . يجب ان اصمت . لقد منحت لي فرصة ملائمة لذلك . إني اموت . »

واذ كفّ الرجل العجوز عن النظر الى الاسقف ، أتمّ فكرته بهذه الكلمات القليلة الهادئة :

ــ « أجل ، إن فظائع التقدم تدعى ثورات . حتى اذا انتهت ادركنا هذا : أنّ الجنس البشري قد عومل في قسوة ، ولكنه تقدم شوطاً الى أمام . »

ولم يشكّ عضو «المؤتمر الوطني» في أنه دكّ حصون الاسقف الداخلية كلها ، واحداً اثر واحد . بيد انه بقي ثمة حصن مُفرَد ؛ ومن هذا الحصن الذي كان مصدر المقاومة الرئيسي عند مونسينيور بيينفينو ، انطلقت هذه الكلمات التي برزت فيها من جديد قسوة الاستهلال كلها تقريباً :

ــ « يتعين على التقدم ان يؤمن بالله . والخير لا يمكن ان ينهض به رجل ملحد . إن الكافر قائد رديء للجنس البشري . »

ولم يجب ممثل الشعب العجوز . كان يرتعد . كان يرنو الى السماء . وشيئاً بعد شيء تجمعت في عينه دمعة . حتى اذا امتلأ الجفن تدحرجت الدمعة على خده الازرق الضارب الى السواد ، وقال في ما بينه وبين نفسه بصوت خفيض يكاد يكون متلجلجاً ، وقد تاهت عينه في الأعماق :

ــ « ايه أنت ! أيها المثل الأعلى ! أنت وحدك الموجود ! »

واستشعر الاسقف ضرباً من الانفعال الذي لا يُعبّر عنه .

وبعد صمت قصير رفع الرجل العجوز احدى اصابعه الى السماء وقال :

ــ « اللانهاية موجودة . إنها هناك . واذا لم يكن للاّنهاية « انا » ، فعندئذ تكون الـ « انا » تَحُدُّها ؛ وعندئذ لا تكون لا نهاية . وبكلمة اخرى ، إنها لا تكون موجودة . ولكنها موجودة . وإذن فأن لها « انا » . و « انا » اللانهاية هذه هي الله . »

لقد نطق الرجل المحتضر بهذه الكلمات الاخيرة في صوت عالٍ ، وفي رِعدة

الغيبوبة وكأنما كان يرى احداً . حتى اذا فرغ من قولها اغتمضت عيناه . كان الجهد قد أنهكه . وكان واضحاً أنه عاش في دقيقة واحدة تلك الساعات القليلة التي بقيت له . كان الكلام الذي نطق به قد قرّبه الى عالم الموت . لقد حانت اللحظة الاخيرة .

وادرك الاسقف ذلك ؛ وزَحَمَتْهُ اللحظة . لقد أقبل الى هنا بوصفه كاهناً . وكان قد انتقل شيئاً بعد شيء من اقصى البرود الى اقصى الانفعال . ورنا الى تينك العينين المغمضتين ، وأمسك بتلك اليد المتغضنة الثلجية وانحنى نحو الرجل المحتضر .

— « هذه الساعة هي ساعة الله . ألا تظن أنّ من دواعي الاسف أن يُقَدَّر للقائنا ان يكون عبثاً لا طائل تحته ؟ »

وفتح عضو « المؤتمر الوطني » عينيه كرةً اخرى. كانت الرصانة قد انطبعت على محياه حيث خيّمت سحابةٌ من قبل .

وقال في تمهّل لعله نشأ عن كبرياء نفسه أكثر مما نشأ عن خَوَرٍ في القوى :

— « يا سيدي الاسقف ، لقد قضيت حياتي في التفكّر ، والدرس ، والتأمل . ولقد كنت في الستين من عمري حين دعتني بلادي وأمرتني بان اشارك في شؤونها . ولقد امتثلتُ الأمر . كان ثمة مساوىء ، فحاربتُها . وكان ثمة ضروب من الطغيان ، فحطمتُها . وكان ثمة حقوق ومبادىء ، فأعلنتُها وصرّحتُ باعتقادي بها . لقد غُزيت الارض الفرنسية ، فدافعتُ عنها . لقد هُدّدت فرنسة بالخطر ، فقدّمتُ لها صدري . أنا لم اكن غنياً ؛ أنا فقير . لقد كنتُ واحداً من المهيمنين على مقاليد الدولة ، وكانت أقبية المصرف مثقلةً بالاموال بحيث تعيّن علينا ان ندعّم الجدران وإلا سقطت تحت وطأة الذهب والفضة . كنت اتناول طعام الغداء في شارع دو لاربر سيك باثنين وعشرين « سو » * للوجبة الواحدة . لقد أغثتُ المظلومين ، وواسيت المعذّبين . لقد مزّقتُ غطاء المذبح ، هذا صحيح ، ولكني فعلتُ ذلك لكي أضمّد جراحات الوطن . لقد أيّدتُ ابداً

* ال « سو » sou جزء من عشرين من الفرنك .

سيرَ الجنس البشري نحو النور، وقاومتُ، في بعض الاحيان، تقدّماً لا ينطوي على رحمة. لقد أسبغت حمايتي، في بعض المناسبات، على اعدائي انفسهم، يعني على اصدقائك. وفي بيتيفهام من اعمال الفلاندر، في ذلك المكان عينه الذي نهض فيه قصر الملوك الميروفنجيين * الصيفي، يقوم دير الاوربانيين - دير القديس كلير في بوليو - الذي أنقذتهُ عام ١٧٩٣. لقد قمتُ بواجبي على قدْر طاقتي وقَدْر الخير الذي وُفّقت اليه. وبعد ذلك طوردتُ، ولوحقتُ، واضطُهِدتُ، وطُعِنَ عليّ، وهُزِيء بي، وأُهِنْتَ على نحو علنيّ، ولُعنت، ونُبذت. ومنذ سنوات عديدة، وبعد ان اشتعل رأسي شيباً، وانا احسّ بأن كثيراً من الناس يؤمنون بأن لهم الحقّ في احتقاري، وان الجماهير الفقيرة الجاهلة ترى في وجهي وجهاً لعيناً، ومع ذلك فقد ارتضيتُ - غيرَ مبغض انساناً ما - عزلةَ البغض. وها انا ذا الآن في السادسة والثمانين. إني على وشك ان أموت. فما الذي جئتَ تسألني اياه؟»

فقال الاسقف: «جئت اسألك بركتك!»

وركع على ركبتيه.

وحين رفع الاسقف رأسه، كان وجه الرجل العجوز قد غدا جليلاً. لقد قضى نحبه.

وانقلب الاسقف الى داره مستغرقاً في التفكير، فقضى الليل كله وهو يصلي. وفي اليوم التالي حاول بعض الفضوليين الجسورين ان يحدّثوه حديث عضو «المؤتمر الوطني» ج... فاكتفى بأن أشار الى السماء.

ومنذ تلك اللحظة ضاعف حنانه وحبه الاخوي للمستضعفين والمعذبين.

كانت كل اشارة الى «ج... ذلك الوغد العجوز» تلقيه في خضمّ من القلق العجيب. وما كان في ميسور احد ان يقول ان صعود تلك الروح الى بارئها قبل روحه هو، وانعكاس ذلك الضمير المعظم على ضميره هو، لم يكن لهما اثرٌ في

* السلالة الميروفنجية Mérovingien هي اول سلالة مالكة حكمت في فرنسة، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى ملك الفرنجة ميروفيه Mérovée (وقد حكم من عام ٤٤٨ الى عام ٤٥٨) وكان آخر ملوكها تشيلديريك الثالث الذي خلع عن العرش سنة ٧٥٢ للميلاد.

اقترابه من الكمال .

وكانت « الزيارة الرعائية » ، طبعاً ، مناسبة ملائمة مكنت الدساسين الصغار من النقد والتعريض .

- « أيليق بأسقف ان يجلس الى جانب فراش رجل مثل هذا ؟ انه ما كان ليتوقع أن يرد ذلك الرجل الى الايمان ، طبعاً . ان جميع هؤلاء الثوريين ساقطون وقعوا في الهرطقة مرة ثانية . واذن ، فأي فائدة في الذهاب الى هناك ؟ اي شيء كان يبتغي ان يراه هناك ؟ لا شك في انه كان شديد الفضول الى ان يرى كيف يتخطف الشيطان روحاً من الارواح ! »

وذات يوم وجهت اليه ارملة موسرة من ذلك النوع الذي يظن في نفسه الظرف وخفة الروح ، هذه الدعابة : « إن الناس ليتساءلون ، متى ستعتمر سيادتكم قلنسوة حمراء ؟ » * فأجاب الاسقف : « أوه ! أوه ! هذا لون رفيع . ومن حسن الطالع ان اولئك الذين يزدرونه في قلنسوة ، يجلّونه في قبعة ! »

١١
تحفظ

نُخدع كثيراً اذا استنتجنا من هذا ان مونسينيور بيينفينو كان « فيلسوفاً أسقفاً » أو « وطنياً كاهناً » . إن اجتماعه بعضو « المؤتمر الوطني » ـ الذي كان ضرباً من الشركة الروحية تقريباً تركه في حال من الذهول زادته رقة وحباً للخير . هذا كل ما هنالك .

وعلى الرغم من ان مونسينيور بيينفينو كان أيما شيء إلا رجلاً من رجال السياسة ، فلعل من الخير ههنا ان نحدد ، في ايجاز كثير ، موقفه من احداث

* كانت القلنسوة الحمراء هي غطاء الرأس الذي اعتمر به أنصار الثورة الفرنسية المقدمون ، وكانت تعتبر رمز الحرية .

العصر، اذا كان لنا ان نفترض ان مونسينيور بيينفينو فكر في ايما يوم من الايام بأن يكون له موقف من تلك الاحداث .

من اجل ذلك يتعيّن علينا ان نرجع بضع سنوات الى الوراء .

لم تنقض فترة قصيرة على رفع مسيو ميرييل الى مقام الاسقفية حتى جعله الامبراطور باروناً من بارونات الامبراطورية، كما جعل عدداً آخر من الاساقفة في الوقت نفسه . وتم القاء القبض على البابا ، كما هو معروف ، ليلة السادس من تموز سنة ١٨٠٩ . ولهذه المناسبة دعا نابوليون مسيو ميرييل الى مجمع اساقفة فرنسة وايطالية في باريس ، وعقد المجمع في كاندرائية نوتردام ، وافتتحت اعماله في الخامس عشر من حزيران سنة ١٨١١ برئاسة الكاردينال فيش . كان مسيو ميرييل واحداً من الاساقفة الخمسة والتسعين الذين شهدوا المجمع . ولكنه لم يشارك إلا في جلسة واحدة ، وفي ثلاثة او اربعة من الاجتماعات الخاصة . كان اسقف ابرشية جبلية ،وكان يحيا على مقربة من الطبيعة في غمرة الخشونة والأملاق. من اجل ذلك بدا وكأنه يحمل بين هاته الشخصيات الساطعة افكاراً غيّرت حرارة المجمع . فما كان منه الا ان انقلب وشيكاً الى د ... وحين سئل عن هذه العودة المفاجئة أجاب :

« لقد ازعجتهم. ان الهواء الطلق دخل الى مجمعهم حين دخلت . لقد تركت فيهم الاثر نفسه الذي يتركه الباب المفتوح . »

وفي مرة اخرى قال :

«ماذا تريدون ؟ هؤلاء الاساقفة امراء . أمـــا انا فلست غير اسقف ريفي فقير . »

والحق انهم كانوا يبغضونه . وكان من بين الاسباب الغريبة التي حملتهم على ذلك أنه لم يتمالك عن ان يقول ذات ليلة دُعي فيها الى منزل احد زملائه من أولي المكانة العليا :

— ويا لها من ساعات جدارية رائعة! يا له من سجاد رائع ! يا لها من ثياب خدَمٍ رائعة ! ينبغي ان يكون هذا كله أنفى للرفهِ والسعادة ! اوه ! ما أشد نفوري

من ان املك هذه الكماليات كلها ، التي تصرخ ابداً في اذنيّ : إن هناك اناساً يجوعون ! إن هنـــاك اناساً يرتجفون من البرد ! إن هناك فقراء ! إن هناك فقراء ! »

وينبغي ان نقول، بالمناسبة، ان بُغض الترف ليس بغضاً حصيفاً. إنه ينطوي على كراهية للفنون . ومع ذلك فالترف جريمة عند رجال الدين، خارج طقوسهم واحتفالاتهم . إنـــه يبدو وكأنما يكشف عن عادات ليست خيرية حقاً . إن الكاهن الموسر هو في ذاته تناقض . ان عليه ان يظل قريباً من الفقير ؛ ومن ذا الذي يستطيع ان يحتكّ آناء الليل واطراف النهار بضروب الشقاء كلها ، وضروب البؤس كلها ، وضروب الحرمان كلها من غير ان يعلق بــه قليل من ذلك الفقر المقدس ، وكأنه غبار العمل ؟ هل تستطيع ان تتخيل رجلاً يجلس الى النار ثم لا يُحسّ بالدفء ؟ هل تستطيع ان تتخيل عاملاً يشتغل على نحو موصول امام فرن من الافران ولم تحترق شعرة من شعره، او يسودّ ظفر من اظفاره ، أو تتدحرج على خده قطرة من عرق ، أو تعلُ وجهه ذرة من رماد ؟ ان اول البراهين على تمتع كاهن ما ، او اسقفٍ ما على وجه الخصوص ، بالمحبة ، هو الفقر.

وليس من شك في ان اسقف د . . . كان ينظر الى الاشياء عـــلى هذا الضوء .

بيد أنه يتعين علينا ان لا نحسب ان الاسقف شاركَ في المسائل الدقيقة التي يمكن ان تدعى «فكرات العصر» . إنه ما كان ليتدخل الا قليـــلاً بمنازعات الساعة اللاهوتية ؛ وكان يلتزم الصمت في كل مسألة تنتهي فيها الدولة والكنيسة الى تسوية . أما اذا أُلحتَ عليه الحاحاً شديداً فعندئذ كنت تجـــده ايطالياً * اكثر منه غاليكانياً **

وإذ كنا نرسم ههنا صورةً فنية لشخص ، وليس في نيتنا أن نخفي شيئاً ما ، فنحن مضطرون الى ان نضيف أنه كان بارداً نحو نابليون يوم جنـــح نجمه الى

---

* المراد بالايطالي هنا الذي يدين بالولاء للبابوية.

** Gallican وهو من ينادي بالولاء لكنيسة فرنسة .

الافـــول . وابتداء من عام ١٨١٣ أخذ يشايع جميع المظاهرات العدائية او يصفق لها . لقد رفض ان يراه في طريق عودته من جزيرة ألبا * ، واحجم عن أن يصدر الأمر في ابرشيته باقامة الصلوات العامة من اجل الامبراطور خلال «الايام المئة» **

وكان له الى جانب أخته الآنسة باتيستين أخوان اثنان ، احدهما جنرال ، والاخر محافظ . وكان يكتب الى كل منهما بين الفينة والفينة . لقـــد استشعر شيئاً من الفتور نحو الاول ، لأنه كان يتولى قيادة قوة من الجيش في بروفانس ، يوم اقتحم نابليون البرّ الفرنسي عند « كانّ » ، فما كان من الجـــنرال إلا ان وضع نفسه على رأس الف ومئتي مقاتل وتعقّب الامبراطور وكأنـه راغبٌ في ان يفسح له في مجال الهرب . أما رسائله الى اخيه الآخر ، المحافظ السابق ، وكان رجلًا شجاعاً فاضلًا يحيا بمعزل عن النـــاس في شارع كاسيت بباريس ، فكانت أحفل بالمودة والعاطفة .

وحتى مونسينيور بيينفينو غلبت عليه آنذاك النزعة الحزبيـــة ، وكانت له أحزانه وغيومه . لقد طاف ظلُّ اهواء الساعةِ وشهواتها بهذا القلب الكبـــير الرقيق المنصرف الى الاشياء الازلية . وليس من ريب في ان رجلًا مثل هـذا خليقٌ بـه ان يتجرّد عن الآراء السياسية . ولا يُسيئنّ احدٌ فكرتنـا . فنحن لا نخلط ما بين هذا الذي يدعى «آراء سياسية» وبين الطموح العارم الى التقدم ، والايمان الوطني الديموقراطي الانساني الرفيع الذي ينبغي ان يكون في ايامنـا هذه أسّ كل ذكاء سخيّ . ومن غير ان نتعمّق مسائلَ لا تمسّ موضوع هذا الكتاب إلا مسّاً مداوراً نقول بكل بساطة : كان خيراً لمونسينيور بيينفينو لو

---

* هي جزيرة ايطالية صغيرة في البحر الابيض المتوسط ، وتقع شرقي كورسيكة . وكان نابوليون قد نفي اليها عام ١٨١٤

** Les Cent - jours هي الفترة الممتدة ما بين ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ ، يوم رجع نابوليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران من العام نفسه يوم تنازل عـــن العرش للمرة الثانية . وقد تميزت هذه الفترة بالدستور الجديد ذي النزعات المتحررة الذي اعلنه نابوليون في مستهلها ، وبحملة بلجيكا ، وهزيمة واترلو .

انه لم يكن ملكيّ الهوى ، ولو ان عينيه لم تنصرفا قطّ لحظةً واحدة عن ذلك التأمل الساجي حيث نرى في وضوح ، فوق اوهام هذا العالم واحقاده ، فوق مدّ الشؤون البشرية وجزرها ، هذه الكواكب الثلاثةَ الصافيةَ ، المرسِلةَ إشعاعاتها على نحو موصول : الحق ، والعدل ، والمحبة .

ومع أننا نُقرّ بأن الله لم يخلق مونسينيور بيينفينو لمهمة سياسية فقد كان خليقاً بنا ان نفهم ونُكبر احتجاجاً يُطلقه باسم الحق والحرية ، ومعارضةً ضارية ومقاومة عادلة وخطرة يوجّههما الى نابوليون يوم كان كليّ القدرة . ولكنّ ما يرضينا إزاء اولئك الراقين سلّم المجد يكون اقلّ إرضاءً لنا إزاء اولئك الساقطين عن تلك السلّم . إننا لا نُعجب بالقتال حين لا يكون ثمة خطر ، وفي مختلف الاحوال فأن مقاتلي الساعة الاولى لهم وحدهم الحق في ان يكونوا هم المهلِكين في الساعة الاخيرة . ومن لم يكن متهماً ضارياً اثناء الرخاء يجب ان يصمت عند الانهيار . إن ذلك الذي يشجب النصر في إبانه له وحده الحقّ في ان يعلن عدالة السقوط . أما نحن فحين تدخلت العناية الالهية وضربت ضربتها فقد احجمنا عن القيام بأي عمل . إن سنة ١٨١٢ بدأت في تجريدنا من السلاح . وفي سنة ١٨١٣ لم يكن قطعُ حبل السكوت الجبانُ من قِبَل تلك الهيئة التشريعية الصَموت التي شدّدت الكوارث من عزائمها – لم يكن ذلك الصنيع جديراً بشيء غير السخط ، وكان من الاثم التصفيق له . وفي سنة ١٨١٤ ، أمام هؤلاء المارشالات الخونة ، وامام مجلس الشيوخ ذاك المتنقّل من خساسة الى خساسة ، لاعناً بعد أن قدّس وألّه ، وأمام عابدي الاصنام هؤلاء ، المرتدّين على اعقابهم ، الباصقين على آلهتهم ، كان واجباً على المرء أن يشيح بوجهه في اشمئزاز . وفي سنة ١٨١٥ حين كان الجوّ عابقاً بالنكبات النهائيةَ ، وحين كانت فرنسة تستشعر قشعريرة اقترابها المشؤوم ، وحين كان في امكان المرء ان يرى على نحو ضبابي ساحة واترلو تنبسط امام نابوليون ، فأن ما وجّهه الجيش والشعب من دعاء موجع الى من اصدر القدر حكمه عليه لم يكن ينطوي على شيء مضحك . ومع إبداء مختلف ضروب التحفظات في ما يتصل بالطاغية ، فلعلّ قلباً مثل قلب اسقف د ...

ما كان ينبغي له أن يُنكر كل ما هو جليل ومؤثّر – عند سفير الهاوية – في العناق الاخير بين امة عظيمة ورجل عظيم .

وعلى الجملة ، فقد كان ابداً وفي كل شيء منصفاً ، صادقاً ، عادلاً ، ذكياً ، متواضعاً ، فاضلاً ، جواداً ، عطوفاً ، وما العطف غير ضرب من الجود . كان كاهناً ، وحكيماً ، ورجلاً . وهنا يتعيّن علينا ان نقول إنه حتى في تلك الآراء السياسية ، التي انتقدناها آنفاً والتي نجد أنفسنا عرضةً لأن ندينها في عنف تقريباً ، كان متسامحاً سهل الخليقة ، ولعل حظه من هاتين الخصلتين ان يكون اوفر من حظنا نحن ، الذين نتحدث الآن . كان بواب « القاعة البلدية » قد أقيم هناك بأمر من الامبراطور . كان ملازماً قديماً في « الحرس القديم » ، وحاملاً وسام جوقة الشرف لابلائه في موقعة اوسترليتز * بلاءً حسناً ، وبونابرتياً صميماً كالنسر . وكانت تندّ من هذا الرجل المسكين في بعض الاحيان ، من غير ما تفكير ، أقوال كان القانون يعتبرها في ذلك الحين تحريضاً على الفتنة والعصيان . ومنذ ان غاب وجه الامبراطور الجانبي عن وسام جوقة الشرف كفّ عن تزيين صدره بذلك الوسام لكي لا يُضطر ، كما قال ، ان يحمل صليبه . وبدافع من ولائه ازال هو نفسه الرسم الامبراطوري عن الصليب الذي منحه نابوليون إياه . ولقد احدث ذلك فجوةً في الوسام ، ولكنه أبى ان يضع شيئاً مكانه . كان يقول : « **انا اؤثر ان أموت على ان أحمل الضفادع الثلاث فوق قلبي** » . وكان يسخر دائماً ، وعلى نحو علنيّ ، من لويس الثامن عشر . فهو يقول : « **ذلك العجوز المبتلى بداء المفاصل وساقيْه الانكليزيتين ! دعه يذهب الى بروسية بلحيته المشبهة نبات لحية التيس !** » سعيداً بأن يجمع في السخرية الواحدة بين الشيئين اللذين كانا أبغض الاشياء إلى نفسه : بروسية وانكلترة . ولقد أكثرَ من مثل هذا الكلام حتى خسر وظيفته . فاذا هو جائع الى الخبز ، طريح الشارع

* Austerlitz الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها في هذه المدينة من مدن مورافيا (٢ كانون الاول سنة ١٨٠٥) والتي هزم فيها نابوليون جيوش النمسويين والروس . وقد دعيت معركة اوسترليتز « معركة الاباطرة الثلاثة » لان اباطرة فرنسة ، والنمسا ، والروسيا اشتركوا فيها جميعاً .

مع زوجته وأولاده . فما كان من الاسقف إلا ان دعاه ، فرنجه ببعض الشيء ، وجعله بواباً للكاتدرائية .

لقد كان مسيو ميرييل في الابرشية هو الراعي الحقّ . كان صديقاً للجميع . وفي مدى تسع سنوات ، وبفضل سلسلة موصولة من العمل الصالح والخلق الرفيع ، وفّق مونسينيور بيينفينو الى ان يملأ مدينة د ... بضرب من التوقير البنوي الرقيق . حتى موقفهُ من نابوليون لقي قبولاً ومعذرة لدى الناس ، وهم قطيع طيب مستضعَف يعبد امبراطوره ، ولكنه يحبّ أسقفه .

١٢
عزلة مونسينيور بيينفينو

يكاد يجتمع حول أيما اسقفٍ جمهرة من الرهبان الشباب كما تجتمع حول ايما جنرال كوكبة من الضباط الشباب . إنهم اولئك الذين دعاهم القديس فرانسوا دو سال * الفاتن ، في مكان ما ، « الكهان الأغرار » . ذلك بأن ثمة في كل مهنة أو سلك فئةً من الطامحين تحوم حول اولئك الذين انتهوا الى القمة . فليس من سلطة إلا ولها بطانتها ، وليس من ثروة إلا ولها بلاطها . والباحثون عن المستقبل يسبحون في فلك الحاضر الزاهي . ولكل عاصمة ، شأنَ كل قائد عسكري كبير ، أركان حربها . كذلك لكلّ اسقف ذي سلطان حشدُه من طلاب المعاهد الكهنوتية : كروبيّون ** يطوّفون ههنا وهناك ويقرّون النظام في القصر الاسقفي ، ويحرسون ابتسامة صاحب السيادة . إن الفوز برضا الاسقف قَدَمٌ في الركاب الموصل الى مرتبة نائب شماس . وان على

* de Sales اسقف جنيف (١٥٦٧ — ١٦٢٢) ومؤلف « مقدمة الى حياة التقوى » و « رسالة في الحب الالهي » . وقد اسس مع القديس جان دو شانتال « رهبانية زيارة العذراء » .

** الكروبيون سادة الملائكة او المقربون منهم . واحدهم كروب .

المرء ان يشقّ طريقه بنفسه . إن الدعوة الرسولية لا تستخف أبداً بمنصب الكاهن القانوني .

وكما ان في بعض المواطن الاخرى أعياناً أولي سلطان ، كذلك نجـــد في الكنيسة مطارين ذوي تيجان . إنهم الاساقفة المتأنقون المقبـــلون على الدنيا ، الاغنياء ذوو الموارد ، اللبقون ، الفائزون برضا المجتمع الراقي ، الذين يعرفون كيف يصلّون – من غير شك – ولكنهم يعرفون ايضاً كيف يسألون الناسَ ان يُسدوا اليهم يداً ؛ الجاعلون من أنفسهم بلا تردّد قنطرةَ التقدّم في ابرشية بكاملها ، وصلة الوصل بين المَوْهف * والديبلوماسية . إنهم رؤســـاء أديار اكثر منهم كهاناً ، وأحبارٌ اكثر منهم اساقفة . وسعيـــد هو الشخص الذي يوفق الى الاقتراب نحوهم . وبوصفهم رجالاً ذوي سلطان ، فأنهم يمطرون أهليهم وذوي الحظوة عندهم وجميع اولئك الشبان الذين يوقعون الرضـــا في نفوسهم أبرشياتٍ بدينةً ، ورواتبَ ، ورئاسات شمامسة ، ومهام كاتـــدرائية ، وكلها خطوات نحو المراتب الاسقفية . وهم اذ يتقدمون في معارج الرقيّ يقدّمون الكواكب الدائرة في فلكهم ؛ ذلك نظام شمسيّ كامل ممعن في الدوران . إن اشعة مجدهم تصبغ حاشيتهم بلون الارجوان . وإن رخاءَهم يوزع فُتاته عـــلى القائمين خلف الكواليس ، على شكل ترقيات صغيرة مستملحـــة . وكلما كانت أبرشية الوليّ اعظم كانت وظيفة القس المسندة الى واحد من المقرَّبين أعظـــم وأخطر . واخيراً فهناك رومة . ذلك بأن الاسقف الذي يعرف كيف يصبح رئيسَ اساقفة ، ورئيس الاساقفة الذي يعرف كيف يصبح كاردينالاً يستطيعان ان يقوداك الى مجمع الكرادلة . ** إنك تدخل الى الروتة ، *** وترتـــدي الباليوم ، **** وإذا بك في عداد النظارة ، واذا بك حاجباً من حجاب البابا ،

* الموهف (السكرستيا) الغرفة الخاصة بالاواني والاثواب الكنسية .

** الذي ينعقد لانتخاب البابا .

*** Rota او الـ Sacra Romana Rota (الروتة الرومانية المقدسة) وهي محكمة اكليركية في رومة .

**** الباليوم طيلسان الاساقفة .

واذا بك مونسينيور ؛ وليس بين « السيادة » و « النيافة » * غير خطوة واحدة، وليس بين « النيافة » و « القداسة » ** غير دخان اقتراع . إن كل قلنسوة تستطيع ان تحلم بتاج البابوية . والكاهن هو الرجل الوحيد ، في ايامنا هذه ، القادر على ان يصبح بصورة نظامية ملكاً . واي ّ ملك ! الملك الاعظم ! وإذن فأعظِمْ بالمعاهد الاكليركية مغارسَ للمطامح . فما اكثر غلمان الكورس الحجلين، وما اكثر الكهان الشباب الحاملين على رؤوسهم اناء بيريت *** الحافل باللبن ! ومن يدري ? فما أيسر ما يختبيء الطموح خلف الحياة الرهبانية ، وقد يكون ذلك عن ُحسن نية ، ويخدع نفسه مهما تظاهر بالتقى والورع !

والحق ّ ان مونسينيور بيينفينو ، المتواضع ، الفقير، ذا المسالك الغريبة ، ما كان ليُعَدّ من المطارين المتوجين . وإنما كان ذلك واضحاً من عدم تحلّق الكهان الشباب حوله . ولقد رأينا من قبل ان بضاعته لم َترُجْ في باريس . ان ايما مستقبل زاهر لم يفكر ذات يوم في ان يلقح نفسه بالاتصال بهذا العجوز المتوحد . ولم يكن ثمة طموح غض العود هو من الحماقة بحيث يلتمس النضج في ظله . كان

---

* « صاحب النيافة » هو لقب الكاردينال . والمراد انه ليس بين الاسقف والكاردينال غير خطوة واحدة .

** « صاحب القداسة » هو لقب البابا .

*** Perrette هو الاسم الذي اطلقه لافونتين على بطلة َمثلهِ fable : « الحلاّبة واناء اللبن . » التي قصدت الى المدينة ، حاملة إناءها على رأسها وأنشأت تفكر بثمن اللبن ، وتحلم بالثروة . وبأنها سوف تشتري مئة بيضة ، وخنزيراً تربيه ، ثم تبيعه من جديد ، وتشتري بقرة ... وفجأة زلت بها القدم ، وُسفح اللبن على الارض ، وتبددت الاحلام . ولا يزال اسم « بيريت » الى اليوم علماً على الحالمين و « بناة القصور في اسبانية » الذين يرون الى مشاريعهم تنهار لاقل حادث . وهي تذكّر في ادبنا العربي بحكاية الناسك الذي كان يجرى عليه من رجل تاجر ، في كل يوم ، رزق من السمن والعسل ، فكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويجعله في جرة ، فيعلقها في وتد ، في ناحية البيت ، حتى امتلأت ... الخ الخ ... وقد رواها ابن المقفع في « كليلة ودمنة » وقد تكون هي الاصل لمثل لافونتين هذا .

كهانه القانونيون ونوّابه الاسقفيون كلهم رجالاً صالحين عالي السنّ ، أجلافاً بعض الشيء مثلهُ ، مطوّقين مثله بجدران تلك الابرشية التي كانت خلواً من طريق تؤدي الى مقام الكاردينالية . وكانوا يشبهون اسقفهم ، مع هذا الفارق ، وهو انهم انتهوا ، على حين انه اكتمل . وكانت استحالة الترقي في ظل مونسينيور بيينفينو واضحة الى حد جعل الشبان الذين رسمَهُم هولا يكادون يغادرون المعهد الاكليركي حتى يلتمسوا توصية الى رئيس اساقفة ايكس ، او رئيس اساقفة اوش ، وينطلقوا على جناح السرعة ليقدّموها إليهما . ذلك بأن الرجال — ونكرّر ذلك — يحبون الارتقاء في سلم الوظيفة . والقديس الممعن في انكار الذات لا يعدو ان يكون جاراً خطراً . انه قد ينقل اليك من طريق العدوى ، فقراً لا برء منه ، وتخشّباً في المفاصل الضرورية للتقدّم . وعلى الجملة فقد ينقل اليك مقداراً من الزهد اكثر مما ترغب فيه . فغير عجيب ان يفر الرجال بأنفسهم من هذه الفضيلة المعدية . ومن هنا هذه العزلة التي وسمت حياة مونسينيور بيينفينو . اننا نعيش في مجتمع كئيب . « إنجحْ » ، تلك هي النصيحة التي تسقط قطرة إثر قطرة من الفساد المخيم علينا .

وفي ميسورنا ان نقول ، بالمناسبة ، إن النجاح شيء بشع مخوف . إن ما بينه وبين الكفاءة من شبه زائف خليق به ان يخدع الناس عن أنفسهم . وعند الجمهور يتخذ النجاح صورة التفوق نفسها تقريباً . وللنجاح — ذلك التوأم الشديد الشبه بالموهبة — احمقُهُ المخدوع : التاريخ . ان جوفنيال * وتاسيت ** وحدهما يرفضانه ويتذمران منه . وفي ايامنا انضوت تحت لوائه فلسفة تكاد تكون رسمية ، فهي ترتدي ثوب الخادم الملحق به ، وهي تنتظر اوامره في الغرفة الملاصقة لديوانه . النجاح ، تلك هي النظرية . ان الازدهار يفترض القدرة . إربح ورقة

* Juvénal شاعر لاتيني هجاء (٤٢ — ١٢٥ ؟) تتجلى لنا في اهاجيه الاربع عشرة نقمته على الحياة في رومة وضيقه بمساوئها .

** Tacite مؤرخ لاتيني شهير (٥٥ ؟ — ١٢٠ ؟) امتازت مؤلفاته بالرصانة والقوة والايجاز ، كما امتاز هو بالخيال وبالقدرة على تجريد شخصياته من أرديتها الخارجية . وكان يغالي في التشاؤم احياناً ، وينزع الى ان يلتمس للاحداث اسباباً عميقة .

في اليانصيب تصبح رجلاً حاذقا . ومن ينتصر فذلك هو الذي يحظى بالاجلال والتعظيم . ايكن نجمك ، يومَ الولادة ، ذا يمن وسعد تجدِ الدنيا كلها بين يديك . كن حسن الطالع ليس غير تفز بسائر الاشياء . كن سعيداً يحسبك الناس عظيماً . ففيما عدا المستثنيات العظيمة التي لا يزيد عددها على الخمسة او الستة ، والتي هي اعجوبة عصرها ، لا يعدو الاعجاب المعاصر ان يكون ضرباً من قصر البصر . ان الطلاء الذهبي هو في نظر الناس ذهب خالص . وليس يفيد المرء عندهم ان يكون ابن الحظ شريطةَ ان يوفق الى تحسين حظوظه . ان العامة نرسيسٌ عجوز * يعبد نفسه ، ويصفق لكل ما هو شعبي . والواقع ان العبقرية الجبارة التي تجعل من المرء موسى ، او أشيل ** او دانتي او ميكال آنجلو ، أو نابوليون انما يخلعها الجمهور ، في الحال وفي تهليل ، على كل من يوفق الى بلوغ غايته ، مهما تكن تلك الغاية . دع كاتباً عدلاً يلمع حتى يصبح نائباً في البرلمان ؛ دع كورني *** زائفاً يضع مسرحية « تيريدات » **** ؛ دع خصياً علك « حريماً » ؛ دع « برودوم » ***** عسكرياً يكسب بالمصادفة

---

* في الميثولوجيا اليونانية ان نرسيس كان على جمال باهر أسر به القلوب جميعاً ولكنه ازدرى حب الحسان له . كان يعشق نفسه ، وبينا هو يديم النظر الى وجهه الجميل في مرآة ينبوع صاف زلت به القدم ، فاستحال الى الزهرة التي تحمل اسمه « نرسيس » أو النرجس . وتطلق لفظة « النرجسية » اليوم على الظاهرة السيكولوجية التي تجعل من المرء عاشق ذاته .

** ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ — ٤٥٦ ق . م) ويعتبر من أعظم شعراء العالم في مختلف العصور .

*** Corneille ابو التراجيديا الفرنسية . واشهر مسرحياته « هوراس » ، « السيد » ، « سينا » و « بوليوكت » . وهو يعتبر عند الفرنسيين خالق الفن التمثيلي القائم على اساس التحليل السيكولوجي . (١٦٠٦ — ١٦٨٤) .

**** Tiridate تيريدات الاول ، ملك ارمينية وأخو فولوجيس الاول ملك البارثيين وقد قهره القائد الروماني كوربيلون . وتوفي تيريدات عام ٧٣ للميلاد .

***** Prudhomme نموذج عصري للعجز وعدم الكفاءة وللابتذال الكامل التي ابرزها هنري مونيه في كتابه « مشاهد شعبية » (١٨٣٠) و « مذكرات جوزيف برودوم » (١٨٥٧) .

المعركة الحاسمة في حقبة برمتها ؛ دع صيدلياً يخترع نعالاً من الورق المقوّى لاحذية الجيش ، ويجني من وراء ذلك الكرتون المبيع بدلاً من الجلد لقوّات « السامبر والميز » * دخلًا مقداره اربعمئة الف ليرة ؛ دع بائعاً متجولاً يتزوج الربا ويقود عروسه الى فراش من سبعة ملايين او ثمانية ملايين ، فراش هو أبوه وهي أمه ؛ دع واعظاً يصبح اسقفاً بالتكلم من أنفه ، دع مدبّر احـد المنازل الطيبة يمسي لدى تركه الخدمة غنياً الى درجة تجعل منه بعد ذلك وزيراً للمالية فرنسة — تجد الناس يدعون ذلك عبقرية ، تماماً كما يدعون وجه موسكوتون جمالاً ، وتغطرس كلود عظمة وجلالاً . إنهم لا يميزون كواكب السماء من النجوم التي تحدثها اقدام البطّ في الوحل !

١٣
معتقداتـــه

لسنا في حاجة الى ان نسبر أسقف د ... من وجهة النظر الارثوذكسية ** ففي حضرة نفس كهذه لا نستشعر شيئاً غير الاحترام . إن ضمير الرجل المستقيم ينبغي ان يُعتبر شيئاً مفروغاً منه . والى هذا ففي استطاعتنا، وقد مُنحنا طبائع معيّنة أن نسلّم بامكانية نشوء جمالات الفضائل الانسانية كلها في معتقدٍ مختلف عن معتقدنا .

أيّ شيء كان رأيه في هذه العقيدة الاساسية ، او تلك الغامضة من غوامض الدين ؟ هذا سر من اسرار الايمان الباطني التي لا تُعرَفُ إلا في القبر حيث تدخل الأرواح عارية . ولكنا واثقون من ان مصاعب الايمان لم تنته به قط الى الزندقة . إنّ فساداً ما لا يمكن ان يتطرق الى الماس . لقد آمنَ ما وسعهُ

* Sambre - et - Meuse مديرية فرنسية من مديريات الامبراطورية الاولى .

** المقصود بالارثوذكسية هنا صحة المعتَقَد والموافقة للدين الحقيقي ، او المستقيم ، كما تفهمه النصوص ، او كما فهمه اصحابه الاولون .

الايمان . كان يهتف دائماً *Credo in Patrem* * والى هذا فقد كان يستمد من اعماله الصالحة ذلك المقدار من الارتياح الذي يرضي الضمير ، والذي يهمس في أذن المرء : « انت مع الله » .

ونعتقد ان من واجبنا ان ننص هنا على ان فؤاد الاسقف كان عامراً خارج نطاق ايمانه ، اذا جاز التعبير ، ووراء ذلك الايمان – بفرطٍ من الحب . وبسبب من هذا ، *quia multum amavit* ** ، اعتُبر قابلاً للنقد والتجريح عند « الرجال الجدّيين » ، و « الاشخاص الوقورين » ، واصحاب العقول الرشيدة » ، وهي تعابير أثيرة في عالمنا الحزين حيث تتلقى الانانية كلمة السرّ من التظاهر بالعلم والمعرفة . ولكن اي شيء كان فرطُ الحب هذا ؟ كان لطفاً رائقاً يغمر الرجال كما سبق منا القول ، ويمتدّ في بعض الاحيان الى الاشياء . لقد عاش من غير ازدراء واستخفاف . كان شفيقاً على خلق الله . والحق ان لدى كل امرىء ، مهما يكن فاضلاً ، خشونة طائشة يحتفظ بها ، من باب الاحتياط ، للحيوانات . ولكن اسقف د ... كان خلواً من هذه الخشونة التي تميّز معظم الكهان . انه لم يذهب الى حد البراهمة *** ولكن يبدو انه تفكّر كثيراً في هذه الكلمات من « سفر الجامعة » : « من ذا الذي يعرف الى اين تمضي روح البهيمة ؟ » إن بشاعة المظهر ، وقباحة الغريزة لم تقلقاه ولم تسخطاه قط . كانتا تحركان فيه عاطفة الشفقة وتوقعان في ذات نفسه مزيداً من اللين والرقة . لقد بدا وكأنه يبحث ، وراء الحياة الظاهرية ، في روية وتفكير ، عن السبب ، والتفسير ، أو العذر . بل لقد بدا وكأنه يلتمس من الله ، في بعض الاحيان ، تلطيفاً لعقاب الآثمين . كان يدرس من غير انفعال ، وبعين اللغوي الذي يفكّ رموز رقّ قديم أزيلت الكتابة الأصلية عنه ليُكتب عليه من جديد ، مقدارَ الاختلاط والتشوّش اللذين لا يزالان في الطبيعة . وكان هذا الاستغراق في التفكير ينتزع منه في بعض الاحيان كلمات عجيبة . فذات صباح كان يتمشّى في حديقته ؛ لقد حسب

* في اللاتينية ، ومعناها : اؤمن بالآب .

** في اللاتينية ايضاً ، ومعناها : لانه أحب كثيراً .

*** جمع برهمي ، وهو احد افراد الطبقة الكهنوتية اعلى الطبقات الوراثية الأربع في المجتمع الهندوسي .

نفسه منفرداً . ولكن اخته كانت تمشي خلفه من غير ان يراها . وفجأة كفّ عن السير ، ونظر الى شيء ما فوق وجه الارض. كانت رتيلاء سوداء ، شعراء، راعبة . وسمعته اخته يقول :

— « يا من بهيمة مسكينة ! الذنب ليس ذنبها ! »

ولمَ لا نتحدث عن طفلية الطيّبة هذه التي تكاد تكون التّهية ؟ انها قد تكون شيئاً صبيانياً ، ولكن هذه الاشياء الصبيانية الرفيعة هي التي عُرف بها القديس فرانسوا الأسّيسي * ، ومـاركوس اوريليوس ** وذات يوم آثر ان يلتوي مفصلهُ على ان يسحق نملة .

كذلك عاش هذا الرجل المستقيم . كان يقصد الى جنينته ، بعضَ الاحيان ، لينام فيها ؛ وعندئذ لم يكن ثمة شيء ادعى الى التوقير والاحترام .

كان مونسينيور بيينفينو من قبل، وفقاً للروايات المتصلة بصباه بل وبصدر شبابه ، رجلاً شديد الانفعال ؛ وقد لا نخطيء اذا قلنا انه كان رجـلا عنيفاً . ومن هنا لم يكن حلمه الشامل غريزة طبيعية بقدر ما كان ثمرة يقين راسخ 'قطّر، من خلال الحياة ، الى فؤاده ، متساقطاً في مهل ، فكـرةً إثر فكرة . ذلك بأن قطرات الماء قادرة على ان تُحدث في الشخصية حفَراً كالتي تحدثها في وجه الصخر سواء بسواء . ومثل هذه التجاويف غير قابلة للمحو. إنها تمتنع على الزوال.

لقد بلغ عامَ ١٨١٥ ، كما نحسب أنا أسلفنا القول ، سنّه السادسة والسبعين ، ولكنه كان يبدو وكأنه لمّا يتجاوز الستين . إنه لم يكن طويل القامة ؛ وكان بديناً بعض الشيء ، فهو كثيراً ما يأخذ باسباب المشي الطويل ابتغاء التغلب على هذه البدانة . كان ثابت الخطو، ولم يكن ظهره محدودباً الا قليلاً؛ وهي ظاهرة

---

* Francois D'assise مؤسس رهبانية الفرنسيكان . وقد اشتهر بعطفه على الفقراء ورفقه بالمستضعف من الحيوان . (١١٨٢ - ١٢٢٦)

** Marcus Aurelius اكثر الاباطرة الرومان صلاحاً ، تولى الحكم من عام ١٦١ الى عام ١٨٠ وخاض غمار حرب طويلة ظافرة ضد البرابرة المهددين للامبراطورية ، واشتهر بحكمته الرواقية ، واعتداله، وحبه للفلسفة والادب .

لا نعتزم ان نخلص منها الى استنتاجٍ ما . فقد كان غريغوار السادس عشر * ، في سنّ الثمانين ، منتصب القامة باسماً ، ولم يمنعه ذلك من ان يكون اسقفاً رديئاً . وكان لمونسينيور بيينفينو ما يدعوه الناس « عقلاً راجحاً » ولكنه كان أنيساً الى حدّ يُنسيك أنه ذو عقل راجح .

فاذا ما تحدّث بذلك الابتهاج الطفليّ الذي كان مظهراً من مظاهر اللطف عنده ، والذي سبق منا الكلام عليه ، استشعر كل امرئ الارتياح في حضرته ، وبدا الحبور وكأنه يشعّ من شخصه كلـــه . كانت بشرته النضرة المتوردة ، وأسنانه البيضاء المحتفظة بسلامتها والتي كانت شفتاه تتكشّف عنها حين يضحك ، تخلع عليه تلك السّيما الصريحة الدمثة التي تجعلنا نقول عن الرجل : إنه ولد طيب ؛ وعن الرجل العجوز : إنه رجل طيب . كان ذلك ، كما نـذكر ، هو الاثر الذي تركه في نفس نابليون . فللوهـلة الاولى ، وبالنسبة الى من يراه اول مرة ، لم يكن مونسينيور بيينفينو اكثر من رجل طيب . ولكن ما إنْ يُنفق المرء بضع ساعات معه ويرى اليه مستغرقاً في التفكير حتى تتحول تلك الصورة شيئاً بعد شيء ، فتغدو ناضحة بالمهابة . كان جبينه العريض الجديّ الذي جعـله شعره الاشيب أثيلاً يبدو أثيلاً كذلك لحظةَ التأمّل والتفكير . وكان الجلال ينبثق من هذه الطيبة ، من غير ان تكفّ الطيبة عن الاشراق ؛ فيستشعر المرء شيئاً من تلك الهزة التي تعروه اذا ما رأى ملاكاً باسماً ينشر جناحيه في بطء من غير ان يكفّ عن الابتسام . كان الاحترام ــ الاحترام الذي يعجز البيـــان عن وصفه ــ خليقاً به ان يداخلك تدريجياً ، وان يتخذ سبيله الى فؤادك ، فتحسّ انك امام نفس من تلك النفوس القوية ، المجرّبة ، المتسامحة ، حيث الفكر هـو من العظمة بحيث لا يستطيع إلا ان يكون رفيقاً لطيفاً .

وكما رأينا من قبل ، فقد كانت الصلاة ، والنهوض بأعباء الخدمات الدينية ، والتصدّق على الفقراء ، ومواساة المحزونـــين ، وزراعة زاوية من الارض ، والاخاء ، والزهد ، وقِرى الضيف ، وقهر النفس ، والثقة ، والدّرس ، والعمل

---

* وقد تولى كرسي البابوية من عام ١٨٣١ الى عام ١٨٤٦ .

تُفعم كل يوم من ايام حياته . اجل ، « تفعم » هي الكلمة الملائمـة تماماً . وفي الحق ، إن يوم الاسقف كان مفعماً حتى الشفة بالافكار الطيبة ، والكلمات الطيبة ، والاعمال الطيبة . ومع ذلك فأنه ما كان ليكتمل اذا حال البرد او المطر بينه وبين قضاء ساعة او اثنتين من ساعات الليل – بعد ان تـأوي المرأتان الى فراشهما - في حديقته قبل أن يستسلم للرقاد . لقد بدا وكأن الاستعداد للنوم من طريق التأمل أمـام مشهد السماء الداجية الناضح بالعظمة كان ضرباً من الطقس الدينيّ عنده . وفي بعض الاحيان ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، كانت المرأتان تسمعانه ، إذا ما أطالتا السهر ، يتمشى وئيداً في ممرات الحديقة . كان يخلو هناك الى نفسه ، هادئاً ، رابط الجأش ، عابداً ، مقارناً ما بين صفاء قلبه وصفاء الاثير – وقد حرك عواطفَهُ في الدجنّة بهاءُ الكواكب المنظور وبهاء الله غير المنظور – باسطاً روحه للفكرات التي تهبط من المجهول . وفي مثل هذه اللحظات ، حين كان يقرّب قلبه قرباناً لله في تلك الساعة التي تنفث فيها ازاهير الليل عبيرها ، وحين كان يبدو مُضاءً مثل مصباح في جوف الليل ذي النجوم ، ساطعاً في جـذل وسط اشعاع الكون الكليّ ، لم يكن في ميسوره هو نفسه ان يقول ايّ شيء كان يدور في خلَده . لقد أحسّ بشيء يزايله ، وبشيء يهبط عليه . مبادلات عجيبة بين أعماق النفس وأعماق الكون .

كان يتفكّر في عظمة الله ، وفي وجود الله ؛ في أبـدية المستقبل ، وهي لغز عجيب ؛ في أزلية الماضي ، وهي لغز اعجب ، وفي جميع اللانهـايات المحتجبة من حوله في كل اتجاه ؛ ومن غير ان يحاول فهْمَ ما لا سبيل الى فهمه كان يراهـا . إنه لم يدرس الله ؛ كان يبهره التفكير في ذلك . لقد تأمل في الاتحادات البهيّـة التي تجمع ما بين الذرات ، والتي تخلع على الطبيعة اشكالاً منظورة ، كاشفةً عن القوى من طريق إنشائهـا ، خالقةً الفرْديات في الوحدة ، والنسب في الامتداد ، واللامعدود في اللانهاية ؛ مولّدةً الجمال من خلال النور . وإنما تنعقد هذه الاتحادات وتنحلّ في غير انقطاع . ومن هنا الحياة والموت .

كان يجلس على مقعد خشبيّ مستندٍ الى عريشة مكسورة ، وينظر الى النجوم

من خلال أشباح شجراته المثمرة ، المهزولة الكسيحة . فقد كانت هذه الفلذة من الارض ، البالغة مساحتها ربع أكر ، والمزروعة اسوأ زراعة ، والمثقلة بالخِرَب والانقاض ، أثيرةً لديه ؛ وكانت تكفيه .

وايّ شيء اكثر من هذا كان يحتاج اليه ذلك الرجـــل العجوز الذي وزّع ساعات فراغه ، وما كان اندرهـا واقلّها ، بين البَسْتنة في النهار ، والتأمل في الليل ؟ الم تكن هذه الحظيرة الضيقة ، التي تؤلف السمواتُ سَمْكها ، كافيةً لأن تمكّنه من عبادة الله ، بالتناوب، في مبتدعاته الاكثر جمالاً، وفي مخلوقاته الاكثر سمواً ؟ أليس هذا كل شيء ، في الواقع ؟ واي شيء يبتغي وراء ذلك ؟ جُنينة يتمشى خلالها ، وفضاءٌ يتأمل فيه . فعند قدميه شيء يمكن ان يُزرع ويُجنى ، وفوق رأسه شيء يمكن ان يُدرَسَ ويُطلق سَرْحُ التأمل فيه ؛ بضعُ زهرات على الارض ، وجميع الكواكب في السماء .

١٤
افكاره

بقيت كلمة اخيرة .

لما كانت هذه التفاصيل -وبخاصة في العصر الذي نعيش فيه ، ولكي نصطنع تعبيراً هو اليوم زيّ شائع- خليقةً بأن تخلع على اسقف د... سيماء « بانثييستية »* ما ، وتوقع في النفس - سواء أأدّى ذلك الى لومه او الى تمجيده - انه كان يدين بأحدى هذه الفلسفات الشخصية التي يتميز بها عصرنا ، والتي تنجم أحياناً في العقول المتوحّدة وتنمو وتستحصد حتى تحلّ محلّ الدين -لمّا كانت هذه التفاصيل

* الـ Panthéisme وحدة الوجود ، او الوهية الكون ، وهو مذهب فلسفي يقول بان الله والكون واحد ، اي ان الله حالّ في كل شيء ، ومن هنا جاز ان يطلق الله على كل شيء .

خليقة بأن توهمنا بهذا كله فاننا نصرّ على القول إن أحداً ممن عرفوا مونسينيور بيينفينو ما كان ليجيز لنفسه أن يزعم هـــذا الزعم . لقد كان القلب هو الذي أنار بصيرة هذا الرجل . كانت حكمتُهُ مكوّنة من النور المنبعث من هناك .

لم تكن له طرائق ونُظُم ،ولكن كانت له أعمال كثيرة. إن البحوث النظرية العويصة تورث الصداع ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بأنه سوف يعرّض عقله للمخاطر من طريق الرؤى الصوفية التي تمّت للقديس يوحنا الانجيلي واحدة منها . إن في إمكان الرسول ان يكون مقداماً ، اما الاسقف فينبغي ان يكون هيّاباً . ولعله كان يتردد في ان يسبر غور بعض المسائل التي يُقصَر الخوض فيهـا بطريقة مـــا ، عـلى العقول الكبيرة المخيفة . ان ثمة رعباً مقدساً يكتنف الطريق الى الالغاز الصوفية . إن بعض الفجوات القائمة لتفغر فاها هناك ، ولكن شيئاً يقول لك فيما انت تقترب من شفير الموت : لا تدخل ! الويل لمن يدخل !

إن هناك عباقرة يرفعون فكراتهم الى الله ، وهم في غمرة مـــن التجريد الذي لا تُسْبَر أغواره ومن التأمل المحض ، فكأنهم ، اذا جاز التعبير ، فـوق العقائد الدينية جميعاً . ان صلاتهم لتعرِض ، في جراءة ، نقاشاً ما . وإن عبادتهم لتستجوب . ذلك هو الدين المباشر المفعم بالقلق والمسؤولية عند مـــن يتسلق جدرانه .

ليس للفكر البشري حدود . انه يحلل ويشرّح ، على مسؤوليتـه ، انبهـاره هو . وفي ميسورنا ان نذهب الى القول إنه ، بطريقة من الرجع الرائع ، يبهر الطبيعة ؛ فالعالم الخفيّ الغامض الذي يحيط بنا يُعيد ما يتلقى ؛ ومن الجـائز ان يكون المتأملون هم أنفسهم موضوع تأمل . وأياً ما كان ، فعلى ظهر الارض رجال – هل هم رجال وحسب ؟ – يستطيعون ان يلمحوا بوضوح ، في أفـــق تأملاتهم ، قمم المطلق الشامخة ، ويملكون الرؤيا المروّعة للجبل اللانهائي . ان مونسينيور بيينفينو لم يكن واحداً من هؤلاء الرجال ؛ إنه لم يكن عبقريـاً . كان خليقاً به ان يرهب هذه الذرى التي انزلق منها رجال ، بعضهم عظيم جداً ،

مثل سويدنبورغ* وباسكال **، نحو الجنون الكامل. وليس من شك في ان لهذا الاستغراق في التفكير الحالم فائدته الاخلاقية ؛ ومن هذه الطرق الوعرة يستطيع المرء ان يدنو من الكمال المثالي . أما هو فسلك السبيل المستقيمة ، التي هي قصيرة : الانجيل .

انه لم يحاول ان يجعل حلة القداس التي يرتديها تتخذ ثنيّات رداء ايليا . *** وما كان ليلقي أيما شعاع من أشعة المستقبل على تقلّب الاحداث المظلم . انه لم يسع قط الى ان يركز وميض الاشياء حتى يغدوَ شعلة . لم يكن فيه شيء من النبي أو شيء من الساحر . كانت نفسه المتواضعة تحبّ ؛ هذا كل ما هنالك .

أما أنه بسط صلاته حتى تبلغ مطمحاً فوق بشريّ ، فهذا مرجّح . ولكن الغلو في الصلاة كالغلو في الحب ، غير محمود . واذا كان من الزندقة ان يصلي المرء خارج النصوص فعندئذ تكون القديسة تيريزا **** والقديس جيروم ***** زنديقين .

---

* Swedenborg فيلسوف متصوف سويدي ، ولد في ستوكهولم وتوفي في لندن (١٦٨٨–١٧٧٢) وكان يزعم انه على اتصال بالعالم الروحي وانه يوحى اليه منه . وكان له مريدون كثير .

** Pascal هو الرياضي ، الفيزيائي ، والفيلسوف الفرنسي (١٦٢٣ – ١٦٦٢) وقد اتجه اثر حادثة وقعت له ، اتجاهاً دينياً ، ومات في ريعان شبابه قبل ان يتم دفاعاً عن النصرانية كان قد شرع في وضعه ثم نشرت اجزاء منه بعنوان « خواطر » *Pensées* . واتما يشير فيكتور هيجو هنا الى ما رواه الكاهن بوالو – وهو ما لم يؤيده شاهد آخر – من ان باسكال اصيب في آخر أيامه بهلوسة جعلته يرى في كثير من الاحيان وكأن هاوية تفغر فاها غير بعيد عنه لكي تبتلعه .

*** هو نبي يهودي تذكر التوراة انه دعا شعبه الى نبذ عبادة بعل وعشتروت وقام بمعجزات كثيرة . وفي التوراة ايضاً انه رفع الى السماء على عربة من نار ، وانه عهد الى أحد تلاميذه في متابعة رسالته تاركاً له رداءه لكي يتمكن من أن يأتي بمثل الاعاجيب التي اتى بها هو . ويرمز الفرنسيون بـ « رداء إيليا » الى ان شخصاً ما قد ورث موهبة ما عن استاذه أو سيده .

**** مصلحة اسبانية اشتهرت برؤاها وتصوفها . (١٥١٥ – ١٥٨٢)

***** احد آباء الكنيسة اللاتينية ، وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية (٣٤٠ – ٤٢٠ م)

كان يحدب على المحزونين والتائبين . لقد بدا الكون في نظره وكأنه داء ضخم عريض . كان يتروح الحمّى في كل مكان ، ويصيخ الى الآلام في كل مكان ؛ ومن غير ان يحاول حل اللغز سعى الى ان يضمد الجرح . لقد أوقع مشهد المخلوقات الرهيب رقة في نفسه ولطفاً . وكان منهمكاً دائماً في ان يبحث لنفسه — ويوحي الى الآخرين — عن افضل الطرق الى العطف والمواساة . فقد كان العالم كله ، عند هذا الكاهن الصالح النادر المثال ، موضوع حزن سرمدي ، فهو يلتمس المواساة أبداً .

ان ثمة رجالاً يجهدون بسبيل استخراج الذهب ؛ أما هو فكان يجهد بسبيل استدرار المَرْحمة . وكان الشقاء الشامل هو منجمه ، ولم يكن الالم المتفشي في كل مكان غير مناسبة للعمل الصالح مستمرة . **أحبوا بعضكم بعضاً** ؛ لقد اعتبر ذلك عنوان الكمال . إنه ما كان يتمنى شيئاً اضافياً ، فقد كانت هذه الكلمات تؤلف عقيدته كلها . وذات يوم قال ذلك الرجل الذي عدّ نفسه « فيلسوفاً » — عضو الشيوخ الذي أشرنا اليه سابقاً — قال للاسقف :

— « ولكن انظُرْ الى مشهد العالم . انْ كل امرىء من الناس ليقاتلُ الناسَ جميعاً ، وإنّ أقوى الناس هو افضل الناس . وليست آيتك القائلة « **أحبوا بعضكم بعضاً** » اكثر من حماقة . »

فأجابه مونسينيور بيينفينو من غير ما مناقشة :

— « **حسن . اذا كانت حماقة فيتعين على النفس أن تحتجب فيها كما تحتجب اللؤلؤة في المحارة .** »

واحتجب هو فيها ، وعاش فيها ، واكتفى بها اكتفاء مطلقاً ، مطّرحاً المسائل الخفية العجيبة التي تَجْـذِبُ وتُرعب ، وأغوار التجريد التي لا تُسبر ، ومبادىء الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة — مهملاً كلّ هذه الغوامض التي تنصبّ ، عند الرسول ، على الله ، وعند الملحد ، على العدم : — القَدَر ، والخير والشر ، وتناحر المخلوقات ، وضمير الرجل ، واحلام الحيوان التي تجاوز التفكير ، والتحول الذي يتم بالموت ، ومراجعة الحيوات الثاوية في القبر ، وتلقّح الأنا

المستمرة بالاهواء المتعاقبة تلقحاً لا سبيل الى فهمه ، والجوهر ، والمـــادة ، واللاشيئية ، والشيئية ، والنفس ، والطبيعـــة ، والحرية ، والضرورة ؛ مسائل عويصة ، وأعماق كالحة يُجذب نحوها « رؤساء ملائكة » الجنس البشري الضخام ؛ وهُوىً * راعبة يتفكر فيها لوكريتيوس ** ومانو *** والقديس بولس ، ودانتي ، بتلك العين الساطعة التي تبدو ، اذ تحدّق الى اللانهاية تحديقاً موصولاً ، وكأنها تضرم النار في النجوم نفسها .

كان مونسينيور بيينفينو مجرد رجل تقبّل هذه المسائل الغامضة من غير ان يتعمّقها ، ومن غير ان يثيرها ، ومن غير ان يُقلق عقله بها ؛ رجل يُكنّ في ذات نفسه احتراماً عميقاً للسرّ الذي يكتنفها .

---

* جمع هُوّة .

** Lucretius شاعر روماني (حوالى ٩٥ – حوالى ٥٣ ق . م) نادى بمادية ابيقور في قصيدة له مشهورة غنية بالفكر الرحب . ومات منتحراً .

*** Manou او Mānava - bharma - Cāstra احد الكتب الهندية المقدسة التي تبسط العقيدة البرهمية . وتطلق هذه اللفظة ، في ما تطلق ، على أنصاف الآلهة الاربعة عشر التي تحكم العالم – حسب المعتقد البرهمي – على التعاقب .

الكتاب الثاني

السقوط

١

بعد مسيرة يوم بكامله

قبل المغيب بساعة تقريباً ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨١٥ ، دخل رجلٌ مترحّل على قدميه مدينة د ... الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم أو على عتبات ابوابها إلا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من القلق . فقد كان من العسير ان تقع العين على عابر سبيل ذي مظهر اشدّ بؤساً . كان ربعة في الطول ، بديناً ، جلداً على الصعاب ، وفي عنفوان العمر ؛ ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانت قلنسوة جلدية مُمالةٌ الى

جانب تخفي ، نصفَ إخفاءٍ ، وجهَهُ الذي برتزتهُ * الشمس والريح ، وسال منه العرق . كان صدره الاشعث بادياً من خلال القميص الاصفر الخشن المشدود حول الرقبة بمثبّت فضي صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالحبل ، وبنطلوناً كتانياً ازرق خشناً ، متهرئاً بالياً ، ابيضّت احدى ركبتيه وتناثرت الثقوب في ركبته الاخرى ؛ وصدرة رمادية عتيقة رثة رُقعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قنّب . وعلى ظهره كان كيس من أكياس العساكر ، مُحكم الربط ، جديدٌ بالكلية ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عُقَد : كانت قدماه غير المجوربتين تنتعلان حذاءً رُصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوراً ، وكانت لحيته طويلة .

وأضاف العرق، والحرارة ،والسير الطويل،والغبار قذارةً تمتنع عن الوصف الى هذا المظهر الخرب .

كان شعره حليقاً حتى الجلد ، ولكنه مع ذلك قاسٍ خشن . ذلك بأنه كان قد شرع ينمو بعض الشيء ، وبدا وكأنه لم يُحلق منذ مدة قصيرة .

إن احداً لم يعرفه . كان واضحاً أنه عابر سبيل ليس غير . من اين أقبل ؟ من الجنوب ، وربما من شاطيء البحر . ذلك بأنه دخل بلدة د ... من الطريق نفسها التي سلكها الامبراطور نابوليون ، قبل سبعة اشهر ، من « كان » الى باريس. ولا بدّ ان يكون هذا الرجل قد سلخ سحابة يومه وهو يسعى على قدميه، فقد بدا شديد الاعياء . لقد بصُرت به بعض نسوة البلدة العتيقة القائمة في الجزء الادنى من المدينة وقد وقف تحت شجرات جادة غاساندي وانشأ يشرب من الينبوع المتدفق عند اقصى المنتزه . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقّبوه رأوه يقف كرة اخرى ، ولمّا يتقدّمْ مئتي خطوة اضافية ، ليعاود الشرب من الفوّارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواشوفير انعطف يَسْرةً ،ومضى الى مكتب العمدة. ودخل المكتب ؛ ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالساً قرب

* اي جعلته يمثل لون البرونز .

الباب على المقعد الحجري الذي ارتقاه الجنرال دروووه * ، في ٤ آذار ، ليتلو على ابناء د... المروّعين إعلان غولف جوان ** فرفع الرجل قلنسوته وحيّا الدركي في ذلة .

ومن غير ان يردّ التحية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، وأتبعه عينيه فترةً ما ثم دخل دار البلدية .

وكان في د ... فندق حسن يدعى « لا كروا دو كولبا » ، وكان يتولى ادارته فندقيّ اسمه جاكان لابارّ ، وهو رجل كان له بعض الاعتبار في المدينة بسبب من صلة النسب التي تربطه بـ « لابارّ » آخر يدير فندقاً في غرينوبل يدعى « تروا دوفين » ، وقد سبق له ان خدم في كتائب الحرس . ومنذ أن وطىء الامبراطور *** الارض الفرنسية ثار في البلاد لغط كثير حول فندق الـ « تروا دوفين » هذا . لقد قيل إن الجنرال برتران رحل الى هناك عدة مرات ، خلال كانون الثاني ، متنكراً بزيّ سائق عربة ، ووزع اوسمة « صليب الشرف » على الجنود ، وحفنات من الليرات المعروفة بـ « نابوليون » على جماعة من البورجوازيين . والحقيقة ان الامبراطور رفض ، يوم دخل غرينوبل ، أن ينزل في دار المحافظ قائلًا له بعد ان شكره : « **سوف امضي الى بيت رجل شجاع لي به معرفة .** » ثم شخص الى فندق الـ « تروا دوفين » . وانعكس هذا المجد الذي حظي به « لابار » صاحب فندق الـ « تروا دوفين » ــ انعكس عبرَ خمسة وعشرين فرسخاً على « لابار » صاحب فندق « لا كروا دو كولبا » . وتحدث الناس عنه ، في البلدة ، فقالوا : « **إنه ابن عم الرجل الغرينوبليّ !** »

وولى ابن السبيل وجهه قِبَلَ هذا الفندق ، الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل لتوّه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجاقاته موقدة ،

---

* Drouot قائد فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٤٧) ، ابلى بلاء حسناً في موقعة واغرام ، وموقعة لوتزن ، وموقعة واترلو .

** Golfe - Juan من اعمال « اقليم الالب البحري » حيث هبط نابوليون الارض الفرنسية عند عودته من منفاه في جزيرة آلبا .

*** نابوليون ، إثر عودته من ألبا .

وكانت نار عظيمة تضطرم رشيقة في الموقد . وكان صاحب النُزُل ، الذي كان في الوقت نفسه كبير الطهاة ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية ذوات المقابض، منهمكاً في إعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضحكون ضحكاً مدوياً ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة . وكلٌ من قدّر له ان يسافر يعرف ان احداً لا يحيا أحسن مما يحيا سائقو العربات . كان مرموط سمين * يحيط به حِجلانٌ ** بيضٌ وإوزٌ ، يدور على سفّود طويل حول النــار . وعلى الوجاقات نضج شبوطان *** ضخمان من بحيرة لوزيه ، وتروتة **** من بحيرة آلوز .

وقال صاحب النزل ، وقد سمع الباب يُفتح ، ويدخل قادم جديد، ولكنْ من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات :

- « ما الذي يريده السيد ؟ »

- « اريد أن آكل وانام . »

فقال صاحب النزل : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقى نظرةً على المسافر أضاف : « لقاء أجرة . »

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جلدياً كبيراً وأجاب :

- « عندي مال . »

فقال صاحب النزل : « اذن ، أنا في خدمتك . »

واعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد أنزل الكيسَ العسكري عن ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، ممسكاً عصاه بيده . ذلك بان بلدة د ... جبلية ، وليالي تشرين الاول قارسة فيها .

وايّاً ما كان فقد أبقى صاحب النزل في غدوّه ورواحه عيناً حذرة على المسافر .

وقال الرجل : « هل العشاء جاهز ؟ »

* حيوان من ذوات الاربع في حجم الارنب تقريباً وفي مثل هيئته إلا أن ذنبه أقصر .

** جمع حَجَل .

*** الشبّوط ضرب من سمك الماء الحلو .

**** من سمك الماء الحلو ايضاً .

فأجاب صاحب الفندق : « سيكون جاهزاً في الحال . »

وفيما الوافد الجديد يتدفأ ، مديراً ظهره ، اخرج صاحب النزل الفاضل ، جاكان لابارّ ، قلماً من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الابيض خطّ سطراً أو سطرين ، وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته مساعدَ طاهٍ وخادماً في آن معاً . وهمس صاحب الفندق بكلمة في أذن الغلام ، فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم يرَ المسافرَ شيئاً من ذلك .

وتساءَل كرة اخرى :

— « هل الطعام جاهز ؟ »

فأجاب صاحب المنزل :

— « سيكون جاهزاً في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملاً قصاصة الورق . ونشرها صاحب المنزل على عجل ، فعلَ من يتوقع جواباً . وبدا وكأنه يقرأ في انتباه ، ثم فكّر لحظة طارحاً رأسه الى جانب . واخيراً تقدّم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقاً في تفكير مشوّش كدِر .

وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونهض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

— « لماذا؟ أتخاف ان لا ادفع اليك الثمن، أم انك تريدني ان أدفعه مقدّماً؟ إن عندي مالاً ، اقول لك . »

— « ليس هذا هو السبب . »

— « ما السبب اذن ؟ »

— « إن عندك مالاً ... »

فقال الرجل : « نعم . »

فاردف صاحب النزل : « ولكنْ ليس عندي غرفة . »

فأجابه الرجل في هدوء :

- « ضعني في الاسطبل . »

- « لا استطيع . »

- « لماذا ؟ »

- « لأن الخيل تحتلّ المكان كله . »

فسارع الرجل الى القول :

- « حسن . زاوية في العلّية . حزمة من القشّ . سوف ننظر في هذه المسألة بعد العشاء . »

- « انا لا أستطيع ان اقدّم اليك عشاء . »

وبدا هذا الاعلان ، المفرغ في جَرْس موقّع ولكنه جازم ، خطيراً في نظر الرجل الغريب . فنهض .

- « آه ياه ! ولكني أموت من الجوع . لقد مشيت منذ مطلع الشمس ؛ لقد قطعت اثني عشر فرسخاً * . سوف ادفع . أريد ان آكل ! »

فقال صاحب المنزل : « ليس عندي شيء . »

وانفجر الرجل ضاحكاً ، واستدار نحو الموقد والوجاقات .

- « لا شيء ! وهذا كله ؟ »

- « إنه طعام محجوز . »

- « ومن الذي حجزه ؟ »

- « هؤلاء السادة سائقو العربات . »

- « وما عددهم ؟ »

- « اثنا عشر . »

- « إن ثمة طعاماً يكفي عشرين . »

- « لقد حجزوا الطعام ودفعوا ثمنه كله مقدماً . »

وعاود الرجل الجلوس وقال من غير ان يرفع صوته :

---

* الفرسخ : اربعة كيلومترات .

ـ « انا في الفندق . إنني جائع ، ولسوف ابقى . »

فانحنى صاحب النزل فوق أذنه وقال في صوت جعله يرتجف :

- « أخرج من هنا ! »

ولم يكد المسافر يسمع هذه الكلمات ، وكان منحنياً يحرّك بعض الجمرات في النار بطرف عصاه المغلّف بالحديد ، حتى استدار فجأةً ، وفتح فاه ليجيب . فما كان من صاحب النزل ، الناظر اليه نظراً موصولاً ، إلا ان اضاف في الصوت الخفيض نفسه :

ـ « كفى . حذار ان تقول كلاماً كهذا بعد الآن ! أتريد أن أقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان ڤالجان . والآن ، اتريد ان اقول لك من أنت ؟ فمنذ ان رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فاتصلت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاءني . هل تعرف القراءة ؟ »

واذْ قال ذلك ، قدّم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقتْ من النزل الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزل . والقى الرجل نظرةً عليها . وبعد صمت ، استأنف صاحب الفندق كلامه :

ـ « من عادتي ان اكون لطيفاً مع الناس جميعاً . إذهَبْ ! »

وطأطأ الرجل رأسه ، ورفع كيسه عن الارض ، ومضى لسبيله .

واتخذ الطريق الرئيسية ، هائماً على وجهه ، محاذياً البيوت مثل رجل محزون مَهين : إنه لم يلتفت مرةً واحدة الى وراء . ولو قد فعل ، اذن لرأى صاحب فندق « لا كروا دو كولبا » واقفاً بباب نُزله ، وقد احاط به زبائنه جميعاً ، واجتمع حوله عابرو السبيل كلهم ، متحـدثاً في اهتياج ، مشيراً اليه بأصبعه ؛ وإذن لأدرك من خلال نظرات الحذر والجزع التي تبادلها القـوم ، ان قدومه سوف يصبح عما قليل حديث البلدة برمّتها .

إنه لم ير شيئاً من ذلك كله . فالناس الذين تَبهظهم الهمـوم لا يلتفتون الى وراء . إنهم يعرفون معرفة يقينية ان النحس يلاحقهم .

وواصل سيره على هذه الشاكلة فترةً ما ، هابطاً من غير ما قصـد شوارع

بجهلها ، ناسياً التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائماً . وفجأة استشعر عضة الجوع . كان الليل على وشك ان يهبط فاجال طرفه في ما حوله باحثاً عن مأوى.

لقد أوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه. فليلتمس الآن حانةً متواضعة، أو قبواً حقيراً .

وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند اقصى الشارع . لقد رأى غصن صنوبر معلقاً بسنادٍ حديديّ ناتيء ، تحت سماء الغسق البيضاء . فمضى الى هناك .

وفي الحق ، أنها كانت حانة . ألحانة القائمة في شارع دو شوفو .

ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعة الحانة الخفيضة ، المضاءة بمصباح رُفع على احدى الطاولات ، وبنار عظيمة تضطرم في الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الخمر ؛ وكان صاحب الحانة يتدفأ . وكانت قدر حديدية تتدلى من مِعلاق المِرجل ، فتحملها النار على الغليان .

وكان لهذه الحانة ــ وهي ضربٌ من المطعم أيضاً ــ مدخلان اثنان، احدهما منفتح على الشارع ، والآخر منفتح على فِناء صغير مليء بالقاذورات .

ولم يجرؤ ابن السبيل على الدخول من الباب الاول . لقد انسلّ الى الفِناء ، ووقف كرةً اخرى ، ورفع المزلاج في خشية ، ودفعَ الباب .

وقال ربّ الحانة : « مَنْ هناك ؟ »

ــ « رجل يلتمس عشاء ومبيتاً . »

ــ « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ؛ فلم يَبْقَ احدٌ من الشَّرْب * إلا التفت نحوه . وأضاء المصباح جانباً من وجهه ، واضاءت النار الجانب الآخر . وتأمّله القوم فترةً فيما كان يحطّ كيسه عن ظهره .

وقال له صاحب الحانة : « هذه هي النار . إن العشاء يُنضج في القِدْر . تعال وتدفأ يا رفيقي . »

وجلس قرب المستوقَد ، ونشر رجليه نحو النار ، وقد كاد الأعياء يُميته .

* جماعة الشاربين .

وانطلقت من القِدر رائحة زكية . وكان كل ما بـــدا من محياه تحت قلنسوته المهالة ينمّ عن مَظهر غبطةٍ غامض ممتزج بتلك السّيما المحزونة التي يخلعها على المرء تطاول العذاب الموصول .

كانت هيئته الجانبية قوية ، نشيطة ، حزينة . وكانت سيماه تلك غريبة حقاً : لقد بدت اول الأمر حقيرة ، ثم انتهت الى ان تبدو قاسية . والتمعت عينه تحت حاجبيه وكأنها النار تحت عوسجة .

بيد أن رجلاً ممن انتظمتهم المائـــدة كان صياداً وضع جواده في الاسطبل الملحق بفندق لابارّ قبل ان يفد على الحانة القائمة في شارع دو شوفو . ولقد اتفق أن لقي ، صباح ذلك اليوم نفسه ، هذا الرجـــلَ الغريب المشبوه وهو يقطع الطريق ما بين برا داسّ و ... (لقد نسيت الاسم ، وأظن أنه ايسكوبلون .) فسأله الرجل الغريب ، الذي هدّه الأعياء ، ان يُردفه على جواده، فما كان من الصياد إلا ان أطلق العنان لجواده مضاعفاً من سرعته . وقبل نصف ساعة ، كان الصياد بين الحشد الذي تحلّق حول جاكان لابارّ ، وكان قد روى خبر اجتماعه البغيض به على مسامع القـــوم في « لاكروا دو كولبا » . وأومأ الى صاحب الحانة ، خلسةً ، أن يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض . كان المسافر قد استغرق في التفكير كرة اخرى .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجـل الغريب ، وقال في فظاظة :

— « ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة :

— « آه ! هل تعرف ؟ ... »

— « نعم . »

— « لقد طردوني من ذلك الفندق . »

— « ونحن نطردك من هذا . »

— « والى اين تريد ان اذهب ؟ »

— « الى مكان آخر . »

وتناول الرجل عصاه وكيسه ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة — وكانوا قد تعقبوا أثره من « لاكروا دو كولبا » ، وبدوا وكأنهم ينتظرونه . فالتفت اليهم مغضباً ، وتهددهم بعصاه ، فانفضوا من حوله مثل سرب من الطير .

وانتهى الى السجن . كانت سلسلةٌ حديدية تتدلى من الباب مشدودةً الى جرس . فأمسك بها وقرع .

وفُتحت نافذة الباب .

وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراماً :

— « سيدي السجان ، هل لك ان تفتح الباب وتسمح لي بالمبيت هنا هذه الليلة ؟ »

فأجابه صوت :

— « السجن ليس فندقاً . إفعلْ ما يحمل الشرطة على اعتقالك ، وعندئذ نفتح لك ! »

وأوصدت نافذة الباب .

ومضى الى شارع صغير حافلٍ بالجنائن ؛ كان بعضها مسوّراً بأسيجة ليس غير فهي تُبهج الشارع . وبين تلك الحدائق بَصُرَ ببيت صغير جميل ذي دور واحد ينبعث من نافذته نور . وحدّق من خلال الزجاج ، فعلَهُ حين بلغ الحانة من قبل ، فرأى غرفة رحبة بُيّضت بماء الكلس ، تحتوي على سرير مجلّل بالشيت المطبوع ، ومهد قائم في الزاوية ، وبضعة كراسيّ خشبية ، وبندقية ذات اسطوانتين معلقة على الجدار . وكانت في وسط تلك الغرفة طاولة ، وكان مصباح نحاسي يضيء غطاء الطاولة الابيض الخشن . والتمع ابريق صفيحيّ مترعٌ بالخمر وكأنه الفضة ، وتصاعد البخار من صحن الشورباء الأسمر . والى هذه المائدة كان يجلس رجلٌ في نحو الاربعين ، بهيج الفؤاد منطلق الاسارير ، يلاعب على ركبتيه طفلاً صغيراً . وغير بعيد منه كانت امرأة شابة ترضع طفلاً آخر . كان الوالد يضحك ، وكان

الولد يضحك ، وكانت الأم تبتسم .

وظل ابن السبيل لحظةً يتأمل هذا المشهد العذب المهدىء للاعصاب . ما الذي دار في خَلَدِه ؟ كان هو وحده القادر على ان يجيب عن ذلك . ولعله قد فكّر بأن هذا البيت السعيد لا بد ان يكون مضيافاً ، وبأنه قد يجد قليلاً من الشفقة حيث وقع بصره على هذه السعادة كلها .

ونقر على زجاج النافذة نقرةً واهنة .

ولم يسمعه احد .

ونقر كرةً اخرى .

وسمع المرأة تقول لزوجها :

— « يخيل اليّ ان ثمة شخصاً يقرع النافذة . »

فأجاب الرجل : « لا »

ونقر على الزجاج مرةً ثالثة . فنهض الزوج ، وحمل المصباح ، وفتح الباب .

كان رجلاً فارع الطول ، نصفه فلاح ، ونصفه من اصحاب الصنائع . وكان يرتدي مئزراً جلدياً رحباً ارتقى حتى كتفه اليسرى وشكّلَ جيباً يحتوي على مطرقة ، ومنديل احمر ، وقرن بارود ، ومختلف ضروب الاشياء التي ينتظمها الحزام . واداز رأسه الى وراء . فكشف قميصه الواسع المفتوح عن رقبته البيضاء العارية الشبيهة برقبة الثور . كان ذا حاجبين غليظين ، وشاربين ضخمين سوداوين ، وعينين جاحظتين . وكان الجزء الادنى من وجهه محجوباً ، والى ذلك كله فقد كانت تغلب عليه سيما الرجل الآمن في بيته ، الآخذ اكبر قسط من الحرية والراحة ، وهي سيما لا سبيل الى وصفها البتة .

وقال المسافر : « سيدي ، ألتمس عفوك : هل تستطيع ان تقدّم اليّ ، لقاء مبلغ من المال ، صحناً من الحساء ، وزاوية في السقيفة التي في حديقتك أنام فيها؟ قل لي هل تستطيع ان تقدّم اليّ ذلك ؟ لقاء مبلغ من المال أدفعه ؟ »

فسأله صاحب الدار : « من انت ؟ »

فأجابه الرجل : « لقد اقبلتُ من بوي مواسون؟ لقد مشيت طوال النهار.

لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . هل تستطيع ? اذا دفعت اليك مالاً ? »

فقال الفلاح : « انا لا أرفض أن أؤوي ايّ رجل ملائم يدفع أجر ذلك . ولكن لماذا لا تذهب الى الفندق ? »

– « ليس ثمة متسع . »

– « باه ! هذا مستحيل . ليس اليوم موعد معرض ولا سوق عامة . هل قصدتَ الى 'نزُل لابارّ ? »

– « نعم . »

– « ثم ماذا ? »

فأجاب المسافر في تردد :

– « لست ادري . لقد رفض ان يؤويني . »

– « هل قصدت الى ذلك المكان الذي في شارع دو شوفو ? »

فتعاظم ارتباك الرجل الغريب ، وتمتم :

– « لقد رفضوا إيوائي هناك ايضاً . »

ورانت على وجه الفلاح انطباعة ارتياب . ونظر الى الوافد الجديد من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ثم صاح فجأة وقد استبدّ به ضرب من الارتعاد:

– « أأنت ذلك الرجل ? »

وعاود النظر الى الغريب ، وارتدّ الى الوراء ، فوضع المصباح على الطاولة ، ونزع بندقيته عن الجدار .

ولم تكد زوجته تسمع قوله : « أأنت ذلك الرجـــل ? » حتى أجفلت ، وضمت ولديها بين ذراعيها ، وسارعت الى الاحتماء خلف زوجها . ونظرت الى الرجل الغريب في ذعر ، عارية العنق ، مشدوهة العينين ، وغمغمت في صوت خفيض :

– « Tso - maraude ! » *

---

* من كلام سكان مناطق الالب الفرنسية ، ومعناها: هرة تسرق غلات الارض قبل ان تُحصد، أو كما يسرق الجنود زمن الحرب .

جرى ذلـــك كله في وقت اقصر من ذلك الذي يحتاج اليه المرء لكي يقرأ نبأه . وبعد ان تأمّل الرجلَ كما يتأمل الانسان أفعى ، تقـــدّم رب الدار الى الباب وقال :

– « أخرجْ من هنا ! »

فقال الرجل : « باسم الشفقة ، أعطني جرعة ماء ! »

فأجابه الفلاح : « سوف اعطيك طلقاً نارياً ! »

ثم إنه اوصد الباب في عنف . وسمع الرجلُ مغلاقين ثقيلين يُسحبان . وما هي الا لحظة حتى أُغلقت النافذة الخشبية وقُضّبت * بالحديد على نحو صاخب .

وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الألب القارسة . وعلى ضوء النهـــار المحتَضَر لمحَ الرجل الغريب – في احدى الجنائن المواجهة للشارع – شبهَ كوخ مبنيّ من اللبن . وفي عزم ، اجتاز بسياج خشبي ، فألفى نفسه في الحديقة . ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو اشبه شيء بتلك الاكواخ التي يقيمها معبّدو الطرق لأغراضهم المؤقتة . ولقـــد ظنّ الرجل الغريب ، من غير شك ، انه كان في الواقع مأوى معبّد طرق . وكان يقاسي ألم البرد والجوع جميعاً . ولقد أذعن للجوع واحتمله ، ولكن ههنا وقاية من البرد على الاقل . وقد جرت العادة بأن يكون هذا الضرب من الاكواخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجوّ دافئاً هناك ، ولقد وجد ثمة فراشاً جيداً من قشّ . واستراح على هذا الفراش لحظةً ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما ألمّ به من الاعياء . واذْ أزعجه كيسه المشدود الى ظهره ، وإذ كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيـــس وسادةً ، فقد شرع يفك احد سيوره . وفي تلك اللحظة طرق سمعه نباحٌ ضارٍ ؛ فرفع عينيه فاذا به يرى عند وصيد الكوخ كلباً ضخم الرأس والعنق .

كان ذلك المكان وجارَ كلب !

---

* قضّبه بالحديد : وضع أحدثناه ليفيد معنى : أحكم إغلاق الباب او غـــيره بالقضبان الحديدية .

وكان هو نفسه شديد البأس راعباً . فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه مجناً ، وغادر الوجار على خير ما كان في وسعه ان يفعل ، وقد اتسعت خروق ثيابه وتعاظمت .

وغادر الحديقة أيضاً ، ولكنْ مرتداً الى الوراء ؛ وقد اضطرّ ، تهيّباً للكلاب ، الى ان يصطنع بعصاه تلك المناورة التي يدعوها المتمرسون بلعبة السيف والترس « الوردة المحجوبة » .

حتى اذا عاود الوثوب ، في مشقة ، من فوق السياج ، ألفى نفسه وحيداً ، كرة اخرى ، على قارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ، ومن غير مأوى ؛ بل ألفى نفسه طريداً حتى من الفراش القشي الذي وقع عليه في ذلك الوجار الحقير . ثم انه طرح نفسه – ولا نقول جلس – على حجر ، وبدا وكأن عابراً مرّ به سمعه يصيح :

– « أنا لستُ حتى كلباً ! »

ثم نهض ، وأنشأ يتسكع من جديد ، متجهاً نحو ظاهر البلدة ، رجاة ان يجد شجرة او ركاماً ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .

وواصل السيرَ على هذا النحو ، فترةً ما ، مطرق الرأس ابداً . حتى اذا خيّل اليه انه أمسى بعيداً عن المنطقة الآهلة بالبشر رفع عينيه ، واجالهما في ما حوله مستطلعاً . كان في حقل من الحقول ؛ وكانت امامه احدى تلك التلال المنخفضة المغطاة بقش الزرع المجزوز من أعقابه ، والتي تبدو بعد الحصاد اشبه شيء برؤوس حليقة .

كان الافق قاتماً مظلماً جداً ؛ ولم يكن ذلك بسبب من ظلمة الليل فحسب ، ولكن بسبب من السحب الشديدة الانخفاض التي تراءت وكأنها تتكيء على الكثيب نفسه ، والتي ارتقت مغطية السماء برمّتها . بيد ان بعض الغسق تباطأ في سمت الرأس ؛ وإذ كان القمر على وشك ان يطلع فقد شكلت تلك السحب في كبد السماء قوساً ضارباً الى البياض انبعث منه فوق الارض بعض الضياء .

كانت الارض إذن أحفل بالنور من السماء ، وهي حال توقع في النفس أثراً

مشؤوماً الى حدّ بعيد . وارتسم الكثيب ، الفقير الحقير ، باهتاً شاحباً على الافق القاتم . وكان ذلك كله قبيحاً ، وضيعاً ، فاجعاً ، محدوداً . ولم يكن في الحقل او على الكثيب غير شجرة شائهة – على بضع خطوات من المسافر – شجرة واحدة بدت و كأنها تلوي نفسها وتتثنى .

وواضح ان هذا الرجل كان بعيداً جداً عن ان يملك تلك السجايا العقلية والعاطفية الرقيقة التي تهب المرء حساسيةً لمَشاهد الطبيعة الممتنعة على الفهم. ومع ذلك فقد كان في تلك السماء ، وذلك الكثيب ، وهذا السهل ، وهذه الشجرة شيء موحش الى درجة جعلت الرجل ينقلب على عقبيه ، بعد لحظة من السكون والتأمل ، ويسارع الى الطريق العام . إنّ ثمّة لحظات تبدو الطبيعة خلالها مخاصمةً معادية .

لقد ارتدّ على آثاره . كانت ابواب د ... موصدة . ذلك بأن د ... التي قاست ضروب الحصار اثناء الحروب الدينية كانت لا تزال محاطةً ، سنة ١٨١٥ ، بأسوار عتيقة تقوم على جنباتها ابراج مربعة خُرّبت منذ ذلك العهد . فما كان منه إلا ان عبر من خلال احدى الثغرات ، ودخل البلدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، تقريباً . واذ لم يكن يعرف الشوارع ، فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد اكليركي . حتى اذا مرّ بساحة الكاتدرائية هزّ جمع كفه في وجه الكنيسة .

وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . هناك كانت تُطبع ، اولَ مرة ، بيانات الامبراطور والحرس الامبراطوري للجيش ، بعد أن يُمليها نابليون نفسه ، ويُحمَلَ من جزيرة ألبا .

وإذ كان الاعياء قد أنهكه ، وإذ كان لا يطمع في شيء أفضل ، فقد استلقى على مقعد حجري تجاه تلك المطبعة .

وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيسة امرأة عجوز . فرأت هذا الرجل مستلقياً في الظلام فقالت :

– « ماذا تفعل هناك ، أيها الصديق ? »

فأجابها في فظاظة والغضب يمازج صوته :

– « انت ترين ، ايتها المرأة الصالحة ، أني أزمع أن انام . »

وكانت المرأة الصالحة ، الجديرة بهذا الوصف حقاً ، هي مدام المركيز دو و ...

وقالت : « على هذا المقعد ؟ »

فقال الرجل : « لقد سلخت ُ تسع عشرة سنة وأنا أنام على فراش خشبيّ . أما الليلة فأنام على فراش حجري . »

– « أكنت جندياً ؟ »

– « نعم ، يا سيدتي الصالحة ، جندياً . »

– « لمَ لا تذهب الى الفندق ؟ »

– « لأنه لا مالَ عندي . »

فقالت السيدة دو و ... : « واأسفاه ، ليس في محفظتي غير اربعة فلوس . »

– « امنحيني إياها . »

وأخذ الرجل الفلوس الاربعة . وتابعت مدام دو و ... كلامها :

– « هذه الفلوس المعدودات لن تمكّنك من المبيت في فندق . ولكن هل حاولت ؟ إن من المتعذر عليك ان تقضي الليل هكذا . ولا بدّ انك تشكو البرد والجوع . ينبغي ان يقدّموا اليك مأوى تبيت فيه من غير ما مقابل . يجب ان يفعلوا ذلك صدقةً وإحساناً . »

– « لقد طرقت ُ كل باب . »

– « حسن ، ثم ماذا ؟ »

– « ولقد طردني كل إنسان ! »

ومست العجوز ذراع الرجل ودلّته الى بيت صغير منخفض قائم في الناحية الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف .

وقالت : « تقول انك طرقت كل باب ؟ »

– « نعم . »

— « هل طرقت البابَ الذي هناك ؟ »
— « لا . »
— « أطرقه إذن ! »

٢

الفطنة تستسلم للحكمة

تلك الليلةَ ، مكث اسقف د ... في غرفته - بعد أن قام بنزهته في البلدة — حتى ساعة متأخرة . كان منصرفاً الى العمل في مؤلّفه الضخم عن **« الواجبات »**، هذا المؤلف الذي لم يتمّ مع الاسقف . لقد شرّح ، في عناية ، كلّ ما قاله آبـــاء الكنيسة والثقات من رجال الدين في هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه ينقسم قسمين : الاول ، في واجبات المجموع ؛ والثاني ، في واجبات كلٍّ ، وفقَ الطبقة التي ينتمي اليها . وواجبات المجموع هي الواجبات الكبرى . وثمة أربعة من هذه الواجبات اشار اليها القديس متى ، وهي : واجبات نحو الله (متى٦) ، وواجبات نحو انفسنا (متى ٥ آية ٢٩ ، ٣٠) وواجبات نحو جيراننا (متى ، ٧ آية ١٢) وواجبات نحو المخلوقات (متى ٦ آية ٢٠ ، ٢٥) . اما الواجبات الاخرى فقد ألفاها الاسقف محدّدة وموصوفةً في مكان آخر . فواجبات الملوك والرعايا في « رسالة بولس الرسول الى اهل رومة » * وواجبات الولاة ، والزوجـــات ، والامهات ، والشبان في « رسالتي بطرس الرسول الاولى والثانيـــة ** » وواجبات الازواج، والآباء، والاولاد، والخدم في«رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس » *** وواجبات المؤمنين في « الرسالة الى العبرانيين » **** وواجبات العذارى في «رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية الى اهل كورنثوس »*****

* إلى ***** هذه كلها من اسفار الانجيل او « العهد الجديد . »

وفي جهد شاق أفرغ هذه النصـــائح جميعها في كلٍّ متناغم كان يودّ ان يقدمه الى النفوس .

وكان لا يزال منصرفاً الى عمله ، في الساعة الثامنـــة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتاباً ضخمـــاً مفتوحاً ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، جرياً على عادتها ، لتـــأخذ آنيـة الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسرير . وبعد لحظـة اغلق الاسقف كتابه – وقد ادرك ان المائدة قد مُدّت ، وأن أخته قد تكون في انتظاره – ومضى الى حجرة الطعام .

وكانت هذه الحجرة غرفةً مستطيلة ، ذات موقد ، وذات باب يتفتح عـلى الشارع كما سبق منا القول ، ونافذة تطلّ على الحديقة .

وكانت السيده ماغلوار قد اتمت في الواقع وضع الاطباق .

وفيما هي تُعدّ المائدة كانت تتحدث الى الآنسة باتيستين .

وكان على المائدة مصباح . وكانت المائدة قرب الموقد ، حيث اضطرمت نارٌ قوية .

وفي ميسور المرء ان يتخيّل ، في سهولة ، هاتين المرأتين اللتـين تجاوزت كل منهما الستين من العمر : السيدة ماغلوار ، قصيرةً ، بدينةً ، نشيطة ؛ والآنسة باتيستين ، عذبةَ الروح مهزولة ، واهنة ، أطولَ بعض الشيء من اخيهـــا ، وترتدي ثوباً حريرياً اسمر محمرّاً (وهو لون كان شائعاً عام ١٨٠٦) اشترتـــه آنذاك في باريس ولا يزال يخدمها . ولكي نستعير زياً في التعبير يمتاز بقدرته على ان يقول بكلمة واحدة ما لا تعبّر عنه صفحة كاملة الا بشق النفس ننصّ على ان السيدة ماغلوار كانت تبدو عليها سيما **الفلاحة** ، في حين ان الآنسة باتيستين كانت تبدو عليها سيما **السيدة** . وكانت السيدة ماغلوار تعتمر قلنسوة بيضاء ، قمعيّـــة الشكل ؛ ويطوّق عنقها صليبٌ ذهبي صغير كالذي يحمله اهل الارياف – وهي الحلية النسوية الوحيدة في ذلك البيت – وترتدي منديلَ عنقٍ ناصع البيـــاض ينبثق من ثوبها الصوفيّ الخشن الاسود ذي الردنين الواسعين القصيرين ، ومئزراً

من قماش قطني تزينه مربعات حمراء وخضراء معقوداً عند الخصر بعصابة خضراء ، و « كشكش » صدر من النوع نفسه مثبتاً بدبوسين عند زاويتيه العلويتين ؛ وتنتعل حذاء غليظاً ، وجوربين صفراوين مثل نساء مرسيليا . اما ثوب الآنسة باتيستين فكان مفصلاً وفقاً لزيّ عام ١٨٠٦! — خصر قصير ، وهدب ضيق ، وردنان عاليا الكتفين ، وعرى وازرار . وكانت تخفي شعرها الاشيب تحت لمّة مستعارة جعدة تدعى *à l'enfant* * وكانت تبدو على محيا السيدة ماغلوار أمارات الذكاء والنشاط والطيبة . وكانت زاويتا فمها المرتفعتان على غير تساوٍ ، وشفتها العليا التي تفوق شفتها السفلى ضخامةً ، تخلع عليها مسحةً « نكدة » متغطرسة . كانت تتحدث الى الاسقف — ما اعتصم هو بالصمت — في عزم وفي مزيج من الاحترام والحرية ، ولكنه ما إن يفتح فمه ، كما قد رأينا ، حتى تذعن له من غير تردد ، مثل الآنسة باتيستين . اما الآنسة باتيستين فما كانت لتتكلم . لقد قصرت نفسها على الطاعة والرغبة في الأرضاء . وحتى حين كانت صبيةً ، لم تكن جميلة . كان لها عينان زرقاوان كبيرتان جاحظتان الى حد بعيد ، وأنف طويل أعقف ، ولكن وجهها كله ، وشخصها كله ، كانا كما رأينا يتضوّعان بطيبة تمتنع على الوصف . لقد كانت مصطفاة ابداً للوداعة ؛ ولكن الايمان ، والمحبة ، والامل — هذه الفضائل الثلاث التي تدفيء القلب في رفق — كانت قد سمت بهذه الوداعة شيئاً بعد شيء حتى بلغت بها مستوى القداسة . لقد جعلتها الطبيعة حَمَلاً ، ثم جاء الدين فجعلها ملاكاً . مسكينة تلك المرأة القُدُسية ! إنها ذكرى عذبة ، ولكنها ضائعة !

وكانت الآنسة باتيستين قد أكثرت منذ ذلك الحين من رواية ما حدث في منزل الاسقف آنذاك الى درجة جعلت كثيراً من الناس الذين ما يزالون على قيد الحياة قادرين على ان يتذكروا أدق تفاصيله .

فلحظةَ دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الانسة باتيستين في موضوع مألوف ، تعوّد الاسقف السماع

* أي : « على غرار الاطفال » .

اليه . كان حديثاً يدور حول وسائل إيصاد الباب الخارجي .

لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغذية الضرورية للعشاء، سمعت انباء تُروى في مواطن شتى. كان القوم يتحدثون عن متسكع خبيث المنبت ، عن متشرّد مشبوه ، وفد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى الآن من غير شك الى مكان ما منها . وإن بعض الاحداث الكريهة قد تصيب اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متأخرة من تلك الليلة . والى هذا ، فقد كانت أداة الأمن رديئة ، لأن كلاً من المحافظ والعمدة يكره الآخر ويرجو ان يسيء اليه بأحداث مشؤومة ذات خطر . وان من واجب الحكماء من الناس ان يكونوا هم شرطة أنفسهم ، فيعملوا على حماية انفسهم بأنفسهم . وانه يتعيّن على كل امرىء ان يصطنع الحذر فيقفل بيته ويوصده بالمزلاج ويقضّبه بالحديد ، ويُحكم اغلاق ابوابه .

وأطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخيرة ، ولكن الاسقف أقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النار ، وانشأ يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء آخر . إنه لم يسمع كلمة من الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فأعادته كرةً اخرى . وعندئذ غامرت الآنسة باتيستين ، وكانت تودّ أن تشفي غليل السيدة ماغلوار من غير أن تغيظ اخاها ، فقالت على استحياء :

— « اخي ، هل سمعت ما قالته السيدة ماغلوار ؟ »

فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »

ثم انه ادار كرسيه نصف دورة ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال رافعاً نحو الخادم العجوز وجهه الودود البشوش الذي اضاءه وهج النار :

— « حسن ، حسن ! ما المسألة ؟ هل نحن اذن في خطر عظيم ؟ »

عندئذ اعادت السيدة ماغلوار رواية الخبر من أوله ، مبالغة في ذلك بعض الشيء على غير وعي منها . لقد بدا ان غجرياً حافي القدمين ، أو قل شحاذاً خطراً ، قد ألمّ بالمدينة . لقد التمس المأوى في فندق لابارّ ، ولكنه ابى أن

يستقبله . ثم رُئي يدخل المدينة من جادة غاساندي ويهيم على وجهه في الشوارع عند الغسق . إنه رجل ذو كيس وحبل ، وإن له لوجهاً فظيعاً .

فقال الاسقف : « حقاً ؟ »

ووجدت السيدة ماغلوار في سؤاله هذا ما شجعها . لقد بدا لها وكأنه يؤذن بأن الاسقف لم يكن في نجوة من الجزع . فتابعت كلامها في لهجة المنتصر .

— « اجل ، مونسينيور . ما اقوله صحيح . ولسوف يقع شيء ما ، هذه الليلة في المدينة . إن الناس جميعاً يقولون ذلك . إن ادارة الشرطة فاسدة جداً (تكرار مفيد) . تصوّر اننا نعيش في هذا الاقليم الجبليّ ، وليس عندنا حتى مصابيح تضاء في الشوارع ليلاً ! فاذا ما غادر المرء بيته وجد نفسه في ظلمة كظلمة الجب . وانا اقول يا صاحب السيادة ، والآنسة تقول معي ايضاً ... »

فقاطعتها الاخت : «انا ؟ أنا لا اقول شيئاً . كل ما يعمله أخي هو عندي حسن . »

وتابعت السيدة ماغلوار كلامها وكأنها لم تسمع هذا الاحتجاج :

— « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمناً على الاطلاق . واذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ أمضي الى بولين موزبوا ، القفّال ، وأدعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزالج القديمة . انها هناك ، ولن يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة . اقول إن علينا ان نركّب المزالج ، يا صاحب السيادة ، ولو من اجل هذه الليلة فحسب . لأني اعتقد ان الباب الذي يستطيع اول عابر سبيل ان يفتحه من خارج بواسطة سقاطة ، هو غاية في الفظاعة . وفوق هذا ، فان من دأب صاحب السيادة ان يقول دائماً : « أدخلْ ! » حتى في منتصف الليل . ولكن ، يا الـهي ! ليس ثمة حاجة الى التماس الأذن ... »

وفي تلك اللحظة قُرع الباب في عنف ، فقال الاسقف :

— « أدْخلْ ! »

٣
بطولة الطاعة العمياء

وُفتح الباب .

فُتح في خفة ، وعلى نحو واسع جداً ، وكأنما دفعه امرؤ ما في قوة وعزم .

ودخل رجل .

إنه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رأيناه منذ حين هائماً على وجهه يلتمس مكاناً يبيت فيه .

لقد دخل ، وخطا خطوة ، ثم تمهل ، تاركاً الباب وراءه مفتوحاً . كان يحمل كيسه على كتفه ، ويمسك عصاه في يده، وكانت ترين على عينيه سيما خشنة، قاسية ، متعبة ، ضارية ، كشفت عنها نار الموقد . كان راعباً . وكان طيفاً ُينذر بالشؤم .

ولم تجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصياح. لقد وقفت مرتعدة الاوصال، فاغرة الفم .

واستدارت الانسة باتيستين ، فرأت الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة. ثم إنها ارتدّت ، في بطء ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، فغدا وجهها ساكناً جداً ، رائقاً جداً .

ونظر الاسقف الى الرجل بعينٍ مطمئنة .

وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد — من غير شك — ايّ شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه ، ونقّل طرفه من الرجل العجوز الى كلّ من المرأتين . ومن غير ان ينتظر كلمة ما من الاسقف ، قال في صوت عال :

— « إسمعْ ! أنا أدعى جان ڤالجان . انا رجلٌ ُحكم عليه بالاشغال الشاقة . لقد سلختُ تسعة عشر عاماً في سجن المحكومين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام أُطلق سراحي ، فمضيت لسبيلي في اتجاه بونتارليه ، التي أقصد اليها . وها

قد انقضى على مسيري من طولون اربعة ايام ، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخاً . وحين وصلت الليلة الى هذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب من جوازي الاصفر الذي أبرزته في مكتب العمدة . لقد كان إبرازي الجوازَ فرضاً واجباً . وشخصت الى فندق آخر فقالوا لي : « أخرج من هنا ! » لقد وقفوا كلهم مني موقفاً واحداً . إن احداً لم يرحب بي . لقد قصدت الى السجن ، فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني وكأنه رجل ؛ لكأنما كان هو ايضاً يعرف من أنا . ثم مضيت الى الحقول كي انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبتُ ان المطر سوف يهطل ، ولم يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهاره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثاً عن سقف يؤويني . وهناك في الساحة العامة انطرحتُ على حجر ، فدلّتني امرأة صالحة على بيتك وقالت : « اطرق ذلك الباب ! » وها قد طرقته . ما هذا المكان ؟ أهو فندق ؟ إن لديّ مالاً ؛ إنه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » كسبتها في السجن لقاء عملي طوال تسعة عشر عاماً . سوف ادفع . ماذا يهمني ؟ ان لديّ مالاً . انا متعَب جداً — اثنا عشر فرسخاً قطعتها على قدميّ ، وانا جائع جداً . هل استطيع ان أبقى ؟ »

فقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقاً آخر . »

وخطا الرجل ثلاث خطى ، واقترب من المصباح القائم على المائدة ، ثم صاح وكأنه لم يَفهَمْ جيداً :

— « قف . ليس الامر كذلك . هل فهمتني ؟ انا رجل حُكِم عليه بالاشغال الشاقة . مجرم خرج من السجن منذ فترة قصيرة . (وسحب من جيبه ورقة كبيرة صفراء ونشرها .) هذا هو جوازي . إنه اصفر كما ترى . وهذا وحده كافٍ لأن يطردني الناس من اي مكان أقصد اليه . أتحب ان تقرأ ؟ أنا أعرف القراءة ؛ أجل أعرف. لقد تعلمّتها في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة. إن هناك مدرسة يتعلم فيها من يرغب من السجناء . أنظرْ ، هذا ما كتبوه على الجواز : « جان فالجان ، محكوم بالاشغال الشاقة أُطلق سراحه . من مواليد ... (انت

لا تبالي بهذا) سلخ في السجن تسع عشرة سنة . خمس سنوات لارتكابه جريمة السرقة مع الكسر ؛ واربع عشرة سنة لمحاولته الفرار من السجن اربع مرات . إنه رجل خطرٌ جداً . » أرأيت ! لقد طردني الناس جميعاً ، فهل تريد ، انت ، ان تستقبلني ؟ هل هذا فندق ؟ هل تستطيع ان تقدّم اليّ شيئاً آكله ، ومكاناً انام فيه ! هل عندك إسطبل ؟ »

فقال الاسقف : « ايتها السيدة ماغلوار ، ضعي بعض الاغطية البيضاء على سرير المُخْدع . »

لقد سبق لنا أن وصفنا نوع الطاعة التي غلبت على هاتين المرأتين . والتفت الاسقف الى الرجل :

— « ايها السيد ، إجلس وتدفأ . سوف تتناول طعام العشاء بعد لحظة . ولسوف يُهيأ فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيراً فهمَ الرجلُ جيداً . وطفت على وجهه الذي كانت انطباعته حتى الآن قاتمة صارمة — طفت على وجهه هذا انطباعة من الذهول ، والشك ، والابتهاج ، وغدا غريباً حقاً . لقد أنشأ يتمتم مثل رجل معتوه .

— « صحيح ؟ ماذا ؟ سوف تبقيني عندك ؟ انت لن تطردني ؟ محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ انت تناديني « ايها السيد » ! انت لا تخاطبني بضمير المفرد ، ولا تقول لي « أخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائماً . لقد حسبت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من أنا . أوه ! شكراً لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت تسع عشرة سنة لم انم خلالها في سرير ! اترغب حقاً في ان ابقى هنا ؟ أنتم أناس طيبون ! والى هذا ، فأن عندي مالاً . سوف ادفع لكم بسخاء . ألتمس عفوك ، يا سيدي الفندقي ، ما اسمك ؟ سوف أدفع كل ما تطلبه مني . انت رجلٌ طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ؟ »

فقال الاسقف : « أنا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! أوه ، كاهن نبيـــل ! واذن فأنت لن تتقاضاني شيئاً من المال ! انت القسّ ، اليس كذلك ؟ انت قسّ هذه الكنيسة الكبيرة ؟ أجل ، هذا صحيح . ما اشدّ بلاهتي ! أنا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح ، فيما هو يتكلم ، كلاً من كيسه وعصاه في احدى الزوايا ، ثم أعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنت اليه الآنســة باتيستين في ابتهاج . وتابع كلامه :

— « انت متفوق ، يا سيدي القسّ . انت لا تحتقرني . إن الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فانت لا تريد مني ان ادفع اليك اجراً . »

فقال الاسقف : « لا . إحتفظ بمالك . كم معك ؟ لقد قلت مئـــة وتسعة فرنكات ، اليس كذلك ؟ »

فأضاف الرجل : « وخمسة عشر سو . »

— « مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سو . وما المدة التي احتجت اليها حتى تكسب هذا المبلغ ؟ »

— « تسع عشرة سنة . »

— « تسع عشرة سنة ! »

وتنهد الاسقف تنهداً عميقاً .

وتابع الرجل حديثه :

— « انا لا ازال احتفظ بمالي كله . فمنذ اربعة ايام لم أنفق غير خمسة وعشرين «سو» كسبتها من تفريغ العربات في غراسّ . ولما كنتَ كاهناً ، فيتعين عليّ أن اخبرك أنه كان عندنا مرشد في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . وذات يوم رأيت أسقفاً . كانوا ينادونه مونسنيور . وكان اسقف ماجور ، في مرسيليا . إنه الكاهن الذي يرئس جميع الكهنة . انت ترى — وألتمسُ منك العفو — كيف أتلعثم في رواية ذلك ، ولكن هذا امسى الآن قديم العهد جداً بالنسبة اليّ . لقد

أقام قداساً في وسط السجن ، على مذبح . وكان يضع على رأسه شيئاً ذهبياً محدداً والتمع هذا الشيء في وجه الشمس ، فقد كان ذلك عند الظهيرة . وكنا قد وقفنا صفاً ، في جهات ثلاث . والمدافع وذبالات المصابيح المشعلة أمامنا . إننا لم نستطع ان نراه جيداً . لقد تحدث الينا ، ولكنه كان بعيداً جداً عنا . إننا لم نفهمه . هذا هو ما ندعوه الاسقف . »

وفيما هو يتكلم أغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعاً على مداه .

وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعته على المائدة .

وقال الاسقف : «ايتها السيدة ماغلوار.ضعي هذا الطبق اقربَ ما تستطيعين الى النار . » ثم التفت الى ضيفه وأضاف :

- « إن رياح الليل قاسية في الألب . لا بد أنك تشكو البرد : يا سيدي . »

كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف بصوته الوقور الرفيق، وبحسن وفادته وصدقها ، هذه الكلمة : « سيدي » . إن لفظة « سيدي » تقال لرجل خارجٍ من سجن الاشغال الشاقة اشبه شيء بكوب ماء يقدّم الى رجل يموت ظمأ في عرض البحر . إن الخزي ليتعطّشُ الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يُرسل غير ضوء واهن جداً . »

وفهمت السيدة ماغلوار . فمضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتهما على المائدة بعد ان أضاءت الشمعتين .

وقال الرجل : « سيدي القسّ ، أنت رجل صالح . انت لا تحتقرني . أنت ترحب بي في منزلك . انت تضيء شموعك من اجلي . مع اني لم أخفِ عليك من 'ين أقبلتُ ، وأيّ بائس أنا . »

وفي رفق ، مسّ الكاهن يده - وكان يجلس قريباً منه – وقال : « كان في إمكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . إنه بيت يسوع المسيح . إن هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا ألم . أنت تتعذب . انت جائع عطشان . اهلاً بك . ولا تشكرني . لا تقل لي اني استقبلك في بيتي . إن هذا البيت ليس بيت احد ، ما خلا ذلك الذي يلتمس

مفزعاً . اني أقول لك ، انت يا عابر السبيل ، إن هذا البيت هو بيتك اكثر منه بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان أعرف اسمك ؟ والى هذا ، فقد عرفت اسمك قبل ان تُعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش .

– « حقاً ؟ أكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فأجاب الاسقف : « أجل ، أنت تدعى أخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القسّ . لقد كان الجوع يعضني حين دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما بي . لقد زايلني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال :

– « هل تعذبت كثيراً ؟ »

– « أوه ، القميص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح الخشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبرد ، والشغل ، وجماعة السجناء المحكومين بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصيّ ! السلسلة المزدوجة من أجل لا شيء . والحبس في حجيرة مظلمة عقاباً على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض والانطراح في الفراش . ان الكلاب ، الكلاب ، هم اكثر سعادة ! تسع عشرة سنة ! وأنا في السادسة والاربعين . والان ، هذا الجواز الأصفر ! ذلك كل شيء . »

فقال الاسقف : « أجل ، لقد فارقت موطن بلاء وعذاب . ولكن اسمع . ان السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة بُرد أبيض يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الأليم وكراهية الناس والحقد عليهم يفعمان قلبك فأنت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة واللطف والسلام تعمر فؤادك فعندئذ تكون خيراً من ايّ امرىء منا . »

وكانت السيدة ماغلوار قد هيأت ، في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان يتألف من حساء أُعدّ بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير ، وقطعة

من لحم الضأن ، وشيء من التين ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يُطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .

وأشرق محيا الاسقف بسيما الابتهاج تلك التي تميّز اصحاب النفوس المضيافة . وقال في نشاط :

– « الى المائدة ! »

وأجلس الرجل الى يمينه ، وفقاً لعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدة ضيف ما . واتخذت الآنسة باتيستين مكانها ، هادئة جداً ، طبيعية جداً ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وفقاً لمألوف عادته . وشرع الرجل يأكل في نهم .

وفجأةً قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئاً ما ، يُعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع عـــلى المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جداً . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تُعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضاً بريئاً فوق المائدة ، كلما شارك الاسقفَ عشاءه ضيفٌ ما . وكان مَظهر الترف اللطيف هذا ضرباً من الصبيانية حافلاً بالفتنة في هذا البيت الوادع القاسي الذي رفع الفقر الى مقام الشرف .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ؛ وغادرت الحجرة من غير أن تقول كلمة . وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بهـــا الاسقف تومض على غطاء المائدة ، وقد رُتّبت عـلى نحو متناسق أمام كلٍّ من المشاركين في تناول العشاء .

٤

تفاصيل حول مجابن * بونتارلييه

ولسنا نرى ، لكي نعطي فكرة عما دار على هذه المائدة ، خيراً من أن ننسخ هنا جزءاً من رسالة بعثت بها الآنسة باتيستين الى السيدة دو بواشيفرون راويةً الحديث الذي جرى بين المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وبين الاسقف في تدقيق ساذج .

. . . .

(... ولم يُلقِ هذا الرجل بالاً الى أحد . لقد أكل في شراهة رجل جائع . بيد أنه قال بعد العشاء :

— « سيدي أسقف الربّ ، ان هذا كله يكاد يكون اكثر مما أستحق . ولكن يتعين عليّ أن اقول ان سائقي العربات ، الذين لم يجيزوا لي ان آكل معهم ، يحيون حياةً اكثر ترفاً من حياتك . »

وفي ما بيننا ، أقول لكِ ان تلك الملاحظة صدمتني بعض الشيء . ولقد اجاب اخي قائلاً :

— « إنهم يتعبون اكثر مما أتعب . »

فقال هذا الرجل : « لا ، إن لديهم مالاً اكثر . أنت فقير . أنا ألاحظ ذلك . لعلك لستَ حتى كاهناً . هل أنت كاهن وحسب ؟ آه ، اذا كان الرب عادلاً فعندئذ تستحق أن تكون كاهناً من غير ريب . »

فقال اخي : « إن الرب اكثر من عادل . »

وبعد لحظة أضاف :

* جمع مجبنة ، وهي مكان يصنع الجبن .

– « مسيو جان فالجان ، انت ذاهب الى بونتارلييه ؟ »

– « إنها رحلة إلزامية . »

أنا واثقة تماماً ان ذلك هو التعبير الذي استعمله الرجل . ثم إنه أضاف :

–« ينبغي ان ابدأ المسير فجرَ غد . انها رحلة شاقة . اذا كان الليل بارداً ، فالنهار حارٌ . »

فقال اخي : « انت ذاهب إلى بلد طيب . ففي اثناء الثورة ، حين نُكبت اسرتي ، لجأتُ اولاً الى الـ « فرانش كونتيه » وأقمتُ أودي هناك ببعض العمل اليدوي . كانت لديّ الشجاعة . لقد وجدتُ عملاً كثيراً ، ولم يكن عليّ إلا ان أختار . كان ثمة مصانع ورق ، ومدابغ ، ومعامل تقطير ، ومعامل زيت ، ومنشآت ضخمة لصنع الساعات ، ومصانع فولاذ ، ومسابك نحاس ، وعشرون مسبكاً للحديد على الاقل كانت اربعة منها – وهي كبيرة جداً – في لود ، وشاتييون ، وأودينكور ، وبور . »

أحسب اني غير مخطئة ، وان هذه هي الاسماء التي ذكرها اخي . ثم إنه قاطع نفسه ووجّه الخطاب اليّ :

– « ايتها الاخت العزيزة ، أليس لنا أنسباء في تلك الديار ؟ »

فأجبته :

– « كان لنا انسباء . ومن هؤلاء مسيو لوسينيه الذي كان « كابتين الابواب » في بونتارلييه في العهد القديم . »

فأجاب أخي : « اجل ، ولكن في عام ٩٣ لم يَعُدْ لأحد انسباء . كان كل امرىء يعتمد على يديه . لقد كدحتُ . إن عندهم في منطقة بونتارلييه – حيث تعتزم ان تذهب ، يا مسيو فالجان – صناعة مَهيبة جداً ، وساحرةً جداً ، ايتها الأخت . وانما اعني مجابنهم التي يدعونها . *Fruitières* *

* ومعناها في الاصل : المثمرات .

وعندئذ شرع اخي ، فيما يخدم هذا الرجل - على المائدة ، يشرح له في تفصيل ماهية مجابن بونتارليه هذه ، قائلا إنها على نوعين متميزين : الاهراء الكبيرة التي يملكها الاغنياء ، وهي تحتوي على اربعين او خمسين بقرة ، وتنتج سبعة آلاف او ثمانية آلاف قطعة جبن خلال الصيف . والمجابن المتشاركة التي يملكها الفقراء ؛ وفيها يضع فلاحو الجبل الاوسط ابقارهم على نحوٍ مشترك ويقتسمون نتاجها . وانهم يستأجرون جبّاناً يدعونه Le grurin ، وهذا الجبّان يتسلم اللبن من المشاركين ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ويدوّن المقادير في سجل ذي نسختين . وإنما يبدأ عمل المجابن في اواخر نيسان ؛ وحوالى منتصف حزيران يسوق الجبّانون ابقارهم الى الجبل .

واستعاد الرجل نشاطه فيما هو يأكل . وقدّم اليه اخي شيئاً من خمر موف الجيدة التي لا يشربها هو ، لانها غالية كما يقول . وبسط اخي له جميع هذه التفاصيل بذلك الابتهاج الدمث الذي تعهدينه فيه مازجاً حديثه ببعض المجاملات الموجهة اليّ . ولقد اطنب في الكلام على حالة الـ Grurin وكأنما كان يرغب في ان يَفْهم هذا الرجل ، من غير ان ينصحه بذلك مباشرةً ومن غير ما تمهيد ، أنه سوف يجد في ذلك مَفزَعاً يفيء اليه . إن شيئاً أثّر فيّ . لقد كان هذا الرجل ما ذكرتهُ لك ومع ذلك فأن اخي لم ينطق ، خلال العشاء ، وطوال السهرة ، في ما عدا بضع كلمات عن يسوع تلفّظ بها حين دخل - أقول إن أخي لم ينطق بكلمة واحدة تستطيع ان تذكّر هذا الرجل من هو ، او تذكّره من هو اخي . لقد كانت ، في الظاهر ، فرصة ممتازة لالقاء عظة صغيرة ، ولرفع الاسقف فوق المجرم المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لكي يترك في ذهنه انطباعة . ولقد كان غيره خليقاً بأن يحسب ان من واجبه ، وقد وجد هذا الرجل التعس بين يديه ، أن يغذي روحه فيما

هو يغذي جسده ، وان يوجّه اليه لوماً موشحاً بعبرة ونصيحة ، او على الاقل شيئاً من الرأفة المصحوبة بتحريضه على ان يسلك في المستقبل مسلكاً أفضل . إن اخي لم يسأله لا عن بلده ولا عن تاريخه . ذلك بأنّ جريمته كامنة في تاريخه ، ولقد بدا اخي وكأنه يجتنب كل ما يمكن ان يذكّره بها . وذات لحظة ، فيما كان اخي يتحدث عن جبليي بونتارلييه الذين **يقومون بعمل بهيج قرب السماء** والذين اضاف قائلاً : **انهم سعداء لانهم ابرياء** ، كفّ فجأة عن الكلام خشيةَ ان يكون في هذه اللفظة التي ندّت منه شيء يمكن أن يجرح مشاعر هذا الرجل . وبعد التفكير ، أحسب اني فهمت أيّ شيء كان يدور في خلد اخي . لقد فكّر ، من غير شك ، ان هذا الرجل ، الذي يدعى جان فالجان ، كان يتمثّل بؤسَهُ باكثر مما ينبغي ، وان من الخير أن يسلّيه عن هذا البؤس ، وأن يوقع في نفسه ، ولو لحظةً ليس غير ، أنه إنسان مثل سائر الناس ، بأن يسلك معه مسلكاً عادياً جداً . أليس هذا هو الفهم الصحيح للمحبة ؟ الا تجدين ، يا سيدتي العزيزة ، شيئاً إنجيلياً حقاً في هذه الرقة التي تَزْهَدُ في الوعظ ، والقاء الدروس الاخلاقية ، وتوشيح الكلام بضروب الرمز والكناية ؟ ألا تقتضينا الرحمة الفضلى ، حين يشكو الانسان ألماً ما ، ان لا نمسّه في موضع الألم على الاطلاق ؟ يخيّل اليّ ان هذا هو في الحق ما دار في خلد أخي . وايّاً ما كان ، فكل ما استطيع ان اقوله هو انه اذا صحّ ان تلك الافكار كلها قد راودته فقد احجم عن أن يُبديها حتى لي انا . لقد كان طوال الوقت شأنه في الليالي الاخرى كلها . ولقد تناول طعام العشاء مع جان فالجان هذا بالسّيما نفسها ، والطريقة نفسها ، اللتين كان خليقاً به ان يصطنعها لو انه تعشّى مع مسيو جدعون ، رئيس الكاتدرائية ، أو مع كاهن الابرشية .

وحين أوشكنا على الانتهاء من تناول الطعام ، وفيما نحن نأكل شيئاً من التين ، طُرق الباب . وكان الطارق الأمّ جيربو وقد حملت طفلها الصغير بين ذراعيها . وقبّل أخي الطفل ، واستعار مني خمسة عشر « سو » كانت معي ليقدّمها الى الام جيربو . وفي غضون ذلك ، لم يلتفت الرجل لما جرى غير التفات يسير . انه لم يتكلم ، ولقد بدا وكأنه متعب جداً . وغادرتنا السيدة العجوز المسكينة ، وتلا أخي صلاة الشكر التي تُرفع بعد الطعام ثم التفت الى الرجل وقال له : « لا شك في انك بحاجة ماسة الى النوم . » وسارعت السيدة ماغلوار الى نزع الغطاء عن المائدة . وادركتُ ان علينا ان ننسحب لكي يكون في ميسور هذا المسافر ان ينام ، فقصدنا كلانا الى غرفتينا . بيد اني ما لبثت ان ارسلت السيدة ماغلوار ، بعد لحظة ، لكي تضع على فراش هذا الرجل جلد يَحمور * من « الغابة السوداء » كان في حجرتي . ان الليالي قارسة جداً ، وهذا الجلد يبعث الدفء . ومن أسف ان يكون هذا الجلد قديماً جداً ، وان يكون وبره كله قد زايله . لقد اشتراه أخي يوم كان بألمانية ، في توتلنجن ، قرب منابع الدانوب ، كما اشترى السكين الصغيرة ذات المقبض العاجي التي أستعملها على المائدة .

ورجعت السيدة ماغلوار في الحال ، وتلونا صلواتنا في الصالة التي نفيد منها لنشر الغسيل وتنشيفه ؛ ثم انقلبنا الى حجرتنا من غير أن نقول كلمة .)

* اليحمور ، او الروبك ، نوع من الظباء .

٥

سكون

وبعد ان تمنى مونسنيور بيينفينو لاخته ليلة سعيدة ، رفع أحد الشمعدانين الفضيين عن المائدة ، وقدّم الآخر الى ضيفه ، وقال له :

– « سوف اقودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وكما أدرك القارىء مما قلناه آنفاً ، كان البيت منظماً على نحو يحتم على من يريد بلوغ المصلّى ، حيث المخدع ، او الخروج منه ، ان يجتاز بحجرة نوم الاسقف .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها بهذه الحجرة ، كانت السيدة ماغلوار تضع الآنية الفضية في الخزانة الجدارية القائمة عند رأس السرير . وكان ذلك آخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تؤوي الى فراشها .

وغادر الأسقف ضيفه في المخدع ، أمام فراش ابيض نظيف . ووضع الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة .

وقال الاسقف : « ارجو أن تنعم بليلة هانئة . وغداً صباحاً ، سوف تشرب ، قبل ان تنطلق ، كوباً من لبن بقرتينا الحارّ . »

فقال الرجل : « شكراً ، يا سيدي الراهب . »

ولم يكد ينطق بهذه الكلمات الناضحة بالمسالمة حتى أتى فجأة ، ومن غير ما تمهيد ، بحركة غريبة كانت جديرة بأن تلقي الرعب في قلبي العانسين الطاهرتين لو أنهما شهدتاها . وحتى في هذه الآونة ، من العسير

علينا ان نفهم لأيّ الحوافز خضع في تلك اللحظة . أيكون قد أراد ان يُرسل تحذيراً أو يلقي إنذاراً ؟ ام أنه كان يدعى مجرد إذعان لحافز غَرَزيّ ليس يجهل هو نفسُهُ كنهه ؟ فقد التفت فجأة نحو الرجل العجوز ، وصالب ذراعيه ، مسدّداً الى مُضيفه نظرة ضارية ، وصاح في صوت أبحّ :

— « آه ، حقاً ! انت تُنزلني في بيتك على مقربة منك على هذا الشكل ! »

ثم كبح نفسه ، واضاف في ضحكة كان فيها شيء راعب :

— « هل فكرتَ في ذلك ؟ ما يُدريك أني لست سفّاكاً ؟ »

فأجابه الاسقف :

— « الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرّك شفتيه كمن يصلي او كمن يخاطب نفسه ، ورفع اثنتين من أصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع . ومن غير ان يدير رأسه وينظر الى الوراء مضى الى حجرته .

وحين احتُلّ المخدع سُحبت ستارة صوفية ضخمة غليظة من جانب المصلّى الى جانبه الآخر ، حاجبةً المذبح . وأمام هذه الستارة ركع الاسقف ، وصلّى صلاةً قصيرة .

وبعد لحظة كان يتمشّى في جنينتِهِ مُسلِماً عقله ونفسه جميعاً الى تأمل حالمٍ في تلك الاشياء العظيمة المحوطة بالاسرار ، التي يجلوها الله ، في اثناء الليل ، للأعين التي لا تغمض اجفانُها .

أما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يُفِد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد أطفأ الشمعة بأحد منخريه ، على طريقة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بثيابه التي يرتديها ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

وأعلنت الساعةُ منتصف الليل فيما كان الاسقف يغادر الحديقة عائداً الى حجرة نومه .

وبعد لحظات ، كان كلّ من في البيت الصغير قد نام .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٢

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

٦

جان فالجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان ڤالجان .

لقد وُلد جان ڤالجان من اسرة ريفية فقـــيرة في « بري » . وفي طفولته لم يُعلَّم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشذّب اغصان في فافيرول . كانت أمه تدعى جـــانّ ماتيو ؛ وكان ابوه يدعى جان ڤالجان ، او ڤلاجان ، ولعله لقبٌ ضُغِط من لفظتي « ڤوالا جان » *

كان جان ڤالجان ذا مزاج نزّاع الى التفكير ، ولكنه غير حزين ، وهو مزاج يميّز اصحاب الطبائع العاطفية . بيد انه كان ثمة على الجملة شيء متوانٍ جـداً وعديم الجدوى جـداً في مظهره على الاقلّ . لقـد فَقَدَ والديه وهو بعدُ طفل . فأما أمه فقد توفيت إثر حمّى لبنٍ أسيئت معالجتها . وأما ابوه ، وكان مشذّب أغصان من قبله ، فقد صُرِع إثر سقوطه من احدى الاشجار . ولم يبق لجان ڤالجان بعد ذلك نسيب غير اخت اكبر منه سناً ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات . واحتضنت هذه الاخت جان ڤالجان وآوت أخاها الاصغر واطعمته ما بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبه ، وعمرُ ابنه الاكبر ثماني سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان ڤالجان قد بلغ آنذاك سنّه الخامسة والعشرين ، فحلّ محلّ الأب ، وأعال بدوره تلك الاخت التي ربّتهُ . وإنما فعل ذلك في صدق واخلاص ، بوصفه واجباً ، بل وفي ضرب من النكد والشكاسة . لقد أنفق شبابه على هذه

---

* *Voilà Jean* اي هوذا جان .

الشاكلة في عمل خشن شاقّ مطفّف الاجر . ولم يُعرف عنه قط انه كانت له في البلد حبيبة ؛ إنه لم يجد متسعاً من الوقت للحب .

وفي المساء كان يرجع الى البيت متعباً ، ويتناول حساءه من غير ان يقول كلمة . وفيما هو يأكل ، كانت اخته ، الأمّ جانّ ، كثيراً ما تأخذ من صحفته خير ما فيها : قطعة اللحم ، وشطيرة شحم الخنزير ، وقلب الملفوفة ، لكي تقدمها الى احد اولادها . وكان هو يواصل الأكل ، منحنياً فوق المائدة ، وقد اوشك رأسه ان ينغمس في الحساء ، وتدلى شعره الطويل حول صحنه حاجباً عينيه ، وكأنه لا يعي شيئاً مما يجري حوله . وكان في فافيرول ، غير بعيد عن بيت فالجان ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، زوجة مزارع تدعى ماري كلود . وكان الاطفال من أسرة فالجان ، الذين كانوا يتضورون دائماً من الجوع ، يذهبون في بعض الاحيان فيستعيرون باسم أمهم كيلَ لبن كانوا يحتسونه خلف سياجٍ ما ، او في زاوية من الزقاق ، متنازعين الاناء في نهم شديد الى حدّ ينتهي بالبُنيّات الى ان يسفحن اللبن على مآزرهن واعناقهن . ولو قد عرفت الام بهذه السرقة اذن لأنزلت بالمذنبين عقاباً قاسياً . وكان جان فالجان ، على خشونته وتضجّره ، يدفع الى ماري كلود ، على غير علم من الأم ، ثمن اللبن ، وهكذا كان الاطفال ينجون من القصاص .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر « سو » كل يوم . ثم إنه اشتغل بعد ذلك حاصداً ، ومعاون بنّاء ، وخادماً في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملاً كادحاً . كان يقوم بأيما عمل يوفق اليه . واشتغلت اخته ايضاً ، ولكنْ انّى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ تلك كانت جماعةً بائسة أحاط بها الشقاء وراح يطبق عليها شيئاً بعد شيء . وأقبل شتاء قاسٍ . ولم يقع جان على عمل . ولم يكن عند الاسرة خبز . اجل ، لم يكن ثمة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة اولاد .

وفي مساء يوم من ايام الاحد ، كان موبير إيزابو ، وهو خباز في ساحة الكنيسة في فافيرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبّكة بالحديد . وهرع في الحال فاذا به يرى ذراعاً مخترقةً الثغرة التي نشأت عن ضرب الشبكة والزجاج بجُمع الكفّ . وقبضت الذراع على رغيف ، واخرجته . وانطلق ايزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق به إيزابو وقبض عليه . كان السارق قد اطّرح الرغيف ، ولكن ذراعه كانت ما تزال تقطر دماً . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وإنما حدث ذلك عام ١٧٩٥ . ومثلَ جان فالجان امام قضاة ذلك العصر بتهمة « السطو ليلاً على بيت آهل ، والكسر تسهيلاً للسرقة » . وكانت لديه بندقية اصطنعها كأحسن ما يصطنع رجل بندقيته ، وكان الى حد ما قانصاً يتصيد في أملاك الآخرين ، وذلك ما آذاه ، اذ كان ثمة ضغينة طبيعية على المتصيدين في املاك الآخرين . إن القانص المتصيد في املاك الآخرين ، كالمهرّب ، يجاور قاطع الطريق مجاورةً شديدة . ومع ذلك ، فيتعين علينا ان نقول ، في طريقنا ، إن ثمة برزخاً عميقاً بين هذا العِرْق من الرجال وبين سفّاح المدن المخيف . إن المتصيد في املاك الآخرين يحيا في الغابة ؛ والمهرّب يحيا في الجبل او على متن البحر . إن المدن تنتج رجالاً شرسين ، لانها تنتج رجالاً فاسدين . أما الجبل ، والبحر ، والغابة فتنتج رجالاً وحشيين . إنها تقوي في ابنائها الجانب الضاري ، ولكنْ من غير ان تُفسد في كثير من الاحيان الجانب الانساني .

واعتُبر جان فالجان مجرماً ؛ فقد كانت نصوص القانون صريحة حاسمة . إن في حضارتنا ساعات مخيفة ؛ تلك هي الساعات التي يعلن فيها قانون العقوبات حكمه على رجل ما بالغرق أو السقوط . أية لحظة فاجعة تلك التي ينسحب فيها المجتمع ويتخلى الى الابد عن كائن مفكّر ! لقد حُكم

على جان فالجان بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .

وفي ٢٢ نيسان ١٧٩٦ أعلن في باريس انتصار مونتينوت * وقد احرزه قائد جيش ايطالية العام الذي دعته رسالة حكومة الادارة ** الى مجلس الخمسئة في ٢ فلوريال من سنة الجمهورية الرابعة ، بوانابرت *** . وفي ذلك اليوم نفسه أوثقت سلسلة حديدية ضخمة في بيستر . وكان جان فالجان يشكل جزءاً من هذه السلسلة . وثمة سجان عجوز ، هو اليوم في نحو التسعين من عمره ، لا يزال يذكر جيداً هذا الرجل البائس الذي شُدّ بالحديد عند اقصى القاعدة الحجرية الرابعة في الزاوية الشمالية من الفناء . كان جالساً على الارض مثل سائر السجناء . ولقد بدا وكأنه لا يفقه من وضعه شيئاً إلاّ انه وضعٌ راعب . ولعله ان يكون قد امتزج ايضاً ، بافكار الرجل الجاهل الغامضة شعورٌ بأن في العقوبة شيئاً من الافراط .

وحين كانوا يلوون مسمار قَيْدِهِ بضربات مطرقة ثقيلة أعملوها خلف رأسه ، كان هو يبكي . لقد خنقته الدموع ، وحالت بينه وبين الكلام ، فلم يوفق بين الفينة والفينة الى ان يقول غير هذه الجملة : « **كنتُ مشذّب أشجار في فارفيرول** » . ثم إنه رفع يده اليمنى ، في غمرة التنهّد ، وخفضها سبع مرات ، وكأنما كان يمسّ على التعاقب سبعة رؤوس متفاوتة الارتفاع . ولقد كان في ميسور المرء ان يحزر من هذه الايماءات انه إنما فعل ما فعله لكي يطعم ويكسو سبعة اطفال صغار .

---

* Montenotte قرية ايطالية في مقاطعة جنوا . وقد جرت فيها سنة ١٧٩٦ معركة شهيرة بين نابوليون ، والقوات النمسوية بقيادة « بوليو » Beaulieu كان فيها النصر حليف نابوليون .

** Directoire الاسم الذي يطلق على الحكومة التي تولت مقاليد الامر في فرنسة ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ (٥ برومير ، من سنة الجمهورية الرابعة) والتي اسقطها الجنرال بونابرت في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ (١٨ برومير ، من سنة الجمهورية الثامنة .)

*** Buonaparte

واقتيد الى طولون على متن عربة ، فبلغها إثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً ، والقيد ما يزال يطـوّق عنقه . وفي طولون ألبس قميصاً أحمر . وهناك امحت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . إنه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ . ما الذي حلّ بالاخت ؟ ما الذي حلّ بالاطفال السبعة ؟ من الذي ازعج نفسه بذلك ؟ ما الذي يحـــلّ بحفنة الاوراق الخضراء حين تُقطع الشجرة من جذعها ؟

إنها القصة نفسها دائماً . لقد مضت هذه الكائنات البشرية الحيـة ، هذه المخلوقات الالـهية ، وقد تُركت من غير سناد ، ومن غير هادٍ ، ومن غير مَفزع — مضت الى حيثما قادتها المصادفة . وهـل من سبيل الى معرفة ذلك ؟ لعلّ كلّاً منهم اتخذ طريقاً مختلفـة ، وغرق شيئاً بعد شيء في ذلك الضباب القارس الذي يغمر المصائر المتوحّـدة ، تلك الظلمة النكدة التي يختفي فيها كثير من الرؤوس الشقية خلال سير الجنس البشري المعتم . لقد نزحوا عن تلك الديار . لقد نسيتهم كنيسة القرية التي كانت قريتهم ، ونسيهم مَعلَم الحقل الذي كان حقلهم . وبعـــد بضع سنوات من مقامـــه في سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه . لقد امسى وفي قلبه نُدبة حيث كان من قبـــلُ جُرحٌ . هذا كل ما هنالك . وفي اثناء مقامـه بطولون لم يسمع عن أخته إلا مرة واحدة . وكان ذلك ، في ما أحسب ، في اواخر السنة الرابعة من سَجنه . ولست ادري كيف بلغه النبأ . لقد رأى اختـه رجلٌ ممن كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سولبيس ، هو شارع جيندر . ولم يكن معها غير طفل واحد ، صبيّ طريّ العودِ ، كان هو اصغر الاخوة سناً . اين كانت الستة الآخرون ؟ لعلها هي نفسُها لم تكن تدري . وكل صباح كانت تمضي الى مطبعة تقع في رقم ٣ شارع سابو حيث كانت تطوي ملازم الكتب وتجلدها . وكان عليها ان تباشر عملها في السادسة صباحاً ، اي قبل مدة

غير يسيرة من طلوع الشمس في ايام الشتاء . وكان في البناء الذي تشغله المطبعة مدرسة بعثت اليها بابنها الصغير ، البالغ عمره سبع سنوات . واذ كانت المدرسة لا تفتح ابوابها الا في الساعة السابعة ، واذ كانت مضطرةً الى ان تلتحق بعملها في السادسة ، فقد تعيّن على الغلام ان ينتظر في الفِناء ساعةً كاملة حتى تفتح المدرسة — ساعةً من البرد والظلمة في ايام الشتاء . إنهم ما كانوا يسمحون للغلام بان ينتظر في المطبعة لأنه كان مزعجاً ، في ما زعموا . وكان العمال الوافدون الى المطبعة كل صباح يرون الى هذا المخلوق الصغير البائس جالساً على البلاط ، وقد غلب عليه النعاس ، واستسلم للرقاد في الظلمة ، في كثير من الاحيان ، رابضاً منطوياً فوق سلته . فاذا ما هطل المطر كانت الشفقة تعطف عليه قلب البوابة العجوز ، فهي تجيز له ان يدخل الى مسكنها الضيق الحقير الذي اقتصر أثاثه على فراش من قشّ ، ودولاب للغزل ، وكرسيين خشبيين. وهناك في احدى الزوايا كان الغلام ينام ضامّاً المرة الى صدره لكي ينفي عن جسده البرد . حتى اذا بلغت الساعةُ السابعةَ ، فتحت المدرسة ابوابها ، فمضى اليها . ذلك ما قيل لجان فالجان . لكأنّ نافذة قد فُتحت فجأة على مصائر هؤلاء الذين أحبّهم ، ثم أوصدت من جديد . ولم يسمع شيئاً آخر عنهم بعدُ . لم يسمع شيئاً عنهم الى الأبد . إن نبأ ما لم ينتهِ اليه عن حالهم . إنه لم يرهم ، ولن يراهم منذ اليوم ! ولن نلتقي بهم بعدُ في بقية هذه القصة الحزينة ، كرة اخرى .

وحوالى ختام هذه السنة الرابعة سنحت لجان فالجان فرصة الهرب . لقد ساعده رفاقه كما يقع دائماً في ذلك الموطن الكئيب ، ففرّ . لقد هام على وجهه حراً طليقاً ، في الحقول ، يومين اثنين — اذا كان من الحرية ان تطارَد ، وان تلتفت الى وراء ، كل لحظة ، وان ترتعد اوصالك لأي صوت ، وان يدبّ الرعب الى فؤادك من كل شيء : من السقف الذي يتصاعد منه الدخان ، من الرجل الذي يعبر السبيل ،

من الكلب الذي ينبح ، من الجواد الذي يخبّ ، من الساعة التي تدقّ ، من النهار لأنك تُبصر فيه ، ومن الليل لانك لا تبصر فيه ، من الطريق ، من الممرّ ، من الدغل ، ومن الرقاد . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . إنه لم يذق طعاماً ولا مناماً طوال ست وثلاثين ساعة . ومدّد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة فغدت ثمانية أعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الهرب كرة اخرى . ولم يضيّع الفرصة ، ولكنه اخفق من جديد . لقد افتقدوه حين نُودي على الاسماء . وأُطلق مدفع الخطر . وفي موهن من الليل عثر عليه العسس الطوّاف مختبئاً خلف قاعدة مركب لمّا يتمّ بناؤه بعد . وقاوم معتقليه من حرس السجن الخاص بالمحكومين بالاشغال الشاقة . هربٌ ومقاومة . وكانت أحكام القانون الخاص تعاقب على هذين باضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منها يصفّد خلالهما السجين بالقيد الحديدي المزدوج . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة اخرى لم يوفّق فيها الى خير مما رفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافية فغدا المجموع ست عشرة سنة . واخيراً جرب مرةً نهائية وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، في ما اظنّ ، فأعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحُكم عليه بثلاث سنين إضافية من اجل هذه الساعات الاربع . وهكذا أمسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، أُطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لأنه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وهنا موضع ملاحظة قصيرة بين هلالين . هذه هي المرة الثانية التي يقع فيها مؤلف هذا الكتاب — في دراساته للمسألة الجزائية ولأحكام القانون — على سرقة رغيف كانت نقطة انطلاق في تخريب مصير . لقد سرق كلود غوود رغيفاً ، وسرق جان فالجان رغيفاً . ويشهد احصاء

انكليزي ان اربع سرقات من كل خمس تقع في لندن سببها المباشر هو الجوع .

لقد دخل جان فالجان سجن الاشغال الشاقة وهو ينتحب ويرتعد ؛ وغادره وقد قسا فؤاده وامتنع على الألم . لقد دخله يائساً ؛ وغادره كالح الوجه .

ما الذي ألمّ بهذه النفس ؟

٧
أعماق القنوط

فلنحاول ان نجيب عن هذا السؤال .

وانها لضرورة ملحة ان ينظر المجتمع في هذه الاشياء ، لأنها من صنع يديه .

لقد كان ، كما سبق منا القول ، جاهلاً ؛ ولكنه لم يكن أبله . كان النور الطبيعي مُضاءً في ذات نفسه . وضاعف البؤس — والبؤس ايضاً ضياؤه — تلك الاشعة القليلة التي انارت عقله . ففي الاصفاد ، وتحت السياط ، وفي حجيرة الحبس المظلمة ، وفي غمرة الاعياء ، وتحت شمس السجن المحرقة ، وفوق الالواح الخشبية التي تشكل سُرر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كان يلتفت الى ضميره ويفكر .

لقد أقام من نفسه هو محكمة .

وشرع يحاكم نفسه بنفسه .

لقد ادرك انه لم يكن رجلاً بريئاً عوقب ظلماً . لقد اعترف بأنه ارتكب عملاً متطرفاً يوجب اللوم ؛ وبأنه كان من الجائز ان لا يُضنّ عليه بالرغيف لو طلبه ؛ وبأنه كان من الخير له على اية حال لو اعتصم

بالصبر في انتظار الرحمة ، او في انتظار العمل ؛ وبأن قول المرء : « وهل استطيع ان أنتظر حين أكون جائعاً » ليس حجة لا تُردّ على الاطلاق ، وبان من النادر جداً ، في المحل الاول ، ان يموت المرء جوعاً بالمعنى الحرفيّ ؛ وبأن الانسان قد خُلق – لحسن الحظ او لسوئه -- على نحو يمكّنه من ان يتألم طويلاً وكثيراً معنوياً وجسدياً – من غير أن يموت ، وبأنه كان يتعين عليه ، اذن ، ان يصبر ؛ وبأن ذلك كان خليقاً به ان يكون خيراً حتى لاولئك الاطفال الصغار المساكين انفسهم ؛ وبأنه كان من الحماقة ، بالنسبة اليه وهو الرجل البائس الحقير ، أن يأخذ بخناق المجتمع كله في عنف ، وان يتوهم ان في ميسوره ان ينجو من البؤس عن طريق السرقة ؛ وبأن الباب الذي يقودك الى العار ليس على اية حال باباً صالحاً لأخراجك من الشقاء . وبكلمة ، لقد اعترف بانه قد اخطأ .

ثم إنه سأل نفسه :

أكان هو الشخص الوحيد الذي أخطأ خلال تاريخه المشؤوم ؟ أليس شيئاً فظيعاً في المحلّ الاول ان يلتمس ، هو العامل ، عملاً فلا يجده ، وأن يلتمس ، هو المجتهد ، رغيفاً فلا يقع عليه ؟ وفوق هذا ، أفليست العقوبة – وقد ارتكب الخطأ واعترف به – وحشية مغالى فيها ؟ أليست الاساءة التي ارتكبها القانون ، في العقوبة ، أعظم من تلك التي ارتكبها المذنب ، في الجريمة ؟ أليس ثمة ثقل اضافيّ في احدى كفتي الميزان – تلك التي تمثل جانب التكفير عن الاثم ؟ أليس الافراط في العقوبة محواً للجريمة ؟ أليس من نتيجة هذا الافراط قلب الوضع رأساً على عقب ، وبذلك تحلّ خطيئة القهر محلّ خطيئة الآثم ، ويمسي المجرم ضحية ، والمدين دائناً ، وينتقل الحق نهائياً الى جانب ذلك الذي انتهك حرمته ؟ ألم تنته هذه العقوبة بما اضيف اليها من علاوات متعاقبة بسبب من محاولته الهَربَ غير مرة الى ان تصبح ضرباً من الاعتداء يشنه

القوي على الضعيف ، وجريمة من جرائم المجتمع ضد الفرد ، جريمة تتكرر كل يوم ، جريمة استمرت تسع عشرة سنة ؟

وسأل نفسه ما اذا كان المجتمع البشري يملك الحق في ان يسحق عضاءه باهماله البالغ ، من ناحية ، وباهتمامه الذي لا يرحم ، من ناحية ثانية . وما اذا كان يملك الحق في ان يبقي الى الابد رجلاً فقيراً بين نقص وإفراط : نقص في العمل ، وافراط في العقوبة . وما اذا كان فاضحاً ان يعامل المجتمع بمثل هذا التدقيق القاسي أعضاءه الذين نالوا اقلّ نصيب من توزيع الثروة الذي تمّ بالمصادفة ، والذين هم بسبب من ذلك احقّ الناس بالتساهل والتسامح .

حتى اذا طرح هذه الاسئلة وقرّرها دانَ المجتمعَ وأصدر حكمه عليه .

لقد حكم عليه بالحقد والكراهية .

لقد اعتبره مسؤولاً عن المصير الذي تحمّله ، ولعله ان يكون قال في ذات نفسه انه لن يتردد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بينه وبين نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي أنزله هو ، وبين الاذى الذي أُنزل به . وخلص اخيراً الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظلماً ، ولكنها كانت من غير ريب جوراً وإثماً .

قد يكون الغضب احمق سخيفاً ، وقد يستثار غضب المرء وهو على خطأ ، ولكن المرء لا يمكن ان يستشعر السخط الناشيء عن الاجحاف البالغ إلا وهو في الاساس على حق ، في ناحية من النواحي . لقد استشعر جان فالجان ذلك الضرب من السخط .

وفوق هذا ، فان المجتمع البشري لم يقدّم اليه غير الاساءة . إنه لم يرَ من ذلك المجتمع غير هذا الوجه الحانق الذي يدعوه العدالة ، والذي يبديه لاولئك الذين يصرعهم . إن احداً من الناس لم يمسّ جان

فالجان يوماً إلا ليخدشه . ولقد كان اتصاله كله بالناس لطماً وطعناً .
إنهم لم يوجهوا اليه قط ، منذ طفولته ، منذ عهد امه ، منذ عهد اخته ، كلمة عذبة ، او نظرة كريمة . وفي مراحل تنقّلهِ من عذاب الى عذاب خلص شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد بأن الحياة حرب ، وبأنه كان هو المهزوم في تلك الحرب . لم يكن لديه سلاح غير حقده . ولقد وطن النفس على ان يشحذه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وان يتسلح به حين يغادر ذلك الحبس .

وكان في طولون مدرسة للسجناء يديرها بعض الرهبان غير البارعين جداً ، وكانت هذه المدرسة تعلّم المعارف الرئيسية التي لا يستغنى عنها للراغبين في ذلك من اولئك البائسين . وكان هو واحداً من هؤلاء . وهكذا دخل المدرسة وهو في الاربعين ، وتعلم كيف يقرأ ، وكيف يكتب ، وكيف يحسب . لقد أحسّ بأن تعزيز ذكائه يعني تعزيز حقده . ففي بعض الاحوال ، يكون في ميسور التعليم والنور ان يكونا عوناً على الشر .

ومن المحزن أن نقول إنه بعد ان حاكم المجتمع الذي صنع شقاءه حاكم العناية الالهيّة التي صنعت المجتمع .

ودانَ العنايةَ الالـهية أيضاً .

وهكذا ارتفعت هذه الروح وانخفضت ، في آن معاً ، خلال هذه السنوات التسع عشرة من التعذيب والعبودية . لقد تسرّب الى نفسه النور من جانب ، وتسرب اليها الظلام من جانب .

ولم يكن جان فالجان ، كما قد رأينا ، ذا طبيعة شريرة . كان لا يزال حسنَ الطوية حين دخل السجن . وفي اثناء مقامه هناك دانَ المجتمعَ البشري ، واستشعر انه امسى شريراً ؛ ودان العدالة واستشعر أنه امسى ملحداً .

ومن العسير ان لا نتمهل هذا لحظة ونتأمل .

أتستطيع الطبيعة البشرية ان تنقلب هكذا رأساً على عقب ؟ أيكون في مبدور الانسان ، الذي خلقه الله خيِّراً ، ان يحيله أخوه الانسان شريراً ؟ هل تستطيع النفس ان تتغير دفعةً واحدة لتجاري قَدَرَها ، وان تصبح شريرة حين يكون قَدَرها شريراً ؟ ايكون في وسع القلب ان يتشوّه ويصاب بالقباحات والعاهات التي لا برء منها ، تحت وطأة بلاءٍ فادح ، شأن العمود الفقري تحت قوس شديد الانخفاض ؟ اليس ثمة في كل نفس بشرية ، ألم يكن في نفس جان فالجان شرارة ابتدائية — او عنصر الهي — لا يتطرق اليها الفساد في هذا العالم ، ولا يلمّ بها الفناء في العالم الآخر ، شرارة يستطيع الخير ان يطورها ، ويؤججها ، ويضرمها ، ويسعّرها ، ويمكّنها من ان تشعّ إشعاعاً يبهر الابصار ، ويعجز الشر ابد الدهر عن اطفائها بالكلية ؟

اسئلة خطيرة معقّدة لعل جميع علماء الفيسيولوجيا يجيبون عن آخرها نفياً ، ومن غير ما تردد ، لو قدّر لهم ان يروا في طولون — خلال ساعات الراحة التي كانت عند جان ڤالجان ساعات تفكير — ذلك السجينَ المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وقد قعد مكفهرّ الوجه ، مطويّ الذراعين فوق قضيب احدى الآلات الرافعة ، وأقحم طرفُ قيده الحديدي في جيبه لكي لا ينسحب على الارض — ذلك السجين المستغرق في التفكير بجد وصمت ، المنبوذ من القانون الذي ينظر الى الانسان في حقد ، المحكوم عليه من المدنية التي تنظر الى السماء في قسوة .

وليس من ريب — ولا نودّ ان نخفي ذلك — في ان الفيسيولوجي الملاحظ خليق به ان يرى في جان ڤالجان شقاء لا سبيل الى شفائه ؛ ولعله أن يرثي لهذا المريض الذي أورثه المجتمع علته ؛ ولكنه غير قمين مع ذلك بأن يحاول معالجته . وأغلب الظن انه سوف يشيح بوجهه عن هذه الكهوف الجدير به ان يراها في تلك النفس ؛ وانه سوف يمسح من هذا الوجود — مثلَ دانتي عند باب الجحيم — تلك الكلمة التي خطتها ،

مع ذلك ، إصبع الله على جبين كل انسان : — **الامل** .

هل كانت حاله النفسية هذه التي حاولنا ان نحللها ، واضحة عند جان ڤالجان وضوحها بعد محاولتنا هذه في اذهان القراء ؟ هل رأى جـان ڤالجان في وضوح جميعَ العناصر التي رُكّبت منها بؤسه المعنوي ؟ هل رآها قبل ان تتكون ، وفيما هي تتكوّن ؟ هل تتبّع ذلك الرجل الاميّ الجافي تتبّعاً دقيقاً تعاقب الفكرات التي رفعته وخفضته — شيئاً بعد شيء — حتى انتهى الى ذلك المستوى الفاجع الذي طبع منذ سنوات عديدة افقَ روحه الداخلي ؟ هل كان يعي وعياً واضحاً كل ما يجري في ذات نفسه ، وكل ما كان يحركه ويقلقله ؟ ذلك شيء لا نجرؤ على إثباته ؛ إننا في الواقع لا نؤمن به . كان جان ڤالجان أجهلَ ، حتى بعد ان اصيب بهذا البلاء كله ، من ان يتمّ له تمييز حسنٌ في هـذه الشؤون . إنه ما كان يدري ، في بعض الاحيان ، ماهية مشاعره على وجه الضبط . كان جان ڤالجان في الظلام ؛ لقد شقيَ في الظـلام ؛ لقد أبغض في الظلام ؛ وفي وسعنا ان نقول إنه أبغض ببصره هـو . لقد عاش في ذلك الظلام على نحو موصول ، ملتمساً طريقه مثل أعمى من العميان ، ومثل حالم من الحالمين . وبين الفينة والفينة فحسب كان يغمره فجاءةً ، من باطن او من خارج ، عاصف من غضب ، وفيضٌ من عذاب ، ووميض خاطف شاحب يضيء نفسه كلها ، ويكشف من حوله — من امام ومن وراء ، على وهج نور مخيف — عن تلـك الهُوَى * الفظيعة والمشاهد الكالحة التي ينطوي عليها قدَره .

وخبا الوميض ؛ وهبط الليـل من جديد ؛ أين كان ؟ انه ما عاد يدري .

إن ميزة هـذا الضرب من العقوبة التي يهيمن فيها العنصر الذي لا

---

* جمع هوّة .

يرحم ، يعني العنصر الذي يوحّش * ، هي أنه يحوّل الانسانَ — شيئاً فشيئاً — تحويلاً أبله ، الى حيوان ، وفي بعض الاحيان الى حيوان مفترس . وإن محاولات جان ڤالجان العنيدة المتكررة الى الهرب من السجن لتنهضُ دليلاً على ان ذلك هو الاثر الذي يتركه القانون في النفس البشرية . لقد جدّد جان ڤالجان هذه المحاولات ، الحمقاء الى ابعد الحدود ، غير المجدية الى ابعد الحدود ، كلما سنحت له الفرصة ، من غير ان يفكر لحظة واحدة في النتيجة ، او في التجارب التي سبق له ان قام بها . لقد فرّ على نحو ضارٍ ، كالذئب الذي يجد باب قفصه مفتوحاً . قالت له الغريزة : « أنجُ بنفسك ! » وقال له العقل : « إبقَ ! » ولكنْ أمام إغراء قويّ الى هذا الحد ، اختفى العقل . الغريزةُ وحدها هي التي بقيت . كان الوحش وحده هو الناشط العمل . حتى اذا عاودوا إلقاء القبض عليه لم تزده القظائع الجديدة التي أُنزلت به غيرَ ضراوة الى ضراوة .

وثمة ناحية واحدة ينبغي لنا ان لا نُغفلها ، وهي انه كان على قوة جسدية لم ينعم بمثلها ايّ من نزلاء السجن . ففي العمل الشاق ، وفي فتل الحبال المعدنية ، وفي ادارة الآلات الرافعة كانت قوة جان ڤالجان تعدلُ قوة اربعة رجال . كان في بعض الاحيان يرفع ويحمل على ظهره اثقالاً هائلة ، ويقوم في بعض الاحيان بدور تلك الاداة التي ندعوها رافعة أثقال ، او ما كان يدعى في الفرنسية القديمة *orgueil* وهي الكلمة التي نستطيع ان نقول ، بالمناسبة ، ان شارع مونتورغويّ ، قرب اسواق باريس المسقوفة ، مدينٌ باسمه لها . ولقد لقّبه رفاقه بـ « جان رافعة الاثقال » . وذات يوم ، فيما كانت شرفة دار بلدية طولون ترمّم ، مالَ تمثال من تماثيل النساء الرائعة التي تحمل ثقل الشرفة ، وهو من عمل

---

* الذي يجعل الشيء وحشياً .

بوجيه * – مال عن موضعه ، وكاد ان يسقط . فما كان من جان فالجان ، الذي اتفق ان كان هناك ، إلا ان أسنده بكتفه حتى اقبل العمال .

وكانت لدانةُ جسده تفوق قوته ايضاً . والواقع ان بعض السجناء ، الحالمين ابداً بالفرار ، انتهوا الى ان يجعلوا من القوة والبراعة مجتمعتين علماً حقيقياً . ذلك هو علم العضلات . وان نظاماً غامضاً من توازن القوى ليُمارَس كل يوم من جانب السجناء ، هؤلاء الحاسدين السرمديين للذباب والعصافير . كان تسوّر الجدران واكتشاف نقاط ارتكاز حيث لا يرى المرء نتوءاً ما إلا بشق النفس – كان هذان ضرباً من اللهو عند جان فالجان . أعطه زاوية في جدار تجده – وقد توترت ركبتاه وتوتر ظهره واندمجت يداه ومرفقاه بوجه الجدار الخشن – يرتقي بمثل السحر حتى الدور الثالث . وقد صعد ذات مرة على هذه الشاكلة ، الى سطح السجن الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

لقد تكلم قليلاً ، ولم يضحك البتة . كان في حاجة الى انفعال متطرف لكي ينتزع منه ، مرةً او مرتين في العام ، ضحكة السجين الفاجعة تلك ، التي هي اشبه بصدى ضحكة شيطان من الشياطين . كان يبدو في عين من يراه وكأنه مستغرق في النظر ، على نحو موصول ، الى شيء فظيع .

ولقد كان مستغرقاً حقاً .

فمن خلال الاحساس المريض الذي يميز الطبائع غير الكاملة ، ومن خلال الذكاء الخمَد أحسّ إحساساً غامضاً بأن عبثاً هائلاً يجثم فوقه . وفي ذلك الظل الشاحب القاتم حيث كان يزحف ، وكلما ادار وجهه وحاول ان يرفع عينيه ، كان يرى في ذعر يمازجه الغيظ ركاماً يتشكل ويتجمع ويصعّد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات راعبة – ركاماً مخيفاً

* Pierre Puget نحات فرنسي اشتهر بأصالته الفنية (١٦٢٢ – ١٦٩٤)

من الاشياء ، من القوانين ، من الاحقاد ، من الرجال ، ومن الاعمال التي كانت خطوطها الكبرى تفرّ منه ، والتي كان نقلها يرعبه ، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة . وههنا وهنالك ، في ذلك الركام البشع المتألب ، القريب منه حيناً ، البعيد عنه حيناً ، المغالي في الارتفاع الى أعالٍ لا تُدرَك ، ميّز جان فالجان مجموعةً ما ، بعضَ الجزئيات الشديدة الوضوح ، فهنا السجان حاملاً عصاه ، وهنا الدركي شاهراً سيفه ، وهناك كبير الاساقفة وعلى رأسه التاج ، وهنالك فوقهم جميعاً ، وفي ضرب من وهج المجد ، الامبراطور متوجاً يُعشي بهاؤه العيون . لقد بدا له أن هذه الأبهة النائية كلها ، التي ما كانت لتبدّد ليله ، إنما جعلت ذلك الليل اشد حلكةً وأدعى الى إثارة الشجن . كانت هذه جميعاً – القوانين ، والاحقاد ، والاعمال ، والرجال ، والاشياء ، تغدو فوقه وتروح ، وفقاً للحركة المعقدة الخفية التي يطبع الله بها الحضارة البشرية – فهي تدوسه وتسحقه بوحشية هادئة تمتنع على الوصف ، وبلامبالاة لا تعرف الرحمة . إن النفوس المتردّية في قعر الشقاء الاقصى ، والرجال البائسين الضائعين في الاعماق السفلى حيث يحتجبون عن العيان ، واولئك الذين صبّ عليهم القانون لعنته – إن هؤلاء جميعاً ليحسّون فوق رؤوسهم بكامل ثِقل ذلك المجتمع البشري المخيف الى ابعد الحدود في عين المنبوذ خارجه ، الفظيع الى ابعد الحدود في عين القائم تحته .

في مثل هذا الوضع فكّر جان فالجان ، وأيّ طبيعة يمكن أن تغلب على تأملاته ؟

لو كان في ميسور حبة الذرة البيضاء ان تفكر ، إذن لفكرت بما فكر به جان فالجان من غير شك .

كانت كل هذه الاشياء – وهي حقائق مليئة بالاشباح ، واشباح مليئة بالحقائق – قد احدثت في ذات نفسه آخر الامر حالةً يكاد التعبير

عنها ان يكون شيئاً متعذراً .

وفي بعض الاحيان ، كان يقف ، وهو في غمرة من عمله في سجن الاشغال الشاقة ، ويسترسل في التفكير . كان عقله ، وقد ازداد نضجه وتعاظم قلقه في آن معاً ، ينتفض ويثور . إن كل هذا الذي حدث له ليبدو في عينيه عبثاً ، وإن كل هذا الذي يحيط به ليبدو له مستحيلاً . كان يقول في ذات نفسه : « انه حلم . » وكان ينظر الى السجان الواقف على بضع خطوات منه ، فاذا بالسجان يبدو في ناظره وكأنه طيف من الاطياف ؛ وفجأة كان هذا الطيف يجود عليه بضربة عصا .

كاد العالم الخارجي ان لا يكون له وجود عنده . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ، بالنسبة الى جان فالجان ، لم تكن ثمة شمس ، ولم تكن ثمة ايام صيف جميلة ، ولا سماء مشمسة ، ولا صبح نضرٌ من أصباح نيسان . كان شيء من نور النافذة القاتم سو كل ما اضاء نفسه .

ولكي نوجز ، في الختام ، ما يمكن ان يُوجز وان يسترجم الى نتائج ايجابية من كل ما بسطناه حتى الآن ، سوف نقتصر على التيقن من ان جان فالجان ، مشذب الاشجار الفافيرولي المسالم ، والرقيق المستعبد في سجن طولون ، أمسى قادراً خلال تسع عشرة سنة ، وبفضل المران الذي تم له في محبسه ، على ارتكاب نوعين من الجريمة ، أولهما قباحة خاطفة طائشة ، مفعمة بالتهور ، مفعمة بالغريزة ، ضربٌ من الثأر للظلم الذي أُنزل به . وثانيهما قباحة خطيرة متروّىً فيها ، خضعت لمناقشة الضمير ، ونُظر فيها على ضوء الفكرات الخاطئة التي يمكن لمثل هذا المصير البائس ان يقدمها . ومرّ تبصّره في الرأي بالمراحل الثلاث المتعاقبة التي لا تستطيع غير بعض الطبائع المعيّنة ان تجتازها : التفكير ، الارادة ، العناد . كانت دوافعه هي السخط الموصول ، ومرارة النفس ، والوعي العميق للمظالم التي يعانيها ، وردّ الفعل حتى ضد الخيّرين والابرياء والمستقيمين من الناس ، اذا كان على وجه الارض من يستحق هذه

الصفات . كانت بداية افكاره كلها ونهايتها كلها هي الحقد على القانون البشري ، هذا الحقد الجدير به ، اذا لم تكبح من نموّه حادثة ذات نفحة الـٰهية ، أن يمسي حقداً على المجتمع ، ثم حقداً على الجنس البشري ، ثم حقداً على الخليقة ، ويتجلى في شهوة غامضة موصولة ضارية الى ان يؤذي مخلوقاً حياً ، كائناً من كان . وهكذا نرى أن وصف الجواز لجان فالجان بأنه « **رجل خطر جداً** » كانت له اسبابه المبررة .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثر – ذبلت في بطء ولكن بقضاء محتوم . والى هذا القلب الذاوي كانت له عين جامدة . فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد سلخ تسعة عشر عاماً لم يذرف خلالها دمعة واحدة .

٨

الموج والظل

رجل في عرض البحر !

وأي بأس في ذلك ! إن السفينة لا تقف . وإن الريح لتهبّ ؛ ولهذه السفينة القاتمة طريق مقدّر عليها ان تسير فيها . إنها تمضي لسبيلها .

ويختفي الرجل ، ثم يعاود الظهور ، ويغوص في الماء ، ثم يرتفع ثانية الى السطح . إنه يستغيث ، وينشر يديه ، فلا يسمعونه . ان السفينة المترنحة تحت العاصفة ، لتجند طاقاتها كلها في سبيل الخلاص . ويختفي الرجل الغريق عن اعين الملاحين والمسافرين ؛ إن رأسه البائس لا يعدو أن يكون نقطة في خضمّ الامواج الواسع العريض .

إنه يطلق نداءات يائسة وسط الاعماق . أيّ شبح هو ذاك الشراع المتواري ! إنه ينظر اليه – إنه ينظر اليه في سُعر . ولكنه ينأى ،

ولكنه يغدو قاتماً ، ولكنه يتقلص . لقد كان هناك منذ لحظة ، كان واحداً من الملاحين ؛ لقد ذرع ظهر المركب مع سائر القوم ، جيئة وذهوباً . كان له حظه من الهواء واشعة الشمس ؛ كان كائناً حياً . والآن ، ما الذي اصابه ؟ لقد زلت به القدم ، لقد سقط ، ولقد انتهى كل شيء .

إنه في الاعماق الراعبة . وليس تحت قدميه غير الفرار والانهيار . إن الامواج ، وقد مزقتها الرياح وبددتها ، لتطبق عليه إطباقاً كريهاً ، وان تقلبات اللجة لتحمله على متنها . إن فلذ الماء لتجيش حول رأسه ، وإن سفلة الامواج لتبصق في وجهه ، وان الفجوات المختلطة لتبتلعه نصف ابتلاع . وكلما غاص في الماء يلمح هُوّىً مفعمة بالظلام ، وتتشبث به نباتات مخيفة مجهولة ، فتوثق قدميه ، وتشدّه نحوها . إنه يحسّ بانه قد اصبح لجة وبأنه غدا جزءاً من الزبد . ان الامواج لتتقاذفه ؛ وإنه ليذوق طعم المرارة ؛ وإن الاوقيانوس النهم لتائقٌ الى التهامه . إن العِظَمَ ليعبث بنزعه الاخير ؛ ويبدو أن هذا كله لا يعدو ان يكون حقداً سائلاً .

إنه يحاول الدفاع عن نفسه ؛ إنه يحاول ان يتماسك ؛ إنه يناضل ؛ إنه يسبح . إنه — وهو تلك القوة المسكينة الموشكة على النفاد — يصارع الطاقة التي لا تنفد .

ومع ذلك فهو يكافح .

اين السفينة الآن ؟ بعيداً هناك . إنها لا تكاد تُرى في ظلمات الافق الشاحبة .

وتهبّ الريح هبّات شديدة ؛ وتغمره الامواج . إنه يرفع عينيه ، ولكنه لا يرى غير زرقة السحب الضاربة الى السواد . إنه ليشكل في نزعه الاخير جزءاً من جنون البحر الهائل . إن هذا الجبل لينكّل به حتى الموت . وإنه ليسمع اصواتاً غريبة على الاذن الانسانية ، اصواتاً

تبدو وكأنها لا تُقبل من الارض ، ولكنْ من عالم مخيف قائم وراءها .

إن في السحب طيوراً ، كما أن ثمة ملائكة فوق الاحزان الانسانية ، ولكنْ ايُّ شيء تستطيع ان تفعله من اجله ؟ إنها تطير ، وتغني ، وتطفو ، فيما هو يحشرج .

إنه يستشعر ان هاتين اللانهايتين قد دفنتاه في آن معاً : الاوقيانوس ، والسماء . الاولى قبر ، والثانية كفن .

ويهبط الليل . لقد سلخ ساعات وهو يسبح ؛ ولقد اوشكت قوته على النفاد . لقد امحت تلك السفينة ، ذلك الشيء النائي حيث كان يوجد ناس . إنه وحيد في ظلمة اللجة القظيعة . إنه يغوص ؛ إنه يتصلب ؛ إنه يناضل ؛ إنه يحسّ تحته بغيلان اللامنظور الغامضة ؛ إنه يصيح .

لم يبق ثمة ناس . ولكن اين الله ؟

ويصيح . النجدة ! النجدة ! ويصيح على غير انقطاع .

ليس ثمة شيء في الافق . ليس ثمة شيء في السماء .

إنه يتضرع الى المدى ، الى الموج ، الى الأشنة * ، الى الصخر . ولكن هذه كلها صماء . ويبتهل الى العاصفة . ولكن العاصفة الرابطة الجأش لا تذعن لغير اللانهاية .

إن من حوله الظلمةَ ، والضباب ، والوحدة ، والجلبة الضارية غير الواعية ، وتغضّن المياه الهائجة غير المتناهي . وإن في باطنه الذعر والاعياء . أما تحته فكان السقوط . لم يكن ثمة نقطة ارتكاز . إنه يفكر في مغامرات جسده الميت المظلمة وسط الدجنة غير المحدودة . إن البرد اللاذع ليشلّه . وإن يديه لتَتشنجان وتنطبقان ، ولكن على العدَم . رياح ، غيوم ، زوابع ، عَصَفات ، ونجوم لا غَناء فيها ! ما العمل ؟ إنه يستسلم لليأس . إنه ، وقد هدّه الاعياء ، يلتمس الموت . إنه لا يقاوم بعد الآن . لقد ألقى السلاح ؛ لقد اطّرح القتال ، وها هو ذا

* Algue وهو نبات يحيا على سطح المياه العذبة والمالحة أو في أعماقها .

يغوص الى اعماق اللجة الفاجعة الى الابد .

إيه يا سير المجتمع الانساني الحاقد ! إن تحطيم الرجال والنفوس ليطبع سبيلك ! ايه ايها الاوقيانوس حيث يسقط كل ما يدعهُ القانون يسقط ! أنت انعدام النجدة المشؤوم ! إيه أيها الموت الادبي !

البحر هو الليل الاجتماعي المتحجر الفؤاد الذي يلقي القانون ضحاياه في عبابه . البحر هو الشقاء الذي لا حدّ له !

إن النفس التي تتلاعب بها امواج ذلك البحر قد تصبح جثةً . فمن ذا الذي يعيدها الى الحياة ؟

٩
مظالم جديدة

وحين أزف موعد خروجه من سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وحين ضجت في اذن جان فالجان هذه الكلمات الغريبة : « **أنت مطلق السراح !** » بدت تلك اللحظة ، في عينيه ، غير محتملة وغير واقعية . وفجأة تسرّب الى روحه شعاع من النور الحيّ ، شعاع من نور الأحياء الحقيقيّ . وشُده جان فالجان بفكرة الحرية . كان قد آمن بحياة جديدة . ولقد رأى في الحال ايّ ضرب من الحرية ذلك الذي يُحمّل جوازاً أصفر .

وكان ثمة الى جانب هذا كثير من التجارب المريرة . كان قد حسب ما ادّخره من مال طوال مقامه في سجن الاشغال الشاقة فبلغ مئة وواحداً وسبعين فرنكاً . ومن العدل ان نضيف انه غفل عن ان يأخذ بعين الاعتبار الراحة الالزامية أيام الاحد والاعياد ، تلك الراحة الجدير بها ان تنقص هذا المبلغ ، خلال تسعة عشر عاماً ، نحواً من اربعة

وعشرين فرنكاً . وعلى أية حال ، فقد أُنقصت امواله تلـــك بمختلف الرسوم المحلية حتى أمست مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » دُفعت اليه عند رحيله .

ولم يفهم شيئاً من هذا . واعتقد أنه ظُلم ، بل اعتقد - ولنقلها بصراحة - انه سُرِق .

وفي اليوم التالي لاطلاق سراحه رأى امام باب معمل من معامل تقطير زهر الليمون في غراس رجالاً يفرغون بعض الأكياس . فعرض عليهم خدماته . وكانوا في حاجة الى المساعدة فقبلوا عرضه . وانصرف الى العمل . كان ذكياً ، شديد البأس ، رشيقاً . ولقد بذل غاية جهده . وبـــدا ربّ العمل وقد داخله الارتياح . وفيما هو يعمل مرّ بهم دركي ، فرآه ، وسأله ان يُبرز اوراقه . واضطر الى إبراز الجواز الاصفر . حتى اذا تمّ ذلك ، استأنف جان فالجان عمله . وقبل ذلك بقليل ، كان قد سأل احد العمال عن الاجرة التي تُدفع اليه ، يومياً ، لقاء هذا العمل فكان جوابه : « **ثلاثون سو** » . وهبط الليل ؛ واذ كان مضطراً الى الرحيل صباح اليوم التالي قصد الى رب العمل والتمس ان يدفع اليه أجره . ولم يقل رب العمل كلمة ، ولكنه قدّم اليه خمسة عشر « سو » . واحتجّ . فأجابه الرجل : « **هذا يكفيك .** » وألحّ . فحدّق رب العمل الى عينيه وقال : « **حذار من السجن !** »

وهنا أيضاً اعتبر أنه قد سُرِق .

لقد سرقه المجتمع وسرقته الدولة - حين أنقصا المال الذي ادّخره على نطاق واسع . وها قد جاء دور الفرد في ان يسرقـــه على نطاق مصغّر .

إن اطلاق السراح ليس هو الخلاص . فقد يغادر المرء سجن الاشغال الشاقة ، ولكنه لا يستطيع ان يغادر الحكم الذي صدر بحقه .

ذلك ما أصابه في غراس . ولقد سبق ان رأينا كيف استُقبل في د...

١٠

الرجل يستيقظ

فيا كانت ساعة الكاندرائية تدقّ الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

كان الذي أيقظه أن الفراش وثير اكثر مما ينبغي . فطوال عشرين عاماً تقريباً لم يرقد يوماً في فراش ؛ وعلى الرغم من انه لم يخلع ثيابه فقد كان ذلك الاحساس جديداً عنده الى درجة تجعل من المحتوم عليه ان يعكّر صفو رقاده .

كان قد نام اربع ساعات ونيفاً . وكان الاعياء قد زايله . لقد تعوّد أن لا يستجمّ غير ساعات معدودات .

وفتح عينيه ، وحدّق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم أغمضهما ليستسلم للنوم كرةً اخرى .

وحين تكون احاسيس كثيرة متباينة قد اقلقت نهارنا ، وحين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرةً ، ثم نعجز عن ان نعاود النوم من جديد . إن النوم ينقاد الينا في المرة الاولى بطواعية لا تتمّ له في المرة التالية . وذلك ما وقع لجان فالجان . إنه لم يستطع أن ينام كرةً ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان في احدى تلك اللحظات التي تكون أفكارنا خلالها قلقة مشوّشة . كان ثمة ضرب غامض من المدّ والجزر في دماغه . لقد طفتْ ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق ، وتقاطعت على نحو مختلط ، فاقدةً اشكالها الخاصة ، متضخمة الى ما لا حدّ له ، لتختفي كلّها بعدُ دفعةً واحدة وكأنها وسط سيل موحل هائج . وراودته افكار كثيرة ،

ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها . اما هذه الفكرة فسوف نبسطها في الحال . كان قد لاحظ الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .

لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على مدى بضع خطوات . ففي اللحظة التي اجتاز فيها الحجرة الوسطى ليبلغ تلك التي هو فيها ، كانت الخادم العجوز تضعها في خزانة جدارية صغيرة قائمة فوق رأس السرير . وكان قد لاحظ موضع هذه الخزانة الجدارية جيداً : الى اليمين وانت مقبلٌ من حجرة الطعام . كانت آنية فضية قديمة ، آنية كثيفة ثقيلة . وخليقٌ بها ، إذا ما أضيفت اليها الملعقة الكبيرة ، إن تباع بمئتي فرنك على الاقل ، وهو ضعف المبلغ الذي كسبه خلال تسع عشرة سنة من العمل . صحيح انه كان في امكانه ان يكسب اكثر لو ان « الحكومة » لم « تسرقه » .

وغلى دماغه ساعةً كاملة ، ساعةً طويلة حفلت بالارتجاجات الممتزجة بشيء من الصراع . واعلنت الساعةُ الثالثةَ . وفتح عينيه من جديد ، وانتصب في سريره فجأة ، وبسط ذراعه ومسّ جرابه ، وكان قد طرحه في زاوية المخدع ، وارخى رجليه ، ووضع قدميه على الارض ، ووجد نفسه — من غير ان يدري كيف — جالساً على سريره .

وظلّ فترة من الزمن مستغرقاً في التفكير على ذلك النحو ، وهو وضعٌ كان خليقاً به أن يوقع الرعب في فؤاد الناظر اليه في تلك الظلمة ، وقد أفاق وحده في البيت المستسلم للرقاد . وفجأةً انحنى الى امام ، وخلع نعليه ، ووضعهما في رفق على الحصير المنثور قرب السرير ، ثم استأنف وضعه المفكر ، وغدا ساكناً من جديد .

وفي غمرة من ذلك التفكير البشع أقلقت الفكرات التي اشرنا اليها دماغه على غير انقطاع ، فهي تدخل ، وهي تخرج ، وهي تعود ، وهي تغدو ضرباً من العبء الثقيل عليه . ثم إنه فكر ايضاً — وليس يدري كيف ،

وبذلك العناد الميكانيكي الذي يميّز التفكير الحالم ، بمجرم يدعى بروفيه كان قد عرفه في سجن الاشغال الشاقة ، وكان لا يرفع بنطلونه غير رباط مفرد من نسيج قطني مزرود . وكان نمط ذلك الرباط الشطرنجيّ التربيع لا يفارق خياله أبداً .

وظلّ على هذه الحال ، ولعله كان خليقاً به أن يظل على هذه الحال حتى مطلع الفجر لولا أن دقت الساعة دقة النصف او دقة الربع . لقد بدت الساعة وكأنها تقول له : « هيّا ! »

وانتصب واقفـاً ، وتردّد لحظة اخرى ، وأصاخ . كان كل شيء هادئاً في المنزل . فمضى مباشرةً ، وفي حـذر ، الى النافذة التي كان قادراً على ان يلمحها . لم يكن الليـل حالكاً جداً . فقد كان القمر بدراً تجري عبره سحائب ضخام تطاردها الريح . وكان هذا يحـدث ، في الخارج ، تراوحاً بين الظل والنور ، فيظلـم الكون حيناً ويضيء حيناً ، ويحدث في الداخل ضرباً من الشفق . وكان هـذا الشفق — الكافي لتمكينه من ان يرى طريقه ، المتقطـع بسبب من السحائب العابرة — يشبه ذلك الضرب من النور الازرق المسودّ الذي يخترق نافذة سجن مظلم يروح الناس امامها ويغدون . حتى اذا انتهى جان فالجان الى النافذة تلمّسها . لم تكن مقضّبة بالحديـد ، وكانت منفتحةً على الجنينة ، ولم تكن موصدةً ، وفقاً للعرف السائد في تلك الديار ، إلا بمسمار مسطّح صغير . وفتح النافذة ، حتى اذا اندفع الهواء القارس الى الغرفة أعاد إيصادها في الحال . وحدّق الى الجنينة بتلك النظرة المستغرقة التي تدرس اكثر مما ترى . كانت الجنينة مطوّقة بجدار ابيض ، شديد الانخفاض ، سهل التسوّر . وهناك ، في المدى ، بَصُرَ برؤوس اشجار متباعدة على مسافات متساوية ، فأدرك من هنا أن هـذا الجدار يفصل الجنينة عن جادّة عريضة ، أو زقاق مشجّر .

وحين تمّت له هذه الملاحظة ، استدار مثل رجل وطّن النفس على

أمر ، ومضى الى مخدعه ، وتناول جرابه ، وفتحه ، ونقّب فيه ، ثم اخرج منه شيئاً وضعه على السرير ، ودسّ نعليه في احد جيوبه ، وشدّ جرابه ، وطرحه على منكبيه ، واعتمر قلنسوته ، وخفض حافتها فوق عينيه ، وتلمّس عصاه في الظلام ، ومضى فوضعها في زاوية النافذة ، ثم ارتدّ الى السرير ، وفي عزم تناول الشيء الذي وضعه فوقه منذ برهة . لقد بدا اشبه بقضيب حديدي صغير ، مستدقٍّ عند احد طرفيه كالحربة .

كان من العسير على المرء ان يدرك وسط الظلام ، لأيّ غرض جُعلت هذه القطعة الحديدية ؟ أهي مخل ؟ أهي دبوس *

ولو قد نظر المرء الى ذلك الشيء على ضوء النهار اذن لرأى انه لم يكن غير مِثقب معدّن . ففي ذلك العهد كان المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يُكلفون احياناً اقتلاع الحجارة من الكثبان المرتفعة المحيطة بطولون وكانوا كثيراً ما يزوّدون بادوات المعدّنين . ومثاقب المعدنين تصنع من حديد صلب ، وينتهي طرفها الادنى برأس مستدقّ تُقحم بواسطته في الصخر .

وأمسك المثقب بيده اليمنى ، وحبس نَفَسه ، وتقدم في خطىً مقلقلة نحو باب الغرفة المجاورة ، التي كانت غرفة الاسقف ، كما نعلم . وحين انتهى الى ذلك الباب ألفاه مفتوحاً بعض الشيء . إن الاسقف لم يوصده قط .

١١
ما الذي يفعله

واصاخ جان فالجان . لم يكن ثمة صوتٌ ما .

* الدبوس ، هنا ، عمود من حديد يضرب به .

ودفع الباب .

دفعه في رفق بطرف إصبعه بمثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع حركات هرة تريد ان تدخل .

واذعن الباب للضغط بحركة صامتة لا تـكاد تُدرك ، جعلت الفرجة أوسع بعض الشيء .

وانتظر لحظةً . ثم دفع الباب كرة أخرى في عزم اشد .

وواصل الباب إذعانه في صمت . كانت الفتحة قد أمست عريضة يستطيع ان يمضي من خلالها . ولكن كان ثمة قرب الباب طاولة صغيرة شكلت معه زاوية مُربكة تعوق الدخول الى الحجرة .

ورأى جان فالجان هذه العقبة ، ولكن الفرجة ينبغي ان توسع اكثر مهما كلف الامر .

وإذ أزمع على ذلك ، دفع الباب كرةً ثالثة بأعنف مما دفعه في المرتين السابقتين . فما كان من مفصل الباب الصدىء إلا ان ارسل في تلك الظلمة ، صريراً أبحّ متطاولاً .

وارتعد جان فالجان . لقد ضجّ صوت هذا المفصل في أذنيه صارخاً فظيعاً وكأنه نَفخُ الصور يوم القيامة .

وفي غمرة المبالغة الوهمية التي تلازم الدقيقة الاولى ، كاد يتوهم ان هذا المفصل قد دبت فيه الحياة فجأة وان حياته تلك فظيعة ، فهو ينبح كالكلب ليحذر الناس جميعاً ، ويوقظ النائمين .

ووقف مرتعداً مرتبكاً ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقبيه . واحسّ بشرايينه تنبض عند صدغيه مثل مطرقتي حداد ، وبدا له وكأن نَفَسَه خرج من صدره بمثل هدير الريح المنطلقة من كهف . لقد تراءى له ان من المستحيل ان لا يكون هذا الصياح المروّع الذي اطلقه المفصل المهتاج قد قلقل المنزل كله بمثل رجة الزلزال . لقد أطلق الباب الذي دفعه هو ، صيحةَ الخطر ونادى مستغيثاً . ولن تنقضي لحظة حتى

يستيقظ الرجل العجوز . وتصرخ المرأتان العجوزان ، وعندئذ تُقبل النجدة ؛ وبعد ربع ساعة ليس غير تضج البلدة كلها بالنبأ ويطارده رجال الدرك . واعتقد لحظةً ، انه هالك لا محالة .

ووقف ساكناً ، مثل تمثال الملح ، وقد فقد الجرأة على ان يأتي بحركة ما .

وتقضت بضع دقائق . كان الباب مفتوحاً على مداه . وغامر فألقى نظرةً على الغرفة . إن شيئاً لم يتحرك . وأصغى . لم يغير شيء ما مكانه في البيت . ان جلبة مفصل الباب الصدىء لم توقظ احداً .

وانقضى هذا الخطر الاول ، ولكنه ما يزال يستشعر في ذات نفسه هيجاناً مروّعاً . ومع ذلك ، فانه لم ينقلب على عقبيه . بل إنه لم ينقلب على عقبيه حتى في تلك اللحظة التي اعتقد فيها انه قد هلك . إنه لم يفكر إلا بانجاز ما اعتزم عليه في الحال . وخطا خطوةً ، فاذا هو في الغرفة .

كانت هذه الغرفة غارقة في هدوء كامل . وكان في ميسوره ان يتبين هنا وهناك بعض الاشكال المختلطة الغامضة التي كانت — على ضوء النهار — اوراقاً مبعثرة على طاولة ، وكتباً مفتوحة من قطع النصف ، وكتباً مركومة على كرسي منخفض ، وكرسياً ذا ذراعين مثقلاً بالثياب ، ومركعاً ذا مسند لليدين ، ولكنها لم تكن الآن غير زوايا مظلمة ، وبقع ضاربة الى البياض . وتقدّم جان فالجان ، محاذراً ان يمسّ الاثاث . وفي الطرف الاقصى من الغرفة كان في ميسوره ان يسمع انفاس الاسقف النائم ، المتكافئة الهادئة .

ووقف فجأة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه بأسرع مما كان يحتسب .

ان الطبيعة لتشدّ ، في بعض الاحيان ، مفاعيلها ومظاهرها الى افعالنا في ضرب من الملاءمة الجدية الذكية ، وكأنما تريد ان تُكرهنا على التفكير . فمنذ نصف ساعة تقريباً واحدى السحب العظيمة تغطي وجه

السماء . حتى اذا وقف جان فالجان تجاه السرير تبددت تلك السحابة ، وكأنها تفعل ذلك عامدة ، واخترق النافذة العالية شعاع قمريّ ما لبث ان اضاء وجهَ الاسقف الشاحب . كان نائماً في سكون . وكان متلفعاً في سريره - بسبب من ليالي ديار الالب الدنيا القارسة - برداء صوفيّ داكن يغطي ذراعيه حتى المرفقين ، فكأنه مرتدٍ ثيابه كلها تقريباً . وكان رأسه مسترخياً الى الوسادة في وضع الرقاد المُهْمَل . وفوق جانب السرير تدلّت يده المزدانة بالخاتم الاسقفي ، والتي انهمرت منها دفقاتٌ من المبرّات والعمل الصالح . كان محياه كله مشرقاً بانطباعة غامضة من الرضا ، والامل ، والسعادة . كانت اكثر من ابتسامة . كانت إشعاعاً أو تكاد . وعلى جبينه استقرّ انعكاسٌ لا يوصف من نور غير منظور . إن ارواح المستقيمين من الناس لترى في الرقاد سماء عجيبة .

كان انعكاسٌ من هذه السماء يسطع على محيّا الاسقف .

وكان في الوقت نفسه شفافيةً مضيئة ، لأن هذه السماء كانت في ذات نفسه . هذه السماء كانت ضميره .

وفي اللحظة التي استقر فيها شعاع القمر على هذا الضياء الباطني بدا الاسقف النائم وكأنما تحيط به هالة من النور . ولكنها كانت معتدلة ، ومحجوبةً بشفق لا سبيل الى وصفه . وزاد هذا القمر الذي في السماء ، وهذه الطبيعة الوسنى ، وهذه الحديقة التي لا نبضة فيها ، وهذا المنزل الهادىء ، والساعة ، واللحظة ، والصمت ، - زاد هذا كله طمأنينة هذا الحكيم الجليلة ، وغلّف بضرب من الهالة الماجدة الرائقة هذا الشعر الأبيض ، وهاتين العينين المغمضتين : هذا الوجه حيث كل شيء امل ، وحيث كل شيء ثقة - رأس الرجل العجوز ، ورقاد الطفل .

كان ثمة ألوهية تقريباً في هذا الرجل المعظم هكذا على غير وعي منه .

ووقف جان فالجان في الظل ، ومثقبه الحديدي في يده ، منتصب

القامة ، جامداً ، مروّع الفؤاد امام هذا الوجه المشعّ . إنه لم يرَ من قبل نظيراً لذلك البتة . وملأت هذه الطمأنينة فؤاده رعباً . والحق أنه ليس للعالم الاخلاقي مجلىً اعظم من هذا : ضمير قلق مضطرب على وشك ارتكاب عمل شرير ، يتأمل رقاد رجل صالح .

كان هذا الرقاد في هذه العزلة ، وعلى مقربة من رجل مثله ، ينطوي على شيء رفيع أحسّ به في غموض ، ولكن في قوة .

إن احداً ما كان قادراً على ان يعرف اي شيء كان يدور في خلده . حتى هو نفسه لم يكن يدري . ولكي يحاول المرء ان يلمّ بذلك يتعين عليه ان يتخيل أقصى العنف في حضرة اقصى الاعتدال . ولم يكن ثمة على وجهه شيء يمكن ان يلمح في يقين . كان يرين عليه ضرب من الدهش الشكس . لقد رآه . هذا كل ما هنالك . ولكن ايّ الافكار طافت في ذهنه ؟ كان من المستحيل على المرء ان يحزر ذلك . كان واضحاً ان الاضطراب والارتباك استبدا به . ولكنْ ما طبيعة هذا الانفعال ؟

إنه لم يرفع عينيه عن الرجل العجوز . كان التردد العجيب هو الشيء الوحيد الواضح في مسلكه ومحيّاه . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يعتقد أنه إنما تردّد بين عالمين : عالم الهالكين ، وعالم الناجين . لقد بدا على استعداد لسحق هذه الجمجمة ، او لتقبيل هذه اليد !

وبعد لحظات رفع يده اليسرى ، في بطء ، نحو جبينه ؛ ونزع قلنسوته . ثم رفع يده بمثل ذلك البطء ، واستغرق في تأملاته ، كرةً اخرى ، وقد حمل قلنسوته في يسراه ، وعصاه في يمناه ، ووَقفَ شعره فوق رأسه الضاري .

وتحت هذه النظرة المروّعة ، واصل الاسقف رقاده في طمأنينة عميقة . كان تمثال المصلوب القائم على الموقد يبدو على نحو باهت في ضوء القمر ، وكأنما كان يبسط ذراعيه نحوهما كليهما ، مباركاً احدهما ،

غافراً للآخر :

وفجأةً اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعاً من غير ان ينظر الى الاسقف ، محاذياً السرير ، متجهاً مباشرةً نحو الخزانة الجدارية الصغيرة التي لمحها قرب رأس السرير . ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الآنية الفضية ، فتناولها ، واجتاز الغرفة في خطى واسعة ، غير مصطنع الحذر ولا مبالٍ بالضجة . وانتهى الى الباب ، ودخل المصلّى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالعتبة ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطّرح السلة ، وركض عبر الجنينة ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراراً .

١٢
الاسقف يعمل

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بيينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصف بها الاضطراب . وصاحت :

— « مونسينيور ، مونسينيور ! هل تعرف عظمتك اين سلة الآنية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك اسم الربّ ! انا لم أدرِ ما الذي حلّ بها . »

كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوقَ احدى مساكب الزهور . فقدمها الى السيدة ماغلوار .

— « ها هي ذي . »

فقالت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ اين الآنية الفضية ؟ »
فقال الاسقف : « آه . إن الآنية الفضية هي التي تشغل بالك اذن ؟ انا لا ادري اين هي . »
— « يا الهي ! لقد سُرِقت ! لقد سرقها هذا الرجل الذي وفد علينا امس . »
وفي طرفة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امرأة في مثل سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، ومضت الى المخدع ، ثم انقلبت الى الاسقف .
وكان الاسقف ينحني في شيء من الحزن فوق نبتة من ذلك النوع المعروف بحشيشة الملاعق كانت السلة قد هشمتها عند سقوطها على الارض . فانتصب لدن سمع صيحة السيدة ماغلوار :
— « مونسينيور ، لقد هرب الرجل ! لقد سُرِقت الآنية الفضية ! »
وفيما هي تنطق بهذه الكلمات وقعت عيناها على زاوية من الحديقة حيث وجدت آثار تسوُّرٍ . كانت عارضة الجدار الخشبية قد طُرِحت على الارض .
— « أنظر ! لقد فرّ من هنا . لقد وثب الى زقاق كوشفيليه ! يا له من رجلٍ مقيت ! لقد سرق آنيتنا الفضية ! »
واعتصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة ماغلوار في رقة :
— « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الآنية الفضية لنا ؟ »
ولم تُجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :
— « ايتها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظتُ بهذه الآنية الفضية ، بغير حقّ ، دهراً طويلاً . إنها ملكٌ للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلاً فقيراً من غير شك . »
فقالت السيدة ماغلوار : « واأسفاه ! واأسفاه ! أنا لستُ ثائرة من

اجلي شخصياً أو من اجل الآنسة . سيان عندنا بقاء الآنية الفضية وذهابها . ولكني ثائرة من اجلك يا صاحب السيادة . بأيّ شيء سوف يتناول مونسينيور طعامه منذ اليوم ؟ »

فنظر الاسقف اليها دهشاً :

— « وكيف ذلك ؟ أليس عندنا أطباق من صفيح ؟ »

وهزّت السيدة ماغلوار كتفيها .

— « للصفيح رائحة . . »

— « حسن . فلنستعمل اطباقاً حديدية اذن . . »

وأومأت السيدة ماغلوار ايماءة ذات مغزى .

— « وللحديد رائحة . . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل اطباقاً خشبية . . »

وبعد دقائق معدودات تناول فطوره على المائدة عينها التي جلس اليها جان فالجان الليلة البارحة . وفيما هو يُفطر ، قال مونسينيور بيينفينو ، في جذل ، لأخته التي لم تنطق بكلمة ما ، وللسيدة ماغلوار التي كانت تدمدم مخاطبة نفسها ، انه ليس ثمة حاجة ، حقاً ، حتى الى ملعقة او شوكة خشبيّتين لغمس قطعة من الخبز في كوب من اللبن .

وقالت السيدة ماغلوار لنفسها فيما هي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— « هل يخطر شيء كهذا ببال انسان ؟ أن تستقبل رجلاً مثل هذا ، وتقدّم اليه سريراً الى جانبك ، ثم يشاء حسن الحظ ان لا يفعل شيئاً اكثر من السرقة ! آه ، يا الهي ! ان الرعدة لتسري في اوصالي حين أفكر بذلك ! »

وفيما الاخ والاخت ينهضان عن المائدة قُرع الباب .

وقال الاسقف : « أدخلْ . . »

وفتح الباب . وبرز على العتبة جمعٌ غريب ضارٍ . كان ثلاثة رجال يمسكون بخناق رجل رابع . أما الثلاثة فكانوا من رجال الدرك ، واما

الرابع فكان جان فالجان .

كان أحد ضباط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو . وتقدّم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية .

وقال : « مونسينيور ... »

وهنا رفع جان فالجان رأسه — وكان مقطب الجبين مغتماً — وغمغم في جرس مشدوه :

— « مونسينيور ! اذن فانت لست الكاهن ! »

فقال احد رجال الدرك : « اسكت ! إنه المونسينيور ؛ إنه الاسقف . »

وفي غضون ذلك كان مونسينيور بيينفينو يقترب باسرع ما تمكّنه شيخوخته من الاقتراب .

وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، ها انت ذا ! انا سعيد بأن اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضاً ، وهما فضيان مثل غيرهما ، وفي إمكانك ان تبيعها بمئتي فرنك . لماذا لم تأخذهما مع أطباقك ؟ »

وفتح جان فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا يقدر أيا لسان بشريّ على وصفها .

وقال الضابط : « مونسينيور ، إذن فقد كان ما قاله هذا الرجل صحيحاً ؟ لقد التقينا به . كان منطلقاً مثل رجل هارب ، فالقينا القبض عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الآنية الفضية . »

فقاطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم إن كاهناً عجوزاً طيباً بات الليلة البارحة عنده منحهُ إياها . لقد فهمت . وقد ارجعتموه الى هنا ؟ هذه إهانة . »

فقال الضابط : « اذا كان الامر كذلك فهل نستطيع ان نخلي سبيله ؟ »

فأجاب الاسقف : « من غير شك . »

واطلق رجال الدرك سراح جان فالجان . فنكص على عقبيه . ثم انه قال في صوت لا يكاد يُفهم ، وكأنما كان يتحدث في نومه : « أصحيح أنهم يطلقون سراحي ؟ »

فقال احد رجال الدرك : « اجل ! في استطاعتك ان تذهب . ألا تفهم ؟ »

فقال الاسقف : « على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان اللذان قدمتها اليك . خذهما قبل ان تذهب . »

ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيين ، وحملها الى جان فالجان . وراقبته المرأتان وهو يفعل ذلك من غير ان تنبسا بكلمة ، او تومئا ايماءة ، او تلقيا نظرة يمكن ان تزعج الاسقف .

كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو آليّ ، وقد غلب على محياه الذهول .

وقال الاسقف : « والآن ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا رجعت كرةً ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمرّ من خلال الجنينة . ان في استطاعتك دائماً ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . إنه لا يُغلق إلا بسقاطة ، ليلاً ونهاراً . »

ثم التفت الى رجال الدرك وقال :

— « ايها السادة ، في استطاعتكم ان تنسحبوا . »

ومضى رجال الدرك لسبيلهم .

كان جان فالجان أشبه برجل على وشك الاغماء .

وتقدّم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض :

— « لا تنسَ ، لا تنسَ ابداً انك وعدتني بان تصطنع هذه الآنية الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلاً صالحاً . »

ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر أنه وعد الاسقف بذلك قط ،

وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيراً من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال :

— « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعدْ مِلكاً للشر ، ولكنْ مِلكاً للخير . واني انما أشتري نفسكَ . انا أنتزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، وأقدّمها الى الله ! »

١٣
جيرفيه الصغير

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفرّ منها . لقد اندفع يسعى في اقصى السرعة ، عبرَ الحقول ، سالكاً أولى الازقة والطرق الفرعيـــة التي تبدّت له ، غير مدرك انه كان يرتدّ في كل لحظة على آثاره . وظـل هائماً على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاماً ، ولم يحسّ بجوع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضربـــاً من الغضب ، ولكنه لم يدر على من كان غاضبـــاً . كان لا يدري أأثيرت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدُري وأهين ؟ وكانت تعروه في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قسوة سنواتـه العشرين الماضيات . وأتعبه هذا الوضع . لقد رأى في ابتئـــاس الى ذلك الضرب من الهدوء المروّع الذي منحه اياه الظلم المُنزل به — رأى اليـه يتقلقل في ذات نفسه . وساءل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتمنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ؛ فقد كان ذلك خليقاً به ان يورثـه اهتياجاً اقلّ . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقـد كانت ما تزال هنا وهناك ، في أسيجة العلّيق ، بعض الزهرات المتخلفة

التي فاح عبيرها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشياً على قدميه ، فأعاد الى مخيلته ذكريات طفولته . وكانت هذه الذكريات لا تُحتمَل او تكاد بعد ان غابت عن ذاكرته دهراً طويلاً .

وهكذا تجمهرت في ذهنه ، طوال النهار ، افكار لا سبيل الى التعبير عنها .

وفيما الشمس تجنح نحو الافق ، مُطيلة فوق الارض ظِلّ أصفر الحصى ، كان جان فالجان جالساً خلف دغل في سهل واسع أصهب يكاد يكون صحراء حقيقية . لم يكن في الافق غير جبال الالب . حتى ولا برج كنيسة في قرية نائية . ولعل جان فالجان كان على مبعدة ثلاثة فراسخ من د ... كان مجاز ضيّق مخترقٌ السهل ينبسط على بضع خطوات من الدغل .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بأن يضاعف أثر اسماله الراعب في نفس ايما امرىء يقدّر له ان يراه ، طرق سمعه صوتٌ مرح بهيج .

وأدار رأسه فرأى غلاماً صغيراً يتقدم في ذلك المجاز — غلاماً من من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات ، يتغنى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الخاص بسمك المرموط على ظهره .

كان واحداً من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين يتنقلون من مكان الى مكان وقد بدت رُكبهم من ثقوب بنطلوناتهم .

ومن غير ان يكفّ الغلام عن الغناء ، كان يقف بين الفينة والفينة ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس بمستبعد ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة الاربعين « سو » .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ، وقذف ما بيده من القطع النقدية الصغيرة في الهواء ، فتلقّاها جميعاً ،

حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة .

ولكن قطعة الاربعين « سو » ولتت منه ، هذه المرة ، وكرّت نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان .

ووطئها جان فالجان بقدمه .

ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدّم نحو الرجل مباشرةً .

كان المكان منعزلاً انعزالاً كاملاً . وعلى مدى البصر لم يكن أحدٌ في السهل أو في المجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يُسْمع غير صيحات جماعة من الطيور القواطع * كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم . وادار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره اشبه باسلاك الذهب ، وخضّبت بوهج دامٍ وجهَ جان فالجان الوحشي .

وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبيانية التي قوامها الجهل والبراءة :

— « قطعتي النقدية ، ايها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

— « جيرفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فألحّ الغلام : « يا سيدي ، أعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان رأسه ، ولم يجب .

واردف الغلام :

— « قطعتي النقدية ، يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسمَّرة على الارض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعتي

* التي تنتقل من بلد الى بلد .

النقدية الفضية ! »

لقد بدا وكأن جان فالجان لم يفهم شيئاً . وأمسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزّه . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزحزحة الحذاء الضخم ، المثقلِ نعلُهُ بالحديد ، الجاثم على كنزه .

— « اريد قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ! »

وبكى الغلام . ورفع جان فالجان رأسه . كان لا يزال قاعداً ، وكانت نظرته قلقة . لقد حدّق الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع :

— « مَنْ هناك ؟ »

فأجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيرفيه الصغير ! أنا ! أنا ! أعطني قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

ثم ان الغضب استبد به ، على الرغم من حداثة سنه ، فهو يتحدث في لهجة تكاد تكون تهديدية :

— « آه ، واخيراً ، ألا تريد ان ترفع قدمك ؟ هيا ، ارفع قدمك . »

فقال جان فالجان : « أهذا انت ايضاً ؟ »

وفجأة انتصب واقفاً ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضية ، وأضاف :

— « من الخير لك ان تنجو بجلدك ! »

ونظر الغلام اليه في ذعر ، ثم شرع يرتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وبعد بضع ثوان من الانشداه اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات ، او الصياح .

بيد أنه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد أنفاسه . ومن خلال تفكيره الحالم سمعه جان فالجان يشهق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن العيان .

كانت الشمس قد غربت .

وكانت الظلمة تتكاثف حول جان فالجان . إنه لم يذق طوالَ النهار طعاماً ما . ومن الجائز ان تكون الحمّى قد اصابته .

وكان قد ظلّ واقفاً لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فراراً . كان صدره يعلو ويهبط في فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثني عشرة خطوة أمامه ، وكانتا تبدوان وكأنهما تدرسان في انتباه بالغ شكلَ كسرة من الخزف المطليّ العتيق منطرحة على العشب .

وفجأة ارتعدت اوصاله . لقد بدأ يستشعر برد المساء .

وخفض قلنسوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزرره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى أمام لكي يتناول عصاه عن الارض .

وفي تلك اللحظة بَصُرَ بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمعت بين الحصى .

واصيب بمثل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » وارتدّ خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزاً عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظةَ السابقة ، وكأن الشيء الملتمع هناك ، وسط الظلمة ، كان عيناً مفتوحةً مسمّرة عليه .

وما هي الا بضع ثوان حتى وثب في تشنج نحو القطعة المالية ، وأمسك بها ؛ ثم استقام ، وسرّح طرفه بعيداً فوق السهل ، محدّقاً في وقت معاً الى نقاط الافق جميعاً ، واقفاً ، مرتعداً ، مثل ظبي مروّع يلتمس مفزعاً .

ولم ير شيئاً . كان الليل قد هبط ، وكان السهل بارداً خالياً ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع في الغسق الواهن النور .

وقال : « آه ! » وشرع يمشي مسرعاً في الاتجاه الذي اتخذه الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحواً من ثلاثين خطوة ، وقف ، وأجال البصر في ما حوله ، ولم يرَ شيئاً .

ثم نادى بأقصى ما يستطيع من قوة :

— « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ثم أصاخ .

ولم يكن ثمة جواب ما .

كان الريف موحشاً كالحاً ، وكان الفضاء يحيط بالمنطقة كلها . ولم يكن حول جان فالجان غير ظلمة ضاعت فيها نظرته ، وغير صمت ضاع فيه صوته .

وهبّت ريح شمالية قارسة خلعت ضرباً من الحياة الجِدادية على كل ما حوله . وهزّت شجيرات العلّيق اذرعها الصغيرة المزيلة في ثورة لا تصدّق . كان خليقاً بالناظر اليها ان يقول انها تتهدد شيئاً ما وتطارده .

وعاود السير من جديد ، ثم أغذّ الخطى حتى صار سيره عَدْواً . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الخلاء بصوت ليس افظع منه ولا احفل بالحزن :

— « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام إذن لألقى في فؤاده الرعب ، واذن لاحجم عن الظهور امامه . ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جداً .

ولقي كاهناً على صهوة جواد . فتقدّم نحوه وقال :

— « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاماً مرّ من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . »

— « غلاماً يدعى جيرفيه الصغير ؟ »

— « انا لم ار احداً . »

واخرج من كيس نقوده قطعتين نقديتين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدمها الى الكاهن .

— « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لفقرائك . سيدي الكاهن ، إنه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقاً لسمك المرموط في ما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هذا الاتجاه . انه واحد من صبية سافوا ، أفهمت ؟ »

— « انا لم أره . »

— « جيرفيه الصغير ؟ أليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيع ان تعلمني ؟ »

— « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير غريباً عن هذه الديار . انهم يطوّفون في هذه المنطقة وليس ثمة من يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقديتين أخريين من ذوات الخمسة الفرنكات ، وقدّمهما الى الكاهن .

وقال : « من اجل فقرائك . »

ثم اضاف في هذيان :

— « سيدي الكاهن . ألقِ القبض عليّ . أنا سارق . »

ونخس الكاهن جواده بالمهمزين في شدة ، وولى وقد عصف به خوف عظيم .

واستأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذه اول الامر .

وقطع على هذا النحو مسافة غير يسيرة ، مجيلاً الطرف في ما حوله منادياً صائحاً ، ولكنه لم يلتقِ احداً آخر . ومرتين او ثلاث مرات تنكّب المجاز لكي ينظر الى ما بدا له شخصاً منطرحاً على الارض او جاثماً فوقها ، ولكن ذلك لم يكن غير شجيرات عليق او صخور منخفضة .

واخيراً ، وفي موطن التقت عنده ثلاث طرق ضيقة ، وقف . كان القمر قد طلع ، فأمعن النظر في المدى البعيد وصاح كـرة اخرى : « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! » ولكن صيحاته تلاشت في الضباب ، من غير ان تثير حتى صدى من الاصداء . وتمتم مرة ثانية : « جيرفيه الصغير ! » ولكنْ في صوت واهن لا يـكاد يُبين . وكان ذلك آخر جهوده . لقد التوت ركبتاه من تحته على نحو مفاجيء ، وكأنه ناء دفعة واحدة تحت ثقل ضميره الفاسد الذي القته عليه قوة غير منظورة . وسقط خائر القوى على حجر ضخم ، ويـداه متشبثتان بشعره ، ووجهه فوق ركبتيه ، وصاح :

– « انا رجل بائس ! »

وتفطّر فؤاده ؛ وانفجر بالبكاء . كانت هي اول مرة يبكي فيها منذ تسع عشرة سنة .

حين غادر جان فالجان منزل الاسقف ، كما قد رأينا ، كان في حال نفسية لم يسبق له ان عرفها قطّ من قبل . كان عاجزاً عن ان يفهم ايما شيء مما كان يجري في ذات نفسه . لقد ثبت في وجه أعمال الشيخ وكلماته الانجيلية : « لقد وعدتني بأن تصبح رجلاً صالحاً . إني انما أشتري نفسك . أنا انتزعها من روح الفساد وأقدّمها الى الله ! »

لقد عاودته هذه الكلمات على نحو موصول . وفي وجه هذا الحِلم السماوي اقام الغرورَ ، الذي هو حصن الشرّ في الانسان . لقد احسّ احساساً غامضاً بأن مغفرة هذا الكاهن هي اعظم غارة وافظـع هجوم شُنّا عليه عمرَهُ كله ، وبأن قسوة قلبه تكون كاملة اذا ما قاوم هذه السماحة ، وبأنه اذا ما استسلم فعندئذ يتعين عليه ان يتخلى عن ذلك الحقد الذي ملأت روحَهُ به أفعالُ الآخرين طوال هذه السنوات كلها ، والذي وجد فيه الرضا والارتياح ، وبانه يتعين عليه هذه المرة ان يَغلِب أو يُغلَب ، وبـأن الصراع – الصراع الهائل الحاسم – قـد بدأ

بين خباثته هو ، وطيبة هذا الرجل .

وفي حضرة هذه البوارق كلها مشى جان فالجان مثل رجل ثمـــل . وفيما هو يمشي هكذا ، شارد العينين ، هل كان يدرك ادراكاً واضحاً الى ايّ نتيجة يمكن ان تؤدي به مغامرته في د ...؟ هل سمع تلك المهمات الخفية التي تحذر النفس وتلحّ عليها في لحظات بعينها من الحياة ؟ هـل همس في اذنه صوت انبأه انه يجتاز الساعة الحاسمة من مصيره ؛ وأنه لم يبق امامه طريق وسط ؛ وانه اذا لم يصبح منـذ اليوم احـن الرجال فـوف يكون اسوأهم ؛ وان عليه الآن ، اذا جاز التعبير ، ان يسمو الى اعلى مما سما اليه الاسقف ، او يهبط الى ادنى مـن درك العبـد الرقيق في سجن الاشغال الشاقة ؛ وانه اذا شاء ان يصبح خيّراً فيتعين عليه ان يصبح ملاكاً ، واذا شاء ان يبقى شريراً فيتعين عليه ان يصبح غولاً ؟

وهنا ينبغي ان نسأل تلك الاسئلة التي طرحناها من قبل : هـــل تشكّل في ذهنه ظلٌ مختلط لهذا كله ؟ لا ريب في ان البؤس — كما سبق منا القول — يربّي الذكاء . بيد اننا لسنا واثقين من ان جان فالجان كان في وضع من يقدر على ان يستجلي كل ما ألمنا اليه هنا . واذا كانت هذه الفكرات قد خطرت له ، فالراجح انه لمحها لمحاً ، ولم يرها رؤية ، فلم توفق الى اكثر من إلقائه في اختلاط لا يُطـــاق — اختلاط يكاد يكون أليماً . واذ كان قد فارق ، منذ قريب ، ذلك الشيء المشوّه الاسود الذي يدعى سجن الاشغال الشاقة فقد آذى الاسقفُ روحه ، كما كان خليقاً بالنور الساطع ان يؤذي عينيه لدن خروجه من الظلام . لقد ملأته الحياة المستقبلة ، الحياة الممكنة التي قدّمت نفسها اليه ، منذ تلك اللحظة ، طاهرةً كل الطهارة مشرقة كل الاشراق — لقد ملأته هذه الحياة بالارتعاد والقلق . إنه ما عاد يدري اين كان حقاً . فمثل بومة ترى الشمس تشرق فجأة بُهِرَ ذلك الخارجُ مـن سجـــن

الاشغال الشاقة وكأن الفضيلة قد أعمت ناظريه .

اما الشيء الراهن ، الذي لم يشكّ هو به ، فهو انه لم يعد الرجل نفسه ، وان كل شيء فيه قد تغيّر ، وانه لم يعد في ميسوره ان يمنع الاسقف من ان يقول له ما قاله ، او يثير في ذات نفسه من كوامن العاطفة ما أثار .

في هذا الجو النفسيّ التقى جيرفيه الصغير وسرق قطعته النقدية ذات الاربعين « سو » . لماذا ؟ انه ما كان قادراً على ان يفسر هـــذه الواقعة ، من غـير ريب ؛ هل كانت هي الاثر الاخير والجهد النهائي للافكار الرديئة التي حملها من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ هل كانت بقية من حافز باطني ، او ثمرةٌ لما يدعى في علم توازن الاجسام « القوى المكتسبة » ؟ لقد كانت هذا ، ولعلها كانت ايضاً اقلّ من هذا . ولنقل ببساطة ان الذي سرق القطعة النقدية لم يكن هـو ؛ لم يكن الرجل . إن البهيمة هي التي وضعت قدمها في بلاهة وبسائق العادة والغريزة ، على تلك القطعة ، فيما كان العقل يناضل وسط جمهرة من المؤثرات الجديدة ، المجهولة . حتى اذا استيقظ العقل ، ورأى الى مـــا فعلته البهيمة ، ارتد جان فالجان والالم يعتصر فؤاده ، واطلق صيحة ذعر .

كانت ظاهرة غريبة ؛ ولعلها ان لا تكون ممكنة إلاّ في الحالة التي كان فيها آنذاك . ولكن الحقيقة هي انه حين سرق هذا المال من الطفل إنما اقدم على عمل لم يعد قادراً على مثله .

وايأ ما كان ، فأن هذا الاثم الختامي كان له اثرٌ حاسم في نفس جان فالجان . لقد اندفع عبر فوضى عقلِهِ وبدّدها ، مقيماً السحب القاتمة في جانب والنور في جانب ؛ وفعلَ فعله في روحه ، وهي على وضعها ذاك ، كما تفعل بعض الكواشف * الكيميائية فعلها في مزيج كدِرٍ بأن تَرسّب عنصراً وتُحدث من الآخر محلولاً نقياً .

* الكواشف (ومفردها : كاشف) مواد تُكشف بها صفات مواد اخرى .

في البدء ، حتى قبل ان يفرغ للتفكير والتأمل في ذات نفسه ، وفيما هو ذاهل مشتت الذهن ، مثل رجل يحاول ان يولي فراراً ، حاول ان يبحث عن الغلام ليعيد اليـــه ماله . حتى اذا وجد ان ذلك غير مجدٍ ومستحيل ، اقلع عنه يائساً . وفي اللحظة التي صاح فيها : « انا رجل بائس ! » رأى نفسه على حقيقتها ، وكان قد انتهى الى ان يصبح شديد الانفصال عن نفسه بحيث خيّل اليه وكأنه لم يكن الا شبحاً ، وان جان فالجان الفظيع ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان امامه بلحمه ودمه — وعصاه في يده ، وقميصه على ظهره ، وجرابه المليء بالامتعـــة المسروقة فوق كتفيه — وبمحيـــاه الحازم الكالح ، وبفكره الحافل بالمشروعات المقيتة .

إن فرط الشقاء ، كما لاحظنا ، قد جعله بمعنى من المعاني خيالياً كثير الاوهام . واذن فقد كان ذلك ضرباً من الوهم . لقد بَصُر فعلاً بجان فالجان ، هذا الوجه المشؤوم ، أمامه . وكان على وشك ان يسأل نفسه مَنْ ذلك الرجل ، وقد عصف به الرعب لمرآه .

كان دماغه في احدى تلك الحالات العنيفة ، الهادئة مع ذلك على نحو مخيف ، حين يكون الوهم من العمق بحيث يبتلع الحقيقة . فنحن لا نرى ، بعدُ ، تلك الاشياء المحيطة بنا ، بل نرى — وكأنها خـــارج انفسنا — تلك الاشكالَ التي في اذهاننا .

لقد رأى الى نفسه اذن ، اذا جاز التعبير ، وجهاً لوجه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال تلك الهلوسة ، رأى على مسافة مبهمة ، ضرباً من النور حسبه باديء الأمر مشعلاً . حتى اذا حدّق في انتباه اشدّ الى ذلك النور الذي اشرق على ضميره ادرك ان له شكلاً بشرياً ، وان هذا المشعَل كان الاسقف .

ووازن ضميره بين هذين الرجلين اللذين أقيما امامه على هذا النحو : الاسقف وجان فالجان . كان ايما شيء دون الاول خليقاً به ان يحقق

في اذابة الآخر . وبأحد تلك الآثار الفريدة المتميز بها هذا الضرب من الانخطاف . وفيما تطاول وهمه ، رأى الاسقفَ يزداد عِظَماً وتألقاً في عينيه . وانكمش جان فالجان وانمحى . وفي لحظة من اللحظات لم يبق منه غير طيف . وفجأةً اختفى . إن الاسقف وحده قد بقي .

لقد ملأ روحَ هذا الرجل البائس باشعاع جليل .

وبكى جان فالجان طويلاً . لقد سفح دموعاً حارة ؛ لقد بكى في مرارة ؛ بكى في ضعف اشدّ من ضعف المرأة ، وفي ذعر اقوى من ذعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ؛ كان نوراً غير عاديّ ، نوراً فاتناً وفظيعاً في آن معاً . إن حياته الماضية ، وخطيئته الاولى ، وتكفيره الطويل ، وظاهره الوحشيّ ، وباطنه الذي قسّته الايام ، واطلاق سراحه المُبْهَج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تمّ له في منزل الاسقف ، وآخر عمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقدية ذات الاربعين « سو » ، وهي جريمة يزيدها خساسة وفحشاً وقوعها إثر مغفرة الاسقف — كل هذا عاد وتبدّى له ، في وضوح ، ولكن على ضوء لم يره قط من قبل . لقد رأى حياته ، فبدت له فظيعة ، ورأى روحه ، فبدت مروّعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان على ضوء الجنة .

كم ساعة ظلّ يبكي على هذه الشاكلة ؟ ايّ شيء فعله بعد البكاء ؟ الى اين ذهب ؟ إن احداً لم يعرف ذلك قط . كل ما عُرف من امره ان الحوذي الذي كان منطلقاً بعربته ، آنذاك ، على طريق غرينوبل ، والذي بلغ بلدة د... في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، رأى فيما هو يجتاز بشارع الاسقف رجلاً متخذاً وضع المصلي ، فهو راكع في الظلام ، على حصباء الطريق ، أمام باب مونسينيور بيينفينو .

الكتاب الثالث

في عام ١٨١٧

١

سنة ١٨١٧

كانت سنة ١٨١٧ هي السنة التي نعتها لويس الثامن عشر ، في ضرب من التوكيد الملكي الذي لا يعوزه التشامخ ، بالسنة الثانية والعشرين من سني حكمه . كانت السنةَ التي لمع فيها نجم مسيو بروغويير دو سورسوم . كانت دكاكين صانعي الشعر المستعار كلها ، الآملة في عودة الذرور والطائر الملكي ، مزخرفة باللون اللازوردي وبزهرات الزنبق * كانت هي العهدَ الساذج الذي كان الكونت لينش يجلس فيه

* وهي شعار ملوك فرنسة .

كل يوم أحد ، بوصفه وكيل كنيسة ، على المقعد الرسمي في سان جيرمين دو بريه ، مرتدياً ثوب بارون من بارونات فرنسة ، بشريطته الحمراء وأنفه الطويل ، وبجلال الصورة الجانبية الذي يميز من قد قام بمأثرة من المآثر . اما المأثرة التي قام بها الكونت لينش ، فهي انه — بوصفه عمدة بوردو — سلّم المدينة ، في ١٢ آذار سنة ١٨١٤ ، بأبكر قليلاً مما ينبغي ، الى دوق انغوليم * . ومن هنا استحق ان يكون باروناً من بارونات فرنسة . وفي سنة ١٨١٧ كان الزيّ يبتلع الصبية الصغار المتراوح عمرهم ما بين الرابعة والسادسة تحت قلانس جلدية حمراء واسعة ذات آذان ، فهي تشبه أغطية مداخن الاسكيمو . كان الجيش الفرنسي يرتدي الملابس البيضاء ، على الطريقة النمسوية . كانت السرايا تدعى كتائب ، وكانت تحمل بدلاً من الارقام اسماء المديريات . كان نابوليون في سانت هيلانة ، واذ ضنّت عليه انكلترة بالجوخ الاخضر فقد اضطرّ الى ان يقلب ثيابه القديمة . في عام ١٨١٧ غنى بليغريني ؛ ورقصت مدموازيل بيغوتيني ، رَملَكَ بوتييه ؛ ولم يكن أودري قد رأى النور بعد . وخلفت فوريوزو السيدة ساكي . كان لا يزال في فرنسة بروسيون . وكان مسيو دولالو شخصية مرموقة . وكانت الشرعية قد أكدت ذاتها ، منذ قريب ، بأن قطعت باديء الامر قبضة كلٍ من بلينييه ، وكاربونو ، وتوليرون ، ثم احتزت رؤوسهم . كان الامير دو تاليران ** الحاجب الاكبر ، والراهب لويس *** ، وزير المالية ، ينظر

* Duc D'Angoulème (١٧٧٥ — ١٨٤٤) هو الابن البكر لشارل العاشر . قاد حملة اسبانية (١٨٢٣) وعند وفاة لويس الثامن عشر امسى ولياً لعهد فرنسة . وقد استقال سنة ١٨٣٠ مع أبيه .

** Talleyrand سياسي فرنسي شهير . (١٧٥٤ — ١٨٣٨) كان في عهد ما قبل الثورة اسقف أوتون ، ثم اصبح رئيس الجمعية الوطنية (١٧٩٠) ووزيراً للخارجية في حكومة الادارة ، ثم في عهد القنصلية ، ثم في عهد الامبراطورية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر فينا ، ثم في لندن حيث عينه لويس فيليب سفيراً .

*** وزير المالية في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم في عهد لويس فيليب . ولد سنة ١٧٥٥ وتوفي عام ١٨٧٢ .

كل منهما في وجه الآخر ، ضاحكين مثل عرّافين . كان كل منهما قد احتفل ، في ١٤ تموز عام ١٧٩٠ بقداس الاتحاد * في شان دو مارس . لقد رئسه تاليران بوصفه اسقفاً ، في حين ساعده لويس بوصفه شماساً . وفي عام ١٨١٧ رُئيت في الطرق الموازية لشان دو مارس هذه اعمدة خشبية ضخمة مدهونة بلون ازرق وعليها بقايا من النسور والنحل زايلها تذهيبها بعد ان هطلت عليها الامطار وتهرأت في العشب . تلك كانت الاعمدة التي ارتفعت فوقها ، قبل عامين ، منصة الامبراطور في شان دو مي . وكانت قد اسودّت هنا وهناك بنار مخيّمات الجنود النمسويين المعسكرين قرب غرو كايو . وكان عمودان او ثلاثة من هذه الاعمدة قد اختفت وسط نيران هذه المخيمات ، ودفأت أيدي جنود الامبراطور الالماني الضخمة . وقد تميزت ساحة شان دو مي بأنها كانت قد احتُلت في شهر تموز ، على ساحة شان دو مارس . وفي عام ١٨١٧ كان ثمة شيئان شعبيان : الـ « فولتير – توكيه » ، ** وعلب السعوط الدستورية *** وكانت احدث الاخبار الباريسية المثيرة هي جريمة دوتين الذي القى رأس اخيه في بركة « مارشيه أو فلور » . وكان التحقيق قد بدأ ، في وزارة البحرية ، حول البارجة المشؤومة « لا ميدوز » التي كان خليقاً بها ان

* في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ احتفل الفرنسيون بعيد الاتحاد fête de la Fédération في باريس لمناسبة انقضاء عام واحد على سقوط الباستيل . وقد رئس اسقف اوتون ، تاليران ، القداس الكبير الذي اقيم لهذه المناسبة ، ولفظ لافاييت عظة الولاء للدستور الذي رضي به الملك ، بينا رفعت الملكة ابنها بين ذراعيها . وهذا العيد يرمز الى عاطفة الاخاء التي ولدت آنذاك في فرنسة .

** ضرب من الكراسي منخفض المقعد مرتفع الظهر حتى الرأس ، انتشر في ذلك العصر .

*** اشارة الى الدستور الذي وضع سنة ١٨١٤ عندما تولى لويس الثامن عشر العرش ، والذي عُدل على نحو جعله أكثر تحرراً عام ١٨٣٠ بعد سقوط شارل العاشر .

تغمر شوماريكس بالعار ، وجيريكو * بالمجد . ومضى الكولونيل سيلف الى مصر ، وهناك اصبح سليمان باشا . وحُوّل قصر تيرم ، في شارع دو لا هارب ، الى دكان لصنع البراميـل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يرى فوق سطح برج اوتيل دو كاوني المثمّن الزوايا تلك السقيفة الخشبية الصغيرة التي كانت بمثابة مرصد لـ « ميسييـه » ، فلكيّ الاسطول في عهد لويس السادس عشر . وقرأت دوقة دورا ** ، في بهوها المؤثث على طراز لويس العاشر بالاطلس السماويّ الزرقـة ، مخطوطة « أوريكا » على ثلاثة او اربعة من اصدقائهـا . كانت حروف N قد مُحيت من اللوفر *** . وتنازل جسر اوسترليتز عـن اسمه فاصبح جسر « حديقة الملك » وهي احجية قنّعت جسر اوسترليتز و « حديقة النباتات » في وقت معاً . ولم يكـن للويس الثامـن عشر – المستغرق في التعليق بظفره على « هوراس » ، **** فيما هو يفكر في الابطال الذين أصبحوا أباطرة وصانعي الاحذية الذين صاروا ولاة عهد – غير همّين اثنين : نابوليون ، وماتورين برونو . واقامت الاكاديمية الفرنسية مسابقة في موضوع : « السعادة التي تتيحها الدراسة » . وكان مسيو بيلاّر ***** بليغـاً من وجهة النظر الرسمية . وفي ظله كان في إمكان المرء ان يرى الى نشوء النائب العام المقبل ، دو بروويه ،

---

* Géricault رسام فرنسي (١٧٩١ – ١٨٢٤) امتاز بالليتوغرافيا والنحت ، ومن روائعه تلك اللوحة التي صور فيها حادث البارجة الذي يشير اليه المؤلف وقد دعاها « أطواف البارجة لا ميدوز » .

** duchesse de Duras روائية فرنسية (١٧٧٨ – ١٨٢٨) كتبت روايتين : « اوريكا » Ourika التي يشير اليها المؤلف و « ادوار » Edouard .

*** رغبة في القضاء على آخر أثر من آثار نابوليون الذي يبدأ اسمه كما لا يخفى بحرف N .

**** مسرحية مشهورة لكورني .

***** Bellart (١٧٦١ – ١٨٢٦) النائب العام في عهدي لويس الثامـن عشر وشارل العاشر وقد عرف بقسوته في قمع الحركات التحررية وخنق حرية الرأي .

الذي كانت تنتظره سخريات بول لويس كورييه . * كان ثمة شاتوبريان ** مزيّف يدعى مارشانجي ، *** كما قدّر ان يكون ثمة في ما بعد مارشانجي مزيف يدعى دارلنكـور . **** وكانت « كلير ألبا » Claire d'Albe و « الملك العادل » Malek - Adel رائعتين من الروائع . وأعلنت مدام كوتين ***** كاتبة العصر الاولى . وحذفت « مؤسسة فرنسة » ****** اسم الاكاديميّ ، نابوليون بونابرت ، من جدولها . وأنشأ أمرٌ ملكيّ مدرسة بحرية في آنغوليم ، لأنه كان واضحاً — وقد غدا دوق آنغوليم امير البحر الاكبر — ان لمدينة آنغوليم ، بلا جدال ، صفات المرفأ البحريّ كلها ، التي يتعرض المبدأ الملكي بدونها للخطر . وفي جلسات مجلس الوزراء أثير ما اذا كان ينبغي غض الطرف عن الصور التي تمثل بعض البهلوانيين والتي كانت تزيّن إعلانات فرانكوني ، وتجمع حولها أولاد الشوارع الداعرين . وقاد مسيو پاير ، ******* مؤلف L'Agnese ، وهو رجل فاضل ذو فكين مربعين وثؤلولة على الخدّ ، الحفلات الموسيقية الصغيرة المقصورة على نفر من المقرّبين في قصر المركيزة

---

* Paul - Louis Courier كاتب فرنسي (١٧٧٢ – ١٨٢٥) اشتهر برسائله الساخرة اللاذعة ضد رجال الحكم في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر .

** الكاتب الفرنسي المشهور (١٧٦٨ – ١٨٤٨)

*** Marchangy كاتب فرنسي (١٧٨٢ – ١٨٢٦) عُرف بثرثرته وحماسته الملكية .

**** d'Arlincourt روائي وشاعر فرنسي (١٧٨٩ – ١٨٥٦) اشتهر بأسلوبه المفخم على نحو غريب .

***** Cottin روائية فرنسية (١٧٧٠ – ١٨٠٧) اتسمت كتبها بطابع الكآبة الرومانتيكية . ومن اشهر رواياتها « كلير ألبا » *Claire d'Albe* التي يشير اليها المؤلف .

****** Institut de France وهي تتألف من اكاديميات خمس اهمها الاكاديمية الفرنسة واكاديمية العلوم واكاديمية الفنون الجميلة .

******* Ferdinando Paër مؤلف موسيقي ايطالي (١٧٧١ – ١٨٣٩) عاش معظم حياته في فرنسة ، وكان مديراً للفرقة الموسيقية الخاصة بنابوليون الاول .

دو سانسوناي ، في شارع « لافيل ليفيك » . وغنّت جميع الفتيات اغنية « ناسك سان آفيل » من نظم ادمون جيرو . وحوّل « القزم الاصفر » * الى « ميروار » . ووقف مقهى لامبلين الى جانب الامبراطور ** معارضاً مقهى ڤالوا الذي كان من انصار آل بوربون *** وكانت احدى اميرات صقلية قد زوجت الى دوق دو برّي **** الذي كان لوڤيل ، ***** في الواقع ، يتربص به الدوائر منذ ذلك الحين . وكانت قد انقضت سنة على وفاة مدام دو ستال ****** وصفر حرس الملك ، ازدراء واستهجاناً ، للآنسة مارس . ******* وكانت الصحف الكبرى كلها صغيرة . كانت صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel دستورية . وكانت صحيفة « مينيرفا » تدعو شاتوبريان Chateaubriand شاتوبريانت Chateaubriant ******** وكان حرف (t) هذا يثير ضحكاً كثيراً بين المواطنين على حساب الكاتب الكبير .

وفي الصحف المشتراة أهان العواهر من الصحفيين مبعدي عام ١٨١٥ .

---

* Le Nain jaune لعبة من العاب الورق ، وهي هنا علم على مقهى .

** نابوليون بونابرت .

*** الاسرة الفرنسية الحاكمة التي اطاحت بها الثورة الفرنسية ثم استعادت عرشها في شخص الملك لويس الثامن عشر .

**** de Berry الابن الثاني لشارل العاشر ، وقد قتله لوڤيل في باريس عام ١٨٢٠ .

***** Louvel عامل سروجي قتل دوق دو بري بطعنة خنجر وهو خارج من الاوبرا ، وقد أعدم شنقاً عام ١٨٢٠ .

****** de Staël كاتبة فرنسية شهيرة (١٧٦٦ – ١٨١٧) ذات نزعات تحررية ، وقد أسهمت إسهاماً بارزاً في الحركة الرومانتيكية .

******* Mlle. Mars ممثلة فرنسية كوميدية (١٧٧٩ – ١٨٤٧) لمع نجمها في « المسرح الفرنسي » حيث حظيت بمجد عظيم ، وبرعت بتمثيل دور « سيليمين » في رواية « النافر من البشر » Misanthrope لموليير .

******** ضرب من الطعام معروف يصنع من لحم ظهر الثور المشوي مع البطاطس عادة .

فلم يعد دافيد * ذا موهبة ، ولم يعد آرنو ** ذا مقدرة ، ولم يعد كارنو *** رجلاً ذا فضل وصلاح . ولم يبق لـ « سولت » **** ان كسب نصراً واحداً في حياته . ولا ريب في ان نابوليون لم يعد ذا عبقرية . وكل امرىء يعرف ان الرسائل التي توجّه الى المبعَد نادراً ما تصل الى عنوانها ، لان الشرطة تعتبر ان من واجبها الدينيّ ان تصدّها عن سبيلها . وليست هذه الظاهرة جديدة . فقد شكا ديكارت منها في منفاه . واذ أبدى دافيد في احدى الصحف الفرنسية تضايقه لعدم تلقيه الرسائل الموجهة اليه بدا ذلك مضحكاً للصحف الملكية التي اغتنمت الفرصة لتسخر من المنفيّ . وكان في قول « قتلة الملوك » بدلاً من « الناخبين » و « الاعداء » بدلاً من « الحلفاء » ، و « نابوليون » بدلاً من « بوانابرت » ما يكفي لفصل الانسان عن الانسان باكثر مما تفصلهما هاويةٌ ما . وأجمع اصحاب الحصافة كلهم على ان عهد الثورات قد اختُتم بفضل الملك لويس الثامن عشر الملقب بـ « الواضع الخالد للدستور » . وعلى سطح جسر « بون نوف » نقشت كلمة *Redivivus* ***** على القاعدة التي انتظرت تمثال هنري الرابع . وكان مسيو بيبه يضع مع متآمريه ، في شارع تيريز رقم ٤ ، الخطة لتدعيم الملكية . وقال زعماء اليمين في المآزق الحرجة : « ينبغي ان نكتب الى باقو . » واستهلّ ذلك السادة كانوويل ،

* Louis David رسام فرنسي شهير (١٧٤٨ – ١٨٢٥) نفي الى بروكسل حيث توفي . وكان في عهد الامبراطورية رسام نابوليون بونابرت .

** Arnault شاعر تراجيدي فرنسي (١٧٦٦ – ١٨٣٤)

*** Carnot ضابط من ضباط الجيش الفرنسي (١٧٥٣ – ١٨٢٣) رئس « المؤتمر الوطني » عام ١٧٩٤ وانشأ جيوش الجمهورية الاربعة عشر وكان فوق ذلك منظم النصر ، وقد نقم عليه نابوليون لنزعاته الجمهورية ، ثم أبعد في عهد لويس الثامن عشر عن البلاد .

**** Soult مارشال فرنسة (١٧٦٩ – ١٨٥١) ابلى بلاء حسناً في معركة زوريخ ، وفي الدفاع عن جنوا ، ولعب دوراً حاسماً في موقعة اوسترليتز .

***** كلمة لاتينية تعني : عاد الى الحياة .

وأوماهوني ، ودو شابّديلين ، ولم يكن عملهم هـــذا ليعوزه بعض الموافقة من اخي الملك الاصغر منـــه سناً ، وهذا ما عرف بعـــدُ بـ « مؤامرة الشاطيء » . وتآمر « الدبوس الاسود » من ناحيته ايضاً . وتفاوض دولافيردري مع تروغوف . وساد مسيو دوكاز * ، وهـو عقل متحرر بعض الشيء . وكان شاتوبريان ، يقف كل صباح امـــام نافذته في شارع سان دومينيك رقم ٢٧ ، وقد ارتدى بنطلوناً جوربياً وانتعل مشاية ، وغطى شعره الاشيب بمنديل من مناديل مدراس ، واقام امام عينيه مرآة وصندوقاً كاملًا من صناديق ادوات الاسنان ، فهو ينظف اسنانه التي كانت ممتازة ، فيما هو يملي « الملكية وفقـاً للدستور » على مسيو بيلورج ، امين سره . وآثر كبّار النقاد لافون ** على تالما *** وكان مسيو دو فيلتز **** يوقع هكذا A وكان مسيو هوفمان ***** يوقع هكذا Z وكان شارل نوديه ****** يؤلف « تيريز اوبير » *Thérèse Aubert* . وأُلغي الطلاق . ودعت المدارس الثانوية (Lycées) نفسها كليات (Collèges) وكان طلابها ، الذين ازدانت أطواق قمصانهم بالزنابق الذهبية يتقاتلون بسبب من ملك رومة . وشكتْ شرطة القصر السرية لصاحبة السمو ، بنت الملك ، من ان رسم دوق دورليان معروض في كل مـــكان ،

* Decazes سياسي فرنسي (١٧٨٠ – ١٨٦٠) تولى منصب الوزارة في عهد لويس الثامن عشر . وكان يسعى الى ان يجعل « الامة ملكية » ويجعل « الملكية قومية » .

** Lafon مسرحي تراجيدي فرنسي (١٧٧٣ – ١٨٤٦)

*** Talma مسرحي تراجيدي فرنسي أيضاً (١٧٦٣ – ١٨٢٦) . وكان مؤلف الكوميديا المفضل عند نابوليون بونابرت .

**** De Feletz ناقد فرنسي (١٧٦٧ – ١٨٥٠) كان يدافع عن القواعـــد الكلاسيكية ويناويء الحركة الرومانتيكية .

***** François—Benoit Hoffmann كاتب مسرحي وناقد فرنسي (١٧٦٠ - ١٨٢٨)

****** Nodier كاتب فرنسي وضع عدة مؤلفات في النقد وفقه اللغة والقصص . وكان له صالون ادبي شهير (١٧٨٠ – ١٨٤٤)

وانه يبدو في اللباس الرسمي لقائد سلاح الفرسان أجمل من دوق دو بري في اللباس الرسمي لقائد سلاح التنانين او الدراغون - وهي مسألة خطيرة . واعادت مدينة باريس تذهيب قبة الانفاليد * على نفقتهـــا . وساءل الجديون من الناس بعضهم بعضاً ما الذي يجدر بمسيو دو ترانكولاغ ان يفعله في هذه الحالة او تلك . واختلف مسيو كلوزيل دو مونتسال في قضايا شتى ، مع مسيو كلوزيل دو كوسيرغ . ولم يكـــن مسيو دو سالابرّي راضياً . وكانت رواية *Les deux Philiberts* للكاتب المسرحي بيكار عضو الاكاديمية التي لم يوفق موليير الى الفوز بعضويتها ، تمثل عـــلى مسرح الاوديون حيث كان لا يزال في ميسور الناظر ان يقرأ في وضوح على مقدّم البناء ، برغم ازالة الاحرف عنه ، هذه العبارة : « **مسرح الامبراطورة** » . وتعصّب بعض الناس لـ « كوغنيه دو مونتارلو » وتعصب بعضهم عليه . كان فابفييه ** مثيراً للشحنـــاء ، وكان بافو ثورياً . ونشر الكتبيّ بيليسيه طبعةً من كتب فولتير تحت هذا العنوان : « مؤلفات فولتير ، عضو الاكاديمية الفرنسية . » وقال ذلك الناشر الساذج : « إن هذا خليقٌ به أن يجذب المشترين » ! وكان الرأي العام منعقداً على ان المسيو شـــارل لواسون سوف يكون عبقرية العصر . وبـــدأ الحسد يلسعه ، وتلك آية المجد . ولقد نظم بعضهم فيه هذا البيت :

« حتى حين يسرق لواسون
نحسّ ان له قـــوائم ! »

واذ رفض الكاردينال فيش ان يستقيل تولى مسيو دو بين ، كبير اساقفة آماسي ، ادارة اسقفية ليون . وبدأ النزاع بين سويسرة وفرنسة

* Invalides الاثر الباريسي المشهور ، وقد نقل اليه رفات نابوليون بونابرت عام ١٨٤٠ .

** Fabvier جنرال فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٥٥) أسهم إسهاماً كبيراً في الحركة التحريرية التي نشأت في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، ولمع نجمه في حرب الاستقلال اليونانية .

على وادي دابّ بمذكرة وضعها الكابتن دوفور * الذي اصبح في ما بعد جنرالاً . وكان سان سيمون ** المغمور يبني حلمه الرفيع الذرى . وكان في اكادمية العلوم فوربيه *** شهير نسيته الذرية ، على حين كان في علية ما فوربيه **** خامل الذكر سوف يذكره المستقبل . وكان نجم اللورد بايرون ***** قد بدأ يبزغ . وكانت احدى الملاحظات على قصيدة لـ « ميلفوا » ****** قد عرفته الى الوسط الادبي في فرنسة بوصفه « رجلاً يدعى اللورد بايرون » . كان داود دانجيه يحاول ان يجبل الرخام . وتحدث الراهب كارون باطراء ، في اجتماع صغير لطلاب المعاهد الاكليركية في زقاق الفويّانتين ، عن كاهن مجهول يدعى فيليبيته روبير الذي اصبح « لامنيه » ******* في ما بعد . كان شيء يرسل دخاناً ويهدر في رفق على صفحة السين ، في مثل صوت الكلب السابح ، يروح ويجيء تحت نوافذ التويلّري ، من « الجسر الملكي » الى « جسر لويس الخامس عشر » . كان جهازاً آلياً ليس ذا غناء كبير ، ضرباً من الدمية ، حُلمَ مخترعٍ ذي أوهام — زورقاً بخارياً . ونظر الباريسيون الى ذلك الشيء غير المجدي في لا مبالاة . وعجز مسيو دو فوبلان ، مصلحُ « مؤسسة فرنسة » على نحو جذري ، بأمر ملكيّ ، والصانع البارز لعدد كبير من اعضاء الاكاديمية — عجز ، بعد ان

---

* Guillame — Henri Dufour جنرال سويسري (١٧٨٧ — ١٨٧٥) قاد القوات السويسرية الاتحادية في الحرب السويسرية الاهلية وقضى على الحركة الانفصالية (١٨٤٧)

** Saint — Simon فيلسوف فرنسي اشتراكي (١٧٦٠ — ١٨٢٥) نادى بملكية الدولة للثروة العامة ، والغاء الملكية الوراثية ، كما نادى بالمبدأ القائل : « لكل حسب مقدرته ، ولكل مقدرة حسب اعمالها . »

*** Joseph Fourier رياضي فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٣٠)

**** Clarles Fourier فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي (١٧٧٢ — ١٨٣٧)

***** Byron الشاعر الانكليزي الشهير (١٧٨٨ — ١٨٢٤)

****** Millevoye شاعر فرنسي تمتاز قصائده بالامعان في الكآبة (١٧٨٢-١٨١٦)

******* Lamennais كاتب وفيلسوف فرنسي شهير (١٧٨٢ — ١٨٥٤)

صيّرهم اعضاء ، عن أن يدخل هو الى حَرَم تلك المؤسسة . وتمنّت ضاحية سان جيرمان ومرادق مارسان لو يصبح مسيو دولافو مـديراً للشرطة بسبب من ورعه . واختصم دوبْويتران * وريكاميه ** في مـدرّج مدرسة الطب ، وهزّ احدهما جُمع كفه في وجه الآخر لخلافهما حول ألوهية المسيح . ووضع كوفييه *** احدى عينيه على سِفر التكوين والاخرى على الطبيعة ، وحاول ان يرضي الرجعة المتطرفة في التقوى من طريق التوفيق بين الحيوانات والنباتات المتحجرة المطمورة في الارض وبـين النصوص الدينية ، ومن طريق جَعْل الماستودون **** يؤيّد موسى . وكان مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، الراعي المحمود لذكرى بارمانتييه ، ***** قد بذل جهوداً جبارة لكي يحمل الناس على ان يلفظوا الـ pomme de terre (البطاطا) Parmentière ****** ، بيد أنه لم يوفق قطّ الى النجاح . وكان الراهب غريغوار ، الاسقف السابق ، والعضو السابق في « المؤتمر الوطني » ، والعضو السابق في مجلس الشيوخ – كان قد انتقل الى حالة « غريغوار المرذول » في مهاترات الصحف الملكية . وهذا التعبير الذي استعملناه منذ لحظة « انتقل الى حالة » إنما اعتـبره مسيو روييـه

---

* Dupuytren جراح فرنسي شهير كان له على العلم فضل كبـير (١٧٧٧ – ١٨٣٠)

** Récamier طبيب فرنسي . (١٧٧٤ – ١٨٥٢)

*** Cuvier عالم طبيعيات فرنسي ، يعتبره الفرنسيون خالق عـلم التشريح المقارن وعلم الأحاثة او علم مطمورات الارض من النبات وغيره . (١٧٦٩ – ١٨٣٢)

**** حيوان منقرض يشبه الفيل .

***** Antoine — Augustin Parmentier اقتصادي فرنسي وخبير في الزراعـة (١٧٣٧ – ١٨١٣) كان عضواً في اكاديمية العلوم . وقد طوّر زراعة البطاطا في فرنسة بتشجيع من لويس السادس عشر .

****** أي على اسم بارمانتييه العالم الاقتصادي المشار اليه آنفاً .

كولار * تعبـــيراً جديداً لم تعرفه اللغة من قبل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يميز ، ببياضها الظاهر تحت القـوس الثالث من جسر إيانا ، تلك القطعة الجديدة من الحجر التي استعملت قبل عامـين لسدّ مدخل المنجم الذي شقهُ بلوخر ** لنسف الجسر . ومثل أمام المحكمة رجلٌ كان قد صاح إذ رأى الى الكونت دارتوا *** يدخل كاتدرائية نوتردام : « وحقّ الالـه ، انا آسف على ذلك العهد الذي دخـل فيه بونابرت وتاليا الى « مرقص سافاج » وذراع احدهما في ذراع الآخر . » لغة مثيرة للفتنة . السجن ستة اشهر للقائل .

وبدا الخونـــة مجرّدين حتى من الرياء . كان نفرٌ من الرجال الذين انضموا الى العـــدوّ عشية معركةٍ ما لا يخفون الرشوة التي فازوا بها ، ويمشون غيرَ خجلين ، في وضح النهار ، تحيط بهم وقاحة الثروة والجاه . وكان الهاربون من معركتي « ليني » **** و « كاتر برا » ***** يعرضون ، في خلاعةِ عارهم المرتشي ، ولاءهم للملكية عارياً بالكلية ، ناسين ما هو مسطورٌ على الجدران الداخلية في المراحيض العامة بانكلترة : « **الرجاء ان تسويّ ثيابك قبل ان تغادر المكان** » !

تلك هي ، كيفما اتفق ، جمهرة الاحداث التي طفتْ على سطح عام

---

* Royer - Collard سياسي فرنسي (١٧٦٣ - ١٨٤٥) تولى رئاسة مجلس النواب .

** Blucher جنرال بروسي (١٧٤٢ - ١٨١٩) لمع نجمه في الحملة على فرنسة (١٨١٤) ، ولعب دوراً كبيراً في معركة واترلو (١٨١٥) حين هرع لنجدة ولينغتون وبذلك هُزم نابوليون نهائياً .

*** Comte d'Artois أخو لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر . وقد تولى عرش فرنسة سنة ١٨٢٤ اعرف باسم شارل العاشر . (١٧٥٧ - ١٨٣٦)

**** Ligny في بلجيكا حيث هزم نابوليون قوات بلوخر البروسية في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥

***** Quatre - Bras في بلجيكا ايضاً حيث شنّ القائـــد الفرنسي « ني » Ney الحملة على الانكليز في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥ ايضاً عشية معركة واترلو ، وحيث قتل دوق برونزويك .

١٨١٧ ، والتي نُسيت الآن . ان التاريخ ليهمل هذه الخصوصيات كلها تقريباً ، وليس في وسعه ان يفعل خلاف ذلك ؛ إنه واقع تحت سلطان اللانهاية . ومع ذلك ، فهذه التفاصيل الذي يمدّها الناس ، خطأً ، صغائر – فليس ثمة وقائع صغيرة في الانسانية ، وليس ثمة اوراق صغيرة في الحياة النباتية – لا تخلو من غَناء . إن ملامح السنين هي التي تشكل وجه الاجيال والقرون .

في هذه السنة ، ١٨١٧ ، مثّل أربعة من الشبان الباريسيين « مهزلة حلوة » .

٢
رباعية مزدوجة

كان احد هؤلاء الباريسيين من تولوز ، والثاني من ليموج ، والثالث من كاهور ، والرابع من مونتاوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين نقول « تلميذ » فكأننا قلنا « باريسي » ، فلأن يدرسَ المرء في باريس يعني انه وُلد في باريس .

وكان هؤلاء الشبان تافهين ؛ ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء الاشخاص . وإن اول اربعة منهم لينهضون نماذج لهم جميعاً . إنهم ليسوا صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين وليسوا مغفلين ؛ إنهم شبابٌ أغرّ في نيسان الحياة الفاتن ذاك الذي ندعوه سنّ العشرين . كان كل منهم « اوسكار » * ، لأن طبقة « آرثور » **

* اشارة الى اوسكار الاول ملك السويد ونروج (١٧٩٩ – ١٨٥٩) ، وقد ولد في باريس وتولى العرش من عام ١٨٤٤ – ١٨٥٧

** اشارة الى واينغتون الوارد ذكره في احدى حاشيتي الصفحة التالية .

لم تكن قد وُجِـدت بعد . « **أحرقوا على شرفـه طيب جزيرة العرب** » ، هكـذا كانت تصيح الاغنية . « **اوسكار يقـترب ! اوسكار ، أنا على وشك ان اراه !** » كان أوسيان * هـو الزيّ الشائع ، وكانت الاناقة اسكنديناڤية وأسكتلندية ؛ أما الضرب الانكليزي المحض فلم يَبْدُ إلا في ما بعد ، وكانت قد انقضت على انتصار اول الآرثوريين ، ولينغتون ** في واترلو فترة قصيرة ليس غير .

كان اول هؤلاء « الأوسكارات » يدعى فيلكس تولوميس ، من تولوز ، وكان ثانيهم ليستوليه ، من كاهور ؛ وكان ثالثهم فامول ، من ليموج ؛ وكان آخرهم بلاشوفيل ، من مونتاوبان . وكان لكل منهم حبيبته طبعاً . أما بلاشوفيل فقد تعشّقَ فافوريت ، وقد دعيت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكلترة . واما ليستوليه فأحبّ داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسماً مستعاراً لها . وأما فامول فكان يعبد زيفين ، مصغّر جوزيفين . وأمـا تولوميس فكانت صاحبته هي فانتين ، المسماة بالشقراء ، بسبب من شعرها الجميل المشبه لونه لونَ الشمس .

كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربع فتيات فاتنات ، متألقات منضوحات بالعطر ، ما تزال تبدو عليهن سيما العاملات لانهن لم يهجرن شغل الابرة نهائيـاً ، قد أثارتهن شؤون الحب ولكنهن احتفظن عـلى وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تعمّر عند النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات

---

* Ossian شاعر اسكتلندي من اهل القرن الثالث الميلادي . تنسب اليه مجموعـة من الاناشيد الملحمية . وقـد نشر له في عام ١٧٦٠ ديـوان من الشعر الكئيب لقي رواجاً كبيراً وترك اثراً عميقاً في الادب الرومانتيكي .

** Arthur Wellesley, duc de Wellington القائد الانكليزي الشهير (١٧٦٩ – ١٨٥٢) الذي قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسة فهـزم نابوليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥ .

الاربع تدعى الطفلة ، لأنها كانت صغراهن ، وكانت واحـدة اخرى تدعى العجوز . وكانت العجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولـكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الأوليات كن اكثر اختباراً ، واشد لا مبالاةً ، واعظم انغماساً في ضجيج الحيـاة من فانتين - الشقراء - التي كانت ما تزال في أحلامها الاولى .

ولم يكن في ميسور داهليا ، وزيفين ، وبخاصة فافوريت ، أن يزعمن أنهن يُشبهن فانتين من هذه الناحية . فقد كان ثمـــة اكثر من حادثة واحدة في روايتهن التي ما كادت تبدأ ، وكان المحب الذي يدعى ادولف في الفصل الاول يصبح الفونس في الفصل الثاني ، وغوستاف في الفصل الثالث . إن الفقر والدلال لمستشاران مشؤومان . إن احدهمـا يؤنب ، والآخر يُطري . وإن فتيات الشعب الحسناوات ليجـــدن المستشارين جميعاً يهمسان في آذانهنّ ، كلٌ من ناحية . وتصغي نفوسهن غير المصونة الى هذا الهمس ؛ ومن هنا هـــاوية السقوط التي يتردّين فيها ، والحجارة التي يُرجمن بها . إنهن يُسحقن بالبهـاء الذي ينطوي عليه كل طاهر عـسير المنال . واأسفاه ! هل عرفت الـ « يونغفراو » * قطّ طعم الجوع ؟

وأعجبت زيفين وداهليا بفافوريت لأن الايام اتاحت لهـا السفر الى انكلترة . كان لها وهي بعدُ في سنّ مبكرة جداً بيت خاص بهـا . وكان ابوها استاذاً عجوزاً قاسياً متبجحاً من اساتذة الرياضيات . إنه لم يتزوج قطّ ؛ وكان منغمساً في الملذات برغم سنه العالية . لقـــد رأى ذات يوم من ايام شبابه الى ثوب احدى الخادمات يعلق بحاجز الموقد ، فوقع في حبها إثر هذا الحادث . وكانت فافوريت هي الثمرة . وكانت تلتقي بين الفينة والفينة بأبيها فيرفع لها قبعته . وذات صباح وفدت على

* Jungfrau ، لفظة ألمانية تعني « العذراء » وهي عَلَمٌ على احدى قمم الآلب البالغ ارتفاعها ١٣٦٦٨ قدماً .

منزلها عجوزٌ تبدو على وجهها سيما التعصب للدين وسألتها : « الا تعرفينني ، ابنتها الآنسة ؟ » – « لا . » – « أنا أمّك . » وفي الحال فتحت العجوز خزانة الطعام ، فأكلت وشربت حتى الشبع ، واستقدمت فراشاً كان لها ، واقامت هناك . وكانت هذه الأم ورعةً كثيرة التذمر ، ولم تتكلم قط مع فافوريت . لقد سلخت عدة ساعات من غير ان تنبس ببنت شفة . لقد تناولت طعام الفطور ، وطعام الغداء ، وطعام العشاء ، وكأنها اربعة اشخاص ، وهبطت لتستقبل الضيوف في كوخ البواب ، وتذمّ ابنتها وتطعن عليها .

وكان الذي جذب داهليا الى ليسوليه ، وربما الى غيره ايضاً ، والى البطالة ، اظافرها الوردية الجميلة . كيف السبيل الى حمل تلك الاظافر على العمل ؟ إن تلك التي ترغب في الاحتفاظ بفضيلتها ينبغي ان لا تأخذها الشفقة على يديها . اما زيفين فكانت قد غزت فؤاد فامول بطريقتها المتمردة المتوددة ، في قول كلمة : « نعم ، يا سيدي . »

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربع صديقات . إن مثل هذا الضرب من الحب ليكون مُردَفاً دائماً بمثل هذه الصداقة .

إن الحكمة والفلسفة شيئان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت ، وزيفين ، وداهليا كنّ ، بعد إبداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الأسر الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد يتساءل متسائل : حكيمة ؟ وتولوميس ؟ ولو قد وُجّه السؤال الى سليمان إذن لأجاب قائلاً إن الحب جزء من الحكمة . أما نحن فنكتفي بالقول إن حب فانتين كان حباً اول ، حباً وحيداً ، حباً مخلصاً .

كانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربع ، التي لم يدللها قطّ غير رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من اولئك المخلوقات المنتزَعة من قلب الشعب . وإذ قد انبثقت من أعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يُسبر غورها ، فقد حملت على جبينها آية الغُفْل والمجهول . لقد رأت النور في « مونتروي سور مير » . من كان ابواها ؟ من يدري ؟ إنها لم تعرف قطّ لا اباها ولا أمها . لقد سُميت فانتـــين لماذا ؟ لأنها لم تُعرف قط بأيّ اسم آخر . ويوم وُلدتْ ، كانت حكومة الادارة لا تزال قائمة . ولم يكن لها اسم أسرة ، إذ ما كانت لها أسرة ما . ولم يكن لها اسم معمودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سُميت وفقاً لمشيئة اول عابر سبيل عثر عليها ، وهي بعدُ صغيرة جداً ، هائمةً في الشوارع . لقد تلقّت اسمها كما تلقّت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينها عندما هطل المطر . لقد دُعيت فانتين . إن احداً لم يعرف عنها ايما شيء آخر . تلك هي الطريقة التي وفدت بها هذه المخلوقة البشرية الى الارض . وفي العاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت تعمل في خدمة زرّاع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شخصت الى باريس « بحثاً عن الحظ » . كانت فانتين جميلة ، واقد احتفظت بطهرها ما وجدت الى ذلك سبيلا . كانت شقراء مليحة ذات أسنان جميلة . كان عندها مَهْر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤها كان في ثغرها .

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضاً ، لأن للقلب جوعه كذلك .

لقد احبت تولوميس .

كان ذلك ، عنده ، عشقاً عابراً ، ولكنه كان عندها هياماً . لقد شهدت شوارع « الحي اللاتيني » — التي تعج بالطلبة والفتيات المرتديات ابراداً خفيفة شهباء — بداءةَ هذا الحب . وهناك ، في متاهات هضبة البانتيون ، حيث تُوثق وتنفصم كثيرٌ من العُرَى ، كانت فانتين تجتنب

تولوميس فترة طويلة ولكن لتعود بعدُ فنلتقيه من جديد . إن ثمة طريقة في الاجتناب هي اشبه ما تكون بالبحث والالتماس . وبالاختصار ، فقد علقت حبالها بحباله .

وألّف بلاشوفيل ، وليستوليه ، وفامول زمرةً كان تولوميس على رأسها . لقد كان هو عقلها المدبّر .

كان تولوميس تلميذاً عتيقاً من الطراز القديم . كان غنيـاً ، يملك دخلًا مقداره اربعة آلاف فرنك . اربعة آلاف فرنك : فضيحة رائعة فوق جبل سان جانفييف ! وكان تولوميس في الثلاثـين من عمره ، منغمساً في الملذات مفرّطاً في ذات صحته . كان متغضن البشرة ، مهشم الاسنان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرح قائلًا : « **الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين** . » كان يشكو سوء الهضم ، وكانت له عين راشحة . ولكن مرحه كان يزداد اتقاداً كلما خمد شبابه . لقد استعاض عن اسنانه بالايماءات المجونية ، واستعاض عن شعره بالمرح ، واستعاض عن صحته بالسخرية ، وكانت عينه الراشحة ضاحكة ابداً . كان متهدماً ، ولكنه مثقل بالازهار . كان شبابه الذاوي قبل الأوان يتقهقر في انتظام ، وينفجر بالضحك ، غيرَ متكشف الا عن نار مشبوبة . لقد قدّم الى مسرح الـ « فودفيل » رواية تمثيلية فرفضت . وكان ينظم الشعر بين الفينة والفينـة في شتى الموضوعات . وفوق ذلك ، فقد كان يرتاب في كل شيء بشموخ وتعالٍ ، وتلك قوة عظيمة في أعين الضعفاء . واذن فقد كان ، بوصفه ساخراً وأصلع ، هو رئيس الزمرة . ان كلمة Iron * انكليزية معناها الحديد ، فهل يكون الحديد هو الاصل الذي اشتُقت منه لفظة السخرية ؟

وذات يوم انتحى تولوميس بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم في إيماءة

---

* يحسن بالقارىء ان يعرف ان كلمة Ironie أو Irony تفيد في الفرنسية والانكليزية معنى السخرية والتهكم .

وقور :

- « منذ سنة تقريباً وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفافوريت يلتمسن منا ان نقدّم اليهن مفاجأة . واقد وعدناهن بذلك وعداً جازماً . وهنّ ما يرحن يذكّرننا بالوعد ، ويذكّرنني أنا به بخاصة . وكما تخاطب النسوة العجائز في نابولي القديس جانفييه * صائحات : *Faccia gialluta fa o miracolo* **« أيها الوجه الاصفر ، إجترح معجزتك ! »** كذلك تقول حساننا في غير انقطاع : « تولوميس ، متى ستلد مفاجأتك ؟ » وفي الوقت نفسه فأن آباءنا يكتبون الينا . فلنصب عصفورين بحجر واحد . لقد آن الاوان فيما يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »

وهنا خفض تولوميس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ماجن الى درجة اطلقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معاً ، قهقهة حماسية متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل يصيح :

-- « يا لها من فكرة ! »

وتبدّت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها .

وكانت ثمرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الأحد التالي ، عندما دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربع .

٣

اربعة إزاء اربع

من العسير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة : فلم تبقَ لباريس ضواحيها السابقة عينها ، ولقد تغير وجه ما يمكن ان ندعوه

* راعي مدينة نابولي ، وقد استشهد سنة ٣٠٥ م .

« الحياة حول باريس » تغيراً كاملاً خلال نصف قرن . فبدلاً من العربة الجافية ذات الجواد الواحد اصبح عندنا الآن عربة السكة الحديدية ، وبدلاً من المركب الصغير اصبحنا نشاهد السفينة البخارية . نحن نقول فيكان * اليـــوم ، كما كانوا يقولون سان كلو ** آنذاك . إن باريس ١٨٦٢ مدينةٌ ضواحيها فرنسةُ كلها .

واستمتع الازواج الاربعة ، في دقة بالغة ، بجميع ضروب الطيش والحماقة التي كانت ميسورةً آنذاك . كانوا في مستهل العطلة ، وكان اليوم يوماً حاراً صافياً من أيام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت – وهي وحدها التي تعرف الكتابة من بين الرفيقات الاربع – قد كتبت الى تولوميس رسالة قالت فيها باسم صواحبها جميعاً : « من حسن الطالع ان ننطلق باكراً . » من اجل ذلك نهضوا في الساعة الخامسة صباحاً ثم امتطوا العربة الى سان كلو ، ورأوا الى الشلال الجافّ وصاحوا : « لا بدّ ان يكون هذا جميلاً جداً حين يحفل بالمـــاء ! » وتناولوا الفطور في « الرأس الاسود » ، ولم يكن كاستين *** قد مرّ بذلك المكان بعد ، ومتعوا النفس بلعبة الخواتم في مربّع الحوض الكبـــير ، وصعدوا الى مصباح ديوجين ، وجعلوا يُكرّون الحلوى ذات الاقراص المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقـــات الزهر في بوتو ، واشتروا صفارات القصب في نويي ، واكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا على غاية السعادة .

وهذرت الفتيات وثرثرن كالطير المغرّدة أُطلقت من اقفاصها . كنّ نشاوى بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كنّ يداعبن رفاقهن الشبان بضربة صغيرة بالكفّ . ذلك غلُ الحياة في فجرها ! سنواتٌ خليق بها ان

* Fécamp ثغر واقع على بحر المانش .

** Saint — Cloud وتقع على نهر السين ، على مسافة تسعة كيلو مترات من فرساي .

*** Castaing طبيب فرنسي ُعرف بأفساده للاخلاق . (١٧٩٧ – ١٨٢٣) .

تعبّد ! إن اجنحة اليعاسيب لترتجف ! أوه ، ألا تزال ، كائناً من كنت ، تذكر أيامك الماضية ؟ هل قدّر لك ان تمشي في الادغال ، رادّاً الاغصان ليكون في ميسور الوجه الجميل السائر خلفك ان يتابع سبيله ؟ هل قدّر لك ان تنزلق ضاحكاً من فوق منحدر بلّله المطر ، وقد شدت بك الى الوراء يد امرأة تحبها ، وانشأت تصيح : « اوه ، حذائي الجديد ! الى اية حالة قد انتهى ! »

ولنسرع الى القول ان هذا العائق البهيج ، المطر ، لم يسعف الزمرة الانيسة المرحة على الرغم من ان فافوريت كانت قد قالت ، لحظة انطلقوا ، في جرس أستاذيّ أمومي : « ان البزّاق يتنزه في الممرات . وهذه علامة المطر ، يا ابنائي . »

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفتن العقول . وكان مسيو دو لا بروبس — وهو شاعر كلاسيكي عجوز طيب من مشاهير الادباء آنذاك ورجل ساذج كانت في حياته ايليونورا * — كان يهيم على وجهه ذلك اليوم تحت شجرات الكستناء في سان كاو ، فرآهن في طريقه في نحو الساعة العاشرة صباحاً فصاح وهو يفكر في « آلهات الملاحة » ** : « ولكن هنا واحدة اضافية ! » وكانت فافوريت ، صاحبة بلاشوفيل ، « العجوز » ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً ، تعدو امامهم تحت الاغصان الخضر العريضة ، وتقفز عبر الحفر ، وتثب في جنون من فوق شجرات العليق ، حاملةً لواء المرح بمثل حميّا آلهة شابّة من آلهة الاحراج الرومانيين . أما زيفين وداهليا اللتان حبتهما المصادفة

---

* في المصادر ان ايليونور دو غويين تزوجت عام ١١٣٧ من ملك فرنسة لويس السابع الصغير الذي ما لبث ان طلقها عام ١١٥٢ إثر الفضائح التي حفلت بها حياتها الخاصة . فتزوجها هنري بلانتاغنيت الذي اصبح ملك انكلترة سنة ١١٥٤ واغلب الظن ان المؤلف يشير هنا الى هذا المعنى .

** Les Graces عند الاغريق ، وهنّ آلهات ثلاث تذهب الاسطورة الى انهن يجسّدن كل ما في الجمال من فتنة . وهن Aglaé و Thalie و Euphrosine .

بضرب من الجمال كان يسمو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احداهما الاخرى بدافع من غريزة الفنج والدلال اكثر مما فعلتا ذلك بدافع من الصداقة ، وانعطفت احداهما على الاخرى في اوضاع انكليزية . كانت الالبومات التذكارية التي اعتاد الشباب والشابات تبادلها في ذلك العصر قد شاعت منذ فترة قصيرة ، وكانت الكآبة زياً شائعاً عند النساء ، كما كانت البايرونية * بعد ذلك عند الرجال ؛ وكانت غدائر الجنس الرقيق قد بدأت تسقط متناثرة . كانت زيفين وداهليا قد زينتا شعرهما على نحو دائري ملتف . واستغرق ليستوليه وفامول في نقاش حول اساتذتهما ، ورايا يشرحان لفانتين الفرق بين مسيو ديلفينكور ومسيو بلوندو .

وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه ، يوم الاحد ، شال فافوريت الشبيه لونه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولوميس ، مهيمناً ، مسيطراً على الزمرة . كان مبتهجاً جداً ، ولكن كان في مبسور المرء ان يتشمر فيه السلطان . كان ثمة ديكتاتورية في جذله . وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نسيج قطني أصفر مفصل على طريقة رجل الفيل ، مع سير يُربط تحت النعل ذي جديلة بلون النحاس . كانت في يده عصاً ضخمة من أسَل الهند تبلغ قيمتها مئتي فرنك . واذ لم يحرم نفسه شيئاً ، فقد كان في فمه شيء غريب يدعونه سيجاراً . واذ لم يكن ثمة شيء مقدس عنده ، فقد أنشأ يدخن .

وقال الآخرون في إجلال :

— « ان تولوميس هذا لمدهش . أيّ بنطلون ! أية قوة ! »

أما فانتين فكانت المرحَ عينه . كان واضحاً ان الله قد عهد الى

---

* اي النزعة الرومانتيكية التي عرف بها الشاعر الانكليزي اللورد بايرون والتي كثيراً ما استوحاها الرومانتيكيون الفرنسيون .

اسنانها الرائعة في مهمة واحدة ، هي الضحك . كانت تحمل في يدها ، اكثر مما تحمل على رأسها ، قبعتها الصغيرة من القش المخيـــط ، ذات الاشرطة الطويلة البيضاء . وكانت غدائرها الكثيفة الشقراء ، النزاعة الى التموّج والمتحررة في سهولة من عقالاتها بحيث تكرهها على ان تُحكم وثاقها على نحو موصول – كانت هذه الغدائر تبدو وكأنهـــا جُعلت لفرار غالاتيا * تحت الصفصاف . وكانت شفتاها الزهراوان تثرثران في سحر . وكانت زاويتا فمها المرفوعتان على نحو شهويّ مثل اقنعة اريغون ** العتيقة ، تبدوان وكأنهما تشجعان الجرأة . ولكن اجفانها الطويلة الظليلة انخفضت في رزانة نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنما تريد ان تكبح من نزعاتها المرحة . وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة الى حد يمتنع على الوصف . كانت ترتدي ثوباً رقيقاً خُبّازيّ اللون ، وحذاء ذا نعـــل عال أسمرَ ذهبياً تصالب شريطاه فوق جوربيها الرائعين البيضاوين المثقوبين ، وكان ذلك الضرب من الـ « سبنسر » *** المخترَع في مرسيليـــا والذي يدعى كانيزو Canezou – وهي تحريف لكلمتي Quinze Août **** في اللهجـــة الـكانابييرية ***** – يعني الجو البديع ، والدفء ، والظهيرة . أما الفتيات الثلاث الاخريات ، وكنّ اقلّ خجلاً كما ذكرنا ، فارتـــدين ملابس تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون في الصيف ، وتحت القبعات المغطاة بالرياحين ، ناضحـــاً بالملاحـــة والدلال .

* Galatée حورية من حوريات الماء الاسطورية أحبها بوليفيموس . ولكنها آثرت عليه « آسيس » الراعي ، وذات يوم فاجأهما العملاق فسحق رأس منافسه بصخرة .

** Erigone اريغون في الميثولوجيا ، محبوبة باخوس اله الخمر ، وقد تحول ، لكي يغويها ، الى عنقود عنب .

*** ضرب من اثواب النساء يكون ضيقاً عادة . وهو ينسب الى شريف بريطاني يدعى الايرل سبنسر (١٧٨٢ – ١٨٤٥)

**** أي الخامس عشر من آب .

***** نسبة الى la Canebière وهو شارع جميل في مرسيليا .

ولكن الى جانب هذا التبرج الجريء بدا « كانيزو » فانتين الشقراء ، بشفافيته وإفشائه لما دونه وستره له – فهو كاشفٌ حاجبٌ في آن معاً – وكأنه مدعاة الى الاحتشام مُرسلةٌ من عند الله . ولقد كان خليقاً ببلاط الحب الشهير ، برئاسة الفيكونت دو سيت ذو العينين الخضراوين كمثل خضرة البحر ، ان يخلع جائزة الغنج على هذا الـ « كانيزو » الذي خاض المعركة طمعاً في الفوز بجائزة العفة . إن أبسط الاشياء هو في بعض الاحيان أحفلها بالحكمة . كذلك تجري الأمور .

وجه مشرق ، صورة جانبية دقيقة ، عينان عميقتا الزرقة ، اجفان كثيفة ، قدمان صغيرتان متقوستان ، معصمان وعقبان مغلفة تغليفاً رائعاً ، بشرة ناصعة تنمّ ههنا وههناك عن اشكال الاوردة اللازوردية ، وجنة طفلية نضرة ، عنق قوية كعنق جينو * ، قفا عنق ثابت لدُن ، وكتفان كأنما نحتهما كوستو ** في وسطهما حُفيرة شهوية تتراءى من خلال الشاش الموصليّ ، بهجة مُصقولة بالاحلام ، نقشيّة سائغة – كذلك كانت فانتين ؛ ولقد كان في ميسور المرء ان يكتشف تحت هذا الثوب وهذه العصائب تمثالاً ، وان يستشعر في هذا التمثال روحاً .

كانت فانتين حسناء من غير ان تعي ذلك كثيراً . والحق ان اولئك الحالمين القلائل ، كهنة الجمال الحاطين بالاسرار ، الذين يقارنون في صمت ما بين الاشياء كلها وبين الكمال ، كان في ميسورهم ان يلمحوا في هذه العاملة ، من خلال شفافية الملاحة الباريسية ، ذلك التطريب المقدّس العريق في القِدم . لقد كان لأبنة الظلام هذه نسبٌ .

* Juno في الميثولوجيا الرومانية ، إلاهة رومانية قديمة ، كانت زوجة جوبيتر ، والمهيمنة على شؤون الزواج والنساء . وهي تقابل « حيرا » عند الاغريق .

** Coustou اسم اسرة فرنسية شهيرة في تاريخ النحت ، وقد أطلعت ثلاثة نحاتين معروفين اولهم نقولا كوستو (١٦٥٨ – ١٧٣٣) ووليم كوستو الاب (١٦٧٧–١٧٤٦) ووليم كوستو الابن (١٧١٦ – ١٧٧٧)

كانت تملك ضربيْ الجمال جميعاً : النمط والايقاع . النمط هو شكل المثل الاعلى ؛ والايقاع هو الحركة .

لقد قلنا ان فانتين كانت هي المرح . لقد كانت فانتين ايضاً هي الحياء .

ذلك بأن المراقب القادر على ان يدرسها في انتباه خليقٌ بأن يقع من خلال نشوة العمر هذه ، ونشوة الموسم ، ونشوة الحب كلها على تعبير لا يُقهر من التحفظ والاحتشام . لقد ظلت مندهشة بعض الشيء . وهذا الانذهال العفيف هو الظل الذي يفصل بسيشه * عن فينوس . كانت لفانتين اصابع الكاهنة في هيكل فستا ** ، تلك الاصابع الطويلة المهزولة البيضاء التي تثير رماد النار المقدسة بقضيب ذهبي . وعلى الرغم من انها ما كانت لتضنّ على تولوميس بشيء ، كما نستطيع ان نرى في وضوح ، فقد كان وجهها ، في الهدأة ، بالغاً الغاية في البتولية . كان ضرب من الوقار الجدي ، الذي يكاد يكون كالحاً ، يرين عليه فجأة في بعض الاحيان ، وما كان شيء اغرب ولا ادعى الى القلق من ان يرى المرء الى الابتهاج تخمد جذوته هناك في مثل هذه السرعة ، والى التفكير يخلف الجذلَ من غير ما مقدمة او تمهيد . وكانت هذه الرصانة المفاجئة المؤكّدة على نحو عنيف احياناً ، تشبه ازدراء الاهة من الالآهات . وكان جبينها ، وانفها ، وذقنها تُبرز توازن الخطوط ، المختلف كل الاختلاف عن توازن النِّسَب ، الذي يُحدث تناغم الملامح . وفي الفاصل المميز لها جداً ، والذي يفصل قاعدة الانف عن الشفة العليا ، كانت لها تلك الثنيّة الفاتنة غير الملحوظة — وهي آية غامضة على الطهر — التي

* Psyché في الاساطير انها فتاة كانت على جمال عظيم ، حتى لقد احبها الحب . وقصتها ترمز الى مصير الروح الساقطة التي تحـدد دائماً ، اثر مصائب متعددة ، بالحب الالهي .

** Vesta إلاهة النار عند الرومان . وهي تقابل هستيا عند الاغريق .

أوقعت بربا روسا * في حب « ديانا » ** وجـدها في اطـلال ايقونيوم ***

الحب خطيئة . فليكن . لقد كانت فانتين هي البراءة تطفو عـلى سطح هذه الخطيئة .

٤

تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على انشاد اغنية اسبانية

كان ذلك اليوم مشرقاً بأشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابقـة بالعبير . وفي رفق ، موّجت نسائم السّين اوراق الاشجار . كانت الاغصان تتحدث مكثرة من الاشارات في وجه الريح . وشنت النحل غاراتها على الياسمين . وكانت جمهرة من الفراشات قد حطت رحالها عـلى زهرات القنديل ، والبرسيم ، والشوفان البريّ . لقد غزا حديقـة ملك فرنسة الفخيمة حشد من المتشردين : العصافير .

وتألّق الازواج المبتهجون الاربعة ، متناغمـين مع اشعة الشمس ، والازهار ، والحقول ، والاشجار .

وفي هذه الجماعة الفائحة منها روائحُ الجنة ، الجماعة اللاغية ، المغنية ، الراكضة ، الراقصة ، المطاردة للفراشات ، الجامعـة للّبلاب ، المبلّلة

* أمير البحر التركي الشهير الذي قاد اساطيل سليم الاول وتوفي عام ١٥٤٦
** إلاهة رومانية ، بنت جوبيتير ، واخت ابولو .
*** قونية التركية .

جواريها الوردية المثقوبة بالعشب العالي ، النضرة ، المجنونة ، وإن تكن غير شريرة ، اختلس كلٌ ، بين الفينة والفينة ، القبلاتِ من كلٍّ ، ما خلا فانتين التي كانت متحصنة في مقاومتها الغامضة ، الذاهلة ، العنيفة ، والتي كانت عاشقة . وقالت لها فافوريت :

— « انت دائماً منحرفة المزاج . »

تلك هي المباهج الحقيقية . إن هذه المقاطع في حياة الشباب السعيدة هي نداء عميق للحياة والطبيعة ، وهي تُفجّر الوداد والضياء من كل شيء . لقد كانت في غابر الايام جنيّة انشأت المروج والاشجار خصيصاً للعاشقين . ومن هنا مدرسة المحبين السرمدية هذه ، القائمة وسط الغياض ، والمفتوحة الابواب ابداً ، والتي سوف تعمّر ما دام ثمة ادغال وتلاميذ . ومن هنا شعبيةُ الربيع عند المفكرين . إن العظيم والحقير ، والدوق والامير ، والفلاح ، ورجال البلاط ، ورجال المدينة ، كلهم — كما كانوا يقولون في العهود القديمة — خاضعون لسلطان هذه الجنية . إنهم يضحكون . انهم يلتمسون بعضهم بعضاً . إن الهواء ليبدو طافحاً باشراق جديد . أيّ تحوّلٍ في الصورة يُحدثه الحب ! إن الكتّاب المدول ليصبحون آلهة . وإن الصيحات الصغيرة ، والمطاردات وسط الاعشاب ، والخصور التي تطوّق خلسة ، وهذه الرطانات التي هي نغمات ، وهذا الهيام الذي يتفجّر في مقطعٍ من كلمة ، وحبات الكرز هذه التي ينتزعها فمٌ من فم ، كل اولئك يلتمع ويتحول الى امجاد سماوية . إن الفتيات الحسان لينفقنَ فتنتهن في اسراف عذب . وان المرء ليتوهم انها لن تنضب ابداً . ويرى الفلاسفة ، والشعراء ، والرسامون الى هذه النشوات الوجدية كلها ولا يدرون ما يصنعونه بها . إنها باهرة الى هذا الحد !

الرحيل الى سيتير * ! كذلك يصيح واتو . ** أما لانكريه *** ، رسام العامة ، فيتأمل بورجوازييه المحلقين في السماء . على حين يفتح ديدرو ذراعيه لجميع هؤلاء العشاق ؛ ويقرنهم دورفيه **** بالـ « دُرويند » *****

وبعد الفطور ، مضى الازواج الاربعة ليروا ، في ما كان يدعى آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيء بها من الهند حديثاً ؛ نبتة غاب عنا اسمها في الوقت الحاضر ، وكانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى سان كلو . كانت شجيرة غريبة فاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا حصر لها دقيقة كالخيوط ، شعثاء ، غير مورقة ، مثقلة بملايين الزهيرات البيضاء ، مما جعلها اشبه ما تكون بِشَعْرٍ مُنساب تناثرت فوقه الرياحين . وكان يحتشد حول هذه النبتة دائماً جمهرة من المعجبين .

حتى اذا سعدوا بمشاهدتها صاح تولوميس : « انا أقترح ان نستأجر حميراً . » وبعد مساومة مع سائق حمير ارتدّوا من طريق « فانف » و « إيسي » . وفي إيسي كانت لهم مغامرة . ذلك أن الحديقة التي كانت من قبل مِلكاً قومياً والتي كان يملكها آنذاك مموّن الجند « بورغوان » ، كانت بمجرد المصادفة مشرعة الابواب . فاجتازوا حاجز القضبان المشبّكة ، وزاروا الناسك القزم في كهفه ، وجربوا المفاعيل الصغيرة العجيبة الخاصة بحجرة المرايا – وهي شَرَكٌ داعرٌ جدير برجل

---

* Cythère احدى جزر الارخبيل في شمال غربي كريت . وفي الاساطير اليونانية انها موقوفة على فينوس التي ولدت من زبد الموج . ولقد غدت سيتير ، في لغة الشعر ، موطن الحب الرمزي .

** Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ – ١٧٢١)

*** Lancret رسام فرنسي (١٦٩٠ – ١٧٤٣) اشتهر برسومه العذبة الضاحكة .

**** Honoré d'Urfé كاتب فرنسي (١٥٦٨ – ١٦٢٦)

***** Druides هم كهان الغاليين ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في الهواء الطلق ، وفي الغابات . وكانوا يعبدون آلهة عدة ويؤمنون بخلود النفس وتناسخ الارواح .

بمن في الفسُوق أمسى مليونيراً ، او بـ « توركاريه * » استحـــال الى برياب ** – وتأرجحوا في عزم بالارجوحة الكبيرة المشدودة الى شجرتي الكستناء اللتين شهرهما الراهب بـــيرنيس *** وفيما هم يؤرجحـــون الفتيات ، واحدة إثر واحدة ، محدثين بذلك ثنايا من التنانير كان خليقاً بـ « غروز » **** ان يجدها جديرةً بالدرس ، أنشد تولوميس التولوزيّ – وكان فيـــه شيء من الدم الاسباني ، فـ « تولوز » هي ابنة عم « تولوزا » ***** – أنشد في نبرة كئيبة اغنية « غاليغا » القديمة التي اوحتها الى الناظم ، في ما يبدو ، فتاة صغيرة تـأرجحت في الهواء بين شجرتين :

Soy de Badajoz.
Amor me llama.
Toda mi alama
Es en mi ojos
Porque ensenas
A tus piernas. ******

---

* Turcaret كوميـــديا لـ « لساج » Lesage (١٦٦٨ – ١٧٤٧) كان بطلها خادماً ثم غدا من طريق النهب غنياً يتحلّق حـــوله مغامرون اشدّ إمعاناً في الاثم منه .

** Priape الـه الجنائن والكرمة والتناسل . ابن ديونيـوس وآفروديت . وهو في الاساطير رمز الرجولة والفتوة .

*** de Bernis شاعر وكاهن فرنسي (١٧١٥ – ١٧٩٤)

**** Greuze رسام فرنسي (١٧٢٥ – ١٨٠٥) وهو يمتاز خاصة في رســم المشاهد المألوفة ووجوه الاشخاص .

***** مدينة اسبانية في اقليم الباسك او البشكنس .

****** أنا من باداغوز
الحب يناديني .
كل روحي
هي في عينيّ ،
لانها تشيران
الى ساقيك .

ورفضت فانتين ، وحدها ، أن تتأرجح .

وغمغمت فافوريت في شيء من الحدة :

- « انا لا احب هذا النوع من التصنّع . »

وتركوا الحير ، لينصرفوا الى متعة جديدة . وعبروا نهر السين في زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام ، من باسي الى « حاجز الأيتوال » . لقد سعوا على أرجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحاً ، ولكن فافوريت قالت : « **ليس في ايام الاحد تعب . ان التعب لا يشتغل يوم الاحد !** » وحوالى الساعة الثالثة ، كان الازواج الاربعة يسرعون في الهبوط ، وقد دلّتهم السعادة ، نحو الجبال الروسية * وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان في استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافعواني الممتد فوق شجرات الـ « شان زيليزيه » .

وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح :

- « والمفاجأة ؟ انا اريد المفاجأة ! »

فيجيبها تولوميس :

- « إعتصمي بالصبر ! »

٥

في حانة بومباردا

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكّروا في الغداء . وجنح السعداء الثمانية ، وقد أصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا ، وهي مؤسسة فرعية انشأها في الشان زيليزيه ذلك المطْعَمي

* يقصد بالجبال الروسية سلسلة من المرتفعات والمنخفضات الشديدة الانحدار يتزلج عليها المتزلجون .

الشهير ، بومباردا ، الذي كانت لافتته تُرى آنذاك فوق شارع ريفولي ، قرب مجاز دولورم .

كانت قاعة رحبة ، ولكنها بشعة ، في ادناها مُخدع وسرير . (كان المكان يغص بالروّاد يوم الاحد بحيث يتعيّن على بعضهم ان يرتضوا هذا المأوى) وكانت ثمة نافذتان كان في استطاعة المرء ان يرى منهما ، خلالَ شجرات الدردار ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة من شمس آب تمسّ النافذتين مسّاً رفيقاً . وكانت هنالك طاولتان ، احداهما مثقلة بجبل مظفّر من باقات الزهر المختلطة بقبعات الرجال والنساء ، والاخرى ، وهي التي تحلّق حولها الازواج الاربعة ، مثقلة بركام بهيج من الصحاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز الجعة وقناني الخمر . كان ثمة قليل من النظام فوق الطاولة ، وقليل من الفوضى تحتها .

يقول موليير :

« إنهم يحدثون تحت الطاولة
ضجة وقرع طبول مخيفاً بأقدامهم . »

إلى ههنا كانت النزهة الريفية التي انطلقت في الخامسة صباحاً قد انتهت بأصحابها عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس تجنح للغروب ، وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت .

ولم يكن الشانزيليزيه ، الحافل باشعة الشمس وبالناس ، شيئاً اكثر من ضياء وغبار ، وهما العنصران اللذان يتألف منهما المجد . كان جوادا مارلي ، * هذا الرخام الصاهل ، يشبّان في غمامة ذهبية .

* Marly موضع على بعد عشرة كيلومترات من فرساي ، قرب نهر السين . وكان لويس السادس عشر قد انشأ فيه قصراً فخماً خربته الثورة . وكان « جوادا مارلي « Chevaux de Marly – وهما تمثالان شهيران من عمل النحات وليم كوستو – يزينان قصر مارلي هذا ثم نقلا الى الشانزيليزيه .

وكانت العربات تروح وتجيء . وكانت كوكبة رائعة من حرس الملك ، تتقدمها الابواق ، تهبط شارع دو نوبي . ورفرف العَلَم الابيض ، الذي خضّبته الشمس المحتضَرة بلون احمر باهت ، فوق قبة التويلري . وكانت ساحة الكونكورد ، التي عُرفت آنذاك كرة أخرى ، بساحة لويس الخامس عشر ، تغص بالمتنزهين المبتهجين . وكان كثير من النـــاس يحملون زنابق فضية تتدلى من العصائب البيضاء المتموجة التي لم تكن قد اختفت نهائياً ، عام ١٨١٧ ، من عُرى الثياب . وههنا وههناك ، وسط جماعات من عابري السبيل المصفقين ، كانت حلقات من الفتيات تطلق في الهواء لحناً بوربونياً تافهاً ، قُصِد به الى ان يُفحم « الأيام المئة » ، وكانت لازمته تجري هكذا :

« اعيدوا الينا ابانا الذي في غان *
« اعيدوا الينا مولانا ! »

وكانت حشود من ابناء الأرباض المرتدين ملابسهم الخـــاصة بيوم الاحد ، المتزينين احياناً بالزنابق مثل البورجوازيين ، قد انتشرت فوق الساحة الكبرى وساحة ماريني يلعبون لعبة الخواتم ، ** ويطوفون على متون الخيل الخشبية . وكان آخرون يحتسون الخمر . على حين كان نفرٌ قليل ، وهم من عمال المطابع ، يعتمرون قبعات من الورق . كان في ميسور المرء ان يسمع صدى ضحكاتهم . وكان كل شيء مشعاً مشرقاً . كان عهداً من السلام الوطيد والسلامة الملكية العميقة — عهداً اختتم فيه آنغليز مدير الشرطة تقريراً شخصياً وخصوصياً رفعه الى الملك حول الوضع في ضواحي باريس بهذه الاسطر : « اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، يا مولاي ، استطعنا ان نقول ان لا خطر البتة مـــن هؤلاء القوم .

* اي الملك لويس الثامن عشر ، وكان قد لجأ ، خلال « الايام المئة » ، الى مدينة غان Gand احدى مدن بلجيكا .

** jeu de bagues من العاب الرشاقة ، وقوامها ان ينتزع الفارس ، بواسطـة رمح او سيف ، بعض الحلقات المتدلية ، فيا الجواد منطلق به .

إنهم مهملون متكاسلون كالفررة . واذا كان العوام من ابناء الولايات قلقين غير راضين فأن عوامّ باريس ليسوا كذلك . إنهم جميعاً رجال صغار ، يا مولاي ، اذا وُضع اثنان منهم واحداً فوق الآخر لم يكادا يشكلان رجلًا من رماة قنابلك . لا ، ليس ثمة ما يُخشى من ناحية سكان العاصمة . ومما يلفت النظر ان هذا الجزء من السكان قد تقاصرت قاماته ايضاً خلال السنوات الخمسين الماضيات ، وان ابناء الضواحي الباريسية أضأل اجساماً مما كانوا قبل الثورة . إنهم ليسوا خطرين . وبالاختصار ، فانهم سفلة طيبون . »

أما ان من الجائز ان تنقلب الهرة الى أسد فذلك ما لا يعتقد مدراء البوليس بأنه ممكن . وأياً ما كان فقد يقع هذا ، وتلك هي معجزة شعب باريس . والى ذلك ، فأن الهرة التي يزدريها الكونت آنغليز الى هذا الحد قد حظيت بأجلال الجمهوريات في الاعصر الخالية . كانت تجسُّداً للحرية ، في نظرهم . ولقد كان في ساحة كورنث العامة تمثال ضخم جداً لهرّة ما ، فهو يخيل الى المرء ان القوم قصدوا الى جعله نداً لمنيرفا « بيريه » * غير المجنحة . كانت الشرطة الساذجة ، في عصر لويس الثامن عشر ، تنظر الى شعب باريس نظرة تحفل بالأمل والتفاؤل اكثر مما ينبغي . انهم ليسوا ، بحال من الاحوال ، « سفلة طيبين » بقدر ما يُظن . فالباريسي هو بين الفرنسيين ما كانه الاثيني بين الاغريق . إن احداً لا ينام احسن مما ينام هو ؛ إن احداً ليس اكثر منه ولا أصرحَ طيشاً وكسلًا ؛ إن احداً لا يبدو أيسر نسياناً للاشياء منه ، ومع ذلك فحذار ان تطمئن اليه . إنه قادرٌ على مختلف ضروب البلادة والتراخي . ولكن ما إن يتبدّى له طيف تمجْدٍ حتى ينتزع اعجابك بأنواع الاحتدام المجنون كلها . أعطهِ حَربةً يُعطك يوم

* Pirée ثغر اثينا .

١٠ آب * أعطه بندقية يُعطك معركة اوسترليتز . إنه مرتكـز نابوليون ، ومَعين دانتون ** هل الوطن في خطر ؟ إذن ، يتطوع للنضال . هل الحرية في خطر ؟ اذن ، يقتلع بلاط الشارع . حـــذار ! إن شَعره الطافح بالغضب هو ملحميّ ؛ إن قميصه ليبدو وكأنه معطف من معاطف الجند الاغريقي القديم . انتبه ! فعند الزاوية الاولى ، يصنع « غرينيتا » « شوكاتٍ كودية » *** وحين يدق ناقوس الخطر ينمو هذا الرجل الساكن في الضواحي ، وينهض هذا الرجل الضئيل . عندئذ تغـــدو نظرته فظيعة ، ويصبح نَفَسه عاصفة ، وتنطلق من صدره البائس المهزول ريح عاتية تقلقل جبال الالب . إن رجل الضواحي الباريسية هو الذي جعل الثورة ، وقد أُفرغت في جيوش ، تفتح اوروبة . إنه يغنّي ؛ تلك هي بهجته . وازنْ مـا بين اغنيته وطبيعته ، ثم انظر فما دامَ لا يملك غير الكارمانيول **** لازمةً غنائية فلن يُسقط غير لويس السادس عشر . ولكن دعه ينشد المارسيلياز يخلّص العالم .

وبعد ان كتبنا هذه الملاحظة على هامش تقرير آنغليز نعود الى ازواجنا الاربعة . كانوا قد تناولوا ، كما قد قلنا ، طعام الغداء .

٦
فصل من محبة الذات

إن احاديث المائدة واحاديث الحب لا سبيل الى ان تمسك بها قبضة

---

* يوم ثار الشعب الفرنسي (١٠ آب ١٧٩٢) ثورته التي انتهت بسجن لويس السادس عشر وسقوط الملكية .

** Danton احد زعماء الثورة الفرنسية المشاهير (١٧٥٩ – ١٧٩٤)

*** Fourches Caudines وهو مضيق مجاور لكوديوم (مدينة في ايطالية القديمة) حيث هزم القائد السمني بونتيوس هيرينيوس الجيش الروماني وانزل به ضروب الخسف والاذلال (٣٢١ ق . م) والمقصود انه يعمل عملاً يذل المغلوبين .

**** carmagnole ضرب من الرقص والغناء شاع في اثناء الثورة الفرنسية .

القابض . احاديث الحب سُحُب ، واحاديث المائدة دخان .

ودندن فـامول وداهليا بالأنغام ؛ واحتسى تولوميس الشراب ؛ وضحكت زيفين ، وابتسمت فانتين . ونفخ ليستولييه في بوق خشبي اشتريَ في سان كلو . ونظرت فافوريت ، في حنان ، الى بلاشوفيل وقالت :

— « بلاشوفيل ، أنا اعبدك . . »

فأدى هذا الكلام الى سؤال من بلاشوفيل :

— « ماذا تفعلين ، يا فافوريت ، إذا اقلعتُ عن حبك ؟ »

فصاحت فافوريت : « أنا ! آه ، لا تقل ذلك ، ولو على سبيل المزاح ! إذا اقلعت عن حبي فسوف ألحق بك . سوف أخدشك . سوف اشدّ بشعرك . سوف اقذفك بالماء . سوف أحمل الشرطة على ان تلقي القبض عليك ! »

وابتسم بلاشوفيل في الاختيال الخليع الجدير برجل دُغدغ حبّ الذات عنده . واضافت فافوريت :

— « أجل ، سوف استغيث ! لا ! سوف أصيح مثلًا : وغد ! »

وفي نشوة بالغة ارتدّ بلاشوفيل في كرسيه الى الوراء ، وأغمض كلتا عينيه في زهو .

وهمست داهليا ، وكانت لا تزال تأكل ، في اذن فافوريت وسط الضجة :

— « انت مولعة بفلاشوفيل الى حد بعيد ، اذن ؟ »

فأجابت فافوريت ، بالجرْس نفسه ، وهي تمسك بشوكتها من جديد :

— « أنا اكرهه . إنه شحيح . انا احب ذلك الفتى الساكن في المنزل المقابل لمنزلي . إنه شاب ممتاز ، هل تعرفينه ؟ في استطاعة كل امرىء ان يرى انه خُلق لكي يكون ممثلًا ! انا احب الممثلين . إنه لا يكاد يدخل البيت حتى تصيح أمه : « اوه ، يا الـهي ! لقد فقدت

طمأنينتي . ها هو ذا في طريقه الى الصراخ ! إنك سوف تفلق رأسي ! »
وما ذلك إلا لأنه يطوّف في المنزل ويمضي الى العلّية ذات الجرذان
والى الزوايا المعتمة ، مصعّداً أعلى ما يستطيع ان يصعّد ، وهناك يغني
وينشد – ومن اين لي أن اعرف أن في إمكانهم ان يسمعوه تحت ؟ إنه
يكسب الآن عشرين « سو » يومياً من طريق كتابة الدعاوى لأحد
المحامين الصغار . إنه ابن مرتّل كنسي قديم في سان – جاك – دو –
هو – با . آه ! انه شابٌ ممتاز . إنه يحبني الى درجة جعلته يقول لي
ذات يوم ، وكنت اعجن الدقيق لعمل بعض الحلوى : « **يا آنسة ،
اجعلي من قفازيك زلابية أسارع الى اكلها !** » ان الفنانين وحدهم هم
الذين يستطيعون ان يقولوا اشياء مثل هذه . أنا على وشك ان اجنّ
بهذا الفتى . لست ابالي . انا اقول لبلاشوفيل إني اعبده . يا لي من
كاذبة ! اوه ، يا لي من كاذبة ! »

وتمهلت فافوريت لحظة ثم اردفت :

– « داهليا ، انت تلاحظين أني محزونة . إن هذا الصيف لم يجدْ
علينا بغير المطر المتواصل . إن الريح تثير عصبيتي ؛ **وان الريح** تشوهني
بالكلَف . بلاشوفيل بخيل جداً . ان المرء لا يكاد يجد شيئاً من
الجلبان في السوق . والناس لا يعنون بشيء غير الطعام . أنا استشعر السأم
والسويداء كما يقول الانكليز . الزبدة غالية جداً ! وفوق ذلك ، انظري !
إن هذا مخيف . نحن نتناول طعام الغداء في غرفة تحتوي على سرير .
إن هذا ليجعلني أتقزز من الحياة . »

٧
حكمة تولومييس

وفي غضون ذلك ، بينا كان بعضهم يتغنى كان سائرهم يتحدثون في

صخب دفعةً واحدة . كان ثمة هدير كامل . واعترض تولوميس صائحاً :
— « لا تتحدثوا كيفما اتفق ، ولا في سرعة فائقة ! يتعين علينا ان نتأمل اذا كنا نرغب في ان نكون متألقين . إن الامعان في الارتجال يجعل الذهن فارغاً على نحو احمق . والجعة الجارية لا تجمع شيئاً من الزبد . ايها السادة ، على رسلكم ! امزجوا الجلال بالقصف والابتهاج . كلوا في تأمل وتنعموا في بطء . لا تتعجلوا . انظروا الى الربيع . اذا اسرع اصابه الخراب ، يعني أنه يتجمّد . ان الافراط في الاندفاع يقتل شجرات الخوخ والمشمش . والافراط في الاندفاع يقتل طلاوة الموائد السخية وبهجتها . لا اندفاع ، ايها السادة ! إن غريمون دو لا رينيير هو من رأي تاليران . »

فقال بلاشوفيل : « اليك عنا ، يا تولومييس . »

فصاح فامول : « ليسقط الطاغية ! »

فهتف ليستولييه : « بومباردا ، بومبانس ، وبامبوش ! » *

فقال فامول : « إن يوم الاحد لم ينته بعد . »

واضاف ليستولييه : « نحن زاهدون في الطعام والشراب . »

فقال بلاشوفيل : « تولومييس ، تأمّل هدوئي . » mon calme

فاجاب تولومييس : « انت مركيزها . »

وكان لهذا التلاعب اللامبالي بالالفاظ مثل اثر الحجر الذي يُلقى في بركة . كان المركيز دو منكالم ** ملكياً من ملكيي العصر المشهورين . وصمتت الضفادع كلها .

وصاح تولوميس في لهجة من استعاد السلطة :

— « ايها الاصدقاء ، التزموا الرصانة . هذه النكتة الجناسيـــة لا ينبغي ان تُستقبل رغم هبوطها من السماء ، بكثير من الدهش ، وكل

---

* بومباردا هو صاحب الحانة . وبومبانس Bombance وبامبوش Bambocbe تفيدان معنى القصف والتلذذ بالطعام والشراب . وفي ذلك كله تلاعب بالالفاظ واضح .

** Montcalm ويبدو الجناس واضحاً بين هذا الاسم وبـين قوله في الاسطر السابقة mon calme

ما يهبط على هذه الشاكلة لا يستحق ، بالضرورة ، الحماسة والاحترام . النكتة الجناسية هي رَوْث الروح المحلقة . والمزاح الماجن يتساقط في ايا مكان . حتى اذا تحرّرت الروح من حماقتها غاصت في السُّحب . إن الرقمة البيضاء المنبسطة على الصخر لا تحول بين القندر * وبين التحويم في الجو . لستُ انا الذي يزدري النكتة الجناسية ويسفّهها ! أنا أُجلّها على قدْر براعتها . إن كل ممعن في العظمة ، وكل ممعن في السمو ، وكل ممعن في السحر ، سواء في الانسانية او خارج الانسانية ، قد اصطنع التلاعب بالالفاظ . فقد اطلق المسيح نكتة جناسية حول القديس بطرس . واطلق موسى نكتة جناسية حول اسحق . وكذلك فعل أشيل ببولينيس ** وكليوباترة بأوكتافيوس . ولا تنسوا ان نكتة كليوباترة هذه سبقت معركة آكتيوم *** ، وانه لولاها لما استطاع احد أن يتذكر مدينة تورين ، وهو اسم يوناني يعني المغرفة . والآن وقد حسمنا هذه المسألة ، استطيع ان اعود الى موعظتي . ايها الاخوة ، إني اكرر : لا اندفاع ، لا ضجة ، لا إفراط ، حتى في النكت ، والحبور ، والابتهاج ، والتلاعب بالالفاظ . اسمعوا لي . ليكن لكم تبصّر آمفياراووس **** وجسارة قيصر . ينبغي ان يكون ثمة حدّ حتى للألغاز Est modus in rebus ***** ينبغي ان يكون ثمة حدّ حتى للموائد . أنتنّ تحببن حلوى التفاح ، يا سيداتي ، فلا تفرطنَ في ذلك . ينبغي أن

---

* عقاب ضخم طويل الاجنحة شديد التحليق في الفضاء .

** polynice ابن اوديب ، وفي الميثولوجيا اليونانية انه تقاتل مع اخيه ايتيوكل Etéocle وان الموت نفسه عجز عن ان يطفىء البغضاء بين الاخوين العدوين فرئيت نيران الحطب تنفصل الى قسمين .

*** هي المعركة البحرية التي انتصر فيها اوكتافيوس وآغريبا على أنطونيوس وكليوباترة عام ٣١ ق . م .

**** Amphiaraüs عرّاف إغريقي شهير .

***** من كلام هوراس الشاعر اللاتيني ومعناه : يحسن الاعتدال في كل شيء .

يتحلى المرء ، حتى حين يأكل حلوى التفاح ، بالحصافة والمهارة . ولكن الشرّه يعاقب الشّره . ولقد عهد الربّ الى سوء الهضم في توبيخ المعدة . واذكروا هذا : لكلّ من أهوائنا ، حتى الحب ، معدة ينبغي ان لا تُحمّل فوق ما تطيق . وفي كل شيء ، ينبغي ان نكتب كلمة « انتهى » في الوقت المناسب . يجب ان نكبح جماح انفسنا حين يغدو الامر ملحّاً . يجب ان نوصد على شهوتنا بالمغاليق الحديدية ، وأن نزج اهواءنا في في السجن ، ونمضي الى محطة البريد . الرجل الحكيم هو ذلك الذي يعرف متى يقف وكيف يقف . ثقوا بي . واذا كنت قد درست القانون بعض الشيء ، كما تثبت امتحاناتي ؛ واذا كنت اعرف الفرق ما بين الدعوى المرفوعة الى المحكمة ، والدعوى التي لمّا تقطع المحكمة بأمرها ؛ واذا كنت قد وضعت اطروحة باللاتينية عن طرائق التعذيب في رومة يوم كان موناتيوس ديغز قاضياً ينظر في الدعاوى الخاصة بقاتلي آبائهم وأمهاتهم ، واذا كنت على وشك ان اصبح طبيباً في ما يبدو ، فلا يستفاد من ذلك ، بالضرورة ، أنني أبله . أنا أوصيكم بالاعتدال في رغباتكم جميعاً . أنا واثق بأني اقول قولاً حكيماً ثقي بأن اسمي فيلكس تولوميس . سعيدٌ هو ذلك الذي يتخذ ، عندما تأزف الساعة ، قراراً بطولياً ، ويستقبل مثل سيلاّ * أو أوريجين ! »

وأصغت فافوريت في انتباه عميق . وقالت :

— « فيلكس ! ما اجملها كلمة ! انا احب هذا الاسم . إنه لاتيني . إنه يفيد معنى الازدهار . »

وأضاف تولوميس :

— « ايها المواطنون ! أيها السادة ! ايها الاصدقاء ! اتريدون ان لا تشعروا بأي حافز ، وان تستغنوا عن المطبخ الزوجي ، وتتحدّوا

* ديكتاتور روماني (١٣٦ — ٧٨ ق . م) وقد استقال سنة ٧٩ ق . م .

الحب ؟ ليس ثمة ما هو أيسر من ذلك . واليكم الوصفـــة : شراب الليمون ، والافراط في الرياضة البدنية ، والعمل الشاق . ارهقوا انفسكم بالتعب ؛ إسحبوا الاثقال ؛ لا تناموا ؛ أطيلوا السهر ؛ اكرعـــوا الاشربـــة النطرونية وماء النيلوفر ؛ تمطّقوا بمستحلبات الخشخاش وكفّ مريم ؛ تبّلوا ذلك بغذاء خشن ؛ جوّعوا انفسكم ؛ وأضيفوا الى هـذا الابترادَ بالماء ، وأحزمة الاعشاب ، واستخدام طبق رصاصيّ ، وضروب الغَسُول * مع سائل ملح الرصاص ، والكمادات مع مزيج من الخلّ والماء . »

فقال ليستوليبه : « أنا أفضل امرأة على ذلك كله . »

فأضاف تولوميس : « المرأة ! إحترز من هـــذا . شقيّ هو ذلك الذي يُسلم نفسه الى قلب المرأة المتقلب ! المرأة خائنة غادرة . إنها تكره الافعى بحكم التنافس في الصناعة . الافعى هي الدكان المقابل . »

وصاح بلاشوفيل : « تولوميس ! انت سكران ! »

فقال تولوميس : « وحق الشيطان ! »

فاضاف بلاشوفيل : « كن مبتهجاً اذن . »

فأجاب تولوميس : « موافق . »

ثم إنه أترع كأسه ونهض :

— « المجد للخمر ! ** *Nunc , te. Bacche. Canam* عفواً ، ايتها الآنسات ، هذا كلام اسباني . والبكنّ البرهان ، سينيورا : مثلُ هـــذا الشعب يحتاج الى مثل هذه الدنان . إن « آرّوب » قشتالة يحتوي ستة عشر ليتراً ؛ وقنطار « لقنت » اثني عشر ؛ و « آلمودا » جزر الكناري خمسة وعشرين ؛ و « كوارتن » جزر الباليار ستة وعشرين ؛ و « جزمة » القيصر بطرس ثلاثين . فليحيَ هـذا القيصر الذي كان عظيماً ، ولتحي جزمته التي كانت أعظم ! ايتها السيدات ، إني أُســدي اليكنّ نصيحة

---

* الغَسول : ما يُغسل به من الماء . وقد اعتمدناها لتؤدي معنى « لوسيون » Lotion في اللغات الاجنبية .

** « والان سأغني لك ، يا باخوس ! » وهو كلام لاتيني وليس اسبانياً .

صديق : إخدعن جيرانكنّ اذا بـدا ذلك حسناً في أعينكنّ . إن خاصة الحب الاولى هي انه يهيم على وجهه . فالحب لم يُجعل لكي يجلس القرفصاء ويصيبه الخبل مثل خادمة انكليزية يدّس الفرك العنيف ركبتيها. إن الحب اللطيف لم يُجعل لهذا ؛ إنه يهيم على وجهه مبتهجاً . اقد قيل : إن الهيام على الوجه ظاهرة إنسانية . أما انا فأقـول : الهيام على الوجه ظاهرة عشقية . ايتها السيدات ، انا أعبدكنّ جميعاً . اوه زيفين ، اوه جوزيفين ، يا ذات الوجه الاكثر من متجعد ، لقد كنتِ جديرة ان تكوني فاتنة لو لم تكوني عبوساً . ان وجهك اشبه ما يكون بوجه جميل جلس عليه بعضهم خطأ . اما فافوريت ، إيه حوريات المـاء وعرائس الشعر ! ففي ذات يوم كان بلاشوفيل يعبر مجرى شارع غورين بواسّو فرأى فتاة حسناء ترتدي جوربين بيضاوين مشدودين شداً محكماً، وكانت تلك الفتاة تكشف عن ساقها . وأعجب بلاشوفيل بهذا الاستهلال ، فوقـع في الحب . وكانت تلك التي أحبها هي فافوريت . اوه ، فافوريت ! إن لك شفتين يونانيتين . لقـد كان في غابر الزمن رسام اغريقيّ ، اسمه أوفوريون ؛ وكانوا يلقبونـه برسام الشفاه . إن هذا الاغريقي وحده ليستحق ان يصور فمك . اسمعي ! قبلك لم يكن ثمة مخلوقة جديرة بهذا الاسم . لقد ُجعلتِ لكي تتلقّي التفاحة مثل فينوس ، او لكي تأكليها مثل حواء . إن الجمال يبتديء بك . لقد تحدثتُ عن حواء ؛ إنكِ أنتِ التي خلقتِها . انت تستحقين ان ُتمنحي شهادة اختراع المرأة الجميلة . أوه ، فافوريت ، إني انتقل من مخاطبتك بضمير المفرد الى مخاطبتك بضمير الجمع لأني أنتقل من النثر الى الشعر . لقد تحدثتِ منذ لحظة عن اسمي . اقد أثّر ذلك فيّ . ولكن يتعيّن علينا ، كائناً من كنا ، ان نحذَر الاسماء . إنها قد تكون خادعـة . أنا أدعى فيلكس * ، ولست بالرجل السعيد . إن الكلمات لتكذب : فليس ينبغي ان

* تفيد لفظة félix في اللاتينية معنى السعادة واليمن .

نقبل دلالاتها قبولاً أعمى . وانه لمـــن الخطل ان نكتب الى ليبج * التماساً للفلين والى « بو » * الـــتماساً للقفازات . ويا آنـسة داهليا ، لو كنت مكانك لسميت نفسي روزا ** يجب ان يكون للزهرة شذى ، وان يكون للمرأة ذكاء . انا لا اقول شيئاً عن فانتين . إنها متخيّلة ، حالمة ، متفكرة ، حساسة . إنها طيفٌ له شكـل حورية من حوريات الماء ، وحياء راهبة تاهت فاتخذت سبيل عاملة مغناج ، ولكنها تفـزع الى الاوهام ، وتغني ، وتصلي ، وتحدّق الى السماء من غير ان تعرف في وضوح ما الذي تراه وما الذي تعمله ، وتتيه — وعيناها مسمرتان الى السماء — في حديقة تنتظم من الطير أكثر مما يوجد هناك . أوه ، فانتين ، اعرفي هذا : أنا ، تولوميس ، وهمٌ — ولكنها لا تسمعني مجرد سماع ، هي ابنةَ الاوهام الشقراء . ومع ذلك ، فكل ما فيها نضارة ، وحلاوة ، وشباب ، وضياء صباحيّ ناعم . أوه ، فانتين ، انت خليقة بأن تسمَّي « مرغريت » *** أو « لؤلؤة » . انت امرأة ذات لمعان ليس أجمل منه . ايتها السيدات ، اليكنّ نصيحة ثانية : لا تتزوّجنَ ابداً . الزواج طعم كالذي تطعّم به الاشجار . وقد ينجح هذا الطعم وقد يخفق ، فاجتنبن هذه المغامرة . ولكن ماذا أقول ؟ أنا أضيع كلماتي سدى . إذ لا شفاء للنساء من داء الزواج . وكل ما نستطيع نحن الرجال الحكماء قوله لن يحول بين صانعات الصُدْرات ورابطات ساقيّات الاحذية وبين ان يحلمن في ازواج مثقلين بالماس . حسن ، ليكن ذلك . ولكن ، ايتها الحسان ، اذكرن هذا : انكن تسرفن في أكل السكّر . إن لكنّ خطيئةً واحدة ، ايتها النساء ، ليس غير ، هي قضْم السكّر . أوه ، ايهـــا الجنس

---

* « ليبج » و « بو » مدينتان ، الاولى بلجيكية والثانية فرنسية .

** اي وردة . و « داهليا » في الاصل اسم زهرة نجمية الشكل ، جيلة ولكنها غير ذات عبير .

*** الزهرة المعروفة بهذا الاسم . وتدعى ايضاً زهرة اللؤلؤ وزهرة الربيع .

القاضم ، إن اسنانكن الصغيرة البيضاء مدلّهة بالسكّر . والآن ، انتبهن جيداً ! السكّر ملح . وكل ملح يجفّف . والسكر اكثر الامــلاح تجفيفاً . إنه يمتص سوائل الدم من طريـق الأوردة ، ومن هنا ينشأ تخثر الدم ، ثم تصلّبه . ومن بعد ذلك يكون السلّ الرئـــوي ، فالموت . وهذا هو السبب الذي من اجـله يتاخم الداءُ السكريّ داء السـلّ . فلا تقضمن شيئاً من السكّر ، اذن ، وعندئـــذ تعشن ! ولالتفت الآن الى الرجال . ايها السادة ، عليكم بالفتوح . لينهب بعضكم محبوبات بعضكم الآخر من غير ان تستشعروا وخز الضمــير ! اقتنصوا وتقاتلوا ! فليس في الحب اصدقاء . وحيثما توجد امرأة جميلة ينفتح باب الخصومة على مصراعيه . لا رأفة ولا استبقاء ، ولكنْ قتالٌ حتى الموت ! المرأة الجميلة هي *Casus Belli* * المرأة الجميلة هي جرم مشهود . إن جميع غزوات التاريخ إنما قرّرتها تنانير النساء . المرأة هي حقّ الرجل . فقد سبا رومولوس ** نساء سابين *** وسبا وليم **** نساء السكسون ، وسبا قيصر نساء الرومان . إن الرجل غير المحبوب يحوّم كالعُقاب فوق معشوقات الآخرين . أما أنا ، فأقدّم الى جميع الارامل البائسات الاعلان السامي الذي قدمه نابوليون الى جيش ايطالية : « ايها الجند ، إنكم في حاجة الى كل شيء . وان العدوّ ليملك كل شيء . »

وكبح تولوميس جماح نفسه .

وقال بلاشوفيل : « خذ نَفَساً ، يا تولوميس . »

وفي الوقت نفسه همهم بلاشوفيل ، يساعده ليستوليه وفامول ، في صوت نادب ، باحدى اغنيات العمال المؤلفة من أولى الكلمات التي ترد على الخاطر ، الغنية بالقوافي والمحرومة منها في وقت معاً ، المجرّدة من

* تعبير لاتيني يعني : حالة حرب .

** Romulus ، مؤسس رومة الاسطوري واول ملوكها (٧٥٣ – ٧١٥ ق.م)

*** Sabine من ممالك ايطالية الوسطى في العصور القديمة .

**** وليم الفاتح الذي استولى على انكلترة عام ١٠٦٦ (١٠٢٧ – ١٠٨٧)

المعنى مثل حركة الشجر وعزف الرياح ، والمولودة من بخار الانابيب ، المتبدّدة معه المولية في إثره . وهذا هو المقطع الذي اجابت به الزمرة على خطاب تولوميس .

« لقد دفع الآباء المغفلون
مالاً الى احد الوكلاء ،
لكي يتمكن مسيو كليرمون تونير ،
من ان يصبح بابا في « سان جان » .
ولكن كليرمون لم يكن قادراً على ان يصبح بابا .
لانه لم يكن كاهناً :
وعندئذ تميز وكيلهم من الغيظ ،
واعاد اليهم مالهم . »

وما كان ذلك ليهدئ من وحي تولوميس . لقد افرغ كأسه ، ثم أترعها ، واستأنف الكلام :

— « فلتسقط الحكمة ! أنسوا كل ما قلته . ينبغي ان لا نكون مفرطين في التعفف ، ولا متبصرين ، ولا حكماء صالحين . انا اشرب نخب الجذل . لنكن جذلين . لنختم دراستنا للقانون بالحماقة والغذاء . سوء الهضم ومجموع الفتاوى . * ليكن جوستنيان هو الذكَر والشراهة هي الانثى . إن في الاعماق لبهجة . عيشي ايتها الخليقة ! ان العالم ماسة ضخمة . انا سعيد . ان الطيور مدهشة ! أيّ عيد هـذا الذي يعمّ الكون ! إن العندليب هو « ايليفيو » ** مجاني . ايها الصيف ، اني احييك . ايه يا حديقة اللوكسمبورغ ، ايه يا قصائد « رو مدام » وزقاق الاوبسرفاتوار ! ايه ايها الحالمون الذاهلون ! ايه يا جميع أولئك

* Digeste وهي مجموعة الفتاوى التي وضعها اشهر رجال القانون الرومان بامر من الامبراطور جوستنيان . وبين سوء الهضم indigestion ولفظة Digeste تلاعب لفظي واضح .

** Francois Ellevion مغنّ فرنسي مشهور . (١٧٦٩ — ١٨٤٢)

الخادمات الفاتنات اللواتي يتسلّين برسم الاطفال فيما هنّ يقمن بخدمتهم !
لقد كانت سهول اميركة الجنوبية الواسعة المغطاة بالعشب خليقة بأن تبهجني لو لم تكن عندي قناطر الاوديون * إن روحي لتنطلق نحو الغابات العذراء ونحو السهوب . كل شيء جميل . ان الذباب ليدندن في أشعة الشمس . وان الشمس لتدعو صغار الطير الجوائم الى العطاس. قبّليني ، يا فانتين ! »

وضلّ ، وعانق فافوريت .

٨

موت فرس

وصاحت زيفين :

— « الغداء في حانة إيدون خيرٌ من الغداء في حانة بومباردا . »

فقال بلاشوفيل : « انا افضل بومباردا على إيدون . إنه اكثر ترفاً . إنه أشد آسيوية . انظري الى القاعة السفلى . هناك مرايا *glaces* على الجدران . »

فقالت فافوريت : « انا أفضل ان اجد المرطبات *glaces* في صحني . »

وأصرّ بلاشوفيل :

— « انظري الى السكاكين . إن مقابضها فضية عند بومباردا ، وعظمية عند إيدون . والفضة طبعاً أثمن من العظم . »

فلاحظ تولوميس قائلاً :

---

* اثر اغريقي قديم اطلق اسمه على « المسرح الفرنسي الثاني » الذي اسس عام ١٧٩٧ ، والذي ألحق عام ١٩٤٦ بـ « الكوميدي فرنسيه » تحت اسم « صالة اللوكسمبورغ » .

— « إلا عند اصحاب الذقون الفضية . »

وفي هذه اللحظة القى نظرة على قبة الانفاليد ، وكانت تبدو لعيني الناظر من نوافذ حانة بومباردا .

وران الصمت .

ثم صاح فامول :

— « تولوميس ، لقد جرى اللحظة نقاشٌ بيني وبين ليستوليبه . »

فاجاب تولوميس : « النقاش حسن . ولكن النزاع أحسن . »

— « كنا نتناقش في الفلسفة . »

— « ليس عندي اعتراض . »

— « من تفضّل : ديكارت أم سبينوزا ؟ »

فقال تولوميس :

— « انا افضل ديسوجييه * . »

حتى اذا اطلق هذا القرار ، احتسى قليلاً من الخمر واضاف :

— « انا أرتضي ان اعيش . ليس كل شيء بمنتهٍ على الارض ما دام لا يزال في امكاننا ان نهذي . وانا اعزو الفضل في هذا الى الالهة الخالدة . نحن نكذب ، ولكننا نضحك . نحن نؤكد ، ولكننا نشك . ان غير المتوقع لينفجر من قياس منطقي . هذا شيء جميل . ولا يزال ثمة على الارض ناس يعرفون كيف يفتحون ويغلقون ، في ابتهاج ، صندوق المفاجآت المنطوي على ما يناقض الآراء السائدة . إلا فاعلمن ، ايتها السيدات ، ان هذه الخمرة التي تشربنها في كثير من الهدوء هي خمر ماديرا المعتصرة من كروم « كورال داس فريراس » التي تعلو ثلاثمئة وسبع عشرة قامة فوق سطح البحر . إنتبهن وانتنّ تشربن ! ثلاثمئة وسبع عشرة قامة ! ومسيو بومباردا ، هذا المطعميّ الرائع ، يقدّم اليكنّ هذه الثلاثمئة والسبع عشرة قامة لقاء أربعة

* Désaugiers مغنٍّ وممثل فرنسي (١٧٧٢ — ١٨٢٧)

فرنكات وخمسين سنتيماً . »

وقاطعه فامول كرة اخرى :

— « تولوميس ، إن آراءك فانون . من هو الكاتب المفضل عندك ؟ »

— « بير ... »

— « ... كين ؟ » *

وتابع تولوميس :

— « المجد لبومباردا ! إنه جدير بأن يكون صنواً لـ « مونوفيس ديليفانتا » اذا استطاع أن يأتيني بعــالمة ** وصنواً لـ « تيجيليون دو شيرونيه » اذا استطاع ان يأتيني بأحدى بنات الهوى ! لانه كان ثمة — اوه ، ايتها السيدات — بومباردات في اليونان ومصر . ذلك مــا يخبرنا به « آبوليه » *** واأسفاه ! الشيء نفسه دائماً ، ولا جديد البتة . لم يبق شيء غير منشور في خليقة الخــالق ! **** *Nil sub sole novum* كذلك يقول سليمان الحكيم . ***** *Amor omnibus idem* كذلك يقول فيرجيل . وتركب كارابين مع كارابان في الزورق في سان كلو كما ركبت آسباسيا ****** مع بريكليس ******* متن اسطول ساموس . كلمة اخيرة . هل تعرفن ، ايتها السيدات ، من كانت آسباسيا هذه ؟ على

---

* المقصود « بيركين » Berquin الكاتب الفرنسي (١٧٤٧ — ١٧٩١) صاحب كتاب « صديق الاطفال » .

** هكذا في الاصل almée وهي كلمة عربية مصرية تعني الراقصة المغنية .

*** Apulée كاتب لاتيني من أهل القرن الثاني .

**** في اللاتينية ومعناها : لا جديد تحت الشمس .

***** في اللاتينية : الحب واحد عند الجميع .

****** Aspasie بغيّ اغريقية اشتهرت بجمالها وذكائها ، وقد اصبحت في ما بعد زوجة بريكليس ، وكان منزلها موئلاً لاعظم الفلاسفة والفنانين والكتاب وبخاصة سقراط .

******* Périclès رجل الدولة الاغريقي الكبير ، وكانت له يد بيضاء على الحياة الادبية والفنيــة في اثينا . وقد جرد حملة بحرية على ساموس ، احــدى جزر الارخبيل اليونانية .

الرغم من انها عاشت في عصر كانت المرأة لا تزال فيه غير ذات روح، فقد كانت روحاً ؛ روحاً ذات ظلّ ورديّ وارجواني ، اشدّ توهجاً من النار ، وأنضر من الفجر . كانت آسباسيا مخـلوقة مست طرفي المرأة الاكثر تطرفاً ؛ كانت البغيّ الالاهة . كانت سقراط ، مضافـاً اليه مانون ليسكو . * لقد خُلقت آسباسيا للظرف الذي قد يحتاج فيه بروميثيوس ** الى زانية . »

ولم يكن من اليسير ان يُكبح جماح تولوميس ، بعد ان انطلق ، لو لم يسقط جواد ، في هذه اللحظة ذاتها ، على رصيف الشاطيء . لقد اوقفت الصدمة كلاً من العربة والخطيب . كانت فرساً من افراس مقاطعة بوس ، عجوزاً مهزولة جديرة بالقصّاب ، تسحب عربة ذات ثقل ثقيل . حتى اذا انتهت الدابة الى حانة بومباردا ، وقد هدّها الاعياء ، أبت ان تتقدم خطوة واحدة . وادى هـذا الحادث الى تجمهر القوم . ولم يكد سائق العربة ، الجدّف المغتاظ ، يجد الوقت الذي يمكنه من ان يلفظ ، في عزم ملائم ، تلك الكلمة الحاسمة : « كلب ! » مردفاً اياها بضربة سوط رهيبة ، حتى خرّت الفرس الحقيرة عـلى الارض لكي لا تنهض بعد ذلك ابداً . وعلى جلبة عابري السـبيل أدار رفاق تولوميس ، المستمعون الى خطابه ، رؤوسهم ، واغتنم تولوميس هـذه الفرصة فختم الخطاب بهذا المقطع الكئيب :

> « كانت من ذلك العالم حيث تنتهي طيور الوقواق
> والمركبات الفاخرة الى المصير نفسه .

---

* Manon Lescaut هي بطلة الرواية التي تحمل اسمها وقد عاشت عيش البغايا المغامرات . والرواية من تأليف الراهب بريفوست (١٧٩٧ - ١٧٦٣)

** الـه النار ، وهو يبدو في الاساطير الكلاسيكية وكأنه مبدع اول حضـارة انسانية . فبعد أن شكل الانسان من الوحل الراسب في قعر المياه الراكدة سرق النار من السماء لكي يبث الحياة في انسانه ذاك ، فانتقم منه جوبيتير ، الخ ...

والفرس الضعيفة ، لقد عاشت على قدر ما تعيش المنادل ، فترة صباح ! »

وتنهدت فانتين : « يا لها من فرس مسكينة ! »

وصاحت داهليا :

— « هي ذي فانتين ترثي للخيل ! هل عرفتم قبل اليوم شيئاً اكثر حماقة من هذا ؟ »

وفي هذه اللحظة صالبت فافوريت ذراعيها ، وادارت رأسها الى الوراء ، وحدّقت الى تولوميس قائلة :

— « آه ! والمفاجأة ؟ »

فأجابها تولوميس :

— « تماماً . لقد أزفت اللحظة . ايها السادة ، لقد آن لنا ان نقدم المفاجأة الى هاته السيدات . ايتها السيدات ، انتظرنا لحظة . »

فقال بلاشوفيل : « إنها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس :

— « على الجبين . »

وفي رصانة ، طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبته ، ومن ثم تقدم الشباب الاربعة نحو الباب ، واحداً إثر واحد ، وقد وضع كل منهم إصبعه على فمه .

وصفقت فافوريت فيما كانوا يخرجون .

وقالت : « إنها ممتعة منذ الآن . »

وتمتمت فانتين :

— « لا تتأخروا اكثر مما ينبغي ! نحن في انتظاركم ! »

٩

نهاية الابتهاج البهيجة

واسندت الفتيات مرافقهن ، اثنتين اثنتين ، — وقد غودرن وحدهن — على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثرن ، حانياتٍ رؤوسهن ، ويتكلمن من نافذة الى اخرى .

لقد رأين الشبان يغادرون حانة بومباردا متشـــابكي الاذرع ، ثم يلتفتون الى وراء ويومئون اليهن ضاحكين ، ليختفوا بعد ذلك وسط حشود يوم الأحد المغبرّة التي تغزو الـ « شان زيلـــيزيه » مرة كل اسبوع .

وصاحت فانتين :

— « لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « ايّ شيء سيحملونه الينا ؟ »

فقالت داهليا : « سيكون شيئاً جميلاً من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول :

— « ارجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطىء الماء — تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي ألهتهنّ إلهاء شـــديداً . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات المسافرين . ولقد مرّت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب — مرّت كلها تقريباً ، آنذاك ، بـ « الشان زيليزيه » . واتخـــذ القسم الاعظم منها سبيـل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » . ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوّهـــة

بصناديق الامتعة ، والاغطية الجلدية ، والحقائب ، الملأى بالرؤوس التي كانت تختفي على نحو موصول ، المفتّتة الجزءَ المقوّس من الطريق ، المحوّلة حصباء الشارع الى زناد للقدح – في كل دقيقة كانت احدى هذه العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حلّ الغبار محلّ الدخان ، وبدت عليها سيما الحدة والغضب . وسرت الفتيات بهذه الجلبة . وصاحت فافوريت :

– « يا لها من ضوضاء ! يخيّل الى المرء ان اكواماً من السلاسل تولي فراراً . »

وشاءت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان في ميـورهن رؤيتها في عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة على جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين .

وقـالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف أبداً . »

وهزّت فافوريت كتفيها :

– « ان فانتين هذه تثير الدهش ؛ أنا انظر اليها في فضول . إنها تعجب لابسط الاشياء . لنفرض اني مسافرة من المسافرات ؛ عنـدئذ أقول للعربة العمومية : انا راحلة ؛ في استطاعتك أن تحمليني في طريقك من على رصيف الشاطيء . وتمر العربة ، وتراني ، وتقف ، وتقلّـني على متنها ، هذا يقع كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة ، يا عزيزتي . »

وتقضّى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجـأة أجفلت فافوريت إجفال نائم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن ... اين المفاجأة ؟ »

فقالت داهليا :

– « اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين :

— « لقد تأخروا كثيراً جداً ! »

ولم تكد فانتين تتمّ تنهدتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة . كان يحمل في يده شيئاً بدا وكأنه رسالة .

وتساءلت فافوريت :

— « ما هذا ؟ »

فأجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »

— « ولماذا لم تحملها الينا في الحال ؟ »

فأجاب الغلام :

— « لأن اولئك السادة امروني ان لا اقدمها الى هؤلاء السيدات الا بعد ساعة من تسلّمي اياها . »

وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقاً .

وقال : « عجيب ! ليس ثمة عنوان . ولكن انظرن ما كُتب فيها :

هذه هي المفاجأة

وفي مثل لمح البصر ، فضّت الرسالة ، وفتحتها وقرأت (كانت تعرف القراءة) :

« أوه ، يا احبّتنا !

« إعلمن ان لنا أهلاً . أجل أهلاً . إنكنّ لا تكدن تعرفن معنى هذه الكلمة . إنهم اولئك الذين ندعوهم في القانون المدني آباء وامهات . إنهم بسطاء ولكنهم فاضلون . إنهم يحنّون الينا . ان هؤلاء العجائز يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطيبات يدعوننا « الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا ، ويعدون بأن يذبحوا العجول لنا . ولما كنا متعلقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم . وهكذا ستنطلق

حالما تقرأن هذه الورقة ، خمسة جياد قوية عائدة بنا الى آبائنا وامهاتنا . نحن ننصب خيامنا ، كما يقول بوسوويه . إننا ذاهبون ؛ لقد ذهبنا . نحن نطير بين ذراعي لافيت ، وعلى جناحي كايّار . ان عربة تولوز العمومية تنتشلنا من الهوّة ، وما هذه الهوة الا انتنّ ، يا صغيراتنا الجميلات ! نحن عائدون الى المجتمع ، الى الواجب والنظام ، في سرعة عظيمة بمعدّل ثلاثة فراسخ في الساعة . إنه لما يهمّ الوطن ان نصبح مثل سائر النـــاس ولاةّ ، وارباب أُسر ، ونواطير ، ومستشاري دولة . إحترمننا ووقّرننا ! نحن نضحي بانفسنا . إنتحبن علينا في الحال ، وسارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه الرسالة افئدتكن ، فمزّقنها بدوركنّ . وداعاً .

« لقد أدخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريباً . فلا تحقدن علينا من اجل هذا .

« التواقيع : بلاشوفيل .

« فامول .

« ليستولييه .

« فيلكس تولومييس .

« حاشية : — نفقات الغداء قد دُفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربع النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « إنها مهزلة حلوة حقاً . »

وقالت زيفين :

— « إنها مضحكة جداً . »

واردفت فافوريت :

— « لا شك في ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني أحبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقالت داهليا :

– « لا . إنها فكرة تولوميس . هذا شيء واضح . »

فعادت فافوريت الى القول :

– « اذا كان ذلك ، فليسقط بلاشوفيل ، وليحي تولوميس ! »

وهتفت داهليا وزيفين :

– « فليحي تولوميس ! »

وانفجرن ضاحكات .

وضحكت فانتين مثل غيرها .

وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، سفحت الدمع . كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبّها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى تولوميس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أمّ ولد .

الكتاب الرابع

الإبداع يعني التخلي أحيانا

١
أمّ تلتقي اماً

كان في الربع الاول من هذا القرن ، في مونفيرماي قرب باريس شبه مطعم حقير لم يعد قائماً اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى تيناردييه ، وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجيه . وفوق الباب كان المرء يرى لوحةً مسمّرةً على الجدار تماماً . وكان مرسوماً على هذه اللوحة شيء يشبه رجلاً على ظهره رجلٌ آخر يحمل كتافتَين * ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملها الجنرالات ، وقد زانتهما

* الكتافة لفظة اصطنعناها لتقابل كلمة épaulette وهي ما يضعه الجندي من زينة عسكرية على كتفيه .

نجوم كبيرة مفضضة . وكانت ثمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخاناً ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كان مكتوباً : **رقيب * واترلو .**

وليس شيء اكثر شيوعاً من عربة او عجلة ذات دولابين أمام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعترضت الشارع امام مطعم « رقيب واترلو » ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨ ، كانت خليقة من غير شك بأن تلفت بضخامتها انتباه أيما رسام يمرّ بها .

كانت عربةً أمامية من تلك العربات الضخام ، التي تُصطنع في الديار المحاطة بالغابات لنقل ألواح الخشب الغليظة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخم ذي قطب يُشدّ اليه جَرّ ثقيل ، وتنهض على عجلتين هائلتين . وعلى الجملة ، فقد كانت ضخمة قصيرة ، ساحقة ، مشوّهة : لقد كان من الجائز ان يحسبها الرائي عربة مدفع عملاقة .

كانت الطرق قد غطّت العجلتين وإطاريها ، ومركزيها ، والمحور ، والجرّ بطبقة من الطين قبيحة ضاربة الى الصفرة شبيه لونُها بذلك الذي نرغب في ان نزين به جدران الكاتدرائيات . لقد اختفى الخشب تحت الطين ، واختفى الحديد تحت الصدأ .

وتحت المحور كانت تتدلى سلسلة ضخمة تلائم جباراً من جبابرة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما كانت هذه السلسلة لتعيد الى الذاكرة العوارض الخشبية الضخمة التي كانت تحملها ، ولكنْ صُوَرَ الحيوانات المنقرضة من ماستودون وماموث ** التي كان خليقاً بها أن تقرنها . كانت لا تذكّر المرء

* الرقيب رتبة عسكرية تقابل « سرجان » sergent

** الماموث mammoth ضرب من فيلة الاعصر الجيولوجية المنقرضة .

بسجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الخاصة بالبشر ، ولكن بسجون الاشغال الشاقة الخاصة بجماعة السيكلوب * ومن هم فوق البشر . ولقد بدت وكأنها قد نُزعت عن مارد من المردة . كان هوميروس خليقاً بأن يوثق بها بوليفيموس ** ، وكان شيكسبير خليقاً بأن يوثق بها كاليبان ***

لمَ كانت هذه العربة الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولاً ، لكي تعترض السبيل ، وثانياً لكي تستكمل صدأها . إن في النظام الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي تجدها هكذا معترضةً سبيلنا ، والتي ليس لوجودها أي مبرر آخر .

كان وسط السلسلة يتدلى فُوَيق الارض ، تحت المحور . وعلى منحناها ، جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتاتان صغيرتان ، وكأنهما فوق حبل ارجوحة من الاراجيح . كانت صغراهما تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً ، وكانت كبراهما تبلغ من العمر سنتين ونصف سنة تقريباً . وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كان منديل بارع العَقْد يقيها من السقوط . ولقد رأت احدى الامهات هذه السلسلة المروّعة ، ذات يوم ، فقالت : « آه ، هي ذي لعبة لأولادي ! »

كانت الطفلتان مزينتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق مُشرقتي الوجه ، فكأنهما وردتان غُرستا في الحديد الصدىء . كانت أعينهما تومض إيماضة الظفَر ، وكانت وجناتها النضرة تضحك . كانت احداهما

---

* Cyclope في الاساطير اليونانية عملاق ذو عين واحدة في وسط الجبين . وعمالقة السيكلوب هؤلاء كانت مهمتهم ان يطرّقوا الصواعق لجوبيتير ويساعدوا فولكان ، إله النار والمعادن ، في اعماله .

** Polyphème هو اشهر عمالقة السيكلوب ، وابن نبتون . وقد اقتلع اوليس بطل اوذيسة هوميروس عينه الوحيدة ، وحبسه في كهفه مع سائر رفاقه .

*** Caliban من شخصيات شيكسبير في روايته « العاصفة » . وهو يمثل القوة البهيمية الجبارة التي تُكره على الخضوع لقوة عليا ، ولكنها تحاول دائماً الثورة عليها .

كستنائية اللون ، وكانت الاخرى حمراء . وكان وجهاهما الساذجان عجيبين فاتنين . وكان العبير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنوّرة غير بعيد منها يبدو وكأنه انفاسها . وكانت الصغرى تكشف عن جسدها اللدن بقلّة الاحتشام العفيفة التي تميز الطفولة . وفوق هذين الرأسين الناعمين وحولها — هذين الرأسين المفرغين في السعادة ، المستحمين بالضياء — تقوّست العربة الهائلة — سوداء بالصدأ ، مروّعة ، او تكاد ، بانحناءاتها المتشابكة وزواياها الوعرة — وكأنها فم مغارة من المغاور .

وكانت أمهما — وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثّرة في هذه اللحظة — جالسة على عتبة الفندق ، تؤرجح الطفلتين بحبل طويل ، حاضنة اياهما بعينيها خشية ان يصيبهما حادث ما ، وقد طفت على محياها تلك الانطباعة الحيوانية السماوية التي تميز الامومة . ومع كل اندفاعة من اندفاعات السلسلة الى امام والى وراء كانت الحلقات البشعة تطلق ضجة صارّة أشبه ما يكون بصيحة غضب . كانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ؛ ولم يكن ثمة شيء اكثر فتنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل العمالقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفيما الأم تهز الطفلتين غنّت في صوت ناشز أغنية كانت شعبية آنذاك :

« يجب ، يجب ، قال احد المحاربين ، »

ومنعها غناؤها ومراقبتها طفلتيها من ان تسمع وترى ما كان جارياً في الشارع .

كان شخص ما يقترب منها ، على اية حال ، فيما هي تستهل المقطع الاول من الاغنية . وفجأةً سمعت صوتاً ، قريباً جداً من اذنها ، يقول :

— « إن لكِ هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

بهذا اجابت الأم ، منمّمة اغنيتها . ثم ادارت رأسها .

كانت امرأة واقفةً على بضع خطىً منها . وكان لها هي ايضاً طفلة تحملها بين ذراعيها .

وكانت تحمل ايضاً خُرجاً ضخماً من اخراج السفر ، بدا ثقيلاً جداً .

وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاءً والوهية . كانت فتاة يراوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلتين الصغيرتين الاخريين في مسابقة في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على كتفيها عصائب ، وعلى قبعتها وشيٌ . كانت ثنيّات تنورتها مرفوعة الى درجة تكشف عن ساقها البيضاء البدينة المكتنزة . كانت وردية ناضحة بالصحة الى حد فاتن . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تغري المرء بأن يعض تفاح خديها . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً عن عينيها إلا أنهما كانتا من غير ريب متسعتين جداً ، محوطتين باجفان باهرة . كانت نائمة .

لقد استغرقت في ذلك الرقاد الموغل في الطمأنينة ، الذي لا يعرفه غير الاطفال . إن اذرع الامهات مصوغة من حنان . وإن الاطفال لينامون عليها نوماً عميقاً .

أما الأم فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تطفو عليها انطباعةُ عاملةٍ من العاملات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود — وجميلة ؟ جائز . ولكن الجمال لا يمكن ان يتبدّى في تلك الكسوة . وكان شعرها ، الذي تدلّت منه خصلة شقراء ، يبدو أثيثاً جداً ، ولكنه كان محجوباً في قسوة تحت قلنسوة من قلانس الراهبات بشعة ، محكمة الربط ، ضيقة ، معقودة تحت ذقنها . ومن شأن الضحك ان يكشف عن الاسنان الجميلة حين يكون للمرء اسنان جميلة ، ولكنها لم

تضحك . ولقد بدت عيناها وكأنها سلختا دهراً طويلاً تسفحان العبرات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سيما الاعياء الشديد ، والمرض الطفيف . لقد نظرت الى طفلتها الراقدة بين ذراعيها تلك النظرة التي لا تتمّ الا لأمّ تُرضع فلذة كبدها . وكان منديل عريض أزرق كمناديل العجزة مطويّ عبر صدرها ، يقنّع شكلها على نحو تعوزه البراعة . وكانت يداها مسفوعتين ، منقطتين بالنمش ؛ وكانت سبابتها متصلبة متمزقة من اثر الابرة . كانت ترتدي رداء فضفاضاً بنياً من صوف غليظ ، وفستاناً من خام ، وتنتعل حذاء ضخماً ثقيلاً . كانت فانتين .

أجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك فما ان يمعن النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجمالها . كان خطّ كئيب كذلك الذي يتشكل عند مطلع التهكم ، يطبع خدها الايمن . اما زينتها – تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصليّ ومن عصائب ، والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحماقة ، والموسيقى ؛ والتي حفلت بالبهارج ، وتعطرت بالزنابق – فكانت قد ذابت كما يذوب الجليد المتألق الجميل الذي نحسبه تحت اشعة الشمس ماساً متوهجاً . لقد ذابت ، مخلّفة الغصن اسود موحشاً .

كانت عشرة أشهر قد تقضّت على « المهزلة الحلوة » .

ايّ شيء جرى خلال هذه الاشهر العشرة ؟ في استطاعتنا ان نحزر .

فبعد التهوّر يأتي البلاء . فما هي إلا فترة حتى غابت فافوريت ، وزيفين ، وداهليا عن ناظريّ فانتين . ذلك بأن الصلة التي قُطعت من جانب الرجال ما لبثت أن حُلّت من جانب النساء ، فهن خليقات بأن يدهشن اذا ما زعمت إحداهنّ ، بعد اسبوعين اثنين ، انهنّ كنّ صديقات . لم يكن ثمة سبب يدعوهن الى الابقاء على تلك الصداقة .

وغودرت فانتين وحدها . وإذ مضى والد طفلتها لسبيله – وأأسفاه ! فأمثال هذه الهجرة تكون دائماً الى غير رجعة – ألفت نفسها في عزلة مطلقة ، وقد تضاءلت عندها عادة العمل ، وتعاظمت عندها الرغبة في الملذات . كانت صلتها بتولوميس قد قادتها الى ان تزدري المهنة الصغيرة التي عرفتها ، فاذا هي تشيح بوجهها من المنافذ التي عرضت لها ، واذا بهذه المنافذ توصد آخر الامر في وجهها . وغدت ولا مورد لها . كانت فانتين لا تكاد تفك الحرف ، ولم تكن تعرف الكتابة . لقد علّموها في طفولتها كيف توقّع اسمها ليس غير . وعهدت الى احد كتاب الرسائل العموميين في ان يسطر لها رسالة الى تولوميس . ثم عهدت اليه في ذلك ثانية وثالثة . ولكن تولوميس لم يجب على ايّ من تلك الرسائل . وذات يوم ، سمعت فانتين بعض النسوة الثرثارات يقلن ناظراتٍ الى ابنتها : « وهل ينظر الناس الى هؤلاء الأطفال نظرة جدية ؟ إنهم يهزون اكتافهم حين يرون امثال هؤلاء الاطفال ! » وعندئذ فكرت في تولوميس الذي هزّ كتفيه لولده ، والذي لم يأخذ هذه المخلوقة البريئة أخذاً جدياً . وغدا فؤادها مظلماً في الموطن الذي كان موطنه . ما الذي يتعين عليها ان تفعله ؟ لم يكن ثمة من تستشيره . لقد ارتكبت خطيئة ، ولكن طبيعتها كانت ، في اعماقها ، كما عرفنا ، عنوان الحياء والفضيلة . وراودها شعور غامض بانها على وشك التردّي في الشقاء والانزلاق الى الشارع . ينبغي ان تكون لديها الشجاعة الكافية . ولم تعوزها الشجاعة . وتحملت مصيبتها في صبر . وخطر لها ان ترجع الى موطن رأسها ، قرية مونتروي سور مير ، فقد تجد هناك من يعرفها ، ويعطيها عملاً . اجل ، ولكنّ عليها ان تخفي خطيئتها . وتراءى لها على نحو غامض شبح فراقٍ اشدّ ايلاماً من الفراق الاول . وانقبض صدرها ، ولكنها وطّنت النفس على ذلك . لقد كانت فانتين تملك ، كما سوف نرى ، شجاعةَ الحياة الضاريةَ .

وكانت قد تخلّت ، في بسالة ، عن تبرّجها ، وارتدت الملابس المصنوعة من الخام ، وحوّلت اثوابها الحريرية كلها ، وخِرَقها كلها ، وعصائبها كلها ، ووشيها كله الى ابنتها — زهوها الأوحد الذي بقي لها، وإنه لزهوٌ إلهي . وباعت كل ما تملك ، فعاد عليها بمئتي فرنك . حتى اذا وفت ديونها الصغيرة لم يبق معها غير ثمانين فرنكاً تقريباً . وذات صباح جميل من ايام الربيع ، وفي سنها الثانية والعشرين ، غادرت باريس حاملة طفلتها على ظهرها . وخليق بكل من رأى اليهما تجوزان الشوارع ان يأخذه الاشفاق عليهما . فهذه المرأة لم يكن لها في العالم غير هذه الطفلة ، وهذه الطفلة لم يكن لها في العالم غير هذه المرأة . كانت فانتين قد ارضعت ابنتها ؛ وكان ذلك قد اوهن صدرها بعض الشيء ، فهي تسعل سعالاً طفيفاً .

وليست بنا حاجة ، بعدُ ، الى ان نتحدث عن مسيو فيلكس تولوميس . فنجتزيء ههنا بالقول انه انتهى الى ان يصبح ، بعد عشرين سنة ، وفي عهد الملك لويس فيليب ، نائباً عاماً ريفياً بديناً ، ذا ثروة وذا نفوذ ؛ وناخباً حكيماً ومحلّفاً شديد القسوة ، بيد انه ظلّ دائماً رجل لهو ومتعة .

وحوالى الظهر ، وبعد أن امتطت بين الفينة والفينة — التماساً للراحة ومقابل ثلاثة فلوس او اربعة الكلّ فرسخ — متنَ ما كان يُعرف آنذاك بـ « العربات الصغيرة الخاصة بضواحي باريس » وصلت فانتين الى مونفيرماي ، ووقفت في زقاق بولانجيه .

وفيما هي تجتاز بفندق تيناردييه ، ترك منظر الطفلتين القاعدتين في ابتهاج على اوجوحتها الهائلة ، اثراً مذهلاً في نفسها ، وتمهلت امام هذا المشهد المرح .

إن ثمة رُقىً . ولقد كانت هاتان الطفلتان الصغيرتان رُقية لهذه الأمّ .

وتأملتهما في انفعال غامر . ان وجود الملائكة بشرى بالجنة . وخيل لها انها رأت فوق هذا الفندق لفظة « هنا » الخفية التي تخطّها العناية

الالـهية . كانت هاتان الطفلتان سعيدتين من غير شك ! وحدّقت اليها وأعجبت بها ، وقد غلب عليها التأثر الى حد جعلها لا تملك نفسها — حين اخذت الأمّ نفَساً بين بيتي أغنيتها — عـن ان تقول ما سبق ان قرأناه :

— « إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

إن اشد الحيوانات ضراوة لتلقي السلاح حين ترى صغارها موضـع تودد وملاطفة .

ورفعت الامّ رأسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة السبيل ان تجلس على درجة السلّم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب . وتجاذبت المرأتان اطراف الحديث .

فقالت امّ الفتاتين الصغيرتين :

— « اسمي مدام تيناردييه . نحن ندير هذا الفندق . »

ثم واصلت انشادها فغنت من بين اسنانها :

« يجب ، يجب ، فأنا فارس
« ولسوف اسافر الى فلسطين ! »

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا ونتوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحي به من الرعب . ومن عجب انه كانت تطفو على محياها انطباعة استرخاء اكتسبتها من قراءة الروايات . كانت مغناجاً مترجّلة . والواقع ان الروايات القديمة المنطبعة على خيال صاحبات الفنادق لتخلّف مثل هذه الآثار . كانت لا تزال شابة لمّـا تتجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المرأة ، الجالسة القرفصاء ، واقفة منتصبة القامة ، اذن لكان من الجائز لقـامتها الشامخة وكتفيها العريضتين المشبهتين كتفي تمثال عظيم متحرك — الجديرة بامرأة من نساء السوق الموسمية — ان تجفّل عابرة السبيل ، وتعكر صفو اطمئنانها وتحول

دون وقوع الاحداث التي سنرويها . شخصٌ جالس بدلاً من ان يكون واقفاً : إن القَدَر ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .

وقصت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ؛ واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتمسه في مكان آخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ؛ وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعياً على قدميها ؛ وان حملها طفلتها قد اورثها إعياءً شديداً ؛ وانها التقت عربة فيلموبل فركبتها ؛ وانها انطلقت من فيلموبل الى مونفيرماي سيراً على القدمين ؛ وان الطفلة الصغيرة مشت قليلاً ، ولكنْ ليس كثيراً ، فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ؛ وانها اضطرت الى ان تحملها ؛ وان الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبعت على جبين ابنتها قبلةً حنوناً أيقظتها من نومها . لقد فتحت الطفلة عينيها الزرقاوين الواسعتين ، مثل عيني أمها ، وأبصرت - ماذا أبصرت ؟ لا شيء ، كلّ شيء ، بانطباعة الاطفال الصغار الجدية ، الصارمة في بعض الاحيان ، التي هي احد اسرار براءتهم امام فضائلنا المعتمة . وفي ميسور المرء ان يزعم أن اولئك الاطفال يستشعرون انهم ملائكة ، ويعرفون اننا بشر . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبحت جماحها ، فقد انزلقت الى الارض بمثل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفرّ . وفجأة رأت الطفلتين الاخريين على ارجوحتها ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلّت السيدة تيناردييه وثاق طفلتيها وأنزلتها عن الارجوحة ، قائلة :

- « إلعَبْنَ كلكن معاً . »

إن الاطفال في مثل هذه السنّ ليأنس بعضهم الى بعض في سهولة

ويسر . فما هي إلا لحظة حتى كانت بنتا السيدة تيناردييه تلعبان مع الوافدة الجديدة ، حافرات ثقوباً في الارض بابتهاج غامر .

كانت هذه الرافدة الجديدة مرحةً جداً : ان طيبة الأم لمسطورة في بهجة الطفلة . كانت قد تناولت شظية من خشب واتخذت منها مجرفة ، وراحت تشق في نشاط حفرةً تلائم ذبابة . إن عمل حفار القبور ليصبح سائغاً جميلاً حين يقوم به طفل .

واستأنفت المرأتان حديثهما .

— « ما اسم طفلتك الصغيرة ؟ »

— « كوزيت . »

ولكن عليك ان تقرأ أوفرازي بدلاً من كوزيت . فقد كانت الصغيرة تدعى أوفرازي . بيد ان الأم جعلتها كوزيت بتلك الغريزة الحلوة الفاتنة التي تجعل الامهات والناس يحوّلون « جوزيفا » الى « بيبيتا » ، و « فرانسواز » الى « سيليت » . ذلك ضرب من الاشتقاق يزعج علم علماء الاشتقاق ويشوّشه كله . فنحن نعرف جدة وُفقت الى ان تقلب « تيودور » الى « غنون » .

— « ما عمرها ؟ »

— « انها تخطو نحو الثالثة . »

— « هي اذن في عمر ابنتي الكبرى . »

كانت الفتيات الثلاث قد اجتمعن في وضع من القلق والغبطة العميقين . لقد وقع حادث خطير . كانت دودة كبيرة قد انبثقت من الاوض . وكنّ قد خفن منها ، وكنّ قد غمرتهن النشوة لمرآها .

لقد تماّست جباههنّ الوضاحة ، ولقد كان في وسع المرء ان يزعم أنها كانت ثلاثة رؤوس تحيط بها هالة من النور .

وصاحت السيدة تيناردييه :

— « ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! أنظري اليهن ! ان المرء

ليقسم انهن ثلاث أخوات . »

واغلب الظن ان تلك الكلمات كانت الشرارة التي انتظرتها الام الاخرى . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحدقت اليها قائلة :

— « هل لكِ ان تحتفظي لي بابنتي ? »

وأتت السيدة تيناردييه بحركة من حركات الدهش التي لا تفيد ايا من القبول أو الرفض .

واردفت والدة كوزيته :

— « انتِ ترين انني لا استطيع ان أصحب ابنتي الى الريف . إن العمل يحظّر ذلك . إني لن اجد عملاً ، هناك ، ما دامت طفلتي معي . إنهم على غاية السخف في تلك الديار . إن الرب هو الذي جعلني امرّ بفندقك . وحين وقعت عيناي على ابنتيك الصغيرتين ، البالغتي الجمال ، والنظافة ، والسعادة ، غلبني التأثر . لقد قلت : ههنا أمّ طيبة . إنهنّ سوف يكنّ مثل ثلاث أخوات . وعندئذ فلن أغيب طويلاً . هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ? »

فقالت السيدة تيناردييه :

— « ينبغي ان افكر . »

— « سوف اقدّم اليك ستة فرنكات في الشهر . »

وهنا سُمِع صوت رجل من داخل المطعم الحقير :

— « لا نرضى بأقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر مدفوعة مقدماً . »

فقالت السيدة تيناردييه :

— « ستة في سبعة يساوي اثنين واربعين . »

فقالت الامّ : « سوف اعطيكما ذلك . »

فأضاف صوت الرجل :

« وخمسة عشر فرنكاً إضافية مقابل النفقات الاولى . »

فقالت السيدة تيناردييه : « اصبح المجموع سبعة وخمسين فرنكاً . »
وفي غمرة من هذه الارقام غنت على نحو غير مبين :

« يجب ، يجب ، قال احد الهاربين ... »

فقالت الأم : « سوف ادفعها اليكما . إن عندي ثمانين فرنكاً . وهذا سوف يترك لي ما يكفيني للذهاب الى الريف اذا مشيت على قدميّ . ولسوف اكسب شيئاً من المال هناك ، وحالما يجتمع لديّ مبلغ قليل ارجع الى هنا لآخذ حبيبتي الصغيرة . »

واستأنف صوت الرجل الكلام :

– « هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي . »

– « طبعاً ، إن عند حبيبتي المسكينة ملابس . لقد أدركت جيداً أنه زوجك . وملابس جميلة ايضاً ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من كل شيء دزينات ، وفساتين حريرية كفساتين السيدات . إنها هناك في جراب سفري . »

فامرع صوت الرجل الى القول :

– « يجب ان تعطينا هذا كله . »

فقالت الامّ : « طبعاً ، سوف اعطيكما اياه . وهل يُعقل ان اترك ابنتي عارية ؟ »

وبرز وجه صاحب الفندق .

وقال : « هذا حسن . »

وخُتمت المساومة . وأمضت الأم ليلتها في الفندق ، ودفعت ما طُلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عَقْد جرابها الذي تقلّص بعد ان جرّد من ملابس الطفلة وغدا خفيفاً ، ومضت لسبيلها في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكاً . إن هذه الهجرات ونظائرها

تنظم في هدوء ، ولكنها مفعمة بالقنوط .

والتقت احدى جارات امرأة تيناردييه هذه الام فيما هي تمضي لسبيلها . حتى اذا رجعت قالت :

– « لقد رأيت اللحظة امرأة تبكي في الشارع وكأن قلبها يتمزق . »

وحين مضت والدة كوزيت قال الرجل لزوجته :

– « إن في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند المالي البالغة قيمته مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق أداؤه غداً . كنت في حاجة الى خمسين فرنكاً . أتدرين ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يفد علي ، وأن وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان تحرر بحقي ؟ لقد مثلتِ انتِ وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران تمثيلاً جيداً .

فقالت المرأة : « من غير أن نعرف ذلك . »

٢
رسم إعدادي أول لوجهين مبهمين

كانت الفأرة التي القي القبض عليها ضعيفة البنية جداً ، ولكن القطة ابتهجت لاصطيادها مجرد فأرة مهزولة .

من كان تيناردييه هذا وزوجته ؟

سوف نجتزيء بكلمة نقولها هنا . وفي ما بعد سنكمل الصورة .

كانا ينتسبان الى تلك الطبقة النغلة المؤلفة من اناس أجلاف ارتفعت بهم الايام ، ومن أناس اذكياء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض خطيئات الثانية ، الى رذائل الأولى كلها تقريباً ، من غير أن تملك حوافز

العامل الكريمة ، وسجايا البورجوازيّ الباعثة على الاحترام .

كانا من تلك الطبائع القزمة التي اذا اتفق ان مسّتها نارٌ كالحمة أمست ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المرأة ، في اعماقها ، بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في أعماقه ، وغداً محتالاً . وكان كلاهما ، في اعلى الدرجات ، قادراً على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن تحقيقه في اتجاه الشرّ . إن ثمة نفوساً تزحف مثل عقرب الماء * زحفاً موصولاً نحو الظلمة ، راجعةً القهقرى في الحياة ، بدلاً من ان تتقدم فيها ، مصطنعة ما تمّ لها من تجارب لكي تزيد تشوّهها الذاتي ، فكل يوم يمر بها يجعلها اكثر سوءاً ، واكثر انحداراً نحو الرذيلة المتكاثفة . هذا الرجل وهذه المرأة كانا من اصحاب هذه النفوس .

لقد كان الرجل على الخصوص خليقاً به ان يحير المتمكن من علم الفراسة . اننا لا نحتاج الى اكثر من النظر الى بعض الناس لكي نرتاب فيهم ، ذلك لأننا نستشعر ظلمة نفوسهم من ناحيتين . انهم قلقون بالنسبة الى ما فاتهم ، مهدّدون بالنسبة الى ما يستقبلهم . إنهم لغز من الالغاز . فنحن لا نستطيع بعدُ ان نقرر ما قد فعلوه باكثر مما نستطيع ان نقرر ما سوف يفعلونه . إن الظلمة التي في نظراتهم تشي بهم . فاذا ما سمعناهم ينطقون بكلمة ، او رأيناهم يومئون ايماءة وقعنا على لمحات اسرار مجرمة في ماضيهم ، والغاز قاتمة في مستقبلهم .

وكان تيناردييه هذا ، اذا شئنا ان نصدقه ، جندياً ، برتبة رقيب كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قد ابلى بلاءً حسناً في ما يبدو . ولسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه هذا . والواقع ان اللافتة التي تعلو باب فندقه ترمز الى احدى مآثره الحربية . لقد رسمها بريشته ، إذ كان يعرف شيئاً من كل شيء ، ويعرفه على نحو رديء .

---

* او الحيوان المائي المعروف بالسرطان .

كانت تلك الحقبة هي الحقبة التي ألهبت فيهـا الرواية الكلاسيكية العتيقة (التي كانت من قبل « كليلي » * فهبطت حتى امست « لودويسكا » ، والتي احتفظت بنبلها ؛ ولكنها امعنت في الابتذال يوماً بعد يوم ، هابطة من مدموزيل دو سكوديري الى مدام بارتيليمي هادو ، ومن مدام دو لا فاييت ** الى مدام بورنون مالارم) نفوسَ بوّابات باريس المحبّة ، واحدثت بعض الاضرار حتى في الضواحي . وكانت السيدة تيناردييه على قدر من الذكاء يكفي بشقّ النفس لتمكينها من قراءة هـذا الصنف من الروايات . لقد اغتذت بها . لقد اغرقت فيها عقلها الصغير كله . وهذا ما منحها منذ صباها الاول ، وحتى بعد ذلك بقليل ، ضرباً من النزعة التأملية تجاه زوجها ، وكان نذلاً على شيء من العمق ، خليعاً لا تكاد ثقافته تبلغ حدّ علم النحو ، جلفاً ومصقول الحاشية في آن معاً ؛ اما في القضايا « العاطفية » — وكان من قراء بيغو لوبران *** — و « في كل ما يتصل بشؤون الجنس » — كما عبّر برطانته — فكان احمق حقيقياً ، احمق صرفاً غير مشوب . وكانت زوجته اصغر منه باثنتي عشرة سنة او خمس عشرة سنة . وفي فترة متأخرة ، عندما بدأ شعر الباكين الرومانتيكيين يشيب ، وطلقت الـ « ميجير » **** الـ « باميلا » ***** ، انتهت مدام تيناردييه الى ان تصبح مجرد أمرأة بدينة شريرة تذوّقت الروايات الحمقـاء . والحق ان الناس لا

* Clélie رواية من تأليف الاديبة الفرنسية مادلين سكوديري (١٦٠٧ — ١٧٠١) .

** Madame de La Fayette اديبة فرنسية (١٦٣٤ — ١٦٩٣)

*** كاتب فرنسي وضع عدة روايات داعرة وقد ورد ذكره سابقاً .

**** Mégère احدى آلهات الجحيم الثلاث ، رمز الحسد والكراهية . ويقصد بها هنا المرأة الحزقة الشريرة .

***** Paméla رواية للكاتب الانكليزي ريكاردسون (١٦٨٩ — ١٧٦١) وهي قصة خادمة شابة تنجيها الفضيلة من جميع ما نُصب لها من الاشراك . وقد جعلها المؤلف هنا نموذجاً للرواية الاخلاقية .

يقرأون الحاقات من غير ان يمسهم الضرر . فكان من عاقبة ذلك ان سميت ابنتها الكبرى ايبونين ، وان ابنتها الصغرى كانت على وشك ان تسمى غولنار ، ولكن انحرافاً سعيداً سببته رواية من تأليف دوكري دومينيل * جعلها لا تسمى إلا آزيلما .

واياً ما كان فلنقل بالمناسبة إن كل شيء لم يكن مضحكاً وسطحياً في هذه الحقبة الغريبة التي نُلمع اليها ، والتي نستطيع ان ندعوها فوضى أسماء المعمودية . فالى جانب العنصر الرومانتيكيّ الذي اشرنا اليه كان ثمة العَرَض الاجتماعي . فليس من النادر ، اليوم ، ان نرى صبيةً بقّارين يدعون آرثور ، وألفرد ، أو آلفونس ؛ وان نرى فيكونتات – اذا كان لا يزال ثمة بقية من هؤلاء – يدعون توماس ، وبطرس ، أو جاك . وهذا التغير الذي يخلع الاسم « الأنيق » على ابن السوقة ، والاسم الريفي على ربيب الارستقراطية ، ليس غير اندفاعة من اندفاعات الموج في مدّ المساواة . ان تسرّب الايحاء الجديد الذي لا يقاوَم ناشطٌ هناك نشاطه في كل شيء آخر . وان تحت هذا التنافر الظاهري لحقيقةً ضخمة وعميقة : الثورة الفرنسية .

٣
القبرة

ان تكون المرء شريراً لا يكفل له الرخاء ؛ وآية ذلك ان المطعم الحقير لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعه والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين

* Ducray - Duminil روائي شعبي فرنسي (١٧٦١ – ١٨١٩)

السبعة والخمسين . وفي الشهر التالي كانا لا يزالان في حاجة الى المال ، فحملت المرأة ملابس كوزيت الى باريس حيث رهنتها في مـــون دو بييتيه مقابل ستين فرنكاً . حتى اذا نفد هذا المبلـــغ شرع تيناردييه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتها الى طفلة يؤويانهـا صدقـــة واحسـاناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها أيّ ملابس ، فقد ألبساها قمصان طفلتيها القديمة وتنانيرهما العتيقة ، يعني انهـما البساها أسمالاً بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطعمتاها فضلاتها وفضـــلات بنتيها — أطعمتاها على نحو أحسن قليلاً من الكلب ، وأسوأ قليلاً من الهرة . كان الكلب والهرة رفيقي مائدتها الدائمين . لقد أكلت كوزيت معهما تحت الطاولة في صحن خشبي مثل صحنيهما .

وكانت أمها ، التي استقرت كما سوف نرى بعدُ في مونتروي سور مير ، تكتب اليها ، او على الاصح تكلف احداً بالكتابة اليها ، مرةً كل شهر ، مستطلعةً انبـاء ابنتها . وكان تيناردييه وزوجته يجيبانهـا جواباً لا يتغير :

— « كوزيت في حال ممتازة جداً . »

وتقضّت الاشهر الستة الأولى . وأرسلت الأم سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هـذا المبلغ على نحو نظاميّ شهراً إثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تيناردييه : « إن هـــذا لثمن رائع حقاً ! ايّ شيء تنتظر منـا ان نفعله مقابل فرنكاتها السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالباً باثني عشر فرنكاً . ووافقت الأم — وهي التي أقنعها صاحب المطعم وزوجته بأن ابنتها سعيدة مسرورة — وارسلت اليها الفرنكات الاثني عشر .

ان ثمة بعض الطبائع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غـــير أن تكره من ناحية اخرى . كانت تيناردييه الأم هـذه تحبّ طفلتيها الصغيرتين حباً جماً ، ولقد حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

وانه لمن المؤسف ان يفكر المرء بأن حب امّ من الامهات يمكن ان تكون له مظاهر بشعة . فعلى الرغم من ضيق المجـــال الذي احتلته كوزيت في منزلها ، فقد تراءى لها ان هذا المجال الصغير قد انتُزع من طفلتيها ، وان هذه الغريبة الصغيرة قد أنقصت الهواء الذي تتنفسه ابنتاها . وكانت لهذه المرأة ، شأن كثيرات من نوعها ، جمهرةٌ من الملاطفات ، وجمهرة من الضربات والشتائم تنفقهـــا كل يوم . ولو لم تكن كوزيت ضيفة عليها اذن لكان من الثابت ان تتلقى ابنتاها - برغم حبها العظيم لهما - ذلك كله . ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحوّلت الضربات الى جسدها هي . وهكذا لم يُصِب ابنتيها غير الملاطفات . فما ان تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابلٌ من ضروب العقـاب القاسي الذي لا تستحقه . كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئاً عن هـــذا العالم ، او عن الله ، تُسام الخسف عـــلى نحو موصول ، وتُقرّع ، وتعاقب ، وتُضرب ، ثم ترى الى جانبها طفلتين صغيرتين تعيشان وسط هالة من المجد !

لقد أساءت المرأة الى كوزيت وخاشنتها . وكذلك فعلت ايبونين وآزيلما ايضاً . فليس الاطفال في هذه السن إلا نسخاً طبق الاصل عن الأمّ . إن القَطْع أصغر ، ليس غير .

وانقضى عام ، وتبعه ثانٍ .

وقال الناس في القرية :

- « ما اطيب تيناردييه وزوجته ! إنهما ليسا غنيين ، ومع ذلك فهما ينشّئان فتاة مسكينة تُركت عندهما ! »

لقد حسبوا أن أمّ كوزيت نسيتها .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفيّ ان الطفلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان امها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكاً في الشهر قائلاً ان « المخلوقة » كانت تنمو

وانها « تسرف في الأكل » ، مهدداً بطردها .

وصاح : « انها لن تخدعني ! سوف اسحقها وطفلتها في قلب المكان الذي تختبيء فيه ! يجب ان احصل على مبلغ اكبر . »

ودفعت الأم خمسة عشر فرنكاً .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضاً .

كانت كوزيت اول الامر « تيس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب الفتاتين الأخريين . ولكن ما ان اخذت تنمو قليلاً ، يعني قبل ان تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وقد يقول قائل : خمس سنوات ؟ هذا غير محتمل الوقوع . وأسفاه ! انه صحيح . إن العذاب الاجتماعي يبدأ في مختلف الاعمار . ألم نشهد منذ قريب محاكمة دومولارد ، ذلك اليتيم الذي امسى قاطع طريق ، والذي وجد نفسه وحيداً في هذا العالم فحاول – وهو بعدُ في الخامسة من العمر كما تقول الوثائق الرسمية – أن « يكسب قوته فسرق ؟ »

وكُلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكنس الغرف ، والفناء ، والشارع ، وغسل الاطباق ، بل وبحمل الاثقال . واستشعر تيناردييه وزوجته ان حقهما في معاملتها على هذا النحو يتعاظم بعد ان بدأت الأم ، المقيمة ابداً في مونتروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد استحقت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الأم الى مونفيرماي ، عند نهاية هذه السنوات ، اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاحة ممعنة في النضارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الآن مهزولة شديدة الشحوب . كانت تطفو على وجهها انطباعة قلقة مضطربة . وكان تيناردييه وزوجته يقولان : « خبيثة ماكرة ! »

كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها قبيحة .

ولم يبق لها غير عينيها الجميلتين ؛ وكان النظر اليهما يوقع الالم في النفس لانهما بدتا ، بسبب من اتساعهما ، وكأنهما تزيدان في مقـــدار حزنها وكآبتها .

وكان مما يمزق القلب ان ترى ، في ايام الشتاء ، الى هذه الطفـــلة البائسة التي لم تتجاوز السادسة ، ترتجف تحت الخرق البالية التي كانت ذات يوم فستاناً من الخام ، كانسةً الشارع قبل مطلع الفجر بمكنسة ضخمة تحملها بيديها الصغيرتين الحراوين ، وقد ترقرقت الدموع في عينيهـــا الواسعتين .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبّرة . ان الناس ليحبون الاسماء المجازية ، ومن هنا سرّهم ان يخلعوا هذا الاسم على تلك المخلوقة الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتعدة ، المروّعة ، المرتجفة ، المستيقظة كل صباح قبل اهل المنزل جميعاً واهل القرية جميعاً ، العاملة ابداً في الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبّرة المسكينة لم تنطلق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .

الكتاب الخامس

الانحدار

١
قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود

ما الذي حلّ ، في غضون ذلك ، بهذه الأم التي بدت — وفقاً لما ذهب اليه أبناء مونفيرماي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ اين كانت ؟ ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عند تيناردييه وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور مير .

وانما كان ذلك ، كما نذكر ، في عام ١٨١٨ .

كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثنتي عشرة سنة تقريباً ،

وكانت معالم مونتروي سور مير قد تغيرت . ففيما كانت فانتين تنحدر في بطء من شقاء الى شقاء كان مسقط رأسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار .

فمنذ سنتين تقريباً تمّ في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة .

وهذا الحدث ذو خطر . ونحسب ان من الخير ان نروي خبره ، بل ان نرويه بأحرف ضخام .

فمن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سو مير الخاصة تقليد الزجاج الانكليزي الملوّن والخرز الالماني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو أزمة موصولة بسبب من غلاء المواد الاولية على نحو كان له اثره في اليد العاملة . حتى اذا رجعت فانتين الى منتروي سور مير كان تغيّر كامل قد طرأ على انتاج هذه « البضائع السوداء » . ذلك بأن رجلاً مجهولاً كان قد استقرّ في تلك البلدة ، اواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان يحِلّ صمغ اللّك * ، في تلك الصناعة ، محل صمغ الصنوبر . اما في عمل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد فتل احد طرفي المعدن على الآخر بدلاً من لحمها بالالتحام .

واحدث هذا التغير البالغ الضآلة ثورة في الصناعة .

ان هذا التغير البالغ الضآلة قد خفض نفقات المواد الاولية تخفيضاً هائلاً ، وهذا ما جعل من الممكن ، اولاً ، رفع اجرة اليد العاملة — وفي ذلك فائدة للبلاد — وثانياً ، تحسين الانتاج — وفي ذلك خدمة للمستهلك — وثالثاً بيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة اضعاف الربح القديم — وفي ذلك كسب للمنتج .

وهكذا نشأت عن هذه الفكرة نتائج ثلاث .

وفي اقلّ من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنياً ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنياً ، وهذا أحسن . كان غريباً

---

* اللّك : نبات يتخذ منه نوع من الصمغ .

عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن اصله شيئاً ، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل .

وتحدّث الناس بأنــه وفد على المدينة وليس معه غــير دراهم معدودات – بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .

ومن رأس المال الضئيل هذا ، المسخّر في خدمة فكرة عبقرية ، المثمّر بالنظام والروية ، أستمدّ ثروة لنفسه ، وثروة للمنطقة كلها .

وعند وصوله الى مونتروي سور مير لم يكن عنده غير ثياب العامل ، وعادات العامل ، ولغة العامل .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مــير على هذا النحو الغامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصاً شوكية ، اندلعت نار هائــلة في دار البلدية . فاقتحم هذا الرجل النار ، وأنقذ – مغامراً بحياته – طفلــين ظهر بعدُ انهما ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احدٌ قط في ان يسأله إبراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

٢

مسيو مادلين

كان رجلًا في نحو الخمسين ، تبدو عليه سيما المستغرق في العمل ، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في مستطاع المرء ان يقوله عنه .

وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تمّ لهذه الصناعة من تقدم سريع أسبغ هو عليه حياة رائعة جداً ، مركزاً تجارياً ذا خطر . لقد اخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتدّ الرغبة في الخرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هــذا

الميدان ، كلاً من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية السنة الثانية ، من ان ينشيء مصنعاً ضخماً يحتوي على معملين واسعين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . كان في مبسور ابا جائع ان يطرق ابواب هذا المصنع ، وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملاً وخبزاً . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة ، ويتطلب فيهم جميعاً الامانة والاخلاص . لقد قسم المصنع لكي يفصل ما بين الجنسين ، ولكي يحتفظ النسوة والفتيات باحتشامهن . وفي هذه المسألة ، كان صلباً لا يلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط . وانما زاده تعلقاً بهذه النسوة ان المزالق الاخلاقية كانت موفورة في مونتروي سور مير بوصفها مقرّ حامية من الحاميات العسكرية . واخيراً كان قدومه نعمة ، ووجوده فضلاً من الله . فقبل ان يصل الاب مادلين الى المنطقة كانت ذابلة كلها ، اما الآن فقد غدا كل ما فيها ناضراً بحياة العمل الصحية . لقد أوقع الدم الناشط الدفء في كل شيء ، وتسرّب الى كل شيء . وامحت البطالة والبؤس ، فلم تبق ثمة جيب قائمة الى حد يجعلها خلواً من بعض الدراهم ، ولم يكن ثمة مأوى فقير الى حدّ يجعله حراماً على شيء من البهجة .

وشغّل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير : « كن رجلاً أميناً ! » ، « كوني امرأة أمينة ! »

وفي غمرة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه ومحوره ، جمع الاب مادلين ثروته . ولكن ذلك لم يبدُ همّهُ الرئيسي ، وهي ظاهرة غريبة جداً بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الآخرين كثيراً ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلاً . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفاً انه يملك ستمئة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكنْ قبل ان يدّخر هذه الستمئة والثلاثين الف

فرنك كان قد انفق اكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء .

كانت اوقاف المستشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سُرُر إضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احداهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلّمَيْن من جيبه هو ضعف راتبهما الحكومي المزيل . وذات يوم قال لجار له استغرب هذا الوضع : « ان أسمى موظفَيْن في الدولة هما المرضة والمعلم . » وشيّد على نفقته الخاصة ملجأ للعاجزين ، وهي مؤسسة تكاد تكون غير معروفة في فرنسة ، ورصد اموالاً للعمال الشيوخ والمعتلين . وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حيّ جديد نما نمواً سريعاً ، وانتظم كثيراً من الأسر الفقيرة . وهناك اسس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام ، قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين رأوه يُغني البلاد قبل ان يُغني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم : « هذا الرجل طموح . » ولقد بدا هذا اكثر احتمالاً ، اذ كان تقياً ، حريصاً على اداء الطقوس الكنسية ، الى حد ما ، وهو شيء كان يُستقبل في ذلك الزمن بكثير من الرضا . كان يمضي يوم الاحد ، على نحو نظامي ، لسماع القداس . فما هي الا فترة قصيرة حتى استشعر نائب المنطقة - وكان يستروح المنافسة في كل مكان - شيئاً من القلق بسبب من تديّن مادلين . وكان هذا النائب - العضو في هيئة الامبراطورية التشريعية - يقول بالآراء الدينية التي نادى بها احد آباء رهبانية الأوراتوار ، ويُعرف باسم فوشيه دوق اوترانت ، وكان صنيعته وصديقه . وفي المجالس الخاصة ، كان هذا النائب يسخر من الله سخريةً خفيفة . ولكنه ما إن رأى الصناعيّ الموسر ، مادلين ، يشهد القداس غير الصارخ في الساعة السابعة حتى

استشفّ فيه مرشحاً من مرشحي المستقبل المنافسين له على النيابة ، وعزم على أن يبزّه . فاصطحب كاهناً يسوعياً معرّفاً ، وشهد وإياه القداس الصارخ وصلوات العصر او الغروب . وكان الطموح في ذلك العهد ، كما يدل المعنى المباشر لهذه اللفظة ، ضرباً من سباق يُجرى بين الفرسان في حقل كثير العوائق والعقبات . وافاد الفقراءُ ، وأفاد اللهُ ايضاً ، من هذا الهول ؛ ذلك بأن النائب النبيل تبرّع بنفقة سريرين اضافيين من سرر المستشفى ، وهكذا أصبح عددها اثني عشر .

واخيراً ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من ايام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديراً للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة ، فقد اصدر الملك امراً بتعيينه عمدة لبلدة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الوافد الجديد بأنه « رجلٌ طموح » إلا ان اغتنموا هذه الفرصة – التي يتمناها كل انسان – ليصيحوا في حماسة بالغة :

– « أرأيتم ! ألم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبأ . وما كان النبأ كاذباً . فبعد بضعة ايام نُشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها – ١٨١٩ – وجدت نتائجُ الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكاناً لها في المعرض الصناعي . وبناء على تقرير لجنة المحكّمين منح الملك مخترعها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! وإذن فقد كان يطمع في وسام جوقة الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . وألقى الطيبون من الناس سلاحهم قائلين :

— « وعلى اية حال ، فهو لا يعدو أن يكون مغامراً ! »

كانت البلدة مدينةً لهذا الرجل كثيراً ، كما قد رأينا ، وكان الفقراء مدينين له بكل شيء . كان نافعاً الى درجة اكرهتهم كلهم على إجلاله ، وكان دمثاً الى درجة جعلتهم كلهم يجمعون على حبه . وكان عماله ، على الخصوص ، يحبونه حتى العبادة ، وكان هو يتقبّل حبهم هذا بضرب من الوقار الكئيب . وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم « المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ أهل المدينة يدعونه « مسيو مادلين » . اما عماله ، واما الاطفال فظلوا يدعونه « الاب مادلين » ؛ وكان وجهه يشرق دائماً بابتسامة ، لدن سماعه هذا النداء . وطفقت الدعوات تنهال عليه كالمطر بعد ان اتخذ سبيله في مراقي العزّ والشهرة . وادعاه « المجتمع الراقي » . وفتحت صالونات مونتروي سور مير الصغيرة المتكلفة للعظمة ، الحسنة التنظيم ، والتي كانت في الايام الأولى محرّمة على الصانع الحقير — فتحت هذه الصالونات ابوابها على مصاريعها للمليونير . لقد قُدّم اليه الف عرض وعرض ، ولكنه رفضها كلها .

وهذه المرة ايضاً لم يكفّ اصحاب النفوس الطيبة عن لغوهم . « إنه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . إن احداً لا يعرف من اين أقبل . إنه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعات الراقية . وليس من الثابت بحال من الاحوال أنه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبذّر ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والاوسمة قالوا : « إنه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : « إنه بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتروي سور مير ، كانت خدماته التي قدّمها الى المنطقة ساطعةً جداً ، وكانت رغبة السكان كلهم إجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة

للمدينة . ورفض كرةً اخرى . ولكن الحافظ لم يقبل رفضه ذاك ، ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرّع اليــه الناس في الشوارع ، وكان الالحاح شديداً الى درجة حملته آخر الأمر على الاذعان . ولقد لاحظ القوم ان الذي دعاه الى القبول اكثر من ايّ شيء آخر ، في ما يبدو ، تلك الصيحة التي توشك ان تكون غاضبة ، والتي أطلقتها من على عتبة بابها – في شيء من الحنق – امرأة من الطبقة الاكثر فقراً :

– « العمدة الصالح شيء مفيد . فهل انت خائفٌ من الخير الذي تستطيع أن تعمله ؟ »

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين قد أمسى مسيو مادلين ، وها قد غدا مسيو مادلين السيّد العمدة .

٣
اموال مودعة عند لافيت

وأياً ما كان ، فقد ظلّ بسيطاً شأنه في ايامه الاولى . كان ذا شعر اشيب ، وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، ومحيّا مفكر كمحيّـــا الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتمر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي سترة طويلة من قماش خشن ، مزرّرة حتى الذقن . لقد ادى واجباته بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشاً منعزلاً . كان يتحدث مع نفر قليل من الناس ؛ وكان ينفر من المجاملات ، فهو يمسّ قبعتــه تلك ويمضي لسبيله في غير اناة . كان يبتسم اجتناباً للكلام ، وكان يعطي ، اجتناباً للابتسام . وقالت النسوة عنه : « ياله مــــن دب طيب نافر من الناس ! » كانت متعته التمشي في الحقول .

كان يتناول طعامه وحده دائماً ، وامامه كتاب مفتوح يطالع ف
كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، فالكتاب صديق بارد ، ولكنه موثوق . واذ سمحت له ثروته المتعاظمة بمقـــدار اكبر من اوقات الفراغ ، فقد بدا وكأنه يفيد من هـذا الفراغ ، في تثقيف عقله . ومنذ ان وفد على مونتروي سور مير لوحظ ان لغتـه غدت اكثر صقالاً ، واحسن اختياراً ، وارقّ حاشية ، عاماً إثر عام .

وكان يحب ان يحمل في نزهاته ، بندقيةً ، ولكنه لم يكن يستعملها الا نادراً . حتى اذا اتفق له ذلك احياناً ، كان هدفه لا يخطيء ، الى حدّ مرّوع . إنه لم يقتل قط حيواناً غير مؤذٍ ، ولم يطلق النار قط على أيٍّ من صغار الطـير .

وعلى الرغم من أنه لم يعدْ شاباً فقد قيل إنه كان على قوة أسطورية . كان يمدّ يد العون الى كل من يحتاج اليها ، فيُقيل عثرة جواد كبـــا ، ويدفع عجلةً ساخت في الطين ، او يمسك بقرني ثور هـارب . وكانت جيوبه مملوءة بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيوبه فارغة مـــن النقود كلما رجع . فاذا اجتاز بقــرية من القرى لحق به الاطفال ذوو الاسمال البالية فرحين مبتهجين ، وتحلّقوا حوله مثل سرب مـــن الذباب .

وحدسَ القوم بأنه ينبغي ان يكون قد عاش ، قبـل ذلك ، في الريف ، فقد كان على علمٍ بضروب الاسرار النافعة يعلّمها للفلاحـين . لقد علّمهم كيف يقضون على عثّة القمح بان ينضحوا العنبر ، ويغسلوا فجوات ارضـــه ، بسائل الملح ، وكيف يطاردون سوس القمح بأن يعلّقوا في كل مكان — على الجدران وعلى السطوح ، في الحيطان الفاصلة وفي البيوت — زهرات الاورفيو . وكانت لديه وصفات لتحرير الحقول من وباء دود الحرير ، وسوسة الزرع ، ومن الكرسنّة ، وذيل الثعلب ، وجميع النباتات الطفيلية التي تعيش على القمح . ولقد حمى الارانب من

الفئران برائحة خنّوص * من خنـــانيص بلاد البربر وضعه هنـــاك ليس غير .

وذات يوم رأى بعض ابناء المنطقة منهمكـــين في اقتلاع القُرّاص فنظر الى كومة النبات المستأصلة ، والتي بدأ الجفاف يصيبها وقـال :

— « هذه ميتة . ولكن من الخير ان نعرف كيف نفيـد منها . فحين يكون القُرّاص صغيراً تكون اوراقه بقلاً ممتازاً . وحـــين ينمو يصبح ذا خيوط وألياف مثل القنّب والكتان . والنسـيج المصنوع من القرّاص لا يقلّ قيمة عن نسيج القنب . والقراص ، مفروماً ، يصلح طعاماً للطيور الداجنة . والقرّاص ، مسحوقاً ، يصلح طعاماً للماشيـة ذوات القرون . وبذرُ القرّاص ، ممزوجاً بعلف الحيوانات ، يخلع على جلودها بريقاً . وجذرهـــا ، ممزوجاً بالملح ، يحدث صِبغـاً اصفر جميلاً . وهو ، الى ذلك ، صائرة ممتازة نستطيـع ان نجزّها مرتـين في الموسم الواحد . وإلام يحتاج القرّاص ؟ الى قليـل من التربة ، والى لا عناية ، ولا حراثة . بيد ان بذوره تتساقط حالما تنضج ، ومن العسير جمعها . هذا كل ما هنالك . فاذا ما تجشمنا بعض العنـــاء ، أمسى القراص ذا غناء . واذا ما أهملناه ، اصبح مؤذياً . وعندئـذ نقتله . ما اكثر الرجال الذين يشبهون القراص ! »

وصمت لحظة ثم اضاف :

— « يا اصدقائي ، اذكروا هذا : ليس ثمة اعشاب رديئة ، وليس ثمة رجال ارديلء . ليس ثمة غير زرّاع ارديلء . »

وتعاظم حب الاطفال له لانه عرف كيف يعمل لعباً صغيرة فاتنة من القش ومن جوز الهند .

وكان اذا ما ما رأى باب كنيسة مجللاً بالسواد ، دخل . كان يلتمس الجنازة كما يلتمس غيره المعمودية . وكان ثكل الآخرين وأرزاؤهم تجذبه

* الخنوص : الخنزير الصغير .

بسبب من رقته البالغة . وكان يختلط بالاصدقاء اللابسين ثوب الحداد وبالأسر المتشحة بالسواد ، وبالكهنة المنتحبين حول نعش . لقد بدا سعيداً بأن يتخذ موضوعاً لافكاره من هذه التراتيل المزمورية المأتمية الحافلة برؤيا عالم آخر . وبعينين مرتفعتين الى السماء كان يصيخ في ضرب من التوق الى اسرار اللانهاية جميعاً ، الى هذه الاصوات الحزينة التي تُنشد عند حافة هاوية الموت المظلمة .

لقد قام بجمهرة من الاعمال الصالحة بمثل الكتمان الذي يُصطنع عادة في الاعمال الطالحة . كان يتسلل ، في موهن من الليل ، الى المنازل ، ويرتقي السلالم خلسة . فكم من بائس رجع الى علّيته فوجد بابها مفتوحاً بل مكسوراً في بعض الاحيان ، أثناء غيابه ، فصاح : « لقد كان ههنا لص ! » حتى اذا دخل العلية كان أول ما يراه قطعة من الذهب منسية على طاولة . إن « اللص » الذي كان هناك لم يكن غير الاب مادلين .

كان انيساً ومحزوناً . وكان الناس يقولون :

— « هو ذا رجل غني لا يشمخ بأنفه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه أمارات الرضا . »

وزعم بعضهم أنه شخصية غامضة ، واعلنوا ان أحداً لم يدخل قط غرفته التي كانت حجيرة ناسك حقاً — حجيرة مؤثثة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبجماجم الموتى . واكثر القوم من تكرار هذه المزاعم حتى لقد زارته ذات يوم بعض سيدات مونتروي سور مير الشابات ، الانيقات ، الماكرات وقلن له :

— « أيها السيد العمدة ، هل لك ان ترينا غرفتك ؟ لقد سمعنا أنها مغارة . »

فابتسم ، وقادهن في الحال الى هذه « المغارة » . وعوقبن عقاباً قاسياً على فضولهن . كانت غرفة مزوّدة على نحو ملائم جداً بأثاث مصنوع من خشب الماهوغاني ، البشع مثل سائر الاثاث المماثل ، وكانت

جدرانها مغطاة بورق لا يزيد ثمنه على اثني عشر « سو » . ولم يستطعن ان يرين شيئاً غير شمعدانين ذوَيْ شكل عتيق قائمين فوق الموقد، وقد ظهرا وكأنهما قضيان ، « اذ كانا موسومين بسمة رسمية »، وهي ملاحظة تنضح بروح هذه المدن الصغيرة .

ومع ذلك فما كفّ الناس عن القول إن احداً لم يدخل الى تلك الغرفة ، وإنها كانت كهف ناسك ، وموطن احلام ، وحفرة ، وقبراً .

وتهامس القوم ايضاً بأنه أودع مصرف لافيت مقادير « هائلة » من المال على شرط خاص يجعلها دائماً تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مسيو مادلين – كذلك اضافت هذه الهمسات – ان يشخص صباحاً الى مصرف لافيت ، فيوقّع ايصالاً ويحمل مليونيه الاثنين أو ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق أن « هذين المليونين الاثنين » أو « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكمشت ، كما سبق منا القول ، الى ستمئة وثلاثين الف فرنك ، أو ستمئة واربعين الف فرنك .

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٣

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

٤

مسيو مادلين في ثياب الحداد

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميرييل ، اسقف د .... « الملقب بمونسينيور بيينفينو » ، الذي توفي عابق الصيت بعبير القداسة في الثانية والثمانين من العمر .

وكان اسقف د ... — وهذه حقيقة أغفلت الصحف الاشارة اليها — قد فقد حاسة البصر قبل وفاته ، ببضع سنوات ، وقد ارتضى ذلك اذ كانت اخته الى جانبه .

ولنقل بالمناسبة لأن يكون المرء اعمى ومحبوباً هو من غير ريب شكل من اطيب اشكال السعادة واعجبها ، في هذه الارض حيث لا شيء كامل . لأن تكون الى جانبك على نحو موصول امرأة ، بل فتاة ، بل اخت ، بل كائنة فاتنة ، تقيم هناك لانك في حاجة اليها ولأنها لا تستطيع ان تحيا بدونك ؛ ولأن تعلمَ انك ضروري لا سبيل الى الاستغناء عنك في نظر من تحتاج اليها ؛ ولأن تستطيع في مختلف الظروف والاحوال ان تقيس حنانها بمقدار مثولها بين يديك ، وأن تقول لنفسك : « انها تقف وقتها كله لخدمتي لاني املك قلبها كله » ؛ ولأن ترى الفكر بدلاً من الوجه ؛ ولأن تستيقن من ولاء مخلوقة ما بعد إظلام الكون ؛ ولأن تتخيل حفيف ثوبها وكأنه حفيف اجنحة ؛ ولأن تسمعها تتحرك جيئة وذهوباً ، خارجةً من الغرفة ، داخلة اليها ، متحدثة ، مغنّية ، وان تفكر انك نقطة الدائرة في هذه الخطى ، وهذه الكلمات ، وهذه الاغنية ؛ ولأن تُظهر في كل دقيقة جاذبيتك الخاصة ؛ ولأن تستشعر انك تزداد سلطاناً كلما ازددت عجزاً ؛ ولأن تغدو في

الديجور ، وبسبب من الديجور ، النجمَ الذي يدور حوله هذا الملاك — لأن يتم لك ذلك كله مرتبة في السعادة يندر ان تدانيها مرتبة" . إن اسمى مراتب السعادة في الحياة إيماننا بأننا محبوبون ؛ محبوبون لذواتنا — وبكلمة افضل — محبوبون برغم ذواتنا . وهذا الايمان يتمتع به الاعمى . إنه يجد في الخدمة التي تسديها اليه ، في محنته ، ضرباً من الملاطفة والتدليل . اهو محروم من ايّ شيء ؟ لا . ان النور لا يعوز الموطن الذي يدخل اليه الحب . وايّ حب ؟ حبّ مؤسس كلهُ على الطهر . ليس ثمة عمى حيث يوجد يقين . ان الروح لتتلمّس في الظلام بحثاً عن الروح ، وإنها لتجدها . وتلك الروح المكتشفة المثبتة على هذا النحو هي امرأة . ان يداً لتسندك ، تلك هي يدها . وان شفتين لتمسّان جبينك مساً رفيقاً ، إنهما شفتاها . انك لتسمع نفساً يتردد قريباً منك ؛ إنها هي . ولأن تنعم بها كاملة ، من تقواها الى شفقتها ؛ ولأن لا تُترك وحدك البتة ؛ ولأن تسعد بذلك الضعف العذب الذي هو سنادك ؛ ولأن تتوكأ على تلك القصبة التي لا تلتوي ؛ ولأن تمسّ العنايةَ الالـٰهية بيديك وتتمكن من ان تضمها بين ذراعيك ؛ ولأن يصبح الله جلياً ملموساً — لأن تفوز بهذا كله لهوَ انخطاف ايّ انخطاف ! إن القلب — تلك الزهرة السماوية المظلمة — ليتفتح على نحو عجيب . وخليق بك ان لا تبيع هذا الظلام بالنور كله ! إن الروح الملاك هي هناك ، هي هناك الى الابد . واذا ما ابتعدت مرة فلكي ترجع ثانية . انها تنمحي كالحلم ، ثم تعاود الظهور كالحقيقة . انك تستشعر دفئاً يقترب ؛ إنها هناك . انك تفيض صفاءً ، وجذلاً ، ونشوة ؛ إنك لتشع وسط الظلمة . وألفٌ من ضروب الالتفات والعناية الصغيرة ! تلك التوافه التي هي هائلة في هذا الفراغ . ونبرات الصوت الانثوي الاكثر امتناعاً على الوصف التي تُصطنع لهدهدتك ، وتعويضك من الكون المتلاشي ! إنك تُلاطَف وتدلل من خلال الروح . انت لا ترى شيئاً ، ولكنك

تحس انك موضع حب عظيم . انها جنة من ظلام .

من هذه الجنة انتقل مونسينيور بيينفينو الى الجنة الاخرى .

وردّدت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح اليوم التالي برز مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوّق قبعته بعصابة حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحدثوا عنه في كل مكان . لقد بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم أنه كان على صلة ما بالاسقف الجليل . وقال المختلفون الى الصالونات : « انه يلبس السواد حداداً على اسقف د... » ورفع ذلك من مقام مسيو مادلين شيئاً كثيراً ، وأسبغ عليه فجأة ، ودفعة واحدة ، اعتباراً ملحوظاً في مجتمعات مونتروي سور مير الراقية . وفكرت « سان جيرمان » ، وهي ضاحية بالغة الصغر من ضواحي المنطقة ، في ان ترفع الحجْر عن مسيو مادلين ، نسيب الاسقف المحتمل . وادرك مسيو مادلين اي تقدم احرزه ، من خلال إجلال السيدات العجائز له على نحو متعاظم ، وابتسام السيدات الشابات في وجهه على نحو متزايد . وذات يوم تجرأت احدى السيدات الاكثر إمعاناً في الشيخوخة ، في ذلك الوسط الارستقراطي الصغير - وقد غلب عليها الفضول بحقّ الطعن في السن - على ان توجه اليه هذا السؤال :

- « ان سيد العمدة هو من غير ريب ابن عم اسقف د... المتوفى ، أليس كذلك ؟ »

فقال :

- « لا ، يا سيدتي . »

فأصرت العجوز الموسرة :

- « ولكنك تلبس ثوب الحداد عليه ؟ »

فاجابها قائلاً :

– « لقد كنت أيام شبابي ، خادماً في منزله . »

ولاحظ القوم كذلك انه كلما مر بالمدينة غلام صغير من غلمان سافوا يطوّف في البلاد باحثاً عن مداخن ينظفها ، كان العمدة يستدعيه ويسأله عن اسمه ، وينفحه بشيء من المال . وتحدّث غلمان سافوا بذلك ، ومرّ كثير منهم في تلك الطريق .

٥

بوارق غامضة في الافق

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة بادىء الامر اقوال خبيثة وافتراءات ضد مسيو مادلين – وهذا ما يحدث دائماً لاولئك الذين يلمعون بجهدهم الخاص . وما هي الا فترة قصيرة حتى تضاءلت هذه الافتراءات والاقوال الخبيثة فغدت هجاءً ، ثم انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائياً . لقد أمسى الاحترام كاملاً ، اجماعياً ، ودياً . ولقد انقضت آونة ، حوالى عام ١٨٢١ ، لُفظت خلالها هاتان الكلمتان : « السيد العمدة » في مونتروي سور مير بمثل النبرة ، تقريباً ، التي لُفظت بها هذه الكلمات : « صاحب السيادة الاسقف » في مدينة د ... عام ١٨١٥ . كان الناس يقبلون من مواطن تقع على مبعدة ثلاثين ميلاً ليستشيروا مسيو مادلين . لقد سوّى الخلافات ، وحال دون اقامة الدعاوى ، واصلح ما بين الاعداء . واختاره كل امرىء ، بطوعه ، قاضياً . لقد بدا وكأنه يحفظ كتاب القانون الطبيعي عن ظهر قلب . وفي مدى ست سنوات ، انتشرت عدوىً من الاجلال ، شيئاً بعد شيء ، في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلاً واحداً ليس غير ، في المدينة وما حولها ، اجتنب

هذه العدوى اجتناباً كاملاً . كان يعتصم باللامبالاة ، أياً ما كان العمل الذي يأتيه الاب مادلين ، وكأن اعتصامه ذاك كان بضرب من الغريزة ثابت رابط الجأش . وكان يلتزم اليقظة والحذر . والذي يبدو ، في الواقع ، ان في بعض الناس غريزة بهيمية حقيقية ، خالصة وكاملة مثل جميع الغرائز ، غريزة تخلق النفور والمشاركة الوجدانية ، وتفصل طبيعة عن طبيعة فصلاً سرمدياً ؛ غريزة لا تتردد ابداً ، ولا تتكدر أبداً ، ولا تعتصم بالصمت ابداً ، ولا تجيز لنفسها ان تخطيء ابداً ؛ غريزة صافية في غموضها ، منزّهة عن الضلال ، متغطرسة ، متمردة على جميع نصائح الفطنة ، وجميع تحليلات العقل ؛ غريزة تحذّر سراً الرجل الكلب من وجود الرجل الهرة ، والرجل الثعلب من وجود الرجل الاسد ، مهما تكن مصائرهم ومقاديرهم .

وفي كثير من الاحيان ، فيما يكون مسيو مادلين مجتازاً بأحد الشوارع ، هادئاً ، ودوداً ، محوطاً ببركات الجميع ، كان يتفق ان يلتفت خلفه فجأةً رجلٌ طويل القامة مُرتدٍ قبعة مسطحة وسترة رمادية ضارباً لونُها الى لون الحديد ومسلح بخيزرانة ضخمة ، فيُتبعه نظرَه حتى يتوارى عن البصر ، ويصالب ذراعيه ، هازاً رأسه بعض الشيء ، رافعاً شفته العليا بشفته السفلى حتى تحاذي أنفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تُترجم على هذا النحو : « ولكن من هو هذا الرجل ؟ أنا واثق من اني رأيته في مكان ما . وعلى اية حال ، فلستُ انا مغفلاً يُخدع به . »

وكانت هذه الشخصية ، الرصينة على نحو يكاد يكون مهدِّداً ، من اولئك الذين يسيطرون على انتباه المراقب ، حتى حين يلقاهم لقاءً خاطفاً .

كان اسمه جافير ، وكان رجلاً من رجال البوليس .

كان يقوم في مونتروي سور مير بمهمة مفتش الشرطة البغيضة ، ولكن النافعة . إنه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مديناً

بمنصبه لحماية مسيو شابوييه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغليز ، وكان آنذاك مديراً للشرطة في باريس . وحين أقبل جافير على مونتروي سور مور كان الصناعي الكبير قد مكّن لنفسه في المدينة ، وكان الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

إن لبعض رجال الشرطة سيما فريدة تستطيع ان تلمح فيها الخسة ممزوجةً بالسلطان . لقد كانت لجافير تلك السيما ، ولكنْ من غير خسة .

ونحن على مثل اليقين من أنه لو كان في ميسور العيون ان تطلع على النفوس اذن لتجلّت لنا في وضوح هذه الواقعةُ الغريبة : ان كل فرد من الانواع البشرية يطابق واحداً من انواع الخليقة الحيوانية . واذن لادركنا في يُسر هذه الحقيقة التي لا تخطر للمفكر الا بشق النفس : أنه ابتداءً من المحارة الى النسر ، ومن الخنزير الى النسر ، تجتمع الحيوانات كلها في الانسان ؛ وان كلاً منها ماثلٌ في احد الرجال ، بل إن عدداً منها لتلتقي في الشخص عينه في آنٍ معاً .

وليست الحيوانات غير اشكال من فضائلنا ورذائلنا هائمة أمام أعيننا . إنها اطياف نفوسنا المنظورة . ان الله يرينا اياها لكي يحملنا على التفكير . ولكن ، لما كانت الحيوانات مجرد ظلال ، فأن الله لم يجعلها قابلة للتربية بمعنى الكلمة الكامل . وما الداعي الى ذلك ؟ على حين أنه منح نفوسنا — بوصفها حقائق وبوصفها ذات اهداف خاصة بها — فطنةً وذكاء ، يعني انه منحها قابلية للتربية . ان في ميسور التربية الاجتماعية السليمة ان تستلّ من النفس دائماً ، كائنةً ما كانت ، الخيرَ الذي تنطوي عليه .

بيد ان هذا ينبغي ان يقال من وجهة النظر المحدودة الخاصة بالحياة الارضية الظاهرية ، ومن غير ما افتئات على المسألة العميقة المتصلة بالشخصية السالفة والمستقبلة للكائنات غير البشرية . إن الـ « أنا » المنظورة لا تخوّل المفكر ، بأية حال من الاحوال ، إنكار الـ « أنا » الخفية . وبعد هذا التحفظ نستطيع ان نمضي في سبيلنا .

والآن ، اذا سلّم المرء لحظةً معنا بأن في كل رجل نوعاً من انواع الخليقة الحيوانية فسوف يكون يسيراً علينا ان نصف ضابط الامن جافير .

ان فلاحي آشتوريش * يعتقدون بأن في كل مجموعة من الجراء التي تلدها الذئاب من بطن واحد كلباً تسارع الأمّ الى قتله ، خشيةَ ان يفترس الجراء الصغيرة عندما يكبر .

إخلع على ولد الذئب الكلبيّ هذا وجهاً بشرياً تحصل على جافير .

لقد وُلِدَ جافير في سجن . كانت امه عرّافة ، وكان ابوه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وحين ترعرع وقع في روعه أنه خارج نطاق المجتمع ؛ ويئس من امكان اجتياز ذلك النطاق في يوم من الايام . لقد لاحظ ان المجتمع يوصد ابوابه ، من غير ما رحمة ، في وجه طبقتين من الناس : اولئك الذين يعتدون عليه ، واولئك الذين يحرسونه . ولم يكن في ميسوره اكثر من ان يختار احدى هاتين الطبقتين ليس غير . وفي الوقت نفسه استشعر ان له اساساً لا سبيل الى وصفه من الصرامة والنظامية ، والنزاهة مُرْدَفاً بكراهية لا سبيل الى وصفها ايضاً لذلك العرق الغجري الذي ينتسب اليه . والتحق بالشرطة .

ووفق الى النجاح . وفي الاربعين من العمر غدا مفتشاً .

وكان قد استُخدم في صدر شبابه في سجون الجنوب الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقبل أن نمضي الى ابعد ، يحسن بنا ان نفهم ما الذي نعنيه بكلمتي « الوجه البشري » اللتين اصطنعناهما اللحظة في الكلام على جافير .

كان وجه جافير البشري يتألف من انف افطس ، ذي منخرين عميقين يحيط بهما شاربان ضخمان كثيفان يغطيان خديه جميعاً . وان المرء

---

* من مقاطعات الاندلس القديمة ، وهي بلاد جبلية تغطيها البيرينيه (جبال البرانس) الآشتوريشية .

ليأخذه شيء من الضيق حين يرى اولَ مرة الى هاتين الغابتين وهاتين المغارتين . وكان جافير اذا ما ضحك - وهو شيء نادر وفظيع - تنفرج شفتاه الرقيقتان وتنكشفان لا عن اسنانه وحسب ، بل عن لثاته ايضاً . وحول أنفه كانت ثنيّةٌ عريضة ووحشية كتلك التي تكون حول خطم الايّل او الظبي . كان جافير ، اذا ما غلبت عليه الصرامة كلباً من كلاب درواس الشرسة الطباع الغليظة الرأس ، وكان اذا ما ضحك نمراً . وفي ما عدا ذلك كان ذا رأس صغير ، وفكّين ضخمين ، وشعر يخفي الجبهة وينوس فوق الحاجبين ، وعبْسة بين العينين مركزية سرمدية كأنها نجم الغضب ، ونظرة قاتمة ، وفم مُطبَق مروّع ، وسيما من السلطة الضارية .

كان هذا الرجل مزاجاً من عاطفتين هما في ذاتهما بسيطتان وصالحتان جداً ، ولكنه كاد يجعلهما شريرتين بغلوّه في توكيدهما : احترام السلطة ، وكره التمرد . وفي عينيه لم تكن السرقة ، والقتل ، وجميع الجرائم غير اشكال من التمرد . لقد احاط كلّ ذي وظيفة في الدولة ، ابتداء من رئيس الوزراء حتى الناطور ، بضرب من الايمان الاعمى العميق . ولم يكن عنده ما يقدمه الى جميع اولئك الذين تخطّوا مرةً حدود القانون غيرَ الازدراء ، والكراهية ، والاشمئزاز . كان جازماً معمّماً لا محل عنده لاستثناء ما . فمن ناحية ، كان يقول : « الموظف لا يمكن ان يُخدع ، والقاضي لا يمكن ان يخطيء ! » ومن ناحية ثانية ، كان يقول : « اولئك قد فُقدوا نهائياً فليس الى شفائهم من سبيل . إن اياً خير لا يمكن ان يصدر عنهم » . كان يشايع مشايعةً كاملة اولئك المتطرفين الذين يعزون الى القانون البشري قدرةً ما ادريها على صنع ، او اذا شئت فقل على تحقيق ، الملكي من البشر ، والذين يضعون نظيراً لـ « ستيكس » * في ادنى المجتمع . كان رواقياً ، جدياً ، كالح الوجه . كان حالماً كئيباً ؛ وكان وضيعاً

* Styx في الميثولوجيا الاغريقية انه نهر في جهنم يطوّقها سبع مرات .

ومتشامخاً مثل جميع المتعصبين . كانت نظرته باردة ، وكانت ثاقبة مثل المخرز . كانت حياته كلها مفرّغةً في هاتين الكلمتين : اليقظة والمراقبة. لقد رسم خطاً مستقيماً عَبرَ اشدّ الاشياء التواءً في العالم . كان ضميره رهنَ جدواه ، وكان دِينه رهن واجباته ، وكان جاسوساً كما يكون غيره من الناس كاهناً . والويل لمن يُقدّر له ان يقع بين يديه ! كان خليقاً بـه ان يعتقل اباه لو فرّ من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ويشي بأمه اذا خالفت الحكم الذي يفرض عليها الاقامة في مكان بعينه بعد الخروج من السجن . وكان خليقاً به ان يفعل هذا بمثل ذلك الضرب من الارتياح الباطني الذي ينبثق من الفضيلة . كانت حياته حياة حرمان، وعزلة ، وانكار ذات ، وعفة ؛ حياة لا تعرف اللهو البتة . كانت هي الواجب العنيد ، الحقود ، المستغرق في عمله كشرطيّ كما استغرق الاسبارطيون في اسبارطة . ترصّدٌ لا يرحم ، واخلاص ضارٍ ، وجاسوس بوليسيّ قاسٍ رخاميّ القلب . كان هو بروتوس * متحداً بفيدوك . **

كان شخص جافير كله يمثل الجاسوس والمخبر . وكان خليقاً بمدرسة جوزيف دو ميستر *** الصوفية — التي كانت تُنعش في ذلك العهد ما كان يدعى الصحف الموالية للنظام القديم موالاةً عنيدة بالنظريات المجلجلة حول تكوّن العالم — ان تزعم ان جافير كان رمزاً . لم يكن في ميسورك ان ترى جبينه المحجوب تحت قبعته ، ولم يكن في ميسورك ان ترى عينيه الضائعتين تحت حاجبيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى

---

* لوسيوس جونيوس بروتوس الزعيم الروماني الكبير الذي قاد الثورة على الملوك التاركين واقام النظام الجمهوري في رومة . واذ تآمر اولاده لاعادة التاركين لم يتردد في محاكمتهم واصدار حكم الموت عليهم .

** Vidocq مغامر فرنسي (١٧٧٥ — ١٨٣٨) انتهى الى ان يصبح مديراً للامن العام بعد ان كان شريراً .

*** de Maistre فيلسوف ديني كان شديد التعصب لرومة ، شديد المداوة للثورة الفرنسية (١٧٥٣ — ١٨٢١)

ذقنه المدفونة في ربطة عنقه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى يديه المرتدّتين الى ردنيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى خيزرانته التي كان يحملها تحت سترته . ولكن ما ان تأزف الساعة حتى تقع عينك على جبين ضيّق ذي زوايا ، ونظرة مشؤومة ، وذقن مهدّدة ، ويدين هائلتين ، وهراوة ضخمة جداً ، وقد انبثقت كلها ، فجاءةً ، من هذا الشبح ، وكأنها تنبثق من كمين .

وفي لحظات فراغه ، التي كانت نادرة ، كان من دأبه ان يطالع على الرغم من كراهيته للكتب . ومن هنا لم يكن أمياً مئة بالمئة . ذلك ما كان يلاحظ ايضاً من بعض التوكيد في حديثه .

كان في نجوة من الرذيلة ، كما قلنا . فاذا ما استشعر الرضا عن نفسه أمتعها بقبضة من السعوط ، وهذا ما اثبت انه كان بشرياً .

ولسوف ندرك ، في غير عسر ، ان جافير كان « بعبعاً » لجميع افراد تلك الطبقة التي تدرجها احصاءات وزير العدل السنوية تحت عنوان: « اناس متشردون » . كان مجرد النطق باسم جافير كافياً لأن يحمل اولئك جميعاً على الفرار ، كأنّ وجه جافير يحجّرهم تحجيراً .

كذلك كان هذا الرجل الرهيب .

كان جافير اشبه بعين مسدّدةٍ أبداً الى مسيو مادلين . عين مفعمة بالشك والظنون . ولاحظ مسيو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يأبه به . إنه لم يوجّه أيما سؤال الى جافير ؛ إنه لم يلتمسه ولم يجتنبه . لقد تحمّل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الوطأة ، من غير ان يبدو منتبهاً لها . لقد عامل جافير كما عامل ايّ امرىء آخر ، في طمأنينة وكرم نفس .

ومن بعض الكلمات التي ندّت من جافير كان في ميسور المرء ان يحزر أنه استقصى على نحو سرّي — وبذلك الفضول الخاصّ بالعرق الذي ينتسب اليه ، والمنبثق من الغريزة اكثر من انبثاقه من الارادة —

جميعَ الآثار السالفة التي خلّفها الاب مادلين في مواطن اخرى . لقد بدا انه يعرف ، ولقد ذكر احياناً على نحو مغلّف ، ان شخصاً قد جمع بعض المعلومات في منطقة ما ، عن اسرة مفقودة ما . وذات يوم اتفق أن قال ، مخاطباً نفسه : « أحسب اني امسكت به ! » وطوال ثلاثة أيام ظل مضطرب البال لم ينطق بكلمة واحدة . لقد بدا وكأن الخيط الذي حسب انه امسك به كان مقطوعاً .

ولكن – وهذا هو التصحيح الضروري لما يمكن لمعنى بعض الكلمات ان يمثله حين تكون مطلقة اكثر مما ينبغي – ليس يمكن ان يكون ثمة ما هو معصوم عن الضلال ، حقاً ، في الكائن البشري ، وان خاصة الغريزة الرئيسية ، هي على وجه الضبط كونها قابلةً لأن تُزعَج وأن تُقتفى آثارها وان تُضلل . ولولا ذلك لكانت اسمى من الذكاء ، وعندئذ تكون البهيمة متمتعة بنور أصفى من ذلك الذي يتمتع به الانسان .

ومع هذا فقد بدا ان مسلكه العجيب ترك انطباعةً ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادثة .

٦

الاب فوشلوفان

كان مسيو مادلين يتمشى ذات صباح في احد ازقة مونتروي سور مير غير المعبّدة . فسمع صراخاً ، ورأى حشداً على مسافة قصيرة . فمضى الى هناك . كان رجل عجوز يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خرّ فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحداً من النفر القلائل الذين ظلوا اعداء لمسيو

مادلين في ذلك الحين . فحين وفد مادلين الى تلك المقاطعـــة ، كانت لفوشلوفان هذا ، وهو كاتبٌ عدلٌ وفلاح يكاد يكون امياً ، صناعـــة آخذة في البوار . لقد رأى هذا العاملَ البسيط يصبح غنياً ، على حين كان هو ـ الخبير العالم ـ يخطو نحو الافلاس . وملأه ذلك حسداً ، فبذل غاية جهده ، في جميـع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ؛ واذ لم يبق للرجل العجوز غير عربة وفرس ، واذ لم تكن له اسرة وأولاد ، فقد اضطرّ الى ان يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد ُكسرت فخذا الفرس ، فليس في ميسوره ان يتحرك . وعلق الرجل العجوز بين العجلات . وكانت سقطتهُ ، لسوء الحظ ، على نحو جعل الثقل كله منصباً على صدره . كانت العربة مثقلة بالاحمال ، وكان الاب فوشلوفان ُيطلق حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا سحبـــه ، ولكن على غير طائل . ان الجهد الذي يعوزه النظام ، والعون الذي تعوزه البراعة ، والدفعة التي لا يحالفها الصواب قد تجهز عليه . كان من المتعذر إنقاذه إلا برفع العربة من أدنى . وكان جافير ، الذي اقبـــل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الاثقال .

ووصل مسيو مادلين . وارتدّ الحشد في احترام .

وصاح فوشلوفان العجوز :

ـ « النجدة ! اليس فيكم فتىً صالح ينقذ حياة رجل عجوز ؟ »

والتفت مسيو مادلين الى حشود النظارة :

ـ « هل عند احد منكم رافعة ؟ »

فأجاب احد الفلاحين :

ـ « لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

ـ « ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

ـ « لقد طلبناها من اقرب مكان ـ من « فلاشو » حيث يوجد حداد

ولكن لن تصل قبل ربـع ساعة او اكثر ، على كل حال . »
فصاح مادلين :
— « ربـع ساعة ! »
كان المطر قد هطل الليلة البارحة ، وكانت التربة دمثـة لينة ، فاذا بالعربة تسيـخ في الارض ، اكثر فأكثر ، لحظة اثر لحظة ، واذا بها لا تزداد إلا ضغطاً على صدر السائق العجوز . كان واضحاً ان اضلاعه سوف تسحق في اقلّ من خمس دقائق .
فقال مادلين مخاطباً الفلاحين الذين كانوا يشهدون المأساة :
— « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربـع ساعة . »
— « يتعين علينا ان نفعل . »
— « ولكن الاوان يكون قد فات ! الا ترون ان العربة تسيـخ اكثر فاكثر ؟ »
— « لا حيلة لنا في ذلك . »
فاستأنف مادلين القول :
— « إسمعوا ! لا يزال ثمة متسع ، تحت العربة ، يمكّن رجلاً ما من ان يزحف الى هناك ويرفعها بظهره . وفي نصف دقيقة يكون في إمكاننا ان نخرج الرجل البائس . اليس فيكم رجل ذو قوة وشجاعـة ؟ خمس ليرات ذهبيـة لمن يتقدم ! »
ولم يتحرك احدٌ من افراد الحشد .
وقال مادلين :
— « عشر ليرات ذهبية ! »
وخفض القوم ابصارهم . وغمغم احدهم قائلاً :
— « ينبغي ان يكون المرء قوياً الى حد شيطاني . ومع ذلك فقد يعرّض جسده للسحق . »
فقال مادلين :

– « هيّا ! عشرون ليرة ذهبية ! »
وران الصمت ، شأنه في المرة الأولى .
وقال صوت :
– « ليست الرغبة هي التي تعوزهم . »
والتفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد رآه حين أقبل .
وتابع جافير كلامه :
– « إنها القوة . ينبغي ان يكون المرء رجلاً فظيعاً حتى يتمكن من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه .
ثم انه سدّد نظراته الى مسيو مادلين ، وأضاف مؤكداً كل كلمة من كلماته :
– « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قطّ غير رجل واحد قادرٍ على ان يفعل ما تدعو اليه . »
وارتعد مادلين .
واردف جافير ، في انطباعة لامبالية ، ولكنْ من غير ان يرفع عينيه عن مادلين :
– « كان واحداً من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »
فقال مادلين :
– « آه ! »
– « في السجن الخاص بهؤلاء ، في طولون . »
وغدا وجه مادلين شاحباً .
وفي غضون ذلك كانت العربة تسيخ شيئاً فشيئاً . وهدر الاب فوشلوفان وصاح :
– « إني أختنق ! إن اضلاعي تتحطم ! إيتوني برافعة اثقال ! إيتوني بأيّ شيء ! اوه ! »

واجال مادلين بصره في ما حوله :

– « ليس هناك اذن شخص يرغب في ان يكسب عشرين ليرة ذهبية ، وينقذ حياة هذا الرجل العجوز البائس ؟ »

ولم يتحرك احدٌ من النظارة . واستأنف جافير كلامه :

– « انا لم اعرف قط غير رجل واحد كان يقدر على ان يحلّ محلّ رافعة أثقال . كان هو ذلك المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . »

وصاح الرجل العجوز :

– « اوه ، إنها تسحقني ! »

ورفع مادلين رأسه ، فألفى عين جافير الصقرية ما تزال مسدّدة اليه . ونظر الى الفلاحين المسمّرين في اماكنهم ، وابتسم ابتسامة حزينة . ثم إنه ركع ، من غير ان ينبس بكلمة . وحتى قبل ان يجد الحشد متسعاً من الوقت لاطلاق صيحة ، أمسى تحت العربة .

كانت لحظة رهيبة من التوقع والصمت .

لقد شوهد مادلين ، منبطحاً على بطنه تقريباً تحت هذا الثقل المخيف ، يحاول مرتين ان يجمع ما بين مرفقيه وركبتيه ، ولكنْ على غير طائل . وصاح القوم :

– « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »

وقال فوشلوفان العجوز نفسه :

– « مسيو مادلين ! اذهب من هنا ! لا مفرّ من الموت ؛ انت ترى ذلك . دعني وشأني . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »

ولكن مادلين لم يجب .

وحبس النظارة انفاسهم . كانت العجلات لا تزال تسيخ في الارض ، وكان قد غدا شبه متعذر على مادلين ان يخرج من تحت العربة .

وفجأة ، أجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة في بطء ، وشرعت العجلات تخرج من مغارزها . وسُمع صوت مختنق يصيح :

« عجلوا ! ساعدوا ! »

كان صوتَ مادلين الذي بذل في تلك اللحظة جهداً نهائياً .

واندفعوا كلهم الى العمل . كان في التفاني الذي اظهره رجل فردٌ ما أوقع القوة والشجاعة في نفوس الجميع . وتعاونت عشرون ذراعاً على رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ونهض مادلين . كان شديد الشحوب ، برغم انه كان يتصبب عرقاً . وكانت ملابسه ممزقة يعلوها الطين . وبكى القوم جميعاً . وقبّل الرجل العجوز ركبتيه ، ودعاه « الربّ الطيب » . أما هو فكانت تعلو وجهه انطباعة من الألم المبتهج ، السماوي لا أقدر على وصفها . وسمّر عينه الهادئة على جافير الذي كان لا يفتأ يراقبه .

٧

فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس

كان فوشلوفان قد كسر رَضفته * اثر سقوطه تحت العربة . فنقله الاب مادلين الى دار للمرضى كان قد انشأها لعماله في بناء مصنعه نفسه ، وعهد في شؤونها الى اثنتين من راهبات المحبة . وفي صباح اليوم التالي وجد الرجل العجوز ، على الطاولة القائمة الى جانب سريره ورقة ، نقدية من فئة الالف فرنك ، وهذه الكلمة مكتوبةً بخط الاب مادلين :

« إني اشتري منك عربتك وحصانك . »

كانت العربة مهشمة ؛ وكان الحصان ميتاً . ونعمَ فوشلوفان بالشفاء . ولكن ركبته ظلت متصلبة . ووُفق مادلـين – من طريق توصيات حصل عليها من الراهبات ومن الكاهن – الى ان يمكّن الرجل العجوز

* الرضفة : عظام الركبة .

بستانياً في دير للراهبات في حيّ سان انطوان بباريس .

وبعد ذلك بقليل ، عُيّن مسيو مادلين عمدة . واولَ ما رأى جافير الى مسيو مادلين متقلداً الوشاح الذي يمنحه السلطة المطلقة على المدينة ، استشعر مثل تلك الرعدة التي يجد بكلب من كلاب درْواس ان يستشعرها حين يستروح ذئباً في ثياب سيده . ومن ذلك الحين انشأ يجتنبه ما استطاع . فاذا ما حتمت ضرورات المصلحة الاتصالَ بالسيد العمدة ، فليس من سبيل الى التفادي من ذلك البتة ، تحدّث اليه في احترام عميق .

وكان للازدهار الذي خلقه الاب مادلين في مونتروي سور مير — بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرنا اليها — مظهر آخر غير منظور ، ولكنه ليس اقلّ شأناً وخطراً . وهذا المظهر لا يخدع المرء عن نفسه ابداً . فحين يتألم السكان ، وحين يطلبون العمل فلا يجدونه ، وحين تصاب التجارة بالكساد ، يقاوم المكلف الضريبةَ ، بحكم الفاقة ، ويستنفد المُهَل القانونية ويتخطاها ، وتضطر الدولة الى ان تنفق اموالاً طائلة على جباية الضرائب وعلى تحصيلها عنوةً من المكلفين . اما حين يكون العمل موفوراً ، وحين يكون البلد غنياً سعيداً فعندئذ تُدفع الضرائب في يُسر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالاً كثيراً في جبايتها . وفي ميسورنا القول ان للفقر والثروة العامين ميزاناً لا يخطيء ، هو نفقات جباية الضرائب . وخلال سبع سنوات خُفّضت نفقات جباية الضرائب في اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، مما جعل كثيراً من المسؤولين — وبخاصة مسيو دو فيليل وزير المال آنذاك — يكثرون من الاشارة الى ذلك الاقليم والاستشهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احداً لم يتذكّرها . ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان اشبه بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخصت الى هناك ، فألحقت بالمصنع

الخاص بالنساء . كان العمل جديداً عليها ، تماماً ؛ فلم يكن في ميسورها ان تبرع فيه براعةً كبيرة ، ومن هنا لم توفق الى ان تفوز بأكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي . ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد حُلّت المشكلة ؛ فهي تكسب رزقها .

٨
مدام فيكتورنيين
تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفت لحظةً من الابتهاج . أيّ نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعاودتها الرغبة في العمل حقاً . لقد اشترت مرآة ، وابهجت نفسها بمشهد شبابها ، وشعرها الجميل ، وأسنانها الرائعة ، ونسيت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بأمكانيات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريباً . واستأجرت غرفة صغيرة ، واثثتها على ان تدفع نفقات ذلك من دخل عملها في المستقبل . وتلك بقية من بقايا عدم التنظيم الذي تعوّدته من قبل .

واذ لم يكن في وسعها ان تقول انها كانت متزوجة ، فقد عُنيت اشدّ العناية ، كما ألمعنا سابقاً ، بأن لا تتحدث عن بنتها الصغيرة .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردييه وزوجته بالمبلغ المتفق عليه تماماً . واذ كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحداً من الكتاب العموميين .

كانت تبعث اليها بالرسائل بين الفينة والفينة ؛ ذلك ما لاحظه

الناس . وشرعت العاملات في قسم النساء يتهامسن بأن فانتين « تكتب رسائل » وان « لها مسالك غريبة » .

وليس اقدر على ترصّد أعمال الناس من اولئك الذين لا تعنيهم تلك الأعمال . « لماذا لا يرجع هذا الرجل الا بعد الغسق ؟ » « لماذا لا يستغني عن مفتاحه يوم الخميس ابداً ؟ » « لماذا يسلك الطرق الفرعية دائماً ؟ » « لماذا تغادر هذه السيدة عربتها ، دائماً ، قبل ان تصل الى المنزل ؟ » « لماذا تبعث من يشتري لها دفتراً من ورق الرسائل على حين تمتلىء حقيبتها بذلك الورق ؟ » الخ . الخ . وهناك أناسٌ لا يحجمون — لكي يحلوا هذه الاحاجي التي هي برغم ذلك غير ذات اهمية البتة بالنسبة اليهم — عن ان ينفقوا مالاً اكثر ، ويضيعوا وقتاً اكبر ، ويجشموا أنفسهم عناءً اعظم من ذلك الذي يقتضيه القيام بعشرة اعمال صالحات ، يفعلون ذلك بالمجان ، لمجرد اللذة ، ومن غير ان يقبضوا ثمن فضولهم شيئاً غير الفضول . انهم يتعقبون هذا الرجل او تلك المرأة اياماً بكاملها ، ويقفون موقف الحرس ساعات بطولها في زوايا الشارع ، تحت ابواب الازقة ، في موهن من الليل ، وقد استبدّ بهم البرد واصابهم المطر ، ويرشون الرسل ، ويسكرون سائقي العربات والخدم ، ويدفعون الاجور الى احدى الخادمات ، ويشترون احد البوابين . من اجل ماذا ؟ للاشيء . بمجرد توقٍ الى النظر ، الى المعرفة ، الى النفاذ الى الاشياء . بمجرد رغبة عاومة في القال والقيل . وكثيراً ما يؤدي الكشف عن هذه الاسرار ، ونشر هذه الخفايا ، وبسط هذه الاحاجي في وضح النهار الى كوارث ، الى مبارزات ، الى افلاسات ، الى خراب أسر ، الى إشقاء نفوس ، ليغتبط اعظم الاغتباط اولئك الذين « اكتشفوا كل شيء » ، من غير ان تكون لهم مصلحة ما ، وبدافع من الغريزة ليس غير . شيء محزن !

وبعض الناس تأتيهم النزعة الى الشر من مجرد حاجتهم الى الكلام .

إن حديثهم ، وإن سمرهم في الصالونات ، وإن ثرثرتهم في غرف الانتظار هي اشبه ما تكون بتلك المواقد التي تستنفد الحطب على نحو سريع . انهم في حاجة الى مقدار كبير من الوقود . وما ذلك الوقود غير جارهم .

وهكذا أخضعت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فأن غير واحدة كانت تحسدها لشعرها الاشقر واسنانها البيضاء .

ولقد روى بعضهم انها كثيراً ما كانت تشيح بوجهها ، في المصنع ، وقد تحلّقت النسوة من حولها ، لكي تكفكف عبرة من عبراتها . تلك كانت اللحظات التي فكّرت فيها بابنتها . ومن يدري ، فقد تكون فكرت في تلك اللحظات بالرجل الذي سبق لها ان احبته ايضاً .

إنها لمهمة فاجعة تلك التي تقتضي المرء ان يقطع صلات الماضي القاتمة .

لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الاقل ، وتوجه تلك الرسالة الى العنوان نفسه دائماً ، وانها كانت تدفع اجرة البريد سلفاً . ووفقت النسوة الى معرفة العنوان : « مسيو ، مسيو تيناردييه ، صاحب فندق ، في مونفيرماي . » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل عجوز ساذج ما كان قادراً على ان يملأ معدته بالنبيذ من غير ان يُفرغ جيبه من الاسرار ، قد أغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الخمر . وبالاختصار ، فقد عُرف ان لفانتين ولداً . « ينبغي ان تكون من ذلك النوع من النساء » . ولقد وُجدت امرأة ثرثارة قصدت الى مونفيرماي ، وتحدثت مع تيناردييه وزوجته ، حتى اذا رجعت قالت :

— « لقد دفعت خمسة وثلاثين فرنكاً فوقفت على جلية الامر . لقد رأيت الطفلة بعيني ! »

وكانت المرأة الفضولية التي فعلت ذلك عجوزاً تدعى مدام فيكتورنيين ، الحارسة فضيلةَ كل انسان ، الموكلة بالمحافظة عليها . كانت مدام فيكتورنيين في السادسة والخمسين ، وكانت ترتدي قناع الشيخوخة فوق

قناع البشاعة . كان صوتها يرتجف ، وكانت اهواؤها متقلبة . والواقع ان هذه المرأة العجوز كانت في يوم من الايام شابة — شيء عجيب حقاً . وفي صباها ، وفي قلب عام ٩٣ ، تزوجت راهباً فرّ من الدير بقلنسوة حمراء ، وانتقل من البرناردين * الى اليعقوبيين ** . كانت مهزولة ، عنيدة ، فظة ، نزقة ، شائكة ، تكاد تكون سامة . انها لم تنس قطّ راهبها ، التي كانت ارملته ، والذي كان يعـــاملها في قسوة وغلظة . كانت ‹قرّاصاً فتّنه› ثوب راهب . وبعد سقوط نابوليون ، غدت متطرفة في التقوى ، وكان تطرفها هذا حماسياً الى درجة حملت الكهنة على ان يغفروا لها حكايتها مع الراهب . وكان لها مِلْك صغير ، اوصت به — في كثير من الطنين والرنين — لاحدى الرهبانيات الدينية . وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في قصر الاسقفية في آراسّ . إن مدام فيكتورنيين هذه ، اذن ، قصدت الى مونتفيرماي ، ثم رجعت قائـلة : « لقد رأيت الطفلة بعيني . »

واستغرق ذلك كله بعض الوقت . وكانت فانتين قد سلخت مـــا يزيد على عام في المصنـــع عندما تقدّمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكاً ، قائلةً لها إن المصنع لم يعـــد في حاجة اليها ، داعيةً اياها — باسم العمدة ايضاً — الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تيناردييه وزوجته بخمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر ، بعد ان سبق لهما ان فازا باثني عشر فرنكاً بدلاً من ستة فرنكات .

وُصعقت فانتين . لم يكن في مستطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من أجر الغرفة وثمن الاثاث ، وما

* البرناردينون Bernardins رهبانية دينية تنسب الى القديس برنارد (١٠٩١ — ١١٥٣) .
** اليعقوبيون او اليعاقبة Jacobins حزب ثوري شهير كان يعقد اجتماعاته في دير اليعاقبة القديم في باريس . وقد لعب اليعاقبة دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية .

كانت الخمسون فرنكاً لتغطي ذلك الدين . وتهدّج صوتها ببضع كلمات متوسلة . فأفهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . والى هذا فلم تكن فانتين الا عاملة من درجة متوسطة . فما كان منها إلا ان غادرت المصنع ، يغمرها الخجل اكثر مما يغمرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد أصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع !

ولم تؤانس في نفسها القدرة على ان تنطق بكلمة . ولقد أشير عليها بأن تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد أعطاها العمدة خمسين فرنكاً ، لأنه كان خيّراً ؛ وطردها من المصنع لانه كان مستقيماً . لقد اذعنت لذلك القرار .

٩
نجاح مدام فيكتورنيين

واذن فقد صلحت ارملة الراهب لشيء .

ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وتلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا في النادر النادر .

لقد أقام على رأس هذا الجناح عانساً اقترح الكاهن اسمها عليه ؛ وكان له كامل الثقة في هذه الناظرة المهيبة حقاً ، الرصينة ، المنصفة ، النزيهة ، العامر صدرها بالرحمة التي تقوم على اساس من العطاء ، اكثر مما هو عامر بتلك الرحمة التي تقوم على التفهم والصفح . لقد فوّض مسيو مادلين كل شيء اليها . وان خير الناس ليضطرون في بعض الاحيان الى ان يُنيبوا عنهم من يباشر سلطتهم . وبهذا السلطان المطلق ، وعلى اساس من الايمان بأنها تأتي عملاً حسناً ، صاغت ناظرة

المصنع الاتهام ، وحاكمت فانتين ، وادانتها ، ونفذّت حكمها فيها .

أما الخمسون فرنكاً فقد قدمتها اليها من اعتماد كان مسيو مادلين اودعها إياه للتصدّق على المعوزات ومدّ يد العون الى العاملات ، من غير ان يسألها عنه حساباً .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة في بيوت المنطقة . لقد طرقت ابواب المنازل باباً اثر باب . ولكن احداً لم يكن راغباً فيها . وما كان في ميسورها ان تغادر البلدة . ذلك بان تاجر الامتعة المستعملة الذي كانت مدينة له بثمن أثاثها ، ويا له من اثاث ، قال لها : « اذا رحلت فسوف أعمل على القاء القبض عليك بوصفك لصّة . » وبأن المالك الذي كانت مدينة له بأجر غرفتها قال لها : « انتِ نضرة العود بهية الطلعة ، وفي ميسورك ان تدفعي . » وقسمت الخمسين فرنكاً بين المالك والتاجر ، واعادت الى هذا الأخير ثلاثة ارباع بضاعته ، مبقية ما هو ضروريّ ليس غير ، فاذا بها تجد نفسها من غير عمل ، ومن غير منزلة ، واذا بها تجد نفسها ولم يبق لها ما تملكه غير سريرها ، ولا يزال عليها دينٌ يبلغ نحواً من مئة فرنك .

وبدأت تصنع قمصاناً خشنة لجنود الحامية ، كاسبةً بذلك اثني عشر « سو » يومياً . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفي هذه الفترة بالذات شرعت تقصّر في أداء ما عليها الى تيناردييه وزوجته في ميقاته المحدّد .

وايا ما كان ، فان المرأة العجوز التي كانت تضيء شمعتها لها حين ترجع الى غرفتها بعد ان يهبط الليل علّمتها فنّ الحياة في غمرة البؤس . فوراء العيش على القليل ، يقوم العيش على لا شيء . انهما غرفتان : الاولى مظلمة ، والثانية حالكة السواد .

وتعلّمت فانتين كيف تستغني عن نار الشتاء استغناء تاماً ، وكيف تتخلى عن طائر يأكل من الذرة البيضاء ما قيمته ربع « سو » كل يومين ، وكيف تصنع من تنورتها الداخلية لحافاً ، وكيف تصنع من

لحافها تنورة داخلية ، وكيف توفر شمعتها بان تتناول طعامها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة . ان افراداً قلائل يعرفون كم يستطيع بعض المخلوقات الضعاف الذين شابوا على الحرمان والامانة ان ينتزعوا من الفلس الواحد . وانما ينتهي ذلك الى ان يصبح موهبة . ولقد اكتسبت فانتين هذه الموهبة الرفيعة ، واستعادت شجاعتها بعض الشيء.

وفي تلك الفترة قالت لاحدى جاراتها :

— « عجيب ! إني اقول لنفسي : اذا لم أنم غير خمس ساعات ، واذا اشتغلت طوال الساعات الباقية في خياطة الثياب ، فعندئذ استطيع أن أكسب دائماً ما يقيم أودي ، أو يكاد . وفوق هذا ، فحين يكون الانسان محزوناً يكون استهلاكه من الطعام اقلّ . وأياً ما كان ، فان الالم والقلق ، وان قليلاً من الخبز في يد ، وقبضة من الاحزان في يد — كلّ ذلك سوف يبقيني على قيد الحياة . »

وفي محنتها تلك كان خليقاً بابنتها ، لو كانت الى جانبها ، أن تُدخل على فؤادها سعادة عجيبة . وفكرت في أن تبعث في طلبها . ولكن ماذا ؟ أتريد أن تقاسمها حرمانها ؟ والى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبيل الى ان تفيهما دينهما ؟ والسفر ؟ كيف السبيل الى ان تدفع نفقاته ؟

وكانت العجوز التي اعطتها ما يمكن ان يدعى دروساً في حياة الفقر أمرأة تقية ، تدعى مارغريت — أمرأة ورعة ورعاً حقيقياً ، فقيرة ، محسنة الى الفقراء ، ومحسنة الى الاغنياء ايضاً ، عارفة من الكتابة ما يمكنها من ان توقّع « مارغريت » ، مؤمنة بالله ، وذلك هو العلم .

إن ثمة كثيراً من هذه الفضائل في المواطن الدنيا . ولسوف تصبح ذات يوم في المواطن العليا . فلهذه الحياة غدٌ .

وفي بادىء الامر ، كانت فانتين تستشعر الخجل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها .

وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل ان الناس يتلفتون خلفها ويومئون اليها . لقد نظر اليها كل إنسان ، ولكن احداً لم يُلقِ عليها السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحادُّ البارد الى جسدها وروحها وكأنه ريحٌ شمالية .

وفي المدن الصغيرة يبدو وكأن المرأة التعسة تقف عارية أمام تهكم الجميع ، وفضول الجميع . ففي باريس ، على الاقل ، لا يعرفك أحد ، وهذه الظلمة وقاء لك وستر . أوه ! كم قد تاقت الى الذهاب الى باريس ! مستحيل !

والحق انه تعين عليها ان تتعود الاحتقار كما تعودت الفقر . وشيئاً بعد شيء حفظت دورها . وبعد شهرين أو ثلاثة ، نفضت عنها العار وعاودت الخروج من غرفتها وكأنْ لم يكن شيء . لقد قالت في ذات نفسها : « لست أبالي بعد اليوم . » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة رأسها ، مبتسمة ابتسامة مريرة ، شاعرة بأن ماء الحياء عندها قد بدأ يجفّ .

ورأتها مدام فيكتورنيين أحياناً تمرّ بنافذتها ، ولاحظت شقاء « هذه المخلوقة » التي « أعيدت » — بفضلها — « الى مكانها » . وهنأت نفسها بذلك . إن للشريرين سعادة سوداء .

وارهق العمل الموصول صحة فانتين ، وازداد سعالها الجافّ الضئيل . ولقد قالت ذات يوم لجارتها مارغريت :

— « انظري ما أشدّ حرارة يديّ . »

ومع ذلك ففي الصباح ، حين كانت تسرّح بمشط عتيق مكسور شعرَها الجميل الذي ينساب في أمواج حريرية ، كانت فانتين تستمتع بلحظة من لحظات السعادة .

١٠

عاقبة النجاح

كانت قد فُصلت مـن العمل في أواخر الشتاء . وتقضّى الصيف . ولكنّ الشتاء أقبل من جديد . ايام قصار ، وعملٌ اقلّ . وفي الشتاء ليس ثمة دفء ، ولا نور ، ولا ظهر . إن المساء ليلامس الصباح ، وإن ثمة ضباباً ، وغَسقاً ، ونوافذ مربدّة ، فليس في ميسورك ان ترى في وضوح . إن السماء في الشتاء لا تعدو ان تكون باب مغارة ؛ والنهار كله هو المغارة . إن سيما الفقر لتبدو على وجه الشمس . فصلٌ مخيف ! إن الشتاء ليحيلُ مـاء السماء وقلب الانسان الى حجارة . وأبرمَتها دائنوها .

كانت فانتين تكسب اقلّ مما ينبغي . وكانت ديونها قد تضخمت . وامطرها تيناردييه وزوجته بعد أن قصّرت عن دفع المـال اليهما — برسائل متلاحقة فطّرت محتوياتها فؤادها ، واستنفدت نفقاتها البريدية آخر درهمانها . وذات يوم ، كتبا اليها ان صغيرتها كوزيت ليس عندهـا شيء من الملابس تستعين به على برد الشتاء ، وانها في حاجة الى تنورة من الصوف ، وان على امها ان تبعث اليهما بعشرة فرنكات على الاقل في هذه السبيل . لقد تلقّت الرسالة ، وراحت تسحقها بيديهـا طوال النهار . حتى اذا هبط الليل شخصت الى دكان حلاق عند زاوية الشارع ، ونزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشقر الرائع حتى خصرها .

وصاح الحلاق :

— « يا له من شعر جميل ! »

فقالت :

— « كم تدفع اليّ فيه ؟ »

— « عشرة فرنكات . »

— « فضة . »

واشترت تنورة مزرودة وبعثت بها الى تيناردييه وزوجته .

واثارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المـــال هو طِلبتهما . وقدّما التنورة الى ايبونين . وظلت القُبرة المسكينة ترتجف .

وقالت فانتين في ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البرد . لقد ألبستها من شعري ثوباً . » واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطّت رأسها المجزوز . وبرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة .

واعتملت في فؤاد فانتين لواعج مظلمة .

فحين رأت انه لم يعد في ميسورها ان تسرّح شعرها شرعت تنظر في كراهية الى كل ما حولها . كانت قد شاطرت القوم ، منذ زمن بعيد ، حبهم العظيم للأب مادلين ، ولكنها بحكم تكرارها لنفسها انه هو الذي طردها من العمل ، وانه هو سبب شقائها ، ما لبثت ان أبغضته هو ايضاً ، هو بخاصة . كانت اذا ما اجتازت بالمصنع حين يكون العمال لدى الباب تُكره نفسها على ان تضحك وتغني .

وذات يوم رأتها عاملة عجوز تغني وتضحك على هذه الشاكلة فقالت :

— « ههنا فتاة سوف تنتهي الى نهاية سيئة . »

واتخذت لها خليلاً ؛ كان هو الوافد الاول . إنها لم تحبّه ولكنها عاشرته بدافع من التبجح والمباهاة الفارغة ، وقد عصف الحنق بفؤادها . كان رجلاً شقياً — شبه موسيقي متسول — رجلاً كسولاً ذا أطمار بالية ، اوسعها ضرباً ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته في اشمئزاز .

كانت تعبد ابنتها .

وكلما أمعنت في الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها إظلاماً ، تعاظم اشراق هذا الملاك الصغير العذب في فؤادها . وقالت : « حين أصبح غنية سوف أُبقي حبيبتي كوزيت الى جانبي . » وضحكت . ان

السعال لم يفارقها ، وان جسدها ليتصبب في الليل عرقاً .

وذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت مصابة بمرض من الامراض الوبائية . إنها الحمى العسكرية ، كما يدعونها ، والادوية الضرورية غالية جداً . ان اثمانهـا تكاد تقتلنا ، وليس في استطاعتنا بعدُ ان نشتريها . وما لم تبعثي الينا بأربعين فرنكاً في خلال اسبوع فأن الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وانفجرت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

ــ « اوه ، إنهما طيّبان ! اربعون فرنكاً ! فكـّري في هـذا ! يعني ليرتين ذهبيتين ! من اين يحسبان اني استطيع الحصول على هاتين الليرتين ؟ أهما مجنونان ؟ هذان الفلاّحان ؟ »

ومع ذلك ، فقد مضت الى السلّم ، قرب احدى الكوى ، وأعادت تلاوة الرسالة من جديد .

ثم انها هبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضةً واثبةً ، وهي لا تزال تضحك .

والتقاها بعضهم فقال لها :

ــ « ماذا الذي يحملك على ان تكوني مبتهجةً الى هذا الحدّ ؟ »

فاجابته قائلة :

ــ « نكتة بلهاء بعث بها اليّ بعض اهل الريف منـذ لحظة . انهم يطالبونني باربعين فرنكاً ! يا لهم من فلاحين ! »

وفيما هي تجوز بالساحة رأت جمهرة من الناس محتشدةً حول عربـة ذات شكل غريب وقد وقف في اعلاهـا خطيب يرتدي ملابس حمراء . كان مشعوذاً يلهي الناس بأعمال الرشاقة وطبيبَ اسنان متجولاً ، وكان يعرض على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ، والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القـوم على

هذا الخطاب الذي اختلطت فيه العامية الموجهة الى الرعاع ، بالرطانة الموجهة الى اصحاب الوجاهة . ورأى قالع الاسنان هذه الفتاة الجميلة الضاحكة ، وصاح فجأة :

— « ان لك اسناناً رائعة ، ايتها الفتاة الضاحكة هناك ! إذا بعتني سنّيكِ القاطعتين أعطكِ ليرة ذهبية مقابل كلّ منهما . »

فسألته فانتين :

— « ما هذا ؟ ما هما سنّاي القاطعتان ؟ »

فاستطرد استاذ طبّ الاسنان قائلاً :

— « السنّان القاطعتان هما السنان الأماميتان ، السنّان الاماميتان من الفك الأعلى . »

فصاحت فانتين :

— « يا للفظاعة ! »

فدمدمت عجوز لا اسنان لها كانت واقفة هناك :

— « ليرتان ذهبيتان ! ما اسعدها وأعظم حظها ! »

وولّت فانتين فراراً ووضعت بعض اصابعها في أذنيها لكي لا تسمع صوت الرجل الابحّ الذي كان يناديها صائحاً :

— « فكّري ، ايتها الحسناء ! ليرتان ذهبيتان ! ما اعظم الخدمة التي تستطيعان اسداءها اليك ! اذا آنستِ في نفسك الجرأة على ذلك فتعالي الليلة الى فندق « تيلاك دارجان » . انك سوف تجدينني هناك . »

ورجعت فانتين الى غرفتها . كانت هائجة غضبى ، وقد روت القصة لجارتها الطيبة مارغريت :

— « هل تفهمين هذا ؟ أليس هو رجلاً فظيعاً ؟ لماذا يجيزون لمثل هؤلاء الناس ان يطوّفوا في البلاد ؟ ان اخلع سنّيّ الاماميتين ! ولكن ، سوف أبدو مخيفة عندئذ ! ان الشعر ينمو من جديد ، أما الاسنان ! اوه ، يا له من رجل وحش ! اني افضّل ان ألقي بنفسي

من الدور الخامس الى بلاط الشارع ! لقد قال لي انه سوف يكون ، الليلة ، في ال « تيلاك دارجان . »

فـألتها مارغريت :

— « وماذا عرضَ مقابل ذلك ؟ »

— « ليرتين ذهبيتين . »

— « يعني اربعين فرنكاً . »

فقالت فانتين :

— « أجل ، انهما تساويان اربعين فرنكاً . »

ولازمها القلق ، وانصرفت الى عملها . وبعد ربع ساعة تركت ما كانت تخيطه ، ومضت الى السلم لتعاود تلاوة الرسالة التي تلقتهـــا من تيناردييه وزوجته .

حتى اذا رجعت ، قالت لمارغريت التي كانت تعمل الى جانبها :

— « ما هي هذه الحمى العسكرية ؟ هل تعرفين ؟ »

فأجابتها العانس :

— « نعم . إنها مرض . »

— « واذن ، فهي تحتاج الى كثير من الادوية ؟ »

— « نعم ، الى ادوية فظيعة . »

— « وكيف تصيب الانسان ؟ »

— « إنها مرض يصيب الانسان في لحظة . »

— « هل تصيب الأطفال ؟ »

— « انها تصيب الاطفال على الخصوص . »

— « وهل يموت الناس فيها ؟ »

فقالت مارغريت :

— « في كثير من الاحيان . »

وانسحبت فانتين ، ومضت كرة اخرى لتعيد تلاوة الرسالة ، فوق

السلم .

وفي المساء غادرت الغرفة ، متجهةً نحو « شارع باريس » حيث تقوم الفنادق .

وفي صباح اليوم التالي ، حين شخصت مارغريت الى غرفة فانتين قبل بزوغ الفجر – ذلك بأنهما كانتا تعملان دائماً معاً ، وهكذا تضيئان شمعة واحدة بدلاً من شمعتين – وجدت فانتين جالسة على سريرها ، شاحبةً مثلوجة . لم تكن قد آوت الى الفراش . وكانت قلنسوتها قد سقطت على ركبتيها . كانت الشمعة قد اشتعلت طوال الليل ، وكانت على وشك ان تلفظ انفاسها الاخيرة .

ووقفت مارغريت على العتبة ، وقد اذهلتها هذه الفوضى الماثلة وصاحت :

– « يا الٓهي ! لقد فنيت الشمعة . لقد حدث شيء ما . »

ثم إنها نظرت الى فانتين ، التي ادارت نحوها رأسها العاطل عن الشعر .

كانت فانتين قد كبِرَتْ عشر سنوات ، منذ الليلة البارحة .

وقالت مارغريت :

– « رحمتك ، يا ربّ ! ماذا دهاكِ ، يا فانتين ؟ »

فقالت فانتين :

– « لا شيء . على العكس تماماً . إن ابنتي لن تموت بذلك المرض الفظيع نتيجةً لانعدام المساعدة . أنا مرتاحة النفس . »

حتى اذا قالت ذلك أرتِ العانس الليرتين الذهبيتين اللتين التمعتا فوق الطاولة .

فقالت مارغريت :

– « اوه ، يا الٓهي ! ولكن هذه ثروة ! من اين جئت بهاتين الليرتين الذهبيتين ؟ »

فأجابتها فانتين :

– « لقد جئتُ بها . »

قالت هذا ، وابتسمت . واضاءت الشمعة محيّاها . كانت ابتسامة كليمة ؛ ذلك بأن زاويتي فمها كانتا مضرجتين بالدماء ، وكانت فجوةٌ مظلمة تتبدّى هناك . »

كانت السنّان قد قُلعتا .

وارسلت الاربعين فرنكاً الى مونفيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تيناردييه وزوجته . إن كوزيت لم تكن مريضة .

وطرحت فانتين مرآتها من النافذة . كانت قد انتقلت ، منذ زمن طويل ، من غرفتها الصغيرة القائمة في الدور الثاني الى غرفة في أعلى البناية توصد بمزلاج تحت السقف – الى علّية من تلك العلالي التي يشكل سقفها زاوية مع أرضها ، والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة . إن الفقير لا يستطيع ان يمضي الى أقصى غرفته ، او الى اقصى قَدَرِه ، إلاّ بان ينحني اكثر فأكثر على نحوٍ موصول . إنها ما عادت تملك سريراً . لم يبق لديها غير خرقة بالية دعتها لحافاً ، وغير فراش أرضيّ ، وكرسي تقطّع قشّه . وكانت شجرة الورد التي عندها قد جفّت في احدى بالزوايا ، وأضرّ بها النسيان . وفي الزاوية الاخرى كان وعاء زبدة خصّص للماء ، الذي جلّد في الشتاء ، وقد ظلّت مختلف المستويات التي انتهى اليها الماء واضحةً المعالم ، فترةً طويلة ، بدوائر من الجليد . لقد فقدت حياءها ، وها هي ذي تفقد الرغبة في التزين . وتلك هي الأمارة الاخيرة . أمست تغادر مأواها بقلنسوة قذرة . ولم تعد تغسل ملابسها إما بسبب من قلة الوقت وإما بسبب من اللامبالاة . وكانت كلما تهرأت اعقاب جواربها تخفض هذه الاعقاب وتخفيها في الحذاء . وإنما كان يتجلّى ذلك ببعض التغضّنات العمودية : لقد رقعت مشدّها العتيق

المتهريء مخرق من الخام كانت تتمزّق عند أضأل حركة . وعنّفها دائنوها ولم يتركوها ترتاح لحظةً واحدة . كانت تلتقيهم في الشارع ، وكانت تلتقيهم كرّة اخرى على سلّمها . لقد انفقت لياليَ بكاملها وهي تبكي وتفكر . كانت عيناها شديدتي الالتماع ؛ وكانت تحسّ بألم موصول في كتفها ، قرب أعلى عظم الكتف الأيسر . كانت تسعل كثيراً . وكانت تكره الاب مادلين كرهاً عميقاً . ولم تتشكَّ قطّ . لقد خاطت سبع عشرة ساعة يومياً ، ولكنّ احد مقاولي السجون – وكان يشغّل السجناء بثمن بخس – كسر السعر فجأةً ، مما اسقط أجرة العامل الحرّ الى تسعة « سو » في اليوم . سبع عشرة ساعة من العمل ، وتسعة « سو » في اليوم ! وغدا دائنوها اشدّ قسوة مما كانوا في اي وقت مضى . وكان تاجر الامتعة المستعملة الذي استردّ كل أثاثه تقريباً لا يفتأ يقول لها : « متى ستدفعين اليّ ، ايتها النذلة ! »

يا الٰهي ! ايّ شيء كانوا يريدون منها ان تفعله ؟ لقد استشعرت انها مطارَدة ؛ وبدأ شيء من الوحش الضاري ينمو في ذات نفسها . وحوالى ذلك الوقت كتب تيناردييه رسالة اليها قال فيها إنه قد انتظر – في سماحة وكرم نفس – اكثر مما ينبغي ، وان عليها ان ترسل اليه مئة فرنك في الحال ، وإلا فأنه سوف يطرد كوزيت الصغيرة ، التي نقهت من مرضها الوبيل ، ويقذف بها الى البرد ، الى قارعة الطريق ، وعندئذ تصبح ما تستطيع أن تصبحه ، وعندئذ تموت اذا شاءت . وفكرت فانتين : « مئة فرنك ، ولكن اين المكان الذي يستطيع الانسان ان يكسب فيه مئة « سو » في اليوم ؟ »

ثم قالت :

– « حسن . سوف أبيع ما بقي لي . »

وأمست المخلوقة البائسة بنتاً من بنات الهوى .

١١
المسيح هو مخلصنا

ما هي قصة فانتين هذه ؟ إنها قصة المجتمع يشتري أمَةً رقيقة . ممّن ؟ من الشقاء .

من الجوع ، من البرد ، من الوحدة ، من التخلّي ، من الحرمان . صفقة موجعة . نفسٌ بشرية مقابل كسرة من الخبز . الشقاء يَعرِض ، والمجتمع يَقبل .

إن شريعة يسوع المسيح المقدسة لتهيمن على حضارتنا ، ولكنها لمّا تنفَذْ اليها بعد . يقولون إنّ الرقّ قد زال من الحضارة الاوروبية . هذا خطأ . إنه لا يزال قائماً ، ولكن المرأة وحدها ترزح اليوم تحت ثقله . وهو يدعى البغاء .

اجل ، إن ثقله ملقىً اليوم على المرأة ، يعني على اللطافة ، على الضّعف ، على الجمال ، على الامومة . وليس هذا خزياً من مخازي الرجل الثانوية .

وفي المرحلة التي انتهينا اليها من هذه المأساة الفاجعة ، لم يكن قد بقي لفانتين شيءٌ مما كان لها من قبل . كانت قد امست رخاماً بعد أن أصبحت وحلاً . فأيما امرىء يمسّها يشعر بقشعريرة . إنها تمضي في سبيلها ؛ إنها تتحملك ؛ وإنها تتجاهلك . انها تحمل وجهاً كالحاً مسربلاً بالعار . لقد قالت لها الحياة وقال لها النظام الاجتماعي آخر كلمة من كلماتها . لقد أصابها كل ما يمكن ان يصيبها . لقد قاست كل شيء ، وصبرت على كل شيء ، وجرّبت كل شيء ، وكابدت كل شيء ، وفقدت كل شيء ، وبكت على كل شيء . إنها لمذعنة لما قُدّر لها ، وإن اذعانها ليشبه اللامبالاة ، مثلما يشبه الموتُ الرقاد . إنها لا تجتنب

بعدُ شيئاً ، ولا تخشى بعدُ شيئاً . فليسقط عليها السحاب كله ، وليغمرها الاوقيانوس كله ! ما الذي يضرّها ؟ لقد أُشربت الاسفنجة حتى الاشباع .

لقد اعتقدت بذلك على الاقل ، ولكن من الخطأ ان نتخيل ان في استطاعة المرء أن يستنفد قَدَرَهُ ، وان يبلغ قعر ايّ شيء مهما يكن .

وأسفاه ! ما هي هذه الاقدار كلها المسوقة هكذا كيفما اتفق ؟ الى اين تمضي ؟ لم كانت كذلك ؟

ان الذي يعرف ذلك يرى الظلام كله .

انه واحدٌ أحد . ان اسمه الله .

١٢
بطالة مسيو باماتابوا

يوجد في جميع المدن الصغيرة ، ولقد كان يوجد في مونتروي سور مير على الخصوص ، طبقة من الشبان الذين يقضمون الفاً وخمسمئة ليرة من الدخل ، في الريف ، بمثل الانطباعة التي يزدرد بها زملاؤهم ألفي فرنك سنوياً ، في باريس . إنهم كائنات من النوع المحايد العظيم . انهم خصيان ، طفيليات ، لا شيء . انهم من اولئك الناس الذين يملكون قليلاً من الارض ، وقليـــلاً من البلاهة ، وقليلاً من الظرف ، والذين يكونون اجلافاً في صالون ثم يحسبون انفسهم أشرافاً في حانة ، والذين يتحدثون عن « حقولي ، وغاباتي ، وفلاحيّ » ، والذين يصفرون لممثلات المسرح ازدراءً لكي يثبتوا انهم اصحاب ذوق رفيع ، والذين يتخاصمون مع ضباط الحامية لكي يظهروا انهم رجال حرب ، والذين يتصيدون ، ويدخنون ، ويتثاءبون ، ويحتسون الخمر ، ويستنشقون السعوط ، ويلعبون البليارد ، ويحدّقون الى المسافرين وهم ينزلون من العربة العمومية ،

ويعيشون في المقهى ، ويتعشون في الفندق ، والذين عندهم كلب يأكل العظام تحت الطاولة ، وخليلة تضع الاطباق فوقها ، والذين يتشبثون بالفلس ، ويغالون في اتباع الازياء ، ويُعجبون بالتراجيديا ، ويزدرون النساء ، ويُبلون احذيتهم العتيقة ، ويقلدون لندن من خلال باريس ، وباريس من خلال « بون - آ - موسون » ، والذين يزدادون حماقة كلما تقدمت بهم السنّ ، والذين لا يشتغلون ولا يعملون صالحاً ، ولا يؤذون كثيراً .

ولو قد اقام مسيو فيلكس تولوميس في مسقط رأسه ولم يرَ باريس قط ، اذن لكان واحداً من هؤلاء .

ولو كانوا اكثر غنىً لقلنا : انهم مخنثون . ولو كانوا اكثر فقراً لقلنا : انهم متشردون . والواقع أنهم متبطلون ليس غير ، وبين هؤلاء المتبطلين نفرٌ مُضجِرون ، ونفر ضجِرون ، وبينهم قوم حالمون ، وقوم مضحكون .

وفي تلك الايام كان المخنث يتألف من طوق قميص ضخم ، وربطة عنق ضخمة ، وساعة مثقلة بالسلاسل ، وثلاث صُدرات تُلبس احداها فوق الاخرى ، وتكون ذات الوان مختلفة ، فالحمراء والزرقاء منها في الداخل ، وسترة زيتونية اللون قصيرة ذات ذيل كذنب السمكة ، وصفين من الازرار الفضية ، المزوز بعضها الى بعض ، والمرتفعة حتى الكتف ، وبنطلون زيتوني ازهى لوناً ، مزدان من جهتيه بعدد من الاضلاع غير محدود ، ولكنه وتر * دائماً ، يراوح من واحد الى احد عشر وهو حدٌ لا يُتجاوز البتة . اضف الى ذلك حذاءً طويل الساق على عقبيه نعلان حديديتان صغيرتان ، وقبعةً عالية الذروة ضيقة الحافة ، وشعراً مصفّفاً خُصلاً خصلاً ، وخيزرانة ضخمة ، وحديثاً متمماً بنكات

* الوتر من الاعداد : الفرد ، كالواحد والثلاثة والخمسة وضده الشفع كالاثنين والاربعة الخ .

« بوتييه » الجناسية . ولا نغفل فوق ذلك كله ، عن المهازين والشاربين . ففي تلك الايام كان الشاربان شارة المدنيين ، وكان المهازات شارة المشاة .

وكان المخنث الريفي يصطنع مهازين اكثر طولاً ، وشاربين اشدّ ضراوة .

كان عهد النزاع بين جمهوريات اميركا الجنوبية وملك اسبانية ، عهد صراع بوليفار * ضدّ موريللو . كانت القبعات ذات الحوافي الضيقة ملكية ، وكانت تدعى « موريللو » ، على حين كان الاحرار يعتمرون قبعات ذات حوافٍ عريضة يدعونها « بوليفار » .

وبعد ثمانية اشهر او عشرة اشهر انقضت على الاحداث التي رويناها في الصفحات السابقة ، وفي الايام الاولى من كانون الثاني سنة ١٨٢٣ ، وذات ليلة تساقط فيها الثلج ، كان احد هؤلاء المخنثين ، احد هؤلاء العاطلين عن العمل ، وهو رجل « ذو رأي صائب » اذ كان يعتمر قبعة من قبعات « موريللو » ويتلفع في دفء بالغٍ بواحد من تلك المعاطف الضخمة التي تكمل زيّ العصر في فصل البرد — كان هذا الرجل يمتع النفس بالتحرش بمخلوقة كانت تروح وتجيء ، امام نافذة مقهى الضباط ، مرتدية ثوباً للرقص يكشف عن عنقها وكتفيها وقد زينت رأسها بالرياحين . كان المخنث يدخن ، فقد كانت تلك هي الموضة من غير ريب .

كان كلما مرّت أمامه تلك المرأة قذفها ، مع نفثة دخان من سيجاره ، بملاحظة ظنها ظريفة مرحة : « ما أبشعك ! » — « اتحاولين ان تختبئي ؟ » — « لقد فقدتِ اسنانك ! » الخ . الخ . وكان هذا السيد يدعى مسيو باماتابوا . ولم تجبه المرأة — وكانت شبحاً حزيناً متبرجاً يمشي على الثلج جيئة وذهوباً — بل لم تلتفت اليه ، ولكنها واصلت

---

* قائد ورجل دولة شهير حرر فنزويلا من الحكم الاسباني واسس جمهوريتي كولومبيا وبوليفيا . ويعرف بواشنطون اميركا الجنوبية .

سيرها في صمت وفي نظامية كالحة كانت تعرّضها لسخريته كل خمس دقائق مثل الجندي المُدان الذي يرجع في فترات معينة تحت المخاصر * واثارت هذه اللامبالاة ، من غير شك ، حنق المتبطل ، فما كان منه الا ان افاد من احدى اللحظات التي استدارت فيها ، فمشى خلفها في خطى مختلسة ، وانحنى خانقاً ضحكته ، وتناول حفنة ثلج من جانب الطريق ، وسارع الى اقحامها في ظهرها بين كتفيها العاريتين . وصرخت الفتاة في حنق ، واستدارت ، ووثبت مثل النمرة ، وانقضت على الرجل ، منشبة اظافرها في وجهه ، مصطنعة افظع الالفاظ التي يمكن ان تتساقط من اوغاد مركز من مراكز الحرس . وكانت هذه الاهانات المتقيَّأة في صوت جعلته الخمر أبحّ ، تنطلق من فم بشع تعوزه السنان الاماميتان . كانت هي فانتين .

واندفع الضباط من المقهى ، على جلبة الحادث ؛ واحتشد عابرو السبيل . وتشكلت دائرة ضخمة ، ضاحكة ، ساخرة ، مصفقة ، حول مركز الجذب هذا المؤلف من مخلوقين من العسير ان يُعرف انهما رجل وامرأة . فأما الرجل فكان يدافع عن نفسه وقد انطرحت قبعته على الارض ، واما المرأة فكانت ترفس ، وتضرب ، حاسرة ، صائحة ، من غير اسنان ، ومن غير شعر ، زرقاء ضارباً لونها الى السواد من شدة الغضب ، مخيفة ، مروّعة .

وفجأة اندفع رجل طويل من بين الحشد ، وامسك بالمرأة من النصف الاعلى من فستانها الملوّث بالطين وقال لها :

— « اتبعيني ! »

ورفعت المرأة رأسها وخمد صوتها الضاري في الحال . كانت عيناها زجاجيتين يعوزهما اللمعان ، وكان لونها الازرق الضارب الى السواد قد امسى شاحباً . وارتجفت ارتجافة الذعر . لقد عرفت جافير .

* جمع مخصرة ، وهي شيء اشبه بالسوط ، يضرب به ويتكأ عليه .

واغتنم المخنث الفرصة وانسلّ هارباً .

١٣
حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية

وصدّ جافير المتجمهرين ، وحطم الطوق الذي كانوا قد ضربوه حول المرأة والرجل ، وانطلق نحو مكتب الشرطة القائم عند اقصى الساحة ، جاراً المخلوقة البائسة خلفه . ولم تبد اي مقاومة ، تابعة اياه على نحو آليّ . بل انها لم تنطق بكلمة . وفي اثرها مضى جمهور النظارة ، وهو في ذروة الابتهاج ، يرسل النكات المستقبحة . كان البؤس الذي ما بعده بؤس ، مناسبـــة عندهم للبذاءة والفحش .

حتى اذا انتهوا الى مكتب الشرطة ، وكان قاعة خفيضة يدفئهـــا موقد ويصونها حارس وينفتح لها على الشارع باب مزجج ذو قضبان مشبّكة ، فتح جافير الباب ، ودخل مع فانتين ، ثم اغلق الباب ، مخيباً بذلك آمـال الحشد الفضوليّ الذي وقـف افراده على رؤوس اصابعهم واتلعوا أعناقهم امام نافذة مركز الحرس القذرة ، تائقين الى ان ينظروا . إن الفضول ضربٌ من الشراهة . والنظر هو التهام .

وحين دخلا المكتب خرّت فانتين في احدى الزوايا خرساء جامدة ، مثل كلب مذعور .

ووضع رقيب المركز شمعة مضاءة على الطاولة . وجلس جـافير ، واخرج من جيبه ورقة تحمل طابعاً ، وأنشأ يكتب .

إن هؤلاء النساء ليوضعن وفقاً لقوانيننا ، تحت تصرّف الشرطـــة المطلق . انهم يفعلون بهن ما يشـــاءون ، ويعاقبونهن كما يحلو لهم ، ويصادرون من تلقاء انفسهم هذين الشيئين المحزنين اللذين يسمّينهما صناعتهن

وحريتهن . كان جافير عديم الاحساس ؛ وكان وجهه الصارم لا ينمّ عن عاطفة ما . كان ، على اية حال ، مستغرقاً في تفكير جدي عميق . كانت احدى تلك اللحظات التي يمارس فيها ، على نحو غير محدود ، ولكنْ بكامل التردّد والتدقيق الجديرين بالضمير الصارم ، سلطته الرهيبة المطلقة . وفي تلك اللحظة استشعر ان كرسيّ رجل الامن المنخفض منصةُ قضاء . كان يحاكم . كان يحاكم ويدين . لقد حشد كل ما قدر عليه من فكرات حول الشيء العظيم الذي كان يقوم به . وكلما تعمّق درسَ سلوك هذه الفتاة تعاظمت ثورته . كان واضحاً انه قد بصُر بجريمة تُقترف . لقد رأى ، هناك في الشارع ، الى المجتمع متمثلاً في مالكٍ – ناخب ، يهان ويهاجم من قبل مخلوقة منبوذة . لقد تعدّت مومس على مواطن . وهو ، جافير ، قد رأى ذلك بنفسه . لقد كتب في صمت .

وحين انتهى ، وقّع الورقة ، وطواها ، ثم سلمها الى رقيب المركز قائلاً :

– « خذ ثلاثة رجال ، وسُقْ هذه الفتاة الى السجن . »

ثم التفت الى فانتين وقال :

– « سوف تمكثين هناك ستة اشهر . »

وارتعدت المرأة البائسة .

وصاحت :

– « ستة اشهر ! ستة اشهر في السجن ! ستة اشهر لكي اكسب سبعة « سو » في اليوم ! ولكن ما الذي سيحل بكوزيت ! ابنتي ! ابنتي ! ولكني لا ازال مدينة باكثر من مئة فرنك لتيناردييه وزوجته ، يا سيدي المفتش ، هل تعرف ذلك ؟ »

وجرّت نفسها على ارض القاعة الملوّثة بأحذية جميع هؤلاء الرجال الموحلة ، من غير ان تنهض ، شابكة يديها ، منطلقة في سرعة على

ركبتيها .

وقالت :

— « مسيو جافير ، اسألك الرحمة . اؤكد لك اني لم اكن معتدية . لو شهدت الحادثة من بدايتها لرأيت ذلك ! اقسم لك بالله اني لم اكن معتدية . لقد وضع ذلك السيد ، الذي لا اعرفه ، الثلج في ظهري . هل يملكون الحق في ان يضعوا الثلج في ظهورنا حين نمرّ هكذا في هدوء من غير ان نؤذي أحداً ؟ لقد هاجني ذلك . أنا مريضة بعض الشيء ، كما ترى ! والى هذا ، فقد كان قبل ذلك يوجّه الي ، طوال فترة غير قصيرة ، اشياء مثل هذه : « أنت بشعة ! » « انت بلا اسنان ! » انا اعرف جيداً اني فقدت اسناني . انا لم اعمل شيئاً . لقد قلت في نفسي : « إنه سيدٌ يعبث ويلهو » . كنت محتشمة معه . انا لم اكلمه قط . وفي هذه اللحظة بالذات وضع لي الثلج . مسيو جافير ، يا سيدي المفتش الطيب ! الم يكن هناك شخص رأى الحادث ليقول لك ان هذا صحيح ؟ لعلي أخطأت باستسلامي للغضب . انت تدري ان الانسان لا يستطيع ، في اللحظة الاولى ، ان يسيطر على نفسه . إنه يكون سريع الاهتياج . فما بالك اذا وُضع شيء بارد الى هذا الحد في ظهرك حين لا تكون متوقعاً ذلك البتة ! لقد اخطأت في إتلافي قبعة ذلك السيد . لماذا ذهب ؟ سوف ألتمس عفوه . اوه يا الّهي ، لن يضيرني ان ألتمس عفوه . إرحمني هذه المرة ، يا مسيو جافير . على رسلك ، انت لا تعرف هذا : إنهم في السجن لا يكسبون غير سبعة « سو » . هذه ليست خطيئة الحكومة ، ولكنهم يكسبون سبعة « سو » ؛ وتصوّر ان عليّ مئة فرنك ينبغي ان ادفعها وإلا قذفوا بابنتي الصغيرة الى الشارع . آه ، يا الّهي ! انا لا استطيع ان أبقيها معي . إن ما أعمله شنيع جداً . اوه ، كوزيت ، اوه يا ملاكاً صغيراً من ملائكة العذراء الطاهرة الطيبة ! ما الذي سوف يحلّ بتلك الطفلة المسكينة

الجائعة ! اقول لك ان تيناردييه وزوجته صاحبا فندق . إنهما جلفان ، لا يملكان شيئاً من الروية والتفكير . ينبغي ان يُرسل اليهما "مال" . لا تُلقني في السجن ! أرأيت ، إنها صغيرة سوف يقذفون بها الى عرض الطريق لتعمل ما تستطيع ان تعمله ، في اشدّ ايام الشتاء برداً . ينبغي ان تشفق على هذه المخلوقة الصغيرة ، يا سيدي الطيب جافير . لو كانت اكبر سناً لاستطاعت ان تكسب رزقها ، ولكنها لا تستطيع في هذه السنّ . أنا لستُ امرأة ساقطة بالفطرة . وليس الكسل والشراهة هما اللذان قاداني الى هذا . لقد شربت الخمر . ولكن ذلك كان بدافع من البؤس . أنا لا أحبها ، ولكنها تسلّي عن الهموم . وحين كنت اكثر سعادة كانت نظرة واحدة يلقيها المرء على خزانتي كافية لكي يتأكد أني لم اكن فتاة محبّة للزينة ، لا تعرف النظام . كانت عندي ملابس داخلية ، كثير من الملابس الداخلية . إرحمني ، يا مسيو جافير ! »

لقد تحدّثت هكذا ، محنيّةً بالاعياء ، مرتعدةً بالزفرات ، مكفوفةً بالدموع ، عارية الرقبة ، ملوية الذراعين بالألم ، مرسلة سعالاً جافاً قصيراً ، متلجلجة في وهن بالغ بصوت الحشرجة . ان الالم العظيم شعاع إلهي وفظيع ينقل البؤساء من صورة الى صورة . ففي هذه اللحظة بالذات عاود فانتين جمالها المفقود . لقد كفّت عن الكلام في بعض الفترات وقبّلت ، في رفق ، ادنى معطف الشرطي . لقد كانت خليقة بان تُلين قلباً من صوان . ولكن المرء لا يستطيع ان يُلين قلباً من خشب .

وقال جافير :

— « والآن ، لقد استمعت الك . ألم تنتهي بعد ؟ إنطلقي في الحال ! امامك ستة اشهر تقضينها في السجن . إن الأب الازلي نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك . »

حتى اذا سمعتْ هذه الكلمات المَهيبة « **ان الاب الازلي نفسه لا**

يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك » ادركت ان الحكم عليها قد صدر. وخارت قواها وهي تتمتم :

— « الرحمة ! »

وادار جافير ظهره .

وأمسك بها الجند من ذراعيها .

وقبل ذلك ببضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلحظه أحد . كان قد اغلق الباب ووقف مولياً اياه ظهره ، وكان قد سمع توسلات فانتين اليائسة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي أبت ان تنهض ، تقدّم خطوة الى الأمام ، خارجاً من الظلمة ، وقال :

— « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين في ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه إلا ان نزع قبعته ، وانحنى في ضرب من الارتباك المغضَب :

— « عفوك ، يا سيدي العمدة .... »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب في نفس فانتين . فوثبت على قدميها في الحال ، وكأنها شبح ينبثق من باطن الارض ، وردّت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعاً مباشراً الى مسيو مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحدّقت اليه على نحو موصول ، بنظرة ضارية ، وصاحت :

— « آه ، فأنت اذن السيد العمدة ! »

ثم إنها انفجرت بالضحك ، وبصقت في وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال :

— « ايها المفتش جافير ، أطلِقْ سراح هذه المرأة . »

واستشعر جافير وكأنه على وشك ان يفقد صوابه . لقد اصابته ، في تلك اللحظة ، ضربةٌ فوق ضربة ، وأحسّ في الوقت نفسه تقريباً

بأعنف الانفعالات التي قُدّر له ان يعرفها طوال حياته . لقد كان مشهد بنت من بنات الهوى تبصق في وجه عمدة شيئاً شنيعاً خارجاً على الذوق الى حدّ كان خليقاً بأن يجعله يحسب – في اوهامه الاكثر انطلاقاً – ان من الخرق للقدسيات الاعتقاد بأنه ممكن . ومن ناحية ثانية ، فقد عقدَ في اعماق ضميره ، وعلى نحو مبهم ، مقارنة بشعة بين ما كانته هذه المرأة وما يمكن ان يكونه هذا العمدة . وعندئذ لمح في ذعر شيئاً بسيطاً الى حدّ لا يوصف في هذه الاهانة المدهشة . ولكن ما ان رأى الى هذا العمدة ، الى هذا الحاكم ، يمسح وجهه في هدوء ويقول : « **أطلق سراح هذه المرأة** . » حتى استبدّ به الذهول والانشداه ؛ وخانه التفكير والنطق جميعاً . كان قد تجاوز مجموعَ الدهش الممكن . وظلّ معتصماً بالصمت .

ولم تكن الضربة التي انزلتها كلمات العمدة بفانتين اقلّ غرابة . لقد رفعت ذراعها العارية وتشبّثت بلولب الموقد وكأنها تترنّح . وفي الوقت نفسه اجالت طرفها في ما حولها وبدأت تتكلم بصوت خفيض ، وكأنها تخاطب نفسها :

– « إطلاق سراحي ! سوف يسمحون لي ان اذهب ! انا لن أساق الى السجن لأقضي ستة اشهر فيه ! من الذي قال هذا ؟ ليس من الممكن ان يكون احد قد قال ذلك ! لقد اسأت الفهم . إنه لا يمكن ان يكون هذا العمدة الشبيه بالغول ! اكنت انت ، يا سيدي الطيب جافير ، الذي اخبرتهم ان يطلقوا سراحي ؟ أوه ، انظر ! سوف اخبرك ، وسوف تعيد اليّ حريتي . ان هذا العمدة الغول ، ان هذا العمدة الجرو العجوز هو السبب في كل شيء . تصوّر ، يا مسيو جافير ، انه طردني ، بسبب حزمة من الشحاذات اللواتي يروين القصص في المصنع ! ألم يكن مروّعاً ان تفصل فتاة مسكينة تؤدي عملها في اخلاص ! ومنذ ذلك الحين لم يعد في امكاني ان اكسب مقداراً كافياً من المال ، وجاء

الشقاء كله . قبل كل شيء ، ان هناك تغييراً يجب عليكم يا رجال الشرطة ان تُحدثوه – وهو ان تحولوا بين مقاولي السجون وبين انزال الظلم بالفقراء . سوف اشرح لك ذلك ؛ إسمع . انت تكسب اثني عشر « سو » من صنع القمصان ، فاذا بذلك الرقم يهبط الى تسعة « سو » ، وهو مبلغ لا يمسك الرمق . ثم يتعين علينا ان نفعل ما نستطيع أن نفعله . أما أنا فكانت عندي صغيرتي كوزيت ، وكنت مجبرة على ان أصبح بنت هوى . انت تدرك الآن ان هذا العمدة الشحاذ قد فعل ذلك كله . وبعد ذلك دُستُ على قبعة هذا السيد امام مقهى الضباط . ولكنه كان قد اتلف فستاني كله بالثلج . إننا نحن النساء ، ليس عندنا غير فستان حريري واحد للسهرة . أنظر . انا لم اقصد في يوم من الايام ان اسيء الى احد قصداً . صدقني ، يا مسيو جافير . وانا ارى في كل مكان نساء اكثر خبثاً مني الى حد بعيد ومع ذلك فهنّ اسعد مني الى حد بعيد . اوه ، يا مسيو جافير ، إنك انت الذي قلت لهم ان يطلقوا سراحي ، اليس كذلك ؟ إذهبْ واستطلع . تحدّث الى صاحب الغرفة التي أسكنها . أنا ادفع أقساطي ، وسوف يقولون لك انني أمينة . اوه ، يا عزيزي ، انا التمس عفوك . لقد لمستُ ، من غير ان ادري ، لولب الموقد ، وهذا ما جعل الدخان ينبعث . »

واصغى مسيو مادلين في انتباه عميق . وفيما هي تتحدث ، كان قد بحث في صدرته واخرج محفظته وفتحها . كانت فارغة . وكان قد أعادها الى جيبه . وقال لفانتين :

– « ما المبلغ الذي قلت انك مدينة به ؟ »

والتفتت فانتين نحوه ، وكانت لا تنظر من قبل إلا إلى جافير ، وقالت :

– « وهل كنت أوجه الحديث اليك ؟ »

ثم خاطبت الجند قائلة :

« قولوا ، انتم أيضاً ، أرأيتم كيف بصقت في وجهه ؟ أوه ، أيها العمدة الوغد العجوز ، أنت تأتي الى هنا لتروّعني ، ولكني لست خائفة منك . أنا خائفة من مسيو جافير . أنا خائفة ، من سيدي الطيب مسيو جافير ! »

حتى اذا قالت ذلك التفتت كرة اخرى الى المفتش :

- « والان ، يا سيدي المفتش ، يجب ان تكون عادلاً . أنا أعرف انك عادل ، يا سيدي المفتش . والواقع ان المسألة بسيطة جداً : رجل يلهو بوضع قليل من الثلج في ظهر امرأة ؛ ذلك ما جعلهم - اولئك الضباط - يضحكون ، فالانسان ينبغي ان يتلهى بشيء ، ونحن الكائنات الشقية لم نخلق إلا لأمتاع الناس ! ثم تأتي أنت ، اجل انت ، فتضطر الى حفظ النظام ، فتعتقل المرأة التي أذنبت ، ولكنك ما تكاد تفكر في الامر - وانت الرجل الطيب - حتى تأمرهم باطلاق سراحي ، وما ذلك إلا من أجل بنتي الصغيرة ، لأن ستة اشهر في السجن سوف تحول بيني وبين إعالة طفلتي . على شرط ان لا تعودي الى مثلها مرة أخرى ، أيتها الوغدة ! أوه ، انا لن اعود الى مثلها مرة ثانية ، يا مسيو جافير ! في استطاعتهم ان يفعلوا ما يشاؤون الآن ، فلن أحرّك ساكناً على الاطلاق . اليوم فقط - كما ترى - صرخت لأن ذلك آذاني . انا لم اتوقع البتة ان يضع ذلك السيد الثلج في ظهري . وفوق هذا ، فقد سبق ان قلت إني مريضة بعض الشيء . انا اسعل . إن في صدري شيئاً مثل الكرة يحرقني ، ولقد قال لي الطبيب : « إعتني بنفسك . » والان ، جسّني . اعطني يدك . لا تخف . ها هي ذي . . »

وكفّت عن البكاء ، وغدا صوتها ملاطفاً . لقد وضعت يد جافير الضخمة الغليظة على صدرها الابيض الرقيق ، ونظرت اليه وهي تبتسم . وفجأة سارعت الى تسوية ما اضطرب من ملابسها ، وملّست ثنيات

فستانها ، وكان قد ارتفع فيما هي تجرّ نفسها على الارض حتى بلـــغ ركبتيها تقريباً . ومشت نحو الباب ، وخاطبت الجند في صوت خافت ، هازة رأسها هزة ودية :

— « ايها الغلمان ، إن السيد المفتش قال يجب ان تطلقوا سراحي . أنا ذاهبة . »

ووضعت يدها على مزلاج الباب . خطوة واحدة وتصبح في الشارع .

وكان جافير قد ظل واقفاً ، حتى تلك اللحظة ، جامداً ، مسمّراً عينيه على الارض ، بادياً وسط ذلك المشهد وكأنه تمثال ينتظر ان يوضع في مكانٍ ما .

وأيقظه صوت المزلاج . فرفع رأسه وعلى وجهه انطبـــاعة السلطة المطلقة ، وهي انطباعة تكون اكثر ترويعاً حين تُسند الى كائنات من الدرجة الدنيا . إنها وحشية عند الظباء البرية ، شرسة عند العُفاشة * من الناس .

وصاح :

— « أيها الرقيب ، الا ترى هذه المتشردة تمضي لسبيلها ؟ من قال لك ان تدعها تذهب ؟ »

فقال مادلين :

— « انا . »

وكانت فانتين قد ارتجفت لدن سماعها كلمات جافير وأفلتت مزلاج الباب كما يُفلت اللص المقبوض عليه ما كان قد سرقه . حتى اذا تكلم مادلين استدارت . ومنذ تلك اللحظة ، ومن غير ان تنبس بكلمة ، ومن غير ان تجرؤ حتى على التنفس في حرية ، نقّلت طرفها من مادلين الى جافير ومن جافير الى مادلين مصغية الى من يتفق ان يكون هو المتحدث منهما .

---

* العُفاشة : من لا خير فيهم .

كان واضحاً ان جافير قد استثير غضبه كما يقولون والا لما اجاز لنفسه ان يخاطب الرقيب كما قد فعل بعد ان دعا العمدة الى اطلاق سراح فانتين . أنسي ان العمدة هناك ؟ أقرر آخر الامر بينه وبين نفسه ان من المستحيل على « سلطة » ما ان تصدر أمراً كهذا ، وان العمدة من غير شك قد قال شيئاً وهو يعني نقيضه ؟ أم انه قال في ذات نفسه ، نظراً للاعمال الفاحشة التي شهدها منذ ساعتين ، إن من الضروريّ ان يلجأ الى الاجراءات القصوى ، وان من واجب الصغير ان يكبّر نفسه ، ومن واجب جاسوس الشرطة ان يحوّل نفسه الى حاكم ، ومن واجب البوليس ان يصبح قاضياً ، وان النظام ، والقانون ، والاخلاق ، والحكومة ، والمجتمع كله كانت تتمثل — في هذه الحالة الاستثنائية المروّعة — في شخصه هو ، جافير ؟

وأياً ما كان ، فحين قال مسيو مادلين تلك الـ « أنا » التي سمعناها منذ لحظة استدار مفتش الشرطة ، جافير ، نحو العمدة ، شاحب الوجه ، بارداً ، ازرق الشفتين ، يائس النظرة ، مضطرب الجسم كله بارتجافة غير ملحوظة ، وقال له — وذلك ما لم يُسمَع به من قبل — مطرقَ العين ، ولكن في صوت ٍ ثبْت :

— « سيدي العمدة ، هذا لا يمكن أن يُعمل . »

فقال مسيو مادلين :

— « لماذا ؟ »

— « هذه المرأة الشريرة قد اهانت احد المواطنين . »

فأجابه مسيو مادلين في نبرة ٍ مصالحة ٍ هادئة :

— « ايها المفتش جافير ، اسمع . انت رجل نزيه ، وليس عندي ما يحول دون شرح وجهة نظري لك . تلك هي الحقيقة : كنت ماراً بالساحة العامة حين اعتقلتَ هذه المرأة . كان لا يزال هناك حشد من الناس . فعرفتُ ظروف الحادث . لقد علمتُ كل شيء . إن

المواطن هو الذي أذنب ، وهو الذي كان ينبغي – لو كان ثمة شرطة صالحة – ان يُعتقل . »

فتابع جافير :

– « إن هذه الساقطة قد أهانت السيد العمدة ، منذ لحظة . »

فقال مسيو مادلين :

– « هذه مسألة تتصل بي شخصياً . إن الاهانة الموجهة الي مرهونة بحكمي أنا ، في ما أظن . في استطاعتي ان افعل بشأنها ما اشاء . »

– « استميح السيد العمدة عفواً . إن الاهانة ليست مرهونة بحكمه ، ولكنها مرهونة بحكم العدالة . »

فقال مسيو مادلين :

– « ايها المفتش جافير . العدالة العليا هي الضمير . لقد سمعتُ هذه المرأة . أنا اعرف ما الذي أصنعه . »

– « وانا ، يا سيدي العمدة ، أعرف ما الذي اراه . »

– « اذن ، فاكتف بالطاعة . »

– « انا اطيع واجبي . إن واجبي يقضي بأن تُسجن هذه المرأة ستة اشهر . »

فاجابه مسيو مادلين في دماثة :

– « إسمع هذا جيداً . إنها لن تقضي هناك يوماً واحداً . »

ولم يكد مسيو مادلين ينطق بهذه الكلمات الحاسمة حتى جرؤ جافير على ان يحدّق النظر الى العمدة ، وان يقول له ولكن في نبرة ما تزال ترشح بالاحترام العميق :

– « انا آسف جداً أن اعارض السيد العمدة . انا افعل ذلك لاول مرة في حياتي ، ولكنه سوف يتفضل ويجيز لي ان الاحظ اني اتصرف ضمن نطاق سلطتي . ولسوف اتحدث عن مسألة المواطن ، ما دام السيد العمدة راغباً في ذلك . لقد كنتُ هناك . إن هذه الفتاة هي التي انقضّت

على مسيو بارماتابوا ، الذي هو ناخبٌ ، ومالكٌ لذلك البيت الجميل ذي الشرفة ، القائم عند زاوية الساحة ، والمؤلف من ثلاثة ادوار ، والمشيّد كله من حجر منحوت . والواقع ان في هذا العالم اشياء ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعلى اية حال ، يا سيدي العمدة ، فهذه المسألة من خصائص شرطة الشارع . انها تتصل بي ، واني أحتجز هذه المرأة . »

وهنا صالب مسيو مادلين ذراعيه وقال في صوت قاسٍ لم يسمعه قطّ احدٌ في المدينة من قبل :

— « إن المسألة التي تتحدث عنها من خصائص الشرطة البلدية . وانا الذي أقضي فيها وفقاً لأحكام الماده التاسعة ، والحادية عشرة ، والخامسة عشرة ، والسادسة والستين من قانون العقوبات . انا آمر باطلاق سراح هذه المرأة . »

واراد جافير ان يقوم بمحاولة اخيرة .

— « ولكن ، يا سيدي العمدة ... »

— « اني اذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ كانون الاول ١٧٩٩ في ما يتصل بالسجن غير المشروع . »

— « سيدي العمدة ، اسمح لي ... »

— « لا تقل ايّ كلمة اخرى . »

— « ومع ذلك ... »

فقال مسيو مادلين :

— « اخرج من هنا ! »

وتلقّى جافير الضربة ، وهو واقف على قدميه يواجهها بصدره كله ، مثل جندي روسي . لقد انحنى حتى الأرض ، امام العمدة وخرج .

ووقفت فانتين الى جانب الباب ، ونظرت اليه في ذهول بينما هو يمرّ امامها .

ولكنها كانت هي ايضاً فريســة اضطراب عجيب . لقد رأت الى قوتين متعارضتين تتنازعانها بطريقة ما . رأت رجلين يصطرعان امام عينيها ، رجلين يملكان في ايديهما حريتها ، وحياتها ، ونفسها ، وابنتها . فأما احدهما فكان يشدّ بهــا نحو الظلام ، واما الآخر فكان يقودها نحو النور . وفي هذا الصراع المنظور اليه من خلال تضخيات الذعر ، تراءى لها هذان الرجلان مثل عملاقين . كان احدهما يتكلم وكأنه شيطانها ، وكان الآخر يتكلم وكأنه ملاكها الكريم . لقد قهر الملاكُ الشيطانَ ، ولقد كان في مجرد التفكير بذلك ما جعلها ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها . وكان هذا الملاك ، هذا المخلّص ، هو على وجه الضبط ذلك الرجل الذي ابغضته ، ذلك العمدة الذي اعتبرته منذ عهد طويل صانع بلاياها كلها ، مادلين هذا ! وفي تلك اللحظة عينها التي اهانته فيها على نحو بشع ، عمدَ الى انقاذها ! هل كانت مخدوعة اذن ؟ هل يتعين عليها ان تغيّر قلبها كله اذن ؟ لم تكن تدري . لقد ارتعدت اوصالها ؛ لقد اصغت في انفعال ، واجالت طرفها حولها في هلع . ومع كل كلمة نطق بها مسيو مادلين احسّت بظلمات بغضها المروّعة تذوب في إهابها وتجري منفصلةً عنها ، على حين وُلد في فؤادها دفء يعجز البيان عن وصفه ، دفء البهجة ، دفء الثقة ، دفء الحب .

حتى اذا خرج جافير التفت مسيو مادلين اليها ، وقال لها في تؤدة وفي عُسر مثلَ رجل يناضل حتى لا تسيل عبراته :

— « لقد سمعت كلامكِ . لم اكن اعرف شيئاً مما قلتِه . انا اعتقد انه صحيح ، وانا اشعر انه صحيح . بل اني كنت اجهل انكِ تركتِ العمل في مصنعي . لماذا لم تراجعيني في ذلك ؟ ولكن اسمعي : سوف ادفع ديونك ؛ سوف آتيك بابنتك ، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، او في باريس ، او في ايّ مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية

بك وبطفلتك . إنك لن تشتغلي بعد اليوم ، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . ولسوف تصبحين امرأة فاضلة كرة اخرى بأن تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فأني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلاً : اذا كان كل شيء كما وصفتِ ، ولست اشكّ في هذا ، فأنك ما زلتِ فاضلة طاهرة امام الله . اوه ! ايتها المرأة الشقية ! »

وكان ذلك أكثر مما استطاعت فانتين المسكينة ان تحتمل . ان تفوز بكوزيت ! ان تطلّق هذه الحياة الشائنة ! ان تعيش حرةً ، غنيّة ، سعيدة ، فاضلة مع كوزيت ! ان ترى الى حقائق الجنة هذه كلها تنبثق فجأة وسطَ شقائها ! لقد نظرت وكأنها بلهاء ، الى هذا الرجل الذي يخاطبها ، ولم تستطع ان ترسل غير زفرتين او ثلاث زفرات : « اوه ! اوه ! اوه ! اوه ! » وخذلتها ساقاها ، فارتمت على ركبتيها امام مسيو مادلين . وقبل ان يتمكن من منعها استشعر انها امسكت بيده ورفعتها الى شفتيها .

ثم غابت عن الوعي .

الكتاب السادس

جافيـر

١

بداية الراحة

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم في منزله نفسه . لقد عهد الى الراهبتين في أمر العناية بها ، فوضعتاها في السرير . لقد عصفت بها حمى عنيفة ، فسلخت شطراً من الليل وهي تهـــذي وتتكلم بصوت عال . وأخيراً استسلمت للرقاد .

وحوالى الظهيرة من اليوم التالي استيقظت فانتين . لقد سمعت تنفساً قرب سريرها ، فأزاحت الستارة ، فرأت مسيو مادلين واقفاً يحدّق الى شيء فوق رأسه . كانت نظرته مفعمة بالالم النفسي الشفوق المتوسّل . وتابعت

اتجاه نظرته هذه فوجدت انها كانت مسدّدة الى تمثال المصلوب المسمّر على الجدار .

ومن تلك اللحظة ُخلق مسيو مادلين خلقاً آخر في عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسوّاً بالضياء . كان مستغرقاً في ضرب من الصلاة . وحدّقت اليه فترة طويلة من غير أن تجرؤ على مقاطعته . وأخيراً قالت في خوف :

— « ما الذي تفعله ؟ »

كان مسيو مادلين قد بلغ ساعة في ذلك المكان . كان ينتظر فانتين حتى تفيق من سباتها . فأمسك بيدها ، وجسّ نبضها ، وقال :

— « كيف حالك ؟ »

فقالت :

— « حسنة جداً . لقد نمت . أظن أني أتحسّن . لن يكون هذا شيئاً . »

ثم إنه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه في البدء ، وكأنما سمعَهُ اللحظة :

— « أنا أصلي للشهيد الذي في الاعالي . »

ثم أضاف بينه وبين نفسه :

— « للشهيدة التي في هذا العالم . »

وقضى مسيو مادلين الليل والصباح مستطلعاً . لقد غدا عارفاً كل شيء . لقد غدا عارفاً قصة فانتين بكامل تفاصيلها الموجعة .

وتابع كلامه :

— لقد كابدتِ كثيراً ، ايتها الام المسكينة . أوه ، لا تنتحبي . لقد فزت الآن بنصيب المختارين من الناس . وإنما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . إنها ليست خطيئتهم على الاطلاق . إنهم لا يعرفون كيف يبدأون على نحو آخر . إن هذا الجحيم الذي خرجتِ منه هو

الخطوة الأولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدأ من هناك .

وأطلق زفرة عميقة . أما هي فابتسمت تلك الابتسامة الرفيعة التي تعوزها سنّان .

وفي الليلة نفسها كتب جافير رسالة . وفي صباح اليوم التالي حمل هذه الرسالة بنفسه الى مركز بريد مونتروي سور مير . كانت موجهة الى باريس ، حاملة هذا العنوان : « الى مسيو شابوييه ، سكرتير السيد مدير الشرطة . »

واذ كانت حادثة مكتب الشرطة قد شاعت بين الناس فقد ظنت مديرة مكتب البريد وغيرها ممن رأوا الرسالة قبل ان تُحمل الى وجهتها ، وممن عرفوا في العنوان خط جافير ، أن مفتش الشرطة قد قدّم بذلك استقالته .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة له بمئة وعشرين فرنكاً . ولقد ارسل اليه ثلاثمئة فرنك طالباً منه أن يقتطع ديونه منها ، وينقل الطفلة في الحال الى مونتروي سور مير لأن أمها المريضة تريد ان تراها .

وأوقعت هذه الرسالة الدهش في نفس تيناردييه .

وقال لزوجته :

— « يا للشيطان ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . ان هذه الفتاة المهزولة سوف تصبح بقرة حلوباً . واحسب ان رجلاً أحمق قد فُتن بالأم . »

وأجاب بأن أرسل فاتورة بخمسمئة وبضعة فرنكات كُتبت كتابة حسنة . وقد تمثلَ في هذه الفاتورة بيانان لا ريب في صحتهما بما يزيد على ثلاثمئة فرنك ، احدهما من طبيب والآخر من صيدليّ عالجا إيبونين وآزيلما وقدّما الادوية اليهما خلال مرضين طويلي الأجل . ذلك بأن كوزيت لم تكن مريضة كما رأينا . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف في الاسماء . وكتب تيناردييه في أدنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثمئة فرنك

على الحساب . »

وفي الحال أرسل مسيو مادلين ثلاثمئة فرنك اخرى وكتب قائلاً : « عجّل بإعادة كوزيت . . »

فقال تيناردييه :

– « يا للمسيح ! نحن ان نتخلى عن الطفلة . . »

ولم تشفَ فانتين في غضون ذلك . كانت لا تزال في المستشفى .

ولم يكن استقبال الراهبتين ، لـ « هذه الفتاة » وعنايتهما بها خلواً ، أول الأمر ، من شيء من الاشمئزاز . وكل من رأى نقش « ريمس » ذا الصورة المجسّمة البارزة بروزاً خفيفاً يذكر انتفاخ شفاه العذارى الحكيمات لدى رؤية العذارى الحمقاوات . والحق ان هذا الازدراء القديم الذي تبديه الفتيات الطاهرات نحو الفتيات الاقلّ حظاً غريزة من أعمق غرائز الكرامة الانثوية . ولقد عرفت الراهبتان ذلك الاشمئزاز قويـــاً ضاعفهُ الدين . ولكن ما إن انقضت بضعة أيام حتى جرّدتهما فانتين من سلاحهما . فقد حرّكت قلبيهما كلماتها الرقيقة المؤثرة ، وعاطفة الامومة التي انطوت عليها . وذات يوم سمعتها الراهبتان تقول وهـــي محمومة تهذي : « كنت خاطئة ، ولكن حين افوز بابنتي فسوف يكون معنى ذلك ان الله قد غفر لي . ويوم كنت منغمسة في الاثم لم اكن اريد ان ارى صغيرتي كوزيت الى جانبي . أنا ما كنت قادرة على ان أحتمل نظراتها المتعجبة المحزونة . ومع ذلك فمن أجلها هي أثِمْتُ ، وهذا هو السبب الذي من أجله يغفر الله لي . سوف أحسّ ببركة الله حين تأتي كوزيت . سوف أنعم النظر فيها . إن مشهد براءتها سوف يعود عليّ بالخير . إنها لا تعرف شيئاً من ذلك كله . انها ملاك ايتها الراهبتان . ففي سنّها تلك تكون الاجنحة لمّا تسقط بعد . »

ووفد مسيو مادلين لرؤيتها مرتين يومياً ، وكلّ مرة كانت تسأله :

– « هل سأرى كوزيت قريباً ? »

فيجيبها :

– « ربما ترينها غداً . أنا أتوقع مجيئها كل لحظة . »

وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .

وتقول :

- « آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا أن صحتها اخذت تتقهقر أسبوعاً بعد أسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سبّبت انقطاع العرق على نحو فجائي ، فاذا بالداء الذي كان كامناً فيها منذ عدة سنوات يهاجمها آخر الأمر في عنف . وكانوا قد شرعوا في ذلك العهد باتباع نظرية لايينيك* الرائعة في دراسة امراض الصدر ومعالجتها . وفحص الطبيب رئتيها وهزّ رأسه .

وسأله مسيو مادلين :

– « وبعد ؟ »

فقال الطبيب :

– « أليس لها طفلة ترغب في أن تراها ؟ »

– « نعم . »

– « حسن . اذن عجلوا في الاتيان بها . »

وارتعد مسيو مادلين .

وسألته فانتين :

– « ماذا قال الطبيب ؟ »

وحاول مسيو مادلين ان يبتسم :

– « لقد قال لنا ان نأتي بابنتكِ في الحال . إن ذلك سوف يعيد

* Laënnec طبيب فرنسي (١٧٨١ – ١٨٢٦) كانت له خدمات جليلة في مكافحة امراض الصدر وتصنيفها .

اليك صحتك . »

فصاحت :

— « اوه . إنه على صواب . ولكن ما الذي يحمل تيناردييه وزوجته هذين على إبقاء صغيرتي كوزيت بعيدة عني ؟ اوه ، إنها سوف تأتي ! وهكذا سأرى السعادة ، آخر الامر ، قريبة مني ! »

بيد ان تيناردييه « لم يتخلّ عن الطفلة » ، وقدّم مئة من الاعذار القبيحة . كانت كوزيت متوجعة بعض الشيء فليس في امكانها أن تحتمل السفر في الشتاء ، ثم كانت هناك بضعة ديون صغيرة يعمل على جمع فواتيرها الخ . الخ .

وقال مسيو مادلين :

— « سوف أرسل شخصاً يجيئني بكوزيت . واذا اقتضى الامر فسوف أذهب أنا نفسي . »

وأملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« مسيو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .
« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .
« لي الشرف ان أحييك في احترام .

« فانتين »

وفي غضون ذلك اعترضت مسألة خطيرة . فمهما نَجِدْ نحتَ الكتلة التي تتألف منها حياتنا فأن عِرق القضاء الاسود يبرز فيها دائماً .

٢

كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح « شان »

وذات صباح كان مسيو مادلين في مكتبه يسوّي مقدّماً بعض شؤون وظيفته الملحّة مخافة ان يضطرّ للسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما أبلغ أن جافير ، مفتش الشرطة ، يريد أن يتحدث اليه . حتى اذا سمع مسيو مادلين هذا الاسم لم يستطع ان يكبت انطباعة كريهة . فمنذ حادثة مكتب الشرطة وجافير يجتنبه اكثر من ذي قبل ، فلم يره مسيو مادلين قط .

وقال :

– « دعه يدخل . »

ودخل جافير .

وظل مسيو مادلين قاعداً قرب الموقد ، وفي يده قلم ، فهو يمعن النظر في ملفٍّ يقلّب صفحاته ويعلّق عليها ؛ وكان ذلك الملفّ يحتوي محاضر مخالفات دوّنتها دوريات الشرطة . ولم يزعج نفسه قطّ من أجل جافير . إنه لم يتمالك عن التفكير بفانتين المسكينة ، وكان من الملائم ان يستقبله في برود كثير .

وفي احترام ، حيّى جافير العمدة الذي كان يوليه ظهره . ولم يرفع العمدة بصره ، بل واصل تدوين الملاحظات على اوراقه .

وتقدّم جافير خطوتين او ثلاث خطوات ، ثم وقف من غير ان يقطع حبل الصمت .

ولو ان خبيراً في الفراسة ُقدّر له أن يألف وجه جافير وان يدرس طوال سنوات عديدة هذا الوحش العامل في خدمة الحضارة ، هذا المركّب العجيب من الروماني والاسبارطي ، من الراهب والجندي

العريف ، هذا الجاسوس العاجز عن ان يكذب كذبة ، هذا الشرطي السري البتول – لو ان خبيراً في الفراسة اطّلع على كراهيته السرّية القديمة لمسيو مادلين ، وعلى خلافه مع العمدة حول مسألة فانتين ، ورأى الى جافير في تلك اللحظة اذن لكان جديراً بان يقول : « ما الذي دهاه ؟ »

كان واضحاً لكل امرىء عرف هـــذا الضمير المستقيم ، الصريح ، الجديّ ، النزيه ، الكالح ، الضاري أن جافير قد عانى اضطراباً داخلياً كبيراً . لم يكن في ذهنه شيء غير مرتسم على محيّاه . كان مثلَ اهل العنف جميعاً عرضةً لتغيرات مفاجئة . ولم يكن وجهه في أيما وقت مضى أغرب ولا أدعى الى الدهش منه في تلك اللحظة . كان قد انحنى ، لدن دخوله ، لمسيو مادلين في نظرة لم يكن فيها لا حقد ، ولا غضب ، ولا تحدٍّ . ولقد وقف على بضع خطوات خلف الكرسيّ ، وهـا هو ذا الآن منتصب هناك على نحو يكاد يكون عسكرياً بالشراسة الطبيعية الباردة التي ينكشّف عنها رجلٌ لم يكن قط كريماً ، ولكنه كان دائماً صبوراً . لقد انتظر من غير ان ينطق بكلمة ، أو يأتي بحركة ، في ضراعةٍ حقيقية وإذعان ساكن ، حتى يحلو للسيد العمدة ان يلتفت نحوه – انتظر هادئاً ، جادّاً ، ممسكاً قبعته بيده ، مطرق العينين في انطباعة هي وسطٌ بين سيما الجندي الماثل بين يدي ضابطه ، والمتهم الماثل بين يدي قاضيه . لقد اختفت جميع المشاعر وجميع الذكريات الـــتي يمكن للمرء ان يتوقع ظهورها في حاله تلك . ولم يبق على هذا الوجه المغلَق البسيط كالصوّان غير حزنٍ كالح . كان شخصه كله ينطق بالضعة والصلابة ، وبضرب غريب من الكآبة الباسلة .

واخيراً اطّرح العمدة قلمه واستدار على نحو جزئي .

– « حسن . ماذا تريد ؟ ما المسألة ، يا جافير . »

وظل جافير صامتاً ، لحظةً ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوته في خشوع حزين لم تعوزه البساطة ، برغم ذلك :

– « لقد اقتَرِف عمل اجراميّ ، يا سيدي العمدة . »

– « وما هو ؟ »

– « لقد أظهر احد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، على نحو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقد جئت ، بحذوني واجبي ، لكي احيطك بذلك علماً . »

فسأله مسيو مادلين :

« ومن هو ذلك العامل ؟ »

فقال جافير :

– « أنا . »

– « انت ؟ »

– « أنا . »

– « ومن هو الحاكم الذي ينبغي أن يشكو هذا العامل ؟ »

– « انت ، يا سيدي العمدة . »

وتصدّر مسيو مادلين في كرسيه . وتابع جافير كلامه في انطباعة صارمة ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض :

– « سيدي العمدة . لقد جئت لكي ارجوك ان تتلطّف غاية التلطّف وتغري السلطة بصرفي من الخدمة . »

وفي ذهول ، فتح مسيو مادلين فمه . فقاطعه جافير :

– « ستقول إن في استطاعتي ان اقدّم استقالتي . ولكن هذا غير كافٍ . الاستقالة مشرّفة . ولكني قد أذنبت . ويجب ان أعاقب . يجب ان امرّح من الخدمة . »

وبعد ان تمهّل لحظةً ، أضاف :

– « سيدي العمدة ، لقد كنتَ قاسياً عليّ ، ذلك اليوم ، في غير حق . فكن قاسياً عليّ اليوم ، في حقّ . »

– « آه ، هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا الهراء كله ؟ ما معنى هذا ؟

وايّ عمل إجرامي ارتكبتَهُ ضدي ؟ ما الذي عملتَهُ لي ؟ كيف اذنبتَ في حقي ؟ انت تتهم نفسك . اتريد ان نسند منصبك الى رجل آخر ؟ »

فقال جافير :

— « اريد ان أُسرّح من الخدمة . . »

— « فلتُسَرّحْ ، اذن . هذا غريب جداً . أنا لا أفهم . . »

— « سوف تفهم ، يا سيدي العمدة . . »

وزفر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن وبرود :

— « يا سيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادّة حول تلك الفتاة ، استبدّ بي الغضب ، فشكوتك . . »

— « شكوتني ! »

— « الى مديرية الشرطة في باريس . . »

وشرع مسيو مادلين يضحك ، وهو الذي كان مثل جافير لا يضحك الا نادراً :

— « بوصفي عمدةً اعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »

— « بوصفك رجلاً حُكم عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . . »

وغدا وجه العمدة أزرق ضارباً الى السواد .

وتابع جافير — ولم يكن قد رفع عينيه — قائلاً :

— « لقد اعتقدت ذلك . . منذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعتَها في فافيرول ، وقوتك الهائلة ، ومسألة فوشلوفان العجوز ، وبراعتك في الرماية ، ورجلك المتثاقلة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحماقات الاخرى . ولكني حسبتك ، في آخر الأمر ، رجلاً يدعى جان فالجان . . »

— « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »

— « جان فالجان . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة رأيته منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكوم

عليهم بتلك الاشغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا ، السجن سرق في ما يبدو قصر احد الاساقفة ، ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عامّ ، وكان المسروق غلاماً من غلمان سافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متوارٍ ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . – وبالاختصار ، قمتُ بهذا العمل . وإنما حملني الغضب على ان اقرّر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة . »

واستأنف مسيو مادلين الكلام – وكان قد عاود الامساك بالملف قبل بضع ثوان – فقال في نبرة من اللامبالاة الكاملة :

– « وبماذا اجابوك ؟ »

– « بأنني معتوه . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « إنهم على صواب . »

– « من حسن الحظ ان تعتقد ذلك ! »

– « يجب أن أعتقد . لأن جان فالجان الحقيقي قد وُجد . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممسكاً بها ، من يده . ورفع رأسه ، ونظر الى جافير على نحو موصول ، وقال في نبرة لا سبيل الى وصفها :

– « آه ! »

وتابع جافير حديثه :

– « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يا سيدي العمدة . يبدو أنه كان ثمة في المنطقة ، قرب « آلي – لو – هو – كلوشيه » رجل بسيط يدعونه الأب شانماتيو . كان فقيراً جداً . ولم يكن احد يلتفت اليه . إن المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيراً ، في هذا الخريف ، اعتقل الاب شانماتيو لسرقته شيئاً من التفاح الذي تصنع منه الخمر ، في ... ؛ ولكن هذا لا يهمّ . لقد وقعت سرقة ، وتسوّر

شخص ما جداراً ، وكسر أغصاناً . واعتقل صاحبنا شانماتيو . كان يحمل حتى في ذلك الحين غصناً من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل الحقير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن العناية الالـهية ما لبثت ان تدخلت . ذلك بأن السجن كان في حال سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن المديرية . وفي ذلك السجن كان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعى بروفيه أدخل السجن لذنب طفيف لا أدريه ثم جُعِل لحسن سلوكه سجاناً . ولم يكد المقام يستقر بشانماتيو حتى صاح بروفيه : « ها ، ها ! انا اعرف هذا الرجل . إنه واحد ممن قُدّر لهم ان يدخلوا سجن الاشغال الشاقة . انظر اليّ جيداً ، ايها الرجل الطيب . انت جان فالجان ! » فقال له الرجل : « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان هذا ؟ » وتظاهر شانماتيو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل . انت جان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولون . كان ذلك منذ عشرين عاماً . وكنا هناك معاً . » وانكر شانماتيو . يا الـهي ! أفهمت ؟ وتعمّقوا المسألة . وبحثوا ونقبوا ، فاكتشفوا ما يلي . لقد كان شانماتيو هذا قبل ثلاثين عاماً ، مشذّب اغصان في اماكن متعددة ، وخاصة في فافيرول . وهناك نفتقد أثره . وبعد فترة طويلة نجده في أوفيرني ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع عربات ، وانه كانت له بنت عملت غسالة ، ولكن ذلك شيء لم يقم عليه دليل ، واخيراً وجدناه في هذه المنطقة . والآن ، قبل ان يساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة ماذا كان جان فالجان ؟ مشذب اغصان . أين ؟ في فافيرول . وشيء آخر . كان اسم المعمودية عند فالجان هو جان ، وكان اسم اسرة أمه ماتيو . وطبيعي جداً ان يكون عند خروجه من السجن قد اتخذ اسم امه إخفاءً لهويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفاً بـ « جان ماتيو » .

ويذهب الى اوفيرني وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، أليس كذلك ؟ ثم أجريت مباحث في فافيرول . ان اسرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الأسَر على هذا النحو كثيراً ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فحين لا يكون هؤلاء القوم وحلًا يكونون غباراً . واذ كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فافيرول الآن من يعرف جان فالجان . ولكن تحقيقات قد أجريت في طولون . فباستثناء بروفيه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . إنهما من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشباي » و « شونيلديو » . وجيء بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالا ، كما قال بروفيه ، إنه جان فالجان . فالعمر واحد – اربع وخمسون سنة – والطول واحد ، والشكل واحد ، والاثنان في الواقع رجل واحد . إنه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس . وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك ، انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق . فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليمثل امامي . »

فقاطعه مسيو مادلين :

– « ثم ماذا ؟ »

فأجابه جافير ، بوجه عفيف محزون :

– « سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جداً ، ولكن

ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفته انا ايضاً . »

فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جداً :

– « اواثق انت من ذلك ؟ »

– وبدأ جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايمان العميق :

– « انا واثق . »

وظلّ شارد الذهن لحظةً ، رافعاً على نحو آلي قبضات من نشارة الخشب التي تصطنع لتجفيف الحبر كانت في صندوق على الطاولة ، ثم أضاف :

– « والآن اذ ارى جان فالجان الحقيقي لا استطيع أن افهم كيف جاز لي ان اعتقد غير ذلك . انا ألتمس عفوك يا سيدي العمدة . »

وفيما هو يوجه هذه الكلمات المتوسلة الرصينة الى ذلك الذي اهانه ، قبل ستة اسابيع ، امام الحرس كلهم وقال له : « اخرج ! » كان جافير – هذا الرجل المتكبر – مفعماً على غير وعي منه بالبساطة والوقار . واجابه مسيو مادلين عن التماسه بهذا السؤال المفاجيء :

– « وماذا قال الرجل ؟ »

– « اوه ، عجباً ! المسألة قبيحة ، يا سيدي العمدة . اذا كان هو جان فالجان ، فمعنى ذلك عودة الى الجريمة . إن تسوُّر جدار ما ، وكسر غصن من الاغصان ، وسرقة بعض التفاح لا تعدو ان تكون – بالنسبة الى الطفل – ذنباً . وهي – بالنسبة الى الرجل – جنحة . ولكنها – بالنسبة الى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة – جريمة . إن التسور والسرقة يشملان كل شيء . إنها ليست قضية من قضايا شرطة الجنح ، ولكنها قضية تنظر فيها محكمة الجنايات . ان عقوبتها ليست السجن بضعة ايام ، ولكنها الاشغال الشاقة مدى الحياة . والى هذا ، فهناك قضية ذلك الغلام السافواني الصغير

الذي ارجو ان يُعثر عليه . بالشيطان ! هناك شيء ينبغي ان يُناضَلَ ضده ، اليس كذلك ؟ نعم ، من اجل ايّ امرىء باستثناء جان فالجان . ان جان فالجان رجل ذو وجهين . وتلك عندي علامته الفارقة . لقد كان خليقاً بايّ انسان آخر ان يدرك أنه في وضع حرج حام فيضطرب . ويصرخ كما يصفر الاناء المعدني فوق النار . كان خليقاً به ان يقول إنه ليس جان فالجان ، الخ . ولكن هذا الرجل يتظاهر بانه لا يفهم ان يقول : « انا شانماتيو ، ليس عندي ما اقوله غير ذلك . » إنه يتظاهر بالدهش . إنه يمثل دور البهيمة . اوه ، إن الوغد داهية ! ولكن ، سيان . فهناك الدليل . لقد عرفه اربعة اشخاص ؛ وان النذل العجوز سوف يُدان . لقد رُفعت القضية الى محكمة الجنايات في آراس . وسوف امضي الى هناك لأدلي بشهادتي . لقد دُعيت من اجل ذلك . »

كان مسيو مادلين قد ارتدّ الى منضدته ، وانشأ يقلّب اوراقه في هدوء ، فهو يقرأ حيناً وهو يكتب حيناً ، مثل رجل مثقل بالأعمال . ثم التفت الى جافير كرة اخرى وقال :

— « كفى ، يا جافير . الواقع ان هذه التفاصيل كلها لا تهمني إلا قليلاً . نحن نضيع وقتنا ، ولدينا مهامّ ملحّة ، يا جافير . اذهب في الحال الى منزل المرأة الطيبة بوزوبييه التي تبيع الاعشاب في زاوية شارع سان سولف . وقلْ لها ان ترفع شكواها على سائق العربات بيير شينلون . إنه وحشيّ كاد ان يسحق هذه المرأة وطفلها . يجب ان يعاقب . ثم اذهب بعد ذلك الى مسيو شارسيلي ، في شارع مونتر دو شابيني . انه يشكو من ان ثمة ميزاباً في احد البيوت المجاورة يقذف بيته بماء المطر ، على نحوٍ يقوّض آساس البناء . وبعد ذلك ينبغي ان تحقق في المخالفات التي رُفع امرها اليّ ، والتي وقعت عند الارملة دوريس في شارع غيورغ ، وعند مدام رينيه لو بوسيه في شارع غارو — بلان ، وان

تضع تقريرك عنهما . ولكني أثقل عليك بالعمل . ألم تقل لي انك ذاهب الى آراس ، خلال ثمانية ايام او عشرة ايام ، لأمر يتصل بهذه المسألة؟»

– « أبكر من ذلك ، يا سيدي العمدة . »

– « في ايّ يوم اذن ? »

– « أحسب اني انبأت سيدي العمدة ان تلك القضية سوف تُنظر غداً ، وان عليّ ان أسافر بالعربة العمومية الليلة . »

وأتى مسيو مادلين بحركة لا تكاد تُلحظ .

– « وكم ستستغرق هذه المسألة ? »

– « يوماً واحداً على الاكثر . ولسوف يُلفظ الحكم غداً مساء على الأبعد . ولكني لن أنتظر صدور الحكم فهو راهن لا شك فيه . فما إن ادلي بشهادتي حتى ارجع الى هنا . »

فقال مسيو مادلين :

– « حسن . »

واذن له بالانصراف بحركة من يده .

ولكن جافير لم ينصرف . وقال :

– « عفواً ، يا سيدي العمدة . »

فسأله مادلين :

– « وماذا بعد ? »

– « سيدي العمدة ، هناك شيء آخر ارغب في أن ألفت نظرك اليه . »

– « وما هو ? »

– « هو أني يجب ان أسرّح . »

ونهض مسيو مادلين .

– « جافير ، انت رجل شرف ، وأنا أقدرك . انك تبالغ في تضخيم غلطتك . والى ذلك ، فهذه مخالفة تعنيني انا . انت جدير بالترفيع

لا بالاسقاط . انا اريد منك ان تحتفظ بمنصبك . . »

ونظر جافير الى مسيو مادلين ، بعينين هادئتين يُخيّل الى الناظر انه يرى في اعماقها هذا الضمير ، غير المستنير ، وإن يكن صارماً طاهراً . وقال في صوت هادىء :

— « سيدي العمدة ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك . . »

فقال مسيو مادلين :

— « أكرر ان هذه مسألة تتعلّق بي شخصياً . . »

ولكن جافير ، المستغرق في فكرته الوحيدة ، تابع الكلام :

— « أما المبالغة ، فأني لا ابالغ على الاطلاق . هذه هي الطريقة التي افكر بها : لقد ارتبتُ بك في غير حق . وليس هذا شيئاً . إن وظيفتنا قوامها الارتياب ، على الرغم من اننا قد نسيء استعمال حقنا اذا ارتبنا في رؤسائنا . ولكن من غير بيّنات ، وفي سورة من الغضب ، وبدافع من الانتقام الشخصي ، شكوتك بوصفك محكوماً سابقاً بالاشغال الشاقة — انت ، الرجل المحترم ، العمدة ، الحاكم . هذه مسألة خطيرة ، خطيرة جداً . لقد أهنتُ السلطة في شخصك ، انا العامل في خدمة السلطة . ولو قد فعل احد مرؤوميّ ما فعلتُهُ اذن لاعتبرته غير جدير بالعمل ، ولطردته من منصبه . ثم ماذا ؟ كلمة أخرى ، يا سيدي العمدة . لقد كنت في معظم أيامي قاسياً على الناس ، وكان ذلك عدلاً . لقد أحسنت في ذلك . والان ، اذا لم أكن قاسياً على نفسي فان كل ما فعلته بعدل سوف ينقلب الى ظلم . هل يحسن بي أن أترفق بنفسي اكثر من الآخرين ؟ لا . ماذا أقول ؟ اذا لم أُحسن إلا معاقبة الناس من دون نفسي فعندئذ اكون دنيئاً حقاً ! وعندئذ يصبح أولئك الذين يقولون « هذا الوغد جافير » على حقّ . سيدي العمدة ، أنا لا اريد منك ان تعاملني في رفق . لقد كان اصطناعك الرفق في معاملة الآخرين يهيج غضبي ، فأنا لا أبغيه لنفسي . ذلك الرفق

الذي قوامه الانتصار ابنت من بنات الهوى على مواطن من المواطنين ، ولشرطيّ على عمدة ، ولمرؤوس على رئيس – إنه ما أدعوه ، « الرفق الموضوع في غير محله » . مثل هذا الرفق يشيع الفوضى في المجتمع . يا الٓهي ، من اليسير ان يكون المرء رفيقاً ، ولكن من العسير ان يكون عادلاً . ولو أنك كنت كما توهمتك ، لما كنتُ خليقاً بأن أرفق بك . لا ، غيري الذي يرفق . ولقد كنتَ جديراً بأن ترى ، يا سيدي العمدة . يتعين عليّ أن أعامل نفسي كما أعامل أي إنسان آخر . كثيراً ما أقول لنفسي حين أزجر الاشرار ، وحين أعاقب المخالفين : « حذار ان تزلي ، حذار أن أقبض عليك متلبّسة بخطيئة ! » لقد زللتُ . لقد قبضت على نفسي متلبّساً بخطيئة . لأمي المبَل ! يجب ان أقصى ، أن أحطَّم ، أن أسرّح . هذا حسن . إن لي ذراعين . أنا لا أزال قادراً على أن أفلح الارض ؛ ولست أجد في ذلك غضاضة . إن المصلحة العامة في حاجة الى مَثَل . وانا لا أطلب غير تسريح المفتش جافير . »

وانما قيل ذلك كله في نبرة متّضعة ، فخور ، يائسة ، جازمة خلعت عظمة غريبة لا سبيل الى وصفها على هذا الرجل النزيه الى حدّ عجيب .

فقال مسيو مادلين :

– « سنرى . »

وبسط يده نحوه .

وارتدّ جافير الى الوراء ، وقال في جرس ضارٍ :

– « عفواً ، يا سيدي العمدة . هذا شيء لا ينبغي ان يكون . ان العمدة لا يبسط يده الى الجاسوس . »

وأضاف من بين أسنانه :

– « جاسوس ؛ أجل . فمنذ اللحظة التي أسأت فيها استعمال سلطتي ، لم أكن أكثر من جاسوس ! »

ثم انحنى انحناءة مغالىً فيها ، ومضى نحو الباب .

وهناك استدار ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض .

- « سيدي العمدة ، سوف استمرّ في الوظيفة حتى أسرّح . »

قال ذلك وخرج . واستغرق مسيو مادلين في تأملاته ، مصغياً الى خطواته الثبتة الراسخة فيما هي تبتعد متلاشية على ارض الرواق .

الكتاب السابع

قضيّة شانماتيو

١

الاخت سيمبليس

إن الاحداث التي سنقرأها لم ُتعرف كلها قطّ في مونتروي سور مير . ولكن القليل الذي تسرّب منها قد ترك في تلك المدينة ذكريات ُيحدث إغفالها ، بتفاصيلها الدقيقة ، ثغرة في هذا الكتاب .

وبين تلك التفاصيل سيلقى القارىء حادثتين او ثلاث حوادث غير ممكنة الوقوع ُنثبتها احتراماً للحقيقة .

ففي الاصيل الذي تلا زيارة جافير ، ذهب مسيو مادلين ليرى فانتين كالعادة .

وقبل ان ينتهي الى غرفة فانتين استدعى الاخت سيمبليس .

كانت الراهبتان القائمتان بعبء الخدمة في المستشفى ، وهما لعازاريتان مثل جميع راهبات المحبة هؤلاء ، تدعيان الاخت بيربيتو ، والاخت سيمبليس .

وكانت الاخت بيربيتو فتاة ريفية عادية انتمت الى راهبات المحبة في غير إبطاء — فتاة فظة دخلت في خدمة الله وكأنها تلتحق بأيما عمل من الاعمال . كانت راهبة كما تكون غيرها طاهية . وليس هذا الطراز نادراً . فالرهبانيات ترحب بهذا الفخّار الريفي الثقيل الذي يسهل تحويله الى « كبوشي » او « ارسوليني » . * ومثل هذه الكائنات الجلفة تُصطنع عادةً في مهامّ العبادة الأكثر خشونة . وليس ثمة صدمة في انتقال المرء من راعي بقر الى راهب كرمليّ . ان احد هذين يستطيع ان يحلّ محل الآخر من غير كبير عناء . فالجهل ، وهو الاساس المشترك الذي تقوم عليه القرية والدير ، هو في ذاته إعداد مُنجَز ، وهو يضع الريفيّ ، في الحال ، على مستوى واحد مع الراهب . وسّع القميص قليلاً ، تحصل على ثوب الرهبانية . وكانت الاخت بيربيتو راهبة شديدة البأس ، من مارين ، قرب بونتواز ، تُكثر من استعمال التعابير الاقليمية ، وتتلو المزامير على نحو رتيب . وكانت نزّاعة الى التذمر ، تضع السكّر في الدواء ، وفقاً لتطرف المريض في التقوى أو في الرياء ، جلفةً مع المرضى ، خشنة مع الموتى تكاد ان تقذف بهم في وجه الرب قذفاً ، راجمة حشرجاتهم بصلوات مغضبَة ، وقد شاع الدم في وجهها وبدت عليها أمارات الجسارة والطهارة .

اما الاخت سيمبليس فكانت بيضاء شمعية اللون . وكانت اذا ما قورنت بالاخت بيربيتو اشبه ما تكون بشمعة طويلة عسلية المادة الى جانب شمعة صُنعت من شحم . ولقد سبق للقديس فنسان دو بول ان

---

* الكبوشية والارسولينية رهبانيتان معروفتان .

رسم أكمل ما يكون الرسم صورة لراهبة المحبة في هذه الكلمات الرائعة التي يمزج فيها كثيراً من الحرية بكثير من العبودية : « إن ديرها الأوحد سوف يكون بيت المرضى ، وقلّيتها * الوحيدة غرفةٌ مستأجرة. ولن يكون لها معبد غير كنيسة الابرشية ، ولا محبسٌ غير شوارع المدينة أوغرف المستشفى. ولن يكون سياجها غير الخضوع ، وحاجزها المقضّب غير خوف الله ، وخمارها غير الحياء . » وإنما تجسّد هذا المثل الاعلى حياً في الاخت سيمبليس . إن احداً ما كان قادراً على ان يحزر عمر الاخت سيمبليس . انها لم تكن شابة في يوم من الايام ، ولقد بدا وكأنها لن تشيخ في يوم من الأيام . كانت شخصاً – فنحن لا نجرؤ على ان نقول امرأة – هادئاً ، عابساً ، حسن العشرة ، بارداً لم تكذب طوال عمرها مرة واحدة . كانت من اللطف البالغ بحيث تبدو قصِفة سريعة الانكسار ، ولكنها في ما عدا ذلك أشدّ صلابة من الصوّان . كانت تمسّ البائسين بأصابع فاتنة ، رقيقة ، طاهرة . كان ثمة – اذا جاز التعبير – صمتٌ في كلامها . كانت تقول ما هو ضروريّ ليس غير ، وكان لها جرْس قادر على ان ينير كرسيّ اعتراف ، وعلى ان يفتن صالوناً من الصالونات ، في وقت معاً . وكانت هذه الرقة تكيّف نفسها مع الثوب الصوفي الاسمر الخشن واجدة في لمسته الجافية مذكّراً دائماً بالجنة وبالله . ولنؤكد مسألة واحدة : ان كونها لم تكذب قط ، ولم تقل قط – لأي غرض مهما يكن ، بل ولغير ما غرض – كلمة واحدة ليست هي الحقيقة ، الحقيقة المقدسة – إن هذه الواقعة كانت هي شيمة الاخت سيمبليس المميزة . كانت آية فضيلتها . وقد كادت تكون شهيرة في الرهبانية بسبب من هذا الصدق الثابت الجنان . وإنما تحدّث الراهب سيكارد عن الاخت سيمبليس في رسالة بعث بها الى « ماسيو » الاصمّ الأبكم . إننا مهما نكن مخلصين ، امناء ، طاهرين نحمل كلنا طابع كذبة صغيرة بريئة . اما هي فلا . كذبة صغيرة ، كذبة

---

* القلاية : شبه الصومعة .

بريئة ، هل يوجد شيء مثل هذا ؟ الكذب هو الشرّ المطلق . والكذب قليلًا ليس شيئاً ممكناً . إن ذلك الذي يكذب ، يكذب كذبة كاملة . الكذب هو وجه الشيطان نفسه . إن لابليس إسمين ، فهو يدعى إبليس ، وهو يدعى الكذاب . تلك كانت افكارها . وكما كانت تفكّر ، كانت تعمل . ومن هنا هذا البياض الذي تحدثنا عنه ، البياض الذي يغطي باشعاعه حتى شفتيها وعينيها . كانت ابتسامتها بيضاء ، وكانت نظرتها بيضاء . لم يكن ثمة نسيج عنكبوت ، او ذرة من الغبار على زجاج ذلك الضمير. وحين نذرت نفسها للعمل تحت لواء القديس فنسان دو بول اتخذت اسم سيمبليس باختيار خاص . وسيمبليس الصقلية هي ، كما هو مشهور ، تلك القديسة التي آثرت ان يُقتلع ثدياها الاثنان على ان تجيب — وهي التي ولدت في سيراكيوس — بقولها انها ولدت في سيجيستا ، وتلك كذبة كان جديراً بها ان تنقذها . كانت هذه القديسة الشفيعة ، تلائم هذه النفس .

وكانت للاخت سيمبليس ، حين دخلت الرهبانية ، علتان تحرّرت منهما شيئاً بعد شيء . كانت تحب الحلويات ، وتحب ان تتلقى الرسائل . اما الان فلم تعد تقرأ غير كتاب صلاة ضخم الحروف لاتينيّ اللغة . لم تكن تفهم اللاتينية ، ولكنها فهمت الكتاب .

وانعطف قلب المرأة التقية على فانتين ، ولعلها ان تكون قد لمست فيها فضيلة كامنة ما ، ووقفت نفسها وقفاً كاملًا تقريباً على العناية بها .

وانتحى مسيو مادلين بالاخت سيمبليس مكاناً ، وأوصاها بفانتين في نبرة غريبة تذكرتها الاخت في يوم تال .

حتى اذا فارق الاخت ، اقترب من فانتين .

كانت فانتين تنتظر كل يوم ظهور مسيو مادلين كما ينتظر المرء شعاعاً من الدفء ومن البهجة . وكانت تقول للراهبتين :

— « أنا لا أحيا إلا حين يكون السيد العمدة هنا . »

وفي ذلك اليوم اشتدت عليها وطأة الحمى . فلم تكد ترى مسيو مادلين حتى سألته :

— « كوزيت ؟ »

فأجابها في ابتسامة :

— « قريباً جداً . »

وبدا مسيو مادلين ، وهو الى جانب فانتين ، في حاله المعتادة . بيد أنه أقام عندها هذه المرة ساعة بدلاً من نصف ساعة ، موفعاً بذلك اعظم الرضا في نفس فانتين . ولقد الحّ ألف مرة على كل امرىء بأن تُلبّى مطالب المريضة كلها . ولقد لوحظ أن محيّاه بدا ، في لحظة من اللحظات ، قاتماً جداً . ولكن تفسير ذلك ما لبث ان اتضح عندما عُرف ان الطبيب قال له بعد ان انحنى فوق اذنها :

— « إن قواها تتلاشى في سرعة . »

ثم انه رجع الى مكتب العمدة ، فرآه الخادم يدرس في دقة خريطةً من خرائط الطرق في فرنسة تتدلى على جدار غرفته . ولقد صوّر بعض الارقام بقلم رصاصي على قصاصة من الورق .

٢
ذكاء المعلم سكوفلير

ومن مكتب العمدة مضى الى ضواحي المدينة قاصداً الى رجل فلمنكي * يدعى المعلم سكاوفلر — وقد فُرنِسَتْ فأمست سكوفلير — وكان يؤجر الخيل ويؤجر « العربات الخفيفة لمن يشاء » .

وكانت اقصر الطرق للذهاب الى سكوفلير هذا تقضي بسلوك شارع

* الفلمنكيون : ابناء بلاد الفلاندر .

نادراً ما تطأه الأقدام ، حيث كان بيت كاهن الابرشية التي يعيش فيها مسيو مادلين . وكان الكاهن ، كما قيل ، رجلا جليلا محترماً ، ذا رأي ونصيحة . وفي اللحظة التي انتهى فيها مسيو مادلين الى بيت الكاهن لم يكن في الشارع غير عابر سبيل واحد . ولقد لاحظ عابر السبيل هذا ما يلي : أن العمدة ، بعد ان تخطى منزل الكاهن ، وقف لحظة ، ثم ارتد على آثاره حتى باب ذلك المنزل ، وكان باباً ضخماً ذا قارعة حديدية . وأمسك بتلك القارعة بقوة ، ورفعها ، ثم وقف من جديد ، متمهلا لحظة وكأنه يفكر ؛ وبعد بضع ثوان اعاد القارعة في تلطف الى مكانها بدلاً من ان يقرع الباب بها في صخب ، واستأنف سيره بضرب من العجلة لم يصطنعه من قبل .

ووجد مسيو مادلين المعلم سكوفلير في بيته منهمكاً في إصلاح جهاز من أجهزة الخيل .

وسأله :

– « ايها المعلم سكوفلير ، هل عندك جواد أصيل ؟ »

فقال الرجل الفلمنكي :

– « سيدي العمدة ، إن جميع جيادي اصائل . ماذا تعني بالجواد الأصيل ؟ »

– « اعني جواداً يستطيع ان يقطع عشرين فرسخاً في اليوم . »

فقال الفلمنكي :

– « يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ! »

– « نعم . »

– « مقروناً الى عربة ؟ »

– « نعم . »

– « وكم سوف يستريح بعد الرحلة ؟ »

– « يجب ان يكون قادراً على ان يعود في اليوم التالي اذا

اقتضت الحال . »

— « ليقطع المسافة نفسها مرة اخرى ؟ »

— « نعم . »

— « يا للشيطان ! يا للشيطان ! وهي عشرون فرسخاً ايضاً ؟ »

واخرج مسيو مادلين الورقة التي سبق له ان دوّن عليها بعض الارقام بقلم رصاصي . وأطلع الرجل الفلمنكي على تلك الارقام . فاذا هي ٥ و ٦ و ٨ ١/٢ .

وقال :

— « ترى ، المجموع تسعة عشر ونصف ، وبكلمة ثانية عشرون فرسخاً . »

فاستأنف الفلمنكي كلامه :

— « سيدي العمدة ، عندي ما تطلبه تماماً . إنه جوادي الابيض الصغير . ولا ريب انك رأيته في بعض الطريق احياناً . إنه بهيمة صغيرة من « بولونيه الدنيا » . إنه مفعم بالنار . لقد حاولوا اول الامر ان يتخذوا منه حصاناً للركوب ، ولكنه اخذ في الرفس ، وأزلّ عن صهوته كل من حاول امتطاءه . وظنوا انه حرون ، ولم يدروا ما الذي ينبغي ان يفعلوه . واشتريته وقرنته الى عربة خفيفة . ذلك ما كان يريده ، يا سيدي . إنه رقيق الحاشية ، مثل فتاة من الفتيات . إنه ينطلق كالريح . آه ، مثلاً ، ينبغي ان لا يمتطي المرء صهوته . ليس من رأيه ان يكون فرس ركوب . إن لكل فرد طموحه الخاص . اريد ان اجرّ ، لا أن أحمل : ينبغي ان نؤمن بأنه قال ذلك لنفسه . »

— « وسوف يقوم بالرحلة ؟ »

— « اجل سوف يقطع العشرين فرسخاً التي تتحدث عنها ، وسوف يقطعها خَبَباً ، وفي أقلّ من ثماني ساعات . ولكن ثمة بعض الشروط . »

— « ما هي ؟ »

– « أولاً ، يجب ان تدعه يتنفس ساعة حين تبلغ منتصف الطريق . وعندئذ يأكل ؛ وينبغي ان يقف الى جانبه بينا هو يأكل شخصٌ ما لكي يمنع صبيّ الخان من سرقة شوفانه . لاني لاحظت ان الشوفان يشربه صبية الخانات اكثر مما تأكله الخيل . »

– « ان شخصاً ما ، يجب ان يكون هناك . »

– « ثانياً ... ايريد سيدي العمدة العربة لنفسه ؟ »

– « نعم . »

– « هل يعرف سيدي العمدة كيف يسوقها ؟ »

– « نعم . »

– « حسن . اذن فسيدي العمدة سوف يرتحل وحده من غير امتعة . لكي لا يرهق الجواد . »

– « موافق . »

– « ولكن لمـّا كان سيدي العمدة سيسافر وحده ، فسوف يُضطر الى أن يتجشّم عناء حراسة الشوفان بنفسه . »

– « لا بأس . »

– « اريد ثلاثين فرنكاً يومياً . على ان تُدفع ايام الراحة ايضاً . ولست أرضى اقلّ من ذلك بربع « سو » . وعلى سيدي العمدة ان يتحمل نفقة العليق . »

واخرج مسيو مادلين من كيس نقوده ثلاث ليرات ذهبية نابوليونية ووضعها على الطاولة قائلاً :

– « هذه اجرة يومين ، مقدّماً . »

– « رابعاً ، إن العربة قد تكون ثقيلة جداً بالنسبة الى رحلة كهذه ، وقد ترهق الجواد . لذلك ينبغي ان يوافق سيدي العمدة على السفر في عربة صغيرة ذات دولابين موجودة عندي . »

– « اوافق على ذلك . »

– « إنها خفيفة ، ولكنها مكشوفة . »
– « كل ذلك سواء عندي . »
– « هل فكر سيدي العمدة أننا في فصل الشتاء ؟ »
ولم يجب مسيو مادلين . وتابع الفلمنكي كلامه :
– « وأن الجوّ بارد جداً ؟ »
وظلّ مسيو مادلين معتصماً بالصمت .
وتابع المعلم سكوفلير :
– « وأنها قد تمطر ؟ »
فرفع مسيو مادلين رأسه وقال :
– « إن الجواد والعربة المكشوفة سوف يكونان أمام بابي غداً في الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »
فأجاب سكوفلير :
– « اتفقنا . »
قال ذلك ، وأنشأ يخدش بظفر إبهامه لطخةً كانت على خشب الطاولة ليستأنف بعدُ حديثه بتلك الانطباعة اللامبالية التي يحسن ابناء الفلاندر مزجها بدهائهم :
– « ولكن يا عجباً ! انا لم افكر بذلك إلا الآن . ان سيدي العمدة لم يخبرني الى اين يعتزم أن يذهب . الى اين سيذهب سيدي العمدة ؟ »
ولم يكن قد فكر بشيء آخر منذ بدء المحادثة ، ولكنه لم يجرؤ – من غير ان يدري لماذا – على أن يطرح هذا السؤال .
فقال مسيو مادلين :
– « هل لجوادك قائمتان اماميتان قويتان ؟ »
– « نعم ، يا سيدي العمدة . يجب ان تكبح جماحه قليلاً حين تهبط الكثيب . هل ثمة منحدرات كثيرة من هنا الى المكان الذي تعتزم

الذهاب اليه ؟ »

فأجابه مسيو مادلين :

— « لا تنسَ ان تكون عند باب داري في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »

وخرج .

وغودر الرجل الفلمنكي « مصعوقاً » ، كما عبّر هو نفسه في ما بعد.

ولم تكد تمضي على ذهاب العمدة دقيقتان او ثلاث دقائق حتى فُتح الباب من جديد . كان القادم هو السيد العمدة .

كانت تعلو وجهه سيماه المعتادة الممتنعة على التأثر ، الشاردة الذاهلة .

وقال :

— « مسيو سكوفلير ، بكم تقيّم الجواد والعربة المكشوفة اللذين ستزودني بهما ، حاملًا أحدُهما الآخر ؟ »

فقال الفلمنكي في ضحكة عالية :

— « جارّاً احدُهما الآخر . »

— « كما تحبّ . بكم ؟ »

— « ايريد سيدي العمدة ان يشتريها ؟ »

— « لا ، ولكني اريد ان اضمنها لك على أية حال . حتى اذا رجعت كان في إمكانك ان تُعيد اليّ المبلغ . بكم تقيّم الجواد والعربة المكشوفة ؟ »

— « بخمسمئة فرنك ، يا سيدي العمدة ! »

— « ها هي ذي . »

ووضع مسيو مادلين ورقة نقدية على الطاولة ، ثم خرج ، ولكن من غير ان يعود هذه المرة .

وندم مسيو سكوفلير اعظم الندم لأنه لم يقل ألف فرنك . والواقع ان الجواد والعربة المكشوفة لم يكن ثمنها ليزيد — معاً — على مئة

ريال .

ونادي الرجل الفلسكي زوجته وروى لها المسألة . يا للشيطان ! ولكن الى أين يمكن للعمدة ان يذهب ؟ وتحدثا في ذلك . فقالت الزوجة : « انه ذاهب الى باريس . » فقال الزوج : « لست اعتقد ذلك » وكان مسيو مادلين قد نسي الورقة التي دوّن عليها الارقام ، تاركاً اياها على الموقد . فتناولها الفلسكي وراح يدرسها . « خمسة ، ستة ، ثمانية ونصف ؟ لا شك في ان هذه الارقام تشير الى محطات البريد . » والتفت الى زوجته قائلاً : « لقد اكتشفتها . » — « كيف ؟ » — « هناك خمسة فراسخ تفصل بيننا وبين هسدين ؛ وستة من هسدين الى سان بول ؛ وثمانية ونصف من سان بول الى آراس . إنه ذاهب الى آراس . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مادلين قد انتهى الى منزله . ولقد اتخذ عند عودته من منزل المعلم سكوفلير ، الطريق الطويلة ، لكأنّ باب دار الكاهن كان ضرباً من الاغراء ، فهو يريد ان يجتنبه . وصعد الى غرفته ، واوصد من دونه الباب ، وهو امرٌ لم يكن ليلفت النظر ، إذ كان من عادته ان يأوي الى الفراش باكراً . وايأ ما كان فأن حارسة المصنع ، التي كانت في الوقت نفسه خادمة مسيو مادلين الوحيدة ، لاحظت ان ضوءه قد انطفأ في الساعة الثامنة والنصف ، فذكرت ذلك لامين الصندوق الذي رجع ادراجه ، مضيفةً :

— « هل السيد العمدة مريض ؟ أحسب ان هيئته كانت غريبة بعض الشيء . »

وكان امين الصندوق يحتلّ غرفة تقع تحت غرفة مسيو مادلين تماماً فلم يُلق بالاً الى كلام البوابة ، وآوى الى فراشه ، ونام . وحوالى منتصف الليل استيقظ من رقاده فجأة . كان قد سمع ، فيما هو نائم ، ضجة فوق رأسه . واصغى . فاذا خطىً تروح وتجيء ، وكأن شخصاً

ما ، يمشي في الغرفة التي فوقه . واصغى في انتباه أشد ، فتبيّن وقع خطى مسيو مادلين . وبدا ذلك غريباً في نظره . فما كانت لتُسمع ، عادةً ، أيّ ضجة في غرفة مسيو مادلين قبل نهوضه من النوم . وبعد لحظة ، سمع امين الصندوق شيئاً كأنه صوت خزانة تُفتح وتغلق . ثم ان قطعة من الاثاث حُركت ، وتبع ذلك فـــترة صمت اخرى ، وانشأت الخطى تروح وتجيء . واستوى امين الصندوق قاعداً في فراشه ، ونفض عنـــه النعاس ، ونظر . ومن خلال زجاج نافذته رأى على الجدار المقابـــل انعكاس النور من نافذة مضاءة انعكاساً ضارباً الى الحمرة . ومن اتجـاه الأشعة لم يكن في الامكان أن تكون تلك النافذة غير نافـــذة غرفة مسيو مادلين . وارتعش الانعكاس وكأنه صادر من نار ساطعة لا من نور من الانوار . ولم يكن في الامكان ان يُرى ظلّ اطار النافذة المزجج ، وذلك ما دل على ان النافذة كانت مفتوحةً على مصراعيها . واذ كان البرد قارساً ، فقد كانت هذه النافذة المشرعة مدعاة الى العجب . واستـــلم امين الصندوق للرقاد ، كرة اخرى . وبعد ساعة او ساعتين استيقظ من جديد . كانت الخطى نفسها ، بطيئةً ونظاميـــة ، تروح وتجيء على نحو موصول فوق رأسه .

وظلّ الانعكاس مرتسماً على الجدار ، ولكنه غدا الآن شاحبـــاً ثابتاً مثل ضوء مصباح او شمعة . كانت النافذة ما تزال مفتوحة .

فلنَرَ ما الذي كان يجري في غرفة مسيو مادلين .

٣
عاصفة في دماغ

لا ريب في ان القارئ قد حزر ان مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان .

ولقد سبق لنا ان نظرنا الى اعماق ذلك الضمير . وها قــد أزف الوقت لنعاود النظر اليها من جديد . ولسنا نفعل ذلك من غير انفعال ، ومن غير ارتجاف ، فليس ثمة ما هو ادعى الى الرعب من هذا الضرب من التأمل . فالعين العقلية لا تستطيع ان تجد في ايما مكان شيئاً اعظم إذهالاً وأحلك ظلاماً مما تجده في الانسان . إنها لا تستطيع ان تحدّق الى شيء أرهب ، او أعقد ، او أدهش ، أو اكثر لانهائيةً . هنـاك مشهد واحد اعظم من البحر ؛ ذلك هو مشهد السماء . وهناك مشهد واحد اعظم من السماء ؛ ذلك هو باطن النفس البشرية .

إن نظم قصيدة الضمير الانساني ، ولو كان ضمير رجلٍ فَرْد ، بل ولو كان ضمير اسفل الناس وأحطهم ، يقتضينا اذابة جميع المــلاحم في ملحمة عليا ونهائية . الضمير هو هيولى الاوهـــام ، والشهوات ، والاغراءات ؛ هو بوتقة الاحلام ؛ هو مغارة الافكار التي نستحي بها . إنه وكر المغالطات ، وساحة الحروب التي تصطرع فيها الاهواء . إخترِقْ في بعض الساعات حجاب الوجه الازرق المسودّ الذي يحمله كائن بشريّ مستغرق في التفكير ، وانظر الى ما وراءه . انظر الى تلك النفس . انظر الى تلك الظلمة . ان هناك ، تحت الصمت الخارجي ، صراعاً بين العمالقة كالذي نجده عند هوميروس ، ومعارك بين التنانين والهدْريات * وحشوداً من الاشباح كالتي نقع عليها عند ميلتون ، ومتاهات مخيفة كالتي نلقاها عند دانتي . ايّ شيء مظلم هي تلك اللانهاية التي يحملها كل امرئ في ذات نفسه ، والتي يقيس بها في يأس رغبات دماغه ، وافعال حياته !

لقد انتهى آليغيري ** ذات يوم الى باب مشؤوم وقف أمامه متردداً ، وها نحن اولاء امام باب آخر نقف على عتبته مترددين . ومع ذلـك فلندخل .

---

* hydre وهي في الميثولوجيا افعى ذات سبعة رؤوس .

** يقصد الشاعر دانتي آليغيري صاحب « الكوميديا الالهية » .

وليس عندنا غير القليل نضيفه الى ما سبق للقاريء ان عرفه عما وقع لجان فالجان منذ حادث جيرفيه الصغير . كان منذ تلك اللحظة – كما رأينا – رجلاً آخر . وكان قد حقق ما أراده الاسقف له . كان ذلك اكثر من تحوُّل ؛ كان خلقاً جديداً .

لقد وُفق الى الغياب عن العيان ، وباع آنية الاسقف الفضية ، محتفظاً بالشمعدانين فقط للذكرى ، منساباً في هدوء من مدينة الى مدينة ، عبر فرنسة ، وافداً على مونتروي سور مير ، حيث التمعت في ذهنه الفكرة التي وصفنا ، وحقق ما سبق ان رويناه ، وبلغ غاية من الرفعة جعلته أمنع ما يكون ، وأعزّ ما يكون ؛ ومن ذلك الحين استقرّ في مونتروي سور مير ، سعيداً بأن يحسّ بأن ضميره المحزون بماضيه ، وبالنصف الاول من حياته ، قد نعِمَ بالارتياح الى ما حقق في النصف الاخير . لقد عاش في أمن ، وطمأنينة ، وأمل ، وليس يشغل باله غير امرين اثنين : ان يخفي اسمه ، وأن يطهّر حياته . أن يجتنب الناس ، وان يرجع الى الله .

وكانت هاتان الفكرتان تمتزجان في ذهنه امتزاجاً قوياً جعل منهما كلاً واحداً . كانتا كلتاهما على مقدار واحد من القدرة على شغل البال ، وعلى فرض الارادة ، وكانتا تتحكمان بأضأل اعماله واقلها شأناً . وكانتا في الاحوال العادية متناغمتين في تنسيق سلوكه في الحياة . لقد وجهتاه نحو الجانب المظلم من الحياة . لقد جعلتاه عطوفاً بسيط الفؤاد . لقد ارشدتاه الى الاشياء نفسها . بيد ان تعارضاً كان ينشأ بينهما في بعض الاحيان . وفي مثل هذه الأحوال ، كما نذكر ، كان الرجل الذي عرفته المنطقة كلها المحيطة بمونتروي سور مير باسم مسيو مادلين لا يتردد عن التضحية بالاولى في سبيل الثانية ، عن تضحية سلامته من اجل فضيلته . وهكذا احتفظ ، برغم كل احتراسٍ وتبصّر ، بشمعداني الاسقف ، ولبسَ ثوب الحداد عليه ، واستدعى جميع غلمان سافوا

الصغار ووجّه اليهم الاسئلة ، وجمعَ المعلومات عــن أسَر فافيرول ، وانقذ حياة فوشلوفان العجوز ، برغم ضروب التلميح المقلق التي قذفه بها جافير . لقد بدا ، كما لاحظنا من قبل ، وكأنه كان يعتقد ــ أسوةً بجميع اولئك الذين تحقّقوا بالحكمة ، والقداسة ، والعدل ــ ان واجبه الاسمى لم يكن نحو نفسه هو .

ولكنّ اياً من هذه المناسبات ــ وهو أمرٌ ينبغي ان ننصّ عليه ــ لم تكن لتشبه هذه التي عَرَضَت الآن .

إن الفكرتين اللتين هيمنتا على هذا الرجل البائس الذي نروي آلامه لم يُقدّر لهما ان تخوضا مثل هذا الصراع الخطير من قبل . لقد ادرك ذلك على نحو غامض ، ولكنه عميق ، من أولى الكلمات التي نطق بها جافير عند دخوله مكتبه . فلم يكد ذلك الاسم الذي دفنه تحت تلك الظلمات كلها يُلفظ على ذلك النحو العجيب حتى استبدّ به الذهول ، وكأنما أسكرته غرابــة قَدَره المشؤومة . ومن خلال ذلك الذهول استشعر الرعدة التي تسبق الصدمات الكبرى . لقد انحنى مثــل سنديانة عند اقتراب العاصفة ، مثلَ جندي عند اقتراب الغارة المعادية . لقد استشعر ان ثمة سحائب مفعمة بالرعد والبرق تجتمع فوق رأسه . وحتى وهو يصغي الى جافير كان اول ما خطر له أن يمضي ، ان يركض ، ان يعلن عن هويّته ، ان يسحب شانماتيو هذا من السجن ، أن يضع نفسه محله . كان ذلك أليماً ممضّاً مثل طعنة في اللحم الحيّ ، ولكنه ما لبث ان تقضّى ، وعندئذ قال في ذات نفسه : « دعني ارى ! دعني ارى ! » وكبت ذلك الحافز الاول الكريم ، وتراجع أمام مثل هذه البطولة .

ولا ريب في أنه كان يكون من الجميل ــ بعد كلمات الاسقف القدسية ، وبعد سنوات متعددة من التوبة وانكار الذات ، وفي غمرة من ندامة استُهلت استهلالاً رائعاً ــ ان لا يتمتر هذا الرجل لحظةً حتى

أمام حدس فظيع الى هذا الحد ، وان يواصل سيره بخطى مطّردة نحو تلك الهاوية الفاغرة فاها ، والتي تقوم الجنة في قعرها . اجـل ، كان ذلك يكون جميلاً ، ولكن الامور لم تجر على هذا النسق . ويتعين علينا ان نتحدث في تفصيل عما اعتمل في تلك النفس ، وليس في استطاعتنا ان نقول غير ما كان هناك . لقد غلبت عليه اول الأمر غريزة حفظ الذات فسارع الى جمع شتات افكاره ، وكبتَ انفعالاته ، واخذ بعين الاعتبار وجود جافير ، ذلك الخطر الكبير ، وارجأ اتخاذ ايّ قرار بمثل رسوخ الذعر ، ونفى من ذهنه كلّ تفكير بالسبيل التي يتعيّن عليه سلوكها ، واستعاد هدوءه كما يستردّ المقاتل ترسه .

وسلخ بقيةَ اليوم على هذه الحال : عاصفة في باطنه ، وهدوء كامل في ظاهره . إنه لم يتخذ غير ما يمكن أن يُدعى اجراءات احتياطية . كان كل شيء لا يزال مختلطاً متلاطماً في دماغه . وكان من الاضطراب بحيث تعذّر عليه ان يتبيّن شكل أيما فكرة على نحو واضح ، وبحيث تعذر عليه ان يقول شيئاً عن نفسه ما خلا انه تلقّى اللحظةَ ضربـةً قوية . ومضى وفقاً لعادتـه الى سرير فانتين المَرَضيّ ، وأطال زيارته هذه ، بغريزة الطيّبة ، قائلاً لنفسه إن عليه ان يفعـل ذلك ، وأن يوصي الراهبتين بضرورة العناية الفائقة بها ، في حال اضطراره الى الغيبة. لقد أحسّ احساساً غامضاً بأنه قد يتعين عليه ان يذهب الى آراس . ومن غير ان يعقد النية بحال من الاحوال على القيام بهذه الرحلة قال لنفسه ان في استطاعته ، ما دام في نجوة كاملة من الارتياب ، ان يشهد ما سوف يحدث ، فحجز عربة سكوفلير المكشوفة ، استعداداً لايما طارىء يطرأ .

وتناول طعام العشاء في شهية حسنة .

حتى اذا انقلب الى غرفته جمع شتات افكاره .

لقد درس الوضع فوجد أنه شيء لم يُسْمَعْ بمثله من قبل . كان

شيئاً لم يُسمع بمثله الى درجة دفعته - في غمرة هواجسه ، وبدافع غريب من قلق يكاد يمتنع على التفسير - الى ان ينهض عن كرسيه ، ويغلق باب غرفته بالحديد . لقد خشيّ ان يدخل عليه شيء آخر . لقد تحصّن دون الاحتمالات جميعاً .

وبعد لحظة أطفأ ضوء مصباحه . كان ذلك الضوء يزعجه .

لقد بدا له ان في ميسور المرء ان يراه .

من ؟ المرء ؟

واأسفاه ! إن ما أراد أن يوصد الباب دونه قد دخل . إن ما أراد ان يُعميه كان ينظر اليه . ذلك هو ضميره .

ضميره ، يعني الله .

ومع ذلك ، فقد خدع نفسه في اللحظة الاخيرة . لقد استشعر الأمن والعزلة . واعتقد - إذ اوصد الباب بالحديد - أنه في حرز حريز . وَملَكَ نفسه . لقد اسند مرفقيه الى الطاولة ، وأراح رأسه على يده ، وانشأ يتأمل في الظلام :

- « أين أنا ؟ - ألست في حلم ! - ما الذي سمعته ؟ أصحيح حقاً اني رأيت جافير هذا وانه تحدّث إليّ هكذا ؟ - من يمكن ان يكون شانماتيو هذا ؟ - هو يشبهني اذن ؟ - هل هذا ممكن ؟ - حين افكر اني كنت أمس على مثل ذلك الهدوء ، وكنت ابعد ما اكون عن الارتياب بشيء ! - اي شيء كنت أعمله امس في مثل هذا الوقت ؟ - ما الذي تنطوي عليه هذه المسألة ؟ - إلام سوف تؤدي ؟ - ما الذي يجب ان يُعمل ؟ »

ذلك كان الاعصار الذي عصف به . كان عقله قد فقد القدرة على أن يكبح جماح افكاره . كانت تندفع كالأمواج ، وكان يمسك رأسه بيديه الاثنتين لكي يوقفها .

ومن هذه الجلبة التي اقلقت إرادته وعقله ، والتي حاول ان ينتزع

منها يقيناً وعزماً لم ينبعث شيء غير الألم النفسي المبرّح .

كان دماغه يغلي . لقد مضى الى النافذة ، ففتحها على مصراعيها ، لم يكن ثمة نجمٌ واحد في السماء . فرجع ، وجلس قريباً من الطاولة .

وهكذا تقضّت الساعة الاولى .

وشيئاً بعد شيء ، بدأت بعض الخطوط العامة تتشكل ، برغم ذلك ، وتركز نفسها في تأملاته . وامسى في ميسوره ان يلمح ، بدقة الحقيقة ، لا الوضعَ كله ، ولكنْ بعض تفاصيله .

لقد شرع يدرك أنه كان سيداً مطلقاً على ذلك الوضع ، مهما يكن حرجاً ، ومهما يكن فائقاً للعادة .

ولم يزدد ذهوله إلا عمقاً .

فبصرف النظر عن الغاية الزهدية والدينية التي استهدفتها اعماله لم يكن كل ما فعله حتى ذلك اليوم غير قبر كان يحفره ليدفن فيه اسمه . وكان أخوف ما خافه دائماً ، كلما خلا الى نفسه ، في لياليه الأرقة ، هو أن يسمع احداً يتلفظ بذلك الاسم في يوم من الايام . لقد استشعر ان ذلك خليق بأن يكون ، بالنسبة اليه ، نهاية كل شيء ؛ وأن اليوم الذي يعود فيه ذلك الاسم الى الظهور سوف يشهد زوال حياته الجديدة من حوله . ومن يدري ، فلعله ان يشهد زوال روحه الجديدة من ذات نفسه . وارتعد لمجرد التفكير بأن ذلك ممكن . ولو ان امرءاً قال له في مثل تلك اللحظات ان ساعة قد تأتي فترجّع ذلك الاسم في أذنه ؛ وأن هاتين الكلمتين البشعتين ، جان فالجان ، سوف تنبثقان فجأة من قلب الظلام وتقفان أمامه ؛ وان هذا الضياء المخيف المقدّر له ان يبدّد السر الذي أحاط به نفسه سوف يلتمع فجأة فوق رأسه ؛ وان هذا الاسم لن يتوعّده ؛ وأن هذا الضياء لن يزيد الظلام الذي يكتنفه الا حلكة ؛ وأن تمزيق ذلك الحجاب سوف يزيد اللغز إبهاماً ؛ وأن هذا الزلزال سوف يثبّت صرحه ؛ وأن هذه الحادثة العجيبة لن يكون من نتائجها ،

بالنسبة اليه ، وقد بدت له جيدةً جداً ، غير جعل وجوده اكثر اشراقاً ، في الحال ، وأبعد منالاً ؛ وأن المواطن الطيب الجليل ، مسيو مادلين ، سوف يخرج من لقائه مع شبح جان فالجان ، وهو ينعم بتشريف اكبر وأمن أوفر ، واحترام أعظم مما تمتع به في أي وقت مضى — لو ان امرءاً قال له ذلك إذن لهزّ رأسه ، واعتبر هذه الكلمات هراء . حسناً ! لقد وقع ذلك على وجه الضبط . كان تجمّع المستحيل هذا كله قد أمسى حقيقة ، الآن ، وكان الله قد اجاز لهذه الحماقات كلها ان تصبح أشياء واقعية .

وازداد تفكيره وضوحاً ، على نحو موصول . لقد صار أقدر على ان يلقي نظرة أرحب على وضعه .

لقد بدا له وكأنه استفاق اللحظة من سبات عجيب ، وأنه وجد نفسه ينزلق فوق منحدر ، في جوف الليل ، واقفاً ، مرتجفاً ، مرتداً الى الوراء على غير طائل ، وعلى قيد شعرة من هاوية . ولمح على نحو واضح ، في غمرة الظلام ، رجلاً مجهولاً ، رجلاً غريباً ، ظنه القدر إياه ، فهو يدفعه الى الهوة بدلاً منه . كان ضرورياً ، لكي تنغلق تلك الهوة ، ان يقع فيها شخص ما ، هو او الرجل الغريب .

ولم يكن عليه الا ان يترك المسألة وشأنها .

وغدا الضياء كاملاً . وادرك هذا : — أن مكانه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة كان شاغراً ، وانه مهما يفعل فأن مكانه ذاك ينتظره دائماً ، وان سرقته مالَ جرفيه الصغير قد أعادته الى هناك ، وان هذا المكان الشاغر سيظل ينتظره ويجذبه حتى يؤوب اليه ، وان هذا امر محتوم لا مفر منه . ثم قال لنفسه : إن له في هذه اللحظة بالذات بديلاً ، وان رجلاً يدعى شانماتيو ُقدّر عليه ان يتحمل هذا الطالع السيء ، أما هو — هو الذي سيدخل سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في شخص شانماتيو هذا ، والذي يحيا في المجتمع تحت

اسم مسيو مادلين – فليس له ما يخشاه بعد ، شرط ان لا يحول بين الناس وبين ان يُثقلوا رأس شانماتيو هذا بحجر العار الذي يوضع مرةً ، مثل حجر القبر ، ثم لا يُرفع ابداً .

وكان ذلك كله من العنف والغرابة بحيث استشعر فجأة ذلك الضرب من الحركة التي لا سبيل الى وصفها والتي لا يعرفها المرء اكثر من مرتين او ثلاث مرات طوال حياته – استشعر ضرباً من اختلاج الضمير الذي يثير كل ما يرتاب فيه القلب ، وهو يتألف من التهكم والبهجة واليأس ، والذي نستطيع ان ندعوه انفجار الضحك الباطني .

وسارع الى إنارة شمعته من جديد .

وقال :

– « حسناً ، ماذا ! ممَّ أنا خائف ؟ لماذا افكر في هذه الاشياء ؟ ها أنا ذا قد سلمتُ . لقد انتهى كل شيء . لم يكن ثمة غير باب مفرد نصف مفتوح يمكن للماضيّ ان يعترض من خلاله سبيل حياتي ، وها قد أُوصد ذلك الباب الآن ! أُوصد الى الأبد ! ان جافير هذا الذي ازعجني منذ عهد بعيد – تلك الغريزة المخيفة التي يبدو وكأنها اكتشفت الحقيقة ، بل التي اكتشفت الحقيقة فعلاً – جافير الذي تعقّبني في كل مكان ، وطاردني مثل كلب من كلاب القنص ، جافير هذا قد ضُلّل ، وشُغل في مكان آخر ، وخُتل ختلاً كاملاً . لقد داخله الرضا منذ اليوم ؛ انه سوف يتركني وشأني ؛ لقد ألقي القبض على جان فالجانه ! ومن يدري ؟ بل ان من المحتمل ان يرغب ، في غدٍ ، في مغادرة المدينة ! وكل ذلك إنما يتم من غير مساعدتي ! وليس لي به ايما علاقة ! آه ، نعم ، ولكن اين العنصر المحزن في هذا كله ؟ ان من يراني ليحسب – وأقسم بشرفي – أن كارثة قد حلت بي ! وعلى اية حال فاذا كان احد قد أُصيب باذىً ما فليست تلك غلطتي . إن العناية الالـهية هي التي فعلت ذلك كله . تلك هي رغبتها في ما يبدو . وهل أملك انا الحقّ في نقض ما تدبّره ؟

ما الذي اطلبه الآن ؟ لماذا احاول ان اتدخل ؟ ذلك شيء لا علاقة لي به . كيف ! انا لست قانعاً ! ولكن ما الذي يعوزني اذن ؟ لقد فزتُ بالغاية التي طمحت اليها منذ سنوات عديدة ، فزتُ بحلم لياليّ ، بهدف صلواتي الى السماء ، بالامن والسلامة . إنها مشيئة الله . ويتعيّن عليّ ان لا اعمل شيئاً يتعارض ومشيئة الله . ولماذا شاء الله ذلك ؟ لكي أستطيع ان اتابع ما بدأت به ؛ لكي اتمكن من ان اعمل صالحاً ؛ لكي اكون ذات يوم مثلاً عظيماً ومشجعاً ؛ لكي يصبح في الامكان ان يقال إنه نشأ آخر الامر بعضُ السعادة عن هذا العذاب الذي احتملته وهذه الفضيلة التي عدتُ الى حظيرتها ! والواقع اني لا افهم لماذا خفت ذلك الخوف كله من ان اقصد الى هذا الكاهن الصالح وأعترف له بالقصة كلها ، وأسأله نصيحته ؛ ذلك من غير ريب ما كان يجدر به ان يقوله لي . لقد قضي الامر ؛ دع المسألة وشأنها ! حذار ان تتدخل في شأن من شؤون الله ! »

هكذا تحدّث في أعماق ضميره ، وهو متدلٍّ فوق ما يمكن ان ندعوه هاويته الخاصة . ونهض عن كرسيه ، وشرع يذرع الغرفة وقال : « هيا ، فلأقلع عن التفكير في ذلك بعد الآن . لقد تمّ اتخاذ القرار . » ولكنه لم يستشعر بهجةً ما .

على العكس تماماً .

إن المرء لا يستطيع بعدُ ان يمنع العقل من العودة الى فكرة ما إلا بقدر ما يستطيع منع البحر من العودة الى شاطيء ما . إن ذلك يدعى في مثَل الملاّح مدّاً ؛ وإن ذلك يدعى في مثَل المذنب تبكيت الضمير . إن الله ليثيرُ النفسَ كما يثير الاوقيانوس ، سواء بسواء .

وبعد بضع لحظات — ولم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً غير ذلك — استأنف هذا الحوار الكالح ، الذي كانت نفسه هي التي تتحدث

فيه ، وهي التي تصغي ، قائلا ما كان يريد أن يُخرسه ، مصغياً لما كان غير راغب في سماعه ، مستسلماً الى تلك القوة الخفية التي قالت له : « فكّر ! » كما قالت لرجل آخر لفظ القضاء حكمه فيه ، منذ الفي عام : « سِرْ ! »

وقبل ان نذهب الى أبعد ، ولكي يفهمنا القارىء فهماً وافياً ، يتعيّن علينا أن نبدي ، مع شيء من التوكيد ، ملاحظةً واحدة .

من الثابت اننا نتحدث الى أنفسنا ؛ وليس ثمة كائن مفكر لم يمارس ذلك . بل ان في ميسورنا أن نقول إن الكلمة لا تكون ذلك اللغز الرائع إلا حين تمضي ، في باطن الانسان ، من فكره الى ضميره ، وتعود بعدُ من ضميره الى فكره . وبهذا المعنى وحده ينبغي ان تُفهم هذه الكلمات التي نُكثر اصطناعها في هذا الفصل : **قال ؛ صاح** . نحن نقول لانفسنا ؛ نحن نخاطب انفسنا ؛ نحن نصيح في داخل انفسنا ، من غير ان يُقطع السكوت الخارجي . إن ثمة جلبةً قوية في داخلنا . كل شيء في باطننا يتكلم ، ما عدا اللسان . واذا كانت حقائق النفس غير منظورة وغير ملموسة فليس ينقص ذلك من قيمتها كحقائق .

لقد سأل نفسه اذن اين هو . واستجوب نفسه حول هذا « القرار الذي اتُخذ » . ولقد اعترف لنفسه بأن كل ما كان يهيئه في ذهنه بغيض شنيع ؛ وان « ترك المسألة وشأنها ، وعدم التدخل في شؤون الله » شيء فظيع حقاً ؛ وان السماح لغلطة القدر هذه وغلطة الناس بأن تتمّ ، وعدم الحؤول دون ذلك ، ومساعدته على اتمامها بالاعتصام بالصمت ، والاحجام عن القيام بعمل ما آخر الامر لا تعدو ان تكون في الواقع إقداماً على عمل كل شيء . كان ذلك هو غاية الغايات في الخسّة المرائية ! كان جريمة بشعة ، دنيئة ، مُداجية ، جبانة ، وضيعة .

ولأول مرة ، طوال ثماني سنوات ، ذاق الرجل التعس ذلك الطعم المرير الذي يكون لفكرة شريرة ، وعمل شرير .

ولفظ ما ذاق في اشمئزاز .

وواصل استنطاقه الذاتي . لقد سأل نفسه ، في صرامة ، ما الذي فهمه من هذا الكلام : « لقد حققتُ هدفي . » ؟ فأعلن انـه كانت لحياته ، في الواقع ، غاية . ولكنْ ما تلك الغاية ؟ ان يخفي اسمـه ؟ ان يخدع الشرطة ؟ أمن اجل شيء ضئيل كهذا فعل كل ما فعله ؟ ألم تكن له غاية اخرى ، كانت هي الغاية العظمى ، وكانت هي الغـاية الحقيقية ؟ أن ينقذ ، لا جسده ، ولكنْ نفسَه . أن يصبـح صالحاً وخيّراً كرة ثانية . ان يكون رجلاً مستقيماً ! ألم يكن ذلك ، فوق كل شيء ، ذلك وحـده ، هو الذي رغب فيه دائماً ، والذي أمره الأسقف به ؟ — ان يغلق الباب على ماضيه ؟ ولكنه لم يكن ليغلقه بحال من الاحوال . كان يعاود فتحه بارتكابه عملاً شائناً ! ذلك بأنـه عاد لصاً من جديـد ، بـل لقد أمسى أشنع اللصوص وادعاهم الى الاشمئزاز . لقد سرقَ من رجل آخر وجوده ، وحياتـه ، وأمنه ، ومكانه تحت الشمس ! لقد أمسى سفاكاً ! لقد َقتَلَ ، لقد قتل معنوياً رجلاً بائساً ! لقد انزل به ذلك الموتَ الحيّ المروّع ، ذلك الدفن في الحياة ، الذي يدعى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! على العكس ، فلأن ينقذ نفسه ، ولأن ينقذ هذا الرجل المبتلى بمثل هذه الغلطة الراعبة ، ولأن يحمل اسمه من جديد ، ولأن يصبح كرةً اخرى بدافـع من الواجب جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فذلك في الواقع هو انبعاثهُ الحقّ ، وهو الاغلاق الابدي لباب الجحيم الذي خرج منه ! إن العودة اليه ، في الظاهر ، هي النجاة منه ، في الحقيقة ! يجب ان يفعل ذلك ! إنّ كل ما عمله حتى الآن ليس شيئاً اذا لم يفعل ذلك ! إن حياته كلها كانت غير ذات َغناء ، وان آلامه كلها ذهبت ادراج الرياح ، ولم يكن عليه غير ان يسأل هذا السؤال : « ما الفائدة ؟ » واستشعر أن الاسقف كان هناك ، ان الاسقف كان حاضراً اكثر مما كان ميتاً ،

ان الاسقف كان يحدق اليـــه تحديقاً موصولاً ، وان مادلين العمدة ، بفضائله جميعاً ، سوف يكون منذ اليوم بغيضاً اليه ، وان جان فالجان العبد الرقيق المحكوم عليه بالاشغال الشاقة سوف يكون باهراً وطاهراً في عينيه . واستشعر أن الناس كانوا يرون قناعه ، اما الاسقف فكان يرى وجهه ؛ ان الناس كانوا يرون حياته ، اما الاسقف فكان يرى ضميره . واذن فيجب ان يذهب الى آراس ، وان ينقذ جـان فالجان الزائف ، ويتهم جان فالجان الحقيقي . واأسفاه ! تلك كانت اعظـــم التضحيات شأناً ، وأشد الانتصارات إيلاماً ، والخطوة النهائيـة التي ينبغي ان تُخطى ؛ ولكن عليه ان يفعل ذلك . يا له من قدَر فاجع ! إنـه لا يستطيع ان يلج باب القداسة في عيني الله ، إلا بالعودة الى العـار في أعين الناس !

وقال :

— « حسن . فلنسلك هذه السبيل ! فلنقم بواجبنا ! فلننقذ هذا الرجل ! »

ونطق بهذه الكلمات في صوت عال ، من غير ان يلحظ أنه كان يتكلم جهاراً .

وتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى في النار رزمـة من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صغار التجار . وكتب رسالة ، وختمها ؛ وكان في ميسور المرء ان يقرأ عـلى ظاهر ظرفها — لو كان في الغرفة أحدٌ آنذاك : **الى مسيو لافيت ، مصرفي ، شارع آرتوا ، باريس .**

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق الماليـة وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسـه للاشتراك في الانتخابات .

ولو ان امرءاً رآه فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمثل ذلك التأمل الوقور اذن لما ارتاب في ما كان يعتمل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكان يرفع رأسه في بعض

الاحيان ويسمّر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأنما وجـد هناك بالضبط شيئاً يريد ان يجلوه او ان يستنطقه .

واتمّ الرسالة الى مسيو لافيت ، فوضعها هي والمحفظة في جيبـه ، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغيّر . كان لا يزال يرى واجبـه مكتوباً على نحو واضح باحرف ساطعة كانت تتوهج امام عينيـه ، وتتحرك مع نظرته : « **اذهب ! اعترف باسمك ! إتهم نفسك !** »

ورأى كذلك ، وكأنما انتصبتا أمامه عاريتين وفي شكلين محسوسين ، الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين دستور حياته المزدوج : ان يُخفي اسمه ، وان يطهر نفسه . ولأول مرة بدتا له مستقلتين ، إحداهما عن الاخرى ، تمام الاستقلال ، ورأى الفرق الذي يفصل ما بينهما . لقد ادرك ان احدى هاتين الفكرتين خيّرة بالضرورة ، على حين ان الاخرى قد تصبح شريرة ؛ أن الاولى عبادة والاخرى انانية ؛ أن احداهما تقول : « **الجار** » وثانيتهما تقول « **انا** » ؛ ان واحدة تنبثق من النور وواحدة تنبعث من الظلام .

كانتا تتقاتلان . لقد رآهما تتقاتلان . وفيما هو ينظر ، تضخمتا امام عينه العقلية . لقد اصبحتا الآن هائلتين جداً . ولقد بدا انه رأى الى إلـٰهة وماردة تصطرعان في ذات نفسه ، في تلك اللانهاية التي تحدثنـا الآن عنها ، وسط الظلمات والبوارق .

كان مفعماً بالذعر ، ولكن بدا له ان التفكير الخيّر في سبيله الى الانتصار .

لقد استشعر انه بلغ حركة ضميره وقدَره الثانيـة الحاسمة . وان الاسقف كان قد طبعَ الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شانماتيو هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي المحنة الكبرى . وفي غضون ذلك عاودته الحمّى ، شيئاً بعد شيء ، وكانت قد خمدت

لحظة . والتمع في ذهنه ألف خاطر ، ولكنها لم تزد عزمه الا رسوخاً .

وكان قد قال لحظة : لعلي انظر الى القضية ، باكثر مما تستحق من الحماسة . وان شاماتيو لم يكن على اية حال جديراً بالاهتمام ، وانه قد سرق ، فعلاً .

واجاب نفسه بقوله : « اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلاً ، بضع تفاحات فمعنى ذلك انه سوف يُسجن شهراً . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن من يدري ؟ هل سرق ؟ هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان يُثقل كاهله . ويبدو وكأنه في غير حاجة الى الدلائل والبيّنات . اليس من عادة النواب العامّين ان يتصرفوا على هذا النحو ؟ إنهم يحسبونه لصاً ، لانهم يعرفون انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز أن تشفع به بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنوات ، والخدمات التي ادّاها الى المنطقة ، فيُعفى عنه .

ولكن هذا الفرض ما لبث ان تلاشى . وابتسم في مرارة حين فكّر ان سرقة الاربعين « سو » من جيرفيه الصغير قد جعلته ذا سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه سوف يُحكم عليه ، وفقاً لنصوص القانون الحرفية ، بالاشغال الشاقة مدى الحياة .

واشاح بوجهه عن الاوهام كلها ، فاصلاً نفسه اكثر فاكثر عن هذه الارض ، ملتمساً العزاء والقوة في مكان آخر . لقد قال لنفسه إن عليه ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد قيامه بواجبه منه بعد التهرّب من القيام بهذا الواجب ؛ وانه اذا ترك المسألة وشأنها ، اذا ظلّ في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ، وشهرته الحميدة ، وأعماله الخيّرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ،

وإحسانه الى الفقراء ، وثروته ، وشعبيته ، وفضيلته – كل هذه سوف تُلوّث بجريمة . واي متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة حين تُوثق بذلك الشيء البشع ! على حين انه اذا اقدم على التضحية المطلوبة منه فعندئذ تمازجه فكرة سماوية برغم وجوده في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، وغُلّه ، وقلنسوته الخضراء ، وعمله الذي لا يعرف الانقطاع ، وعاره الذي لا يعرف الرحمة !

واخيراً قال لنفسه إن تلك ضرورة ، وان قدَرَه قد صيغ على هذا الشكل ، وانه لا يستطيع أن ينقض تدبير الله ، وان عليه ان يختار ، مهما تكن الاحوال ، احـــدى خطتين : إما الفضيلة الظاهرية والخيانة الباطنية ، وإما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .

ولم تضعف شجاعته فيما هو يُدير في ذهنه هذه الفكرات القاتمة كلها ، ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في اشياء قليلة الفَناء .

واندفع الدم عنيفاً الى صدغيه . وذرع الغرفة جيئة وذهوبـــاً على نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصافَ الليل ، اولاً ، ثم اعلنته بعدها ساعة دار البلدية . وعدّ الضربات الاثنتي عشرة التي أطلقتها كل من الساعتين ، وقارن ما بين صوت الجرسين . ولقد ذكّره ذلك بأنه كان قد رأى ، قبل بضعة ايام ، عند احد تجار الحدائـد العتيقة ، جرساً قديماً معروضاً للبيع ، وقد كتب عليه هذا الاسم : **انطوان آلبين دو رومينفيل** .

وسرى البرد في اوصاله . وأوقـد ناراً . ولم يخطر بباله ان يوصد النافذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهوله ، كرةً اخرى . ولم يكـــن الجهد الذي احتاج اليه لكي يذكر ايّ شيء كان يفكّر فيه قبل ان تدقّ الساعتان ، جهداً يسيراً . ووفق الى ذلك ، آخر الامر .

وقال :

— « آه ! اجل . لقد اتخذت قراراً يقضي بأن أتهم نفسي . »

ثم إنه فكّر ، فجأة ، بفانتين .

وقال :

— « قف ! وهذه المرأة المسكينة ! »

ونشأت ههنا ازمة جديدة .

كانت فانتين ، وقد برزت فجأةً في هواجسه ، اشبه شيء بشعاع من ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغيّر مظهره . وصاح :

— « آه ! نعم ، حقاً ! أنا لم أفكر حتى الآن إلا بنفسي ! أنا لم أنظر إلا الى ما يوافقني ! لقد درست ما اذا كان يتعيّن عليّ ان أعتصم بالصمت أم اشكو نفسي الى السلطة ، أن أواري جسدي ام أنقذ روحي ، أن اكون حاكماً حقيراً ومحترماً أم ان اكون سجيناً مرذولاً وموقّراً . وكلها اسئلة تدور حول نفسي . نفسي دائماً . ونفسي ليس غير . ولكن ، يا الهي ، هذا كله انانية ! اشكال مختلفة من الانانية، ولكنها انانية على كل حال ! هلاّ فكرتُ قليلاً في غيري ؟ فلننظر ، فلندرس ! لنفرض اني وَلّيْتُ ، أني مُحِيتُ ، أني نُسِيت ، فما الذي ينشأ عن ذلك كله ؟ — اذا اتهمت نفسي واستسلمت للقضاء ؟ إنهم سوف يعتقلونني ؛ إنهم سوف يطلقون سراح شانماتيو هذا ؛ إنهم سوف يعيدونني الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . حسن جداً . ثم ماذا ؟ ما الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، هنا ، حيث توجد منطقة ، ومدينة ، وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجداد عجائز ، واطفال ، وأناس مساكين ! لقد خلقتُ هذا كله ؛ لقد أعلتُ هذا كله . فحيثما ينطلق الدخان من مدخنة كنتُ انا الذي وضع الحطب في النار ، واللحم في القِدْر . لقد أحدثتُ الرخاء ، والنشاط ، والثقة . قبلي لم

يكن شيء . لقد رفعتُ ، وأعمرتُ ، وأنعشت ، وأخصبت ، وأنهضت ، وأغنيت البلاد كلها . اذا ذهبتُ انا فُقدت روح البلاد . واذا زُلتُ انا مات كل شيء . وهذه المرأة التي قاست كثيراً ، الفاضلة في سقوطها ، والتي سبّبتُ على غير وعي مني بلاءها كله ! وتلك الطفلة التي كنت ذاهباً اليها ، والتي وعدتُ الأمّ بأعادتها اليها ! ألستُ مديناً ايضاً لهذه المرأة بشيء ، تعويضاً عن الاذى الذي أنزلتُه بها ? فاذا تواريت عن مسرح الاحداث ، فما الذي يحدث ? ان الأم سوف تموت . وإن الطفلة سوف تصبح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا ما شكوتُ نفسي الى القضاء . واذا لم أشكُ نفسي ? فلأدرس هذا الوضع — اذا لم اشكُ نفسي ?

وتمهّل بعد ان طرح هذا السؤال . لقد تردّد لحظةً وارتجف . ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد أجاب في هدوء :

— « حسن ، إن هذا الرجل سوف يُساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . هذا صحيح . ولكن ايّ بأس في ذلك ? لقد سرق ! ومن العبث الذي لا طائل تحته ان ازعم انه لم يسرق ؛ لقد سرق ! اما أنا فأبقى هنا ؛ سوف أتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى اوفق الى ان اكسب عشرة ملايين . ولسوف انثر هذه الملايين في البلاد . انا لن أبقي شيئاً لنفسي . وماذا يضيرني ذلك ? إن ما أعمله ليس لنفسي ! إن رفاهية الجميع سوف تزداد تعاظماً ؛ وإن الصناعات سوف تنهض وتتسابق ؛ وإن المصانع والمعامل سوف تتضاعف ؛ وإن الأسر ، مئات الأسر ، آلاف الأسر ، سوف تسعد . إن المنطقة ستصبح آهلة بالسكان ؛ وان القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد غير المزارع ؛ وان المزارع سوف تنبت حيث لم يكن يوجد شيء . ان الفقر سيزول ؛ وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبغاء ، والسرقة ، والقتل ؛ ستزول جميع الرذائل ، وجميع الجرائم ! ولسوف يكون في

ميسور هذه المرأة المسكينة ان تربي طفلتها ! وتصبح المنطقة كلها غنية وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي ! ما هذا الكلام الذي كنتُ أقوله حول اتهام نفسي ? يجب ان اصطنع الروية ، وأن لا أتهوّر . ماذا ? أأقدم على هذا لأن مما يرقع الرضا في نفسي أن اعمل العمل العظيم السخيّ ! — إن ذلك شيء مثير على اية حال ! — لأنني لم أفكّر إلا في ذاتي ، في ذاتي وحدها ! مـــاذا ? ألكي أنقذ من عقوبة قد تكون مغالىً فيها بعض الشيء ، ولكنها في الاساس عادلة — ألكي أنقذ من هذه العقوبة رجلاً لا يعرفه احد ، لصاً من اللصوص ، وغداً من الاوغاد ، على كل حال ، أدفع بلاد بكاملها الى الخراب ! ويتعيّن عـــلى امرأة مسكينة أن تموت في المستشفى ! ويُقضى على بُنيّة بائسة ان تلاقي حتفها في الشارع ! مثل الكلاب ! آه ، ذلك خليق بأن يكون مقيتاً ! بل ومن غير ان يكون في ميسور الأم ان ترى ابنتها من جديد ? ومن غير ان تعرف الطفـلة أمها او تكاد ! وكل ذلك من اجل سارق التفاح الجرو العجوز هـذا ، الذي يستحق من غير ريب ان يساق الى سجن الاشغال الشاقة لجريمة اخرى ، إن لم يستحق ذلك من اجل هذه الجريمة ! إنها لوساوس جميلة هذه التي تنقذ مجرماً وتضحّي بأبرياء ، والتي تنقذ متشرداً عجوزاً لم يبق له عـلى كل حال غير بضع سنوات يعيشها ولن يكون أتعس حـالاً في سجن الاشغال الشاقة منه في مسكنه الحقير ، والتي تضحي بأهل منطقـــة بكاملها ، وبالامهات ، والزوجات ، والاطفال ! وكوزيت الصغـــيرة المسكينة التي ليس لها في هذا العالم احد غيري ، والتي يزرقّ وجهها في هذه اللحظة ، من غير شك ، بسبب ما تقاسيه من الــــبرد في كوخ تيناردييه وزوجته ! وهذان وغدان بائسان أيضاً ! ومع ذلك اقصّر في القيام بواجباتي تجاه هذه الكائنات البائسة كلها ! ومع ذلك يتعين عـليّ ان اذهب واشكو نفسي الى القضاء ! ومع ذلك يجب ان ارتكب هذه

الحاقة البلهاء ! ولنفرض اسوأ الاحتمالات . لنفرض اني اقترفتُ ، من طريق الصمت ، سيئة ما وان ضميري سوف يجزني في يوم من الايام . فأن قبولي – لمصلحة الآخرين – بهذا الوخز الذي لا يُثقل كاهل احد غيري ، وبهذه السيئة التي لا تصدّع غير روحي ، هو التفاني عينُهُ ، وهو الفضيلة عينها . »

ونهض واستأنف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع .

إن الماس لا يكون إلا في المواطن المظلمة من الارض ؛ وكذلك الحقائق لا تكون إلا في أعماق الفكر . لقد بدا له أنه بعد أن غاص الى تلك الاعماق ، وبعد ان بحث طويلاً في اشدّ هذه الظلمات حلكةً ، عثر آخر الأمر على قطعة من ذلك الماس ، على واحدة من تلك الحقائق ، وأنه يمسك بها بيده . ولقد أعشاه النظر اليها .

وفكّر : « أجل ، تلك هي ! إني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدتُ الحلّ . يجب ان انتهي بالتشبث بشيء . لقد اخترتُ سبيلي . دع المسألة وشأنها ! كفى تردّداً . كفى تراجعاً ! هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصلحتي الشخصية . أنا مادلين ؛ ولسوف ابقى مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحداً . انا لا اعرف هذا الرجل ؛ انا لم أعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصاً ما هو جان فالجان في هذه الساعة فليدبّر أمره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . إنه اسم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على رأس رجل ما فلأمّ ذلك الرجل الهَبَل ! »

ونظر الى نفسه في المرآة المعلقة فوق موقده وقال :

– « اجل ! إن الوصول الى قرار قد ازال عني الغمّ . أنا الآن شخص آخر بالكلية ! »

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة .

وقال :

- « هيا ! يجب ان لا أتردد امام ايّ من نتـائج القرار الذي اتخذته . إنه لا تزال ثمة بعض الخيوط التي تشدّني الى جان فالجـان هذا . هذه الخيوط يجب ان تُقطع . إن ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تتهمني ، اشياء خرساء يمكن ان تشهد عليّ . لقد سُويّت هذة المسألة ، وينبغي ان تختفي تلك الاشياء كلها . »

وبحث في جيبه ، وسحب كيس نقوده ، ففتحه ، واخرج منـه مفتاحاً صغيراً .

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، بعد ان غاب في الظلال القاتمة الى حدّ بعيد والتي ألقتها التصاوير المرسومة على الورق الذي يغطي الجدار . وفُتح باب سرّي ، فاذا خلفه ضرب من الخزانة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار وبرقع المدخنة . ولم يكـن في ذلك المخبأ غير بعض الخرق البالية : قميص مـن نسيج ازرق خشن ، وبنطلون عتيق ، وجراب قديم ، وعصاً زعرورية ضخمة طُوّق طرفاها بالحديد . إن اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة د .... في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقاً بهم أن يتبيّنوا ، في يسر ، بقايا هذا الزيّ البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشمعدانين الفضيين ، لتذكره دائماً بنقطة انطلاقه . ولكنه أخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقـة ، وأظهر الشمعدانين اللذين حملهما من لدن الاسقف .

وألقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان ينفتح برغم الحديد الذي يرصده . وبحركة نشيطة مفاجئة طوّق هذه البقايا كلها بذراعيه ، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها — وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معرّضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات — وقذف بها جميعاً ، الأسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

وأغلق الخزانة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي أمست منذ ذلـك

الحين غير ذات غناء بعد أن أفرغها من محتوياتها ، وخبأ البـــاب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، أضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قـوي أحمر مرتعش . كان كل شيء يشتعل . وفرقعت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الحرق الراعبة فقد خلّف شيئاً عارياً التمع في الرماد . ولو قد انحنى أحدٌ فوق ذلـك الشيء إذن لتبيّن ، في يسر ، قطعة فضية . كانت هي من غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سُلبت من الغلام السافوائي الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرْع الغرفة جيئة وذهاباً ، محافظاً دائماً على السرعة نفسها .

وفجأة وقعت عيناه على الشمعدانين الفضيين اللذين التمعا ، على نحـو باهت ، فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليهما .

وفكر :

— « قف ! إن جان فالجان لا يزال ضمن هذين أيضاً . ينبغي ان يُتلفا مثل غيرهما . »

وتناول الشمعدانين .

كان ثمة نار كافية لاذابتهما الى ضرب مـن السبيكة لا تُعرَف إلا بشقّ النفس .

وانحنى فوق النار ، وتدفأ لحظة . واستشعر الهناءة حقاً .

وقال :

— « يا للدفء العذب ! »

وأثار الجمرات بأحد الشمعدانين .

وما هي إلا دقيقة حتى يكونا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا له أنه سمع صوتاً يصيح في داخله :

— « جان فالجان ! جان فالجان ! »

وقفَ شعر رأسه . كان أشبه برجل يسمع شيئاً فظيعاً .

وقال الصوت :

— « أجل . هكذا . أتمّ ، أكملْ ما أنت فاعله ! أتلف هذين الشمعدانين ! أمحُ هذا التذكار ! إنس الأسقف ! إنس كل شيء ! إقضِ على شانماتيو هذا ! حسن جداً . صفّقْ لنفسك ! وهكذا سُوّي الأمر ، واتخذ فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدري ما الذي يتهمونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئاً ؛ هوذا بريء انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وأنقض اسمك ظهره مثل جريمة من الجرائم ؛ هوذا بريء سوف يؤخذ بدلاً منك ، سوف يُدان ، سوف يقضي أيامه في الذلّ والذعر ! حسن جداً . كن أنت رجلًا مبجلًا . إبقَ السيد العمدة ؛ إبقَ شريفاً ومُشرّفاً ؛ أغنِ المدينة ؛ أطعِم الفقراء ؛ نشّيء الايتام ؛ عِشْ سعيداً ، فاضلًا ، محوطاً بآيات الاعجاب . وطوال هذه الفترة التي ستنعم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل يرتدي قميصك الأحمر ، ويحمل اسمك في الخزي والعار ، ويجرّ أغلالك في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! اجل ! لقد سويت المسألة تسوية حسنة ! آه ! مسكين ! »

وتحدّر العرق من جبينه . ونظر الى الشمعدانين بعين شاردة . ولم يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :

— « جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة تُحدث ضجة كبيرة ، وتتكلم بنبرة عالية جداً ، وتطريك وتباركك ، وصوتٌ واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ، إسمع ، ايها الرجل المرذول ! إن هذه البركات كلها سوف تسقط قبل ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي ستصعّد حتى تنتهي الى الله ! »

وما لبث هذا الصوت الذي كان واهناً جداً اول الامر ، والذي انبعث من أعمق اعماق ضميره - ما لبث ان غدا عالياً مخيفاً ، شيئاً بعد شيء ، فهو يضج الآن في اذنيه . لقد بدا له ان ذلك الصوت قد فارقه ، وانه كان يتكلم اللحظةَ من الخارج . ولقد خيّل اليه انه سمع الكلمات الاخيرة في كثير من الوضوح جعله يجيل بصره في الغرفة بضرب من الذعر .

وتساءل في صوت مرتفع ، وفي شرود :

- « هل يوجد احد هنا ؟ »

ثم استطرد في ضحكة كانت اشبه بضحكة رجل أبله :

- « يا لي من مجنون ! لا يمكن ان يكون أحد هنا . »

كان ثمة واحد . ولكن ذلك الذي كان هناك لم يكن من اولئك الذين تستطيع العين البشرية ان تراهم .

ووضع الشمعدانين على الموقد .

ثم استأنف سيره ذاك الرتيب الكئيب ، الذي ازعج الرجل النائم تحت غرفته ، المستغرق في احلامه ، فاستيقظ راجفاً .

وروّح هذا السير عنه وأثاره في آن معاً . والذي يبدو أننا في المناسبات الخطيرة نأخذ انفسنا بالحركة لكي نلتمس النصح من ايما شيء قد نلتقيه نتيجةً لتغيير المكان . وبعد بضع لحظات ، لم يعد يدري اين هو .

وتراجع الآن ، في ذعر متكافىء ، أمام كل من القرارين اللذين اتخذهما واحداً إثر واحد . لقد بدت الفكرتان اللتان قدمتا النصيحة اليه وخيمتي العاقبة على حد سواء . يا له من قدَر ! يا لها من مصادفة تلك التي جعلت السلطة تتوهم ان شانماتيو هو جان فالجان ! أيتردّى في الهاوية بدافع من الوسيلة نفسها التي بدا ، في اول الامر ، وكأن العناية الالـهية قد سخرتها لتوطيده ؟!

وغبرَتْ لحظةٌ تأمّل خلالها المستقبلَ . أن يتهم نفسه ! يا الهي ! أن يستسلم ! لقد تجلى له في يأس هائل ، كل ما يتعيّن عليه ان يهجره ، وكلّ ما يتعين عليه ان يستأنفه . يجب عليه اذن ان يودع هذا الوجود الجيّد الى ابعد حد ، الطاهر الى ابعد حد ، المشرق الى أبعد حد ؛ وان يودّع احترام الجميع ، ويودّع الشرف ، ويودّع الحرية ! انه لن يخرج للنزهة في الحقول منذ اليوم ! إنه لن يسمع الطير تغني في شهر نوار منذ اليوم ! إنه لن يوزع الصدقات على الاطفال الصغار منذ اليوم ! إنه لن يستشعر حلاوة نظرات الحب والاعتراف بالجميل الممدّدة اليه ، منذ اليوم ! ولسوف يضطر الى ان يغادر هذا البيت الذي بناه ، هذه الغرفة الصغيرة ! لقد بدا كل شيء فاتناً في عينيه الآن . إنه لن يطالع بعد اليوم في هذه الكتب . إنه لن يكتب بعد اليوم على هذه الطاولة الصغيرة ذات الخشب الابيض ! إن حاجبته العجوز ، وهي الخادم الوحيدة التي كانت عنده ، لن تحمل اليه قهوته ، بعد اليوم ، في الصباح . يا الهي ! وبدلاً من هذا كله سيكون ثمة جمهور السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقــــة ، وطوقُ العنق الحديدي ، والرداء الاحمر ، والاصفاد التي تكبل القدم ، والاعياء ، والحجيرة المظلمة ، والسرير النقّال ، وكل هذه الاهوال التي يعرفها جيداً ! ومتى ؟ في مثل سنه هذه ، وبعد ان صار الى ما صار اليه ! لو كان لا يزال شاباً ! ولكنْ أن يكون شيخاً ، وأن يهان من قِبَل أول وافد ، ويخاطَب بضمير المفرد من جانب حرس السجن ، ويُضرب بهراوة السجان ! ان توضع قدماه عاريتين في حـــذاء موثق بالحديد ! ان يُسلم رجله صباحاً ومساء الى مطرقة كبير رجال الحرس ليفحص الاغلال ! ان يحتمل فضول الغرباء الذين سوف يقـــال لهم : « هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان عمدة مونتروي سور مير ! » أن يرتقي من جديد في موهن من الليل ، وتحت سوط الرقيب ، درجات سلّم السجن العائم ، اثنتين اثنتين ، وقد سال منه العرق ، وهـــدّه

التعب ، وانحرفت قلنسوته فوق عينيـــه ! اوه ، ايّ شقاء هذا ! هل في ميسور القدر اذن أن يكون خبيثاً مثل وجل ذكي ، وان يصبح راعباً كالقلب البشري ؟

كان مهما عمل يعود الى السقوط دائماً في هذه الورطة الحادة التي كانت في اعماق تفكيره والتي تفرض عليه ان يختار احدى خطتين كلتاهما بغيضة الى نفسه : ان يبقى في الجنة ليصبح هناك شيطانـاً ، وان يعاود الدخول الى جهنم ليصبح هناك ملاكاً !

ما الذي ينبغي ان يُعمل ، يا الـهي ! ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟

كان العذاب العاصف الذي تغلـّب عليه في كثير من العسر قد آذنه بهجوم باطنيّ جديد . واختلطت فكراته كرةً أخرى . لقد اتخـذت ذلك الشكل الذاهل الميكانيكي الذي يمتنع على الوصف ، والذي هو من خصائص اليأس . وتمثّل له اسم رومينفيل على غـير انقطاع ، مع بيتين من انشودة سمعها من قبل . وقال في ما بينه وبين نفسه ان رومينفيل غابة صغيرة قرب باريس حيث يـذهب العشاق الشباب ليجمعوا زهرات الليلنج في شهر نيسان .

وترنـّح ظاهرياً ، كما ترنـّح باطنياً . لقد مشى مثل طفل صغـــير أجيز له ، أول مرة ، ان يسير وحده .

وبين الفينة والفينة ، وفي غمرة من كفاحه ضد الاعياء ، بذل جهداً جديداً لكي يوقظ فكره . لقد حاول ان يحدد ، نهائيـــاً وعلى نحو قاطع ، المشكلة التي سقط أمامها ، بمعنى من المعاني ، مُجهَـــداً خائر القوى . أيتعين عليه ان يشكو نفسه ؟ أيتعين عليه ان يعتصم بالصمت ؟ لقد عجز عن ان يرى أيـــا شيء في وضـوح . لقد ارتجفت الاشكال الغامضة لجميع الحجج التي رسمها عقله ، وتبدّدت واحـدة اثر اخرى في دخان . بيد انه استشعر ان شيئاً من نفسه — مهـــا يكن قراره — ســـوف يمـــوت ، ولســوف يكــون موتـــه بالضرورة ،

ومن غير ان يكون ثمة سبيل الى النجاة منه ؛ وانه سوف يدخل قبراً سواء جنحَ الى اليمين او جنح الى الشمال ؛ وانـــه كان يعاني حشرجة موت ، حشرجة موت سعادته ، او حشرجة موت فضيلته .

وأسفاه ! لقد عاوده تردّده كله . إنه لا يزال حيث بدأ ، لم يتقدم خطوة واحدة .

كذلك ناضلت هذه النفس التعسة الرازحة تحت وطأة الغمّ . وقبـل هذا الرجل البائس بألف وثمانمئة عام كان الكائن المجلبب بالاسرار ، الذي ُيختَصَر فيه قداسات الانسانية كلها وعذابات الانسانية كلها ، قد اطّرح هو ايضاً منذ عهد بعيد ، وفيما كانت شجرات الزيتون ترتجف أمـــام إعصار اللانهاية الضاري ، كأسَ العشاء الرباني المخيفة التي تراءت له سائلةً بالظلال ، فائضة بالظلمات ، في الأعماق الحافلة بالنجوم .

٤

اشكال يتخذها العذاب

خلال النوم

وأعلنت الساعةُ الثالثةَ . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يمشي عـلى هذا النحو ، ومن غير انقطاع تقريباً ، عندما انطرح على كرسيه .

واستسلم للرقاد ، وانشأ يحلم .

ولم يكن ثمة صلة بين هذا الحلم – شأن معظم الاحلام – وبـــين وَضْع صاحبه غير طابعه الفاجـــع الموجع . ولكنه كان ذا وَقْع في نفسه . والحق ان هذا الكابوس أثّر فيه تأثيراً قوياً حمله في ما بعـد على ان يدوّنه . وهذه احدى الاوراق التي كتبها بخط يده ، وخلّفها

من بعده . ونحن نعتبر ان من واجبنا ان ننسخها ههنا بالحرف الواحد .
وأياً ما كان هذا الحلم ، فأن قصة تلك الليلة تكون ناقصة اذا ما أغفلناه . إنه المغامرة المظلمة تقوم بها روحٌ مريضة .
وها هو ذا . إننا نجد مكتوباً على الظرف هذا السطر : « **الحلم الذي رأيته تلك الليلة . .** »

« كنتُ في حقل . حقلٍ واسع محزون ليس فيه عشب . ولم يبدُ أن ذلك كان نهاراً ، أو أنه كان ليلاً .
« كنت أمشي مع اخي ، اخي صباي . هذا الاخ الذي يتعين عليّ ان اقول اني لا افكر فيه ابداً ، واني لا اتذكره إلا نادراً .
« كنا نتحدث ، ولقد التقينا غيرَنا ماشياً أيضاً . كنا نتحدث عن جارة كانت لنا في ما مضى ، وكانت منذ ان سكنت في ذلك الشارع تعمل ونافذتها مفتوحة ابداً . وحتى فيما نحن نتكلم ، استشعرنا البرد بسبب من تلك النافذة المفتوحة .
« ولم يكن في الحقل أشجار .
« لقد رأينا رجلاً يمر بقربنا . كان عارياً عرياً كاملاً ، وكان بلون الرماد ، وكان ممتطياً جواداً بلون التراب . ولم يكن لذلك الرجل شعر . لقد رأينا جمجمته وأوردة في جمجمته . وبيده كان يمسك عصاً لدنة مثل غصن من اغصان الكرمة ، ثقيلة كالحديد . واجتاز بنا هذا الفارس ، ولم يقل شيئاً .
« وقال لي اخي : فلنسلك الطريق المهجورة .
« كان ثمة طريق مهجورة لم نرَ فيها لا عُلّيقة ولا علوج طحلب . كان كل شيء بلون التراب . حتى السماء كان لونها هكذا . وبعد بضع خطوات لم يُجبني احد حين تكلمتُ . لقد شعرت ان اخي لم يعد معي .
« ودخلتُ قريةً رأيتها . لقد ظننتُ أنها ينبغي ان تكون

رومينفيل (لماذا رومينفيل ?) *

« كان اول شارع اجتزته مهجوراً . ومنه انتقلت الى شارع آخر . وخلف الزاوية التي شكلها التقاء الشارعين كان رجلٌ واقفاً بحذاء الجدار . وقلت لهذا الرجل : ما هذا الاقليم ? اين انا ؟ فلم يجب الرجل بشيء. ورأيت باب بيتٍ ينفتح . فدخلته .

« كانت الغرفة الاولى مهملة . فدخلت الثانية . وخلف باب هـذه الغرفة وجدتُ رجلًا واقفاً بحذاء الجدار . فسألت هذا الرجل : لمـن هذا البيت ? أين انا ? فلم يجبِ الرجل بشيء . كانت للبيت حديقة .

« وغادرت البيت الى تلك الحديقة . كانت الحديقـــة مهجورة . وخلف اول شجرة رأيت رجلًا واقفاً . فقلت لهذا الرجل : ما هـذه الحديقة ? اين انا ? فلم يجب الرجل بشيء .

« وطوّفتُ في القرية ، وادركت انها كانت مدينـــة . كانت الشوارع كلها مهجورة ، وكانت الابواب كلها مفتوحة . لم يكن ثمة كائن حيّ يمرّ بالشوارع ، أو يمشي في الغرف ، او يتنزه في الحدائق. ولكن خلف كل زاوية جدارٍ ، خلف كل باب ، خلف كل شجرة ، كان يقف رجل معتصم بالصمت . ولكن لم يكن في مقـدوري ان أرى هؤلاء الرجال الا منفردين : واحداً في كل مرة . ونظـروا اليّ فيما كنت أجتاز بهم .

« وغادرت المدينة ، وشرعت أمشي في الحقول .

« وبعد فترة قصيرة ، التفتّ فرأيت جمهرة كبيرة من الناس تلحق بي . لقد عرفتُ جميع الرجال الذين رأيتهم في المدينة . كانت رؤوسهم غريبة . لقد بدا وكأنهم لا يسرعون ، ومع ذلك فقد ساروا بأسرع مما سرت . ولم يُحدثوا في سيرهم صوتاً ما . وما هي الا لحظة حـــتى أدركتني هذه الجمهرة وأحاطت بي . كانت وجوه هؤلاء الرجال بلون

* هذه الملاحظة المقيدّة بهلالين هي بخط جان فالجان .

التراب .

« ثم إن الرجل الأول الذي سبق أن رأيته وسألته لدن دخولي المدينة قال لي : الى اين انت ذاهب ؟ ألا تدري انك ميّت منذ عهد طويل ؟

« وفتحت فمي لأجيب ، وأدركت انه لم يكن ثمة أحد من حولي . »

واستيقظ . كان مثلوجاً . وكانت ريح باردة كريح الصباح قد جعلت أُطُر النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزّاتها . كانت النار قد خمدت ، وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وكان الليل لا يزال حالكاً .

ونهض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم .

ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطلّ على فناء البيت وعلى الشارع . وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلجلة تؤذي الاذن ، فخفض بصره .

لقد رأى تحته كوكبين احمرين كانت اشعتهما تتراقص جيئة وذهوباً ، على نحو عجيب ، في الظلام .

كان عقله ما يزال نصف مغيّب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه :

— « اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . إنها على الارض الآن . »

بيد أن هذا الاختلاط ما لبث ان تبدّد . وايقظته ضجة أخرى شبيهة بالأولى إيقاظاً كاملاً . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وعلى هدي الضوء الذي انبعث منهما كان في ميسوره ان يتبيّن شكل عربة . كانت عربة مكشوفة يجرها جواد صغير أبيض . وكانت الضجة التي سمعها هي وقع حوافر الجواد على حصباء الطريق .

وقال في ذات نفسه :

- « ايّ عربة هذه ? ومن الذي وفد فيها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ? »

وفي تلك اللحظة قُرع باب غرفته قرعاً خفيفاً .

وارتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وصاح في صوت فظيع :

- « مَنْ هناك ? »

واجابه شخص ما :

- « انا يا سيدي العمدة . . »

وتبيّن صوتَ المرأة العجوز ، صوت بوابته .

وقال :

- « حسن ، وماذا تريدين ? »

- « سيدي العمدة ، إنها الساعة الخامسة على وجه الضبط . . »

- « وماذا يهمني ذلك ? »

- « سيدي العمدة ، إنها العربة . . »

- « أية عربة ? »

- « العربة المكشوفة . . »

- « أية عربة مكشوفة ? »

- « ألم يطلب سيدي العمدة ان توافيه الى هنا عربة مكشوفة ? »

فقال :

- « لا . »

- « يقول السائق إنه جاء نزولاً عند إرادتك . . »

- « ايّ سائق هذا ? »

- « إنه سائق مسيو سكوفلير . . »

- « سائق مسيو سكوفلير ? »

وأجفله هذا الاسم ، فكأن برقاً أومض أمام وجهه .

وقال :

- « آه ، نعم ! مسيو سكوفلير . »

ولو قد كان في امكان المرأة العجوز ان تراه في تلك اللحظة اذن لعصف بها الذعر .

وران صمت طويل . وتأمل لهبَ الشمعة ، في انطباعة بلهاء ، واخذ بعض الشمع المحرق من حول الفتيل وأداره بين اصابعه . وانتظرت المرأة العجوز ، ومع ذلك فقد غامرت فرفعت الصوت مرةً اخرى :

- « سيدي العمدة ، بمَ ينبغي ان أجيب ؟ »

- « قولي ان ذلك حسن ، وإنني أهبط السلم . »

٥

عصيّ في الدواليب

كان البريد من آراس الى مونتروي سور مير لا يزال يجري ، في ذلك العصر ، بمركبات بريدية ترقى الى عهـــد الامبراطورية . وكانت هذه المركبات البريدية عربات خفيفة ذات درلابين ، فُرش داخلها بجلد أصهب ، وزوِّدت بنوابض ذات مفاصل ، وليس فيها غير مقعدين اثنين احدهما للسائق ، والآخر للمسافر . وكانت الدواليب مسلحة بتلك المحاور الطويلة المشاكسة التي تخلّف العربات الاخرى وراءهـا ، والتي لا تزال تُرى على طرق ألمانيا . وكانت الرسائل تُحمل في صندوق مستطيـــل ضخم قائم خلف العربة الخفيفة ، فهو يؤلف جزءاً منها . وكان هذا الصندوق مدهوناً باللون الاسود ، على حين كانت العربة مدهونة باللون الاصفر .

وكانت هذه العربات ، التي لا يشبهها اليوم شيء ، شائهة حدباء ،

فاذا ما رآها المرء من مسافة بعيدة زاحفةً فوق طريق ما عند الافق خالَها تلك الحشرات التي يدعونها الأرَضَة ، في ما اظن ، والتي تسحب باجسادها الهزيلة قطاراً طويلاً يمتد خلفها . بيد انها كانت تنطلق في سرعة بالغة . كانت مركبة البريد التي تغادر آراس كل ليلة ، في الساعة الواحدة ، بعد تسليم البريد الوارد من باريس ، تبلغ مونتروي سور مير قبل الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وتلك الليلة اصطدمت مركبة البريد الهابطة الى مونتروي سور مير ، من طريق هسدين ، لحظةَ دخولها الى المدينة ، عند احد المنعطفات ، بعربة مكشوفة صغيرة شُدّ اليها جواد ابيض . كانت تلك العربة تنطلق في اتجاه معاكس ، ولم يكن فيها غير شخص واحد ، رجل متلفّع برداء فضفاض . واصيبت عجلتا العربة المكشوفة بصدمة قاسية . وصاح سائق مركبة البريد طالباً من الرجل ان يقف ، ولكن المسافر لم يصغ لكلامه ، وواصل انطلاقه في سرعة عظيمة .

وقال سائق مركبة البريد :

- « هوذا رجل مستعجل الى حد شيطاني ! »

وكان الرجل المنطلق هكذا على عجل هو ذلك الذي شهدناه يناضل في غمرة من القلق العنيف المثير للشفقة .

الى اين كان ذاهباً ؟ إنه ما كان قادراً على ان يجيب . لماذا كان ينطلق في سرعة ؟ لم يكن يدري . كان يندفع الى امام ، كيفما اتفق . إلى اين ؟ الى آراس ، من غير ريب . ولكن لعله كان ذاهباً الى مكان آخر ايضاً . وفي بعض اللحظات ، استشعر ذلك ، فارتعدت اوصاله .

لقد غاص في تلك الظلمة وكأنه يغوص في لجّة فاغرة فاها . كان شيء يستحثه ، كان شيء يجذبه . ما الذي كان يعتمل في ذات نفسه ؟ ذلك ما لا يستطيع احد ان يصفه ، وذلك ما يفهمه كل انسان . فمن ذا الذي لم يدخل ، ولو مرةً واحدة في حياته ، في كهف المجهول المظلم هذا ؟

ولكنه لم يعتزم شيئاً ، لم يقرر شيئاً ، لم يُبْرم شيئاً ، لم يفعل

شيئاً . إن اياً من أفعال ضميره لم يكن نهائياً . كان ، اكثرَ من ايا وقت مضى ، عنـد نقطة الابتداء .

لمَ كان ذاهباً الى آراس ؟

وكرّر ما سبق ان قاله لنفسه حين حجز عربة سكوفلير ذات العجلتين من انه – مهما تكن النتيجة – فليس ثمة بأس في ان يرى بعينيه ؛ وان يحاكم الاشياء بنفسه ؛ وان ذلك نفسه عملٌ حصيف ؛ وأن عليـــه ان يعرف ما الذي يجري ؛ وانه ليس في ميسوره ان يقرّر شيئاً من غـير ان يلاحظ ويبحث ؛ وان الامر الضئيل يبدو ، على البعـــد ، اشبه بالجبل الكبير ؛ وان ضميره قد يطمئن على كل حال ، اذا ما رأى الى شانماتيو هذا ، وهو بائس من البائسين ، اطمئناناً كبيراً فيرتضي ان يترك هذا الرجل يمضي الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مكانه ؛ وان مما لا ريب فيه ان جافير سوف يكون هناك ؛ وان بروفيـه هذا ، وشونيلديو هذا وكوشباي هذا ، وهم من نزلاء سجن الاشغال الشاقـــة القدماء ، سوف يكونون هناك ايضاً ؛ ولكنهم لن يتعرّفوه من غير شك . هراء ! يا لها من فكرة ! وأن جافير كان على بعد مئة فرسخ عـــن الحقيقة ؛ وان جميـع الظنون والافتراضات منصبّة على شانماتيو هـذا ؛ وانه لم يكن ثمة ، اذن ، خطرٌ على الاطلاق .

واضاف قائلاً لنفسه انها ساعة قاتمة من غير ريب ، ولكنه يجب أن يجتازها ؛ وانه على أية حال يملك َقدَرَه – مهما يكن سيئاً – بيده ؛ وأنه هو سيّد هذا القدَر . وتشبّث بهذه الفكرة .

ولكي نقول كل شيء ، ننصّ ههنا على أنه كان ، في أعمق اعماقه ، يُؤثر انْ لا يذهب الى آراس .

ومع ذلك ، فقد كان في طريقه اليها .

وعلى الرغم من استغراقه في التفكير ، فقد ألهبَ بسوطه الجوادَ ، الذي كان ينهب الارض في ذلك الخبب النظاميّ ، الثبْت ، الكامل ، الذي يجتاز فرسخين ونصف في الساعة الواحدة .

وكلما اندفعت العربة المكشوفة الى أمام ، استشعر في ذات نفسه شيئاً يرتدّ الى وراء .

وعند الفجر بلغ الارضَ الفضاء . كانت مدينة مونتروي سور مير قد خُلّفت وراءه على مسافة بعيدة . ورأى الى الافق يُشرق . وبَصُر — ولكن من غير ان يراها — بجميع صور الضحى الشتويّ الباردة تمـر أمام عينيه . إن للصباح أشباحه ، مثل الليل . انه لم يرها . ولكنّ على غير وعي منه ، وفي ضرب من النفاذ يكاد يكون مادياً ، أضافت ظلال الاشجار والتلال السوداءُ تلك الى وضعه النفسيّ المضطرب شيئاً لست أدريه ، شيئاً كالحاً مشؤوماً .

وكلما اجتاز بواحد من تلك المنازل المنعزلة القائمة هنا وهناك على جانب الطريق ، قال في ذات نفسه :

— « ولكنّ في داخل هذا المنزل اناساً نائمين ! »

وكان خبب الجواد ، وجلجلة جهازه ، ودوران العجلتين على حصباء الطريق تُحدث صوتاً رفيقاً رتيباً . إن هذه الاشياء لتكون فاتنة حين يكون المرء مبتهجاً ، وفاجعة حين يكون محزوناً .

كان النور غامراً حين انتهى الى هسدين . ووقف أمام احد الخانات لكي يدع جواده يتنفس ، ولكي يعمل على تزويده بشيء من الشوفان .

وكان هذا الجواد ، كما ذكر سكوفلير من قبل ، من سلالة جياد « بولونيه » الصغيرة ، فهو ذو رأس كبير اكثر مما ينبغي ، وبطن ضخم اكثر مما ينبغي ، وعنق قصيرة ، ولكنه ذو صدر عريض ، وكفل ضخم ، وقائمة مهزولة وقيقة ، وقدم ثابتة . سلالة بشعة ولكنها قوية سليمة . كان الجواد الممتاز قد اجتاز خمسة فراسخ في ساعتين ولم تعلُ مؤخرته قطرة واحدة من العرق .

ولم يغادر العربة المكشوفة . وفجأةً انحنى خادم الخان الذي حمل الشوفان ، وأنشأ يفحص الدولاب الأيسر .

وقال هذا الرجل :

— « هل اجتزت مرحلة واسعة على هذا النحو ؟ »

فأجاب ، وهو ما يكاد يقطع حبل تفكيره :

— « لماذا ؟ »

فقال الخادم :

— « هل اقبلت من مكان بعيد ؟ »

— « من نقطة تبعد خمسة فراسخ عن هذا المكان . »

— « آه ! »

— « لماذا تقول : آه ؟ »

وانحنى الخادم كرة اخرى . واعتصم بالصمت لحظةً ، مسمّراً بصره على الدولاب ، ثم انتصب قائلاً :

— « من الممكن ان يفكر المرء ان هذا الدولاب قد فرغ اللحظة من اجتياز خمسة فراسخ . ولكن من الثابت انه لن يستطيع اجتياز ربع فرسخ بعد الآن . »

ووثب من العربة الى الارض .

— « ماذا تقول ، يا صديقي ؟ »

— « اقول إنها لمعجزة ان تكون قد اجتزتَ خمسة فراسخ من غير ان تسقط أنت وجوادك في حفرة ما ، على الطريق . من الخير لك ان تلزم الحذر . »

كان اذىً بالغٌ قد اصاب الدولاب حقاً . ذلك بأن الاصطـــدام بمركبة البريد كان قد كسر اثنين من انصاف محاوره ، وحلّ وثاق المركز ، فليس في وسع ثقب اللولب ان يُمسكه بعد .

وقال مخاطباً خادم الاصطبل :

— « ايها الصديق ، الا يوجد صانع عجلات هنا ؟ »

— « من غير شك ، يا سيدي . »

— « تكرّم عليّ باستدعائه . »

— « إنه هنا ، على بُعد خطوتين . هاي ! ايها المعلم بورغايار ! »

وكان المعلم بورغايار ، صانع العجلات ، واقفاً على عتبة دكانه . فأقبل وفحص العجلة ، وغضّن وجهه كما يغضّن الجراح وجهه عند رؤيته رجلاً مكسورة .

— « هل تستطيع ان تصلح هذه العجلة ، في الحال ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

— « متى استطيع ان استأنف الانطلاق ؟ »

— « غداً . »

— « غداً ! »

— « ان إصلاحها يقتضي عمل يوم بكامله . هل أنت مستعجل جداً يا سيدي؟»

— « أجل ، أنا مستعجل جداً . يجب ان انطلق بعد ساعة ، على الاكثر . »

— « مستحيل ، يا سيدي . »

— « سوف أدفع لك ما تشاء . »

— « مستحيل . »

— « حسن . بعد ساعتين . »

— « ذلك مستحيل ، اليوم . يجب ان أصلح اثنين من انصاف المحاور ، ومركز الدولاب . إن سيدي لا يستطيع ان يستأنف المسير قبل غد . »

— « إن مهمتي لا تستطيع ان تنتظر حتى الغد . اليس في إمكاننا ان نستعيض عن هذا الدولاب بغيره ، بدلاً من ان نصلحه ؟ »

— « كيف ذلك ؟ »

— « انت صانع عجلات ؟ »

— « من غير شك ، يا سيدي . »

– « أليس عندك دولاب تبيعني اياه ؟ عندئذ يكون في ميسوري أن انطلق في الحال . »

– « دولاب للاستبدال ؟ »

– « نعم . »

– « ليس عندي دولاب يلائم عربتك تماماً . إن كل دولابين يشكلان زوجاً . وان الدولابين لا ينسجم احدهما مع الآخر كيفما اتفق . »

– « اذا كان الامر كذلك فبعني زوجاً من الدواليب . »

– « يا سيدي ، ليس كل الدواليب تلائم كل المحاور . »

- « ولكن جرّب . »

– « لا فائدة ، يا سيدي . ليس عندي ما ابيعه غير دواليب عربات اثقال . نحن نعيش هنا في منطقة صغيرة . »

– « هل عندك عربة ذات دولابين تعيرني اياها ؟ »

وكان صانع العجلات قد ادرك ، من اللمحة الاولى ، ان العربة المكشوفة كانت عربة مستأجرة . فهزّ كتفيه .

– « انت تُعنى عناية حسنة بالعربات التي تستأجرها ! واني خليق بان احتفظ باحداها فترة طويلة قبل ان أعيرك إياها . »

– « حسن ، بعني اياها . »

– « ليس عندي واحدة . »

– « ماذا ؟ حتى ولا عُجَيْلة ذات غطاء ؟ أنا لست متعنتاً ، كما ترى . »

- « نحن هنا نعيش في بلد صغير . » قال صانع العجلات ذلك ، ثم اضاف : « ولكن عندي ، تحت السقيفة العتيقة هناك ، عربة قديمة مكشوفة ذات اربع عجلات هي ملكٌ لمواطن من مواطني المدينة عهد اليّ في حفظها ، مواطن يستعملها في التاسع والعشرين من شباط

دائماً . سوف اعيرك اياها . إنها ليست لي طبعاً . ويجب ان لا يراها المواطن تجري . والى هذا ، فهي عربة مكشوفة ذات اربع عجلات ، وهي تحتاج الى جوادين . »

– « سوف آخذ جوادين من جياد البريد . »

– « الى اين يقصد سيدي ؟ »

– « الى آراس . »

– « ويريد سيدي ان يصل الى هناك اليوم ؟ »

– « أجل . »

– « بأن تأخذ جياد البريد ؟ »

– « ولم لا ؟ »

– « هل يرضى سيدي بأن يصل هذه الليلة في الساعة الرابعة صباحاً ؟ »

– « لا ، طبعاً . »

– « اعني ، كما ترى ، ان هناك شيئاً ينبغي ان يقال في ما يتعلق بأخذ جياد البريد ... هل يحمل سيدي جوازه ؟ »

– « نعم . »

– « حسن . اذا اخذ سيدي جياد البريد فأنه لن يصل الى آراس قبل غد . نحن هنا مفرق طرق . إن المحطات لا تُخدم الا خدمة رديئة ، والخيل في الحقول . لقد بدأ موسم الحراثة منذ ايام ، والحاجة ماسة الى كثير من الدواب المقرونة . والجياد تؤخذ من كل مكان ، ومن مراكز البريد ايضاً . ولسوف يتعيّن على سيدي ان ينتظر ثلاث ساعات او اربع ساعات ، على الاقل ، في كل محطة . وفوق هذا ، فأن على المرء ان يمشي على قدميه . ان هناك كثيراً من الهضاب يجب ان تُرتقى . »

– « حسن ، سوف أنطلق على صهوة الجواد . حلّ وثاق الفرس

وافصل ما بينه وبين العربة . في استطاعة شخص ما في هذا المكان ان يبيعني سرجاً ، من غير شك . »

— « طبعاً . ولكن هل يحتمل هذا الجواد السرج ؟ »

— « صحيح . لقد نسيت ذلك . انه لن يحتمله . »

— « واذن ... »

— « ولكني سوف اجد في القرية ، من غير شك ، جواداً أستأجره . »

— « جواداً يذهب الى آراس في انطلاقة واحدة ؟ »

— « نعم . »

— « ينبغي ان يكون ذلك جواداً ليس في منطقتنا نظيره . ويجب ان تشتريه قبل كل شيء ، لأن احداً لا يعرفك هنا . ولكنك لن تجد مثل هذا الجواد ، سواء للشراء ام للاستعارة ، وسواء أدفعت فيه خمسمئة فرنك او دفعتَ فيه الف فرنك . »

— « ماذا يجب أن أعمل ؟ »

— « خير ما تعمله ، كرجل ذي ادراك ، هو ان أصلح الدولاب ، وان تستأنف رحلتك غداً . »

— « غداً يفوت الاوان . »

— « لعنها الله ! »

— « أليس ثمة مركبة بريد قاصدة الى آراس ؟ متى تصل الى هنا ؟ »

— « الليلة . كلتا المركبتين تقوم بالرحلة ليلاً . مركبة البريد الصاعدة ومركبة البريد الهابطة . »

— « كيف ! أو تحتاج الى يوم كامل لاصلاح هذا الدولاب ؟ »

— « يوم كامل ، بل يوم طويل ! »

— « ولو جرّدتَ عاملين لاصلاحه ؟ »

– « ولو جرّدتُ عشرة عمال . »

– « واذا شددت انصاف المحاور بالحبال ؟ »

– « انصاف المحاور استطيع ان اشدّها بالحبال . أما مركز الدولاب فلا . ثم إن إطار الدولاب الحديدي في حال غير حسنة ، ايضاً . »

– « أليس في المدينة مؤجّر عربات ؟ »

– « لا . »

– « ألا يوجد فيها صانع عجلات آخر ؟ »

وأجاب خادم الاصطبل وصانع العجلات في آن معاً ، وبهزّة من رأسيهما :

– « لا . »

واستشعر بهجةً غامرة .

كان واضحاً ان العناية الالهية تدخلت في الامر . إنها هي التي كسرت دولاب العربة المكشوفة ، وصدّته عن سبيله . وهو لم يستسلم لذلك لأول وهلة ؛ بل بذل كل جهد ممكن لاكمال رحلته . لقد استنفد ، في في اخلاص وتدقيق ، جميع الوسائل . وهو لم يتراجع لا في وجه الشتاء ، ولا في وجه التعب ، ولا في وجه النفقات ؛ وليس ثمة ما يؤنب نفسه من اجله . واذا لم يستطع ان يذهب الى أبعد من هذا فليس ذلك من شأنه . الذنب لم يعُدْ ذنبه . إن ذلك لم يكن من عمل ضميره . ولكن من عمل العناية الالهية .

وتنفّس . تنفّس في حرية وبملء الصدر للمرة الاولى منذ زيارة جافير . لقد بدا له ان اليد الحديدية التي اعتصرت فؤاده طوال عشرين ساعة قد تراخت .

لقد تراءى له ان الله كان في جانبه الآن ؛ كان في جانبه على نحو جليّ .

وقال في ذات نفسه إنه فعل كل ما في وسعه ان يفعله ، وانه لم

يبقَ عليه الآن الا ان يرتدّ على آثاره ، في هدوء .

ولو ان حديثه مع صانع العجلات جرى في احدى غرف الخان اذن لما شهده احد ، ولما سمعه امرؤ على الاطلاق ، واذن لظلّ هناك ، ولكان من المحتمل ان لا نُضطر الى رواية ايّ من الاحداث التي سوف نقرأ نبأها بعد . ولكن ذلك الحديث جرى في الشارع . وخليق بكل محاورة في الشارع ان تنشيء حتماً حلقةً من الناس . فهناك دائماً قوم لا يطلبون اكثر من ان يكونوا نظارة . ففيما كان يحاور صانع العجلات تحلّق حولهما نفر من الغادين والرائحين . وبعد ان استمع احد الغلمان الصغار الى الحديث الدائر بضع دقائق — ولم يكن احد قد انتبه اليه — انفصل عن الحشد واطلق ساقيه للريح .

وفي اللحظة التي وطن فيها المسافر عزمه — بعد المذاكرة الباطنية التي اشرنا اليها — على ان يرجع من حيث اتى ، عاد هذا الغلام الصغير ، تصحبه امرأة عجوز .

وقالت المرأة :

— « سيدي ، يقول لي ولدي انك راغب في استئجار عربة ذات دولابين . »

وكان في هذا الكلام البسيط ، تنطق به امرأة عجوز قادها الى هناك غلام صغير ، ما جعل العرق يتصبب من ظهره . لقد خُيّل اليه انه رأى اليد التي تحرّر منها اللحظة تعاود الظهور ، خلفه في الظلّ ، وهي على اتمّ الاستعداد لأن تقبض عليه من جديد .

واجاب :

— « أجل ، ايتها المرأة الطيبة ، أنا أبحث عن عربة ذات دولابين أستأجرها . »

ثم سارع الى القول مُضيفاً :

— « ولكن ليس ثمة واحدة في هذه المنطقة . »

فقالت العجوز :

– « اجل . هناك واحدة . »

فتدخل صانع العجلات قائلاً :

– « اين هي اذن ؟ »

فأجابت العجوز :

– « في بيتي . »

وارتعدت اوصاله . كانت اليد المشؤومة قد اطبقت عليه كرة اخرى .

وكان لتلك المرأة العجوز ، في الواقع ، ضربٌ من عُجيلة ذات غطاء مصنوعة من خيزران ، وكانت قائمة تحت سقيفة ما . وتدخّل الحداد وخادم الخان ، وقد اغضبهما ان يفلت المسافر من بين ايديهما :

– « انها عربة رديئة عتيقة . – إنها خالية من النوابض . – صحيح ان المقعد قد عُلّق في الداخل بسيور جلدية . – إن المطر ينفذ اليها . – إن دواليبها صدئة ثلمتها الرطوبة . – انها لا تستطيع ان تذهب الى أبعد بكثير من العربة المكشوفة . – إنها عربة سخيفة حقاً – وان هذا السيد ليخطيء اعظم الخطأ اذا امتطاها . » الخ . الخ .

كل ذلك كان صحيحاً . ولكن هذه العربة الرديئة ، هذه العربة السخيفة ، هذا الشيء ، كائناً ما كان ، كانت تجري على دولابين ، وكان في استطاعتها ان تذهب الى آراس .

ودفع ما سُئل ان يدفعه ، وعهد الى صانع العجلات في إصلاح العربة المكشوفة على ان يستلمها حين يعود ، وقرن الجواد الابيض الى العُجَيْلة ذات الغطاء ، وامتطى متنها ، واستأنف السير في الطريق التي سلكها منذ الصباح .

ولم تكد العجيلة تنطلق به حتى اعترف بانه استشعر ، قبل لحظة ، ابتهاجاً ما لدنْ خطرَ له انه لن يذهب بعدُ الى حيث كان ذاهباً . وفحص ذلك الابتهاج في ضرب من الغضب ، فوجد أنه احمق . ولماذا

يستشعر الفرح اذا ارتدّ على عقبيه ؟ وعلى اية حال ، فهو يقوم بهذه الرحلة بطَوْعِهِ . إن احداً لم يُكرهه عليها .

ولا ريب في ان شيئاً ما لن يقع إلا اذا اراد هو ان يقع .

وفيما هو يغادر هسدين ، سمع صوتاً يصيح :

– « قف ! قف ! »

واوقف العُجَيلة بحركة عجلى كان لا يزال فيها شيء لا أدريه من الحمّى والتشنج هو اقرب ما يكون الى الأمل .

وكان الصائح غلام المرأة العجوز .

وقال :

– « سيدي ، اني أنا الذي جئتك بالعجيلة . »

– « ثم ماذا ؟ »

– « إنك لم تعطني شيئاً . »

واستشعر – وهو الذي كان يعطي الجميع ، ويعطيهم في كثير من السخاء – أن هذا المطلب مغالىً فيه ، وانه يكاد يكون بغيضاً .

وقال :

– « آه ، أنت الذي جئت بها ، أيها الشحاذ ! انك لن تنال شيئاً ! »

وألهب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خببٍ خاطف .

كان قد أضاع كثيراً من الوقت في هسدين ، وكان يريد ان يعوّض ما أضاعه . وكان هذا الجواد الصغير باسلاً ، وكان يجر العجيلة بقوة فرسين اثنين . ولكنّ الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد هطل ، وكانت الطرق رديئة . وفوق هذا فلم يعدْ هو على متن عربته الأولى . كانت العجيلة تمضي في عسر ، وكانت ثقيلة جداً . والى هذا فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

واقتضاه الانتقال من هسدين الى سان بول أربع ساعات . أربع

ساعات لكي يجتاز خمسة فراسخ .

وفي سان بول تقدّم الى أول خان ، وقاد الجواد الى الاصطبل ، بعد ان فصله عن العُجيلة . وكما وعد سكوفلير ، وقف قرب المعلف بينا كان الجواد يتناول طعامه . كان يفكر في أشياء محزونة مشوّشة .

ووفدت زوجة صاحب الخان الى الاصطبل .

- « الا يريد سيدي أن يتناول طعام الصباح ؟ »

فقال :

- « ولكنْ ، هذا صحيح . إن لي شهية حسنة ايضاً . . »

وتبع هذه المرأة ، وكانت ذات وجه نَضِر طروب . وقادته الى قاعة منخفضة حيث كانت بضع طاولات مغطاة بقماش مشمّع .

وقال :

- « عجلي . يجب أن استأنف السير . أنا مستعجل . . »

وسارعت خادم فلمنكية ضخمة الى إعداد المائدة له . ونظر الى هذه الفتاة وقد داخلَهُ الارتياح .

وفكّر فيا بينه وبين نفسه :

- « ذلك ما أوجعني . أنا لم اتناول طعام الصباح . . »

كان فطوره قد أُعدّ . فانقضّ على الرغيف ، ونهش قطعة منه ، ثم أعاده في تؤدة الى الطاولة ، ولم يمسّه بعد ذلك قط .

وكان سائق عربات يتناول الطعام على طاولة اخرى . فقال لهذا الرجل :

- « ما الذي يجعل خبزهم مريراً الى هذا الحد ؟ »

وكان سائق العربات ألمانياً ، فلم يفهم كلامه .

ورجع الى الاصطبل لكي يكون الى جانب جواده .

وبعد ساعة ، كان قد غادر سان بول ، واتجه نحو « تانك » التي لا تبعد عن آواس غير خمسة فراسخ .

ما الذي كان يعمله اثناء هذه الرحلة ؟ بمَ كان يفكر ؟ لقد رأى

الى الاشجار تمرّ به ، شأنه في الصباح ، والى السطوح المبنية من طين وقش ، والى الحقول المحروثة ، والى مشاهد الريف الذائب بعضها في بعض ، والمتغيّرة عند كل منعطف من منعطفات الطريق . ومثل هذه المشاهد تشبع النفس في بعض الاحيان ، وتكاد ان تطرد التفكير . وايّ شيء يمكن ان يكون اشدّ كآبة وأعمق حسرةً من رؤية الف شيء للمرة الاولى وللمرة الاخيرة ؟ وغير بعيد ان يكون قد عقد ، في أحلك جزء من عقله ، مقارنة بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود الانساني . إن حقائق الحياة كلها لا تفتأ تفرّ من وجهنا على نحو موصول . وان الظلمات والنور لتتداخل وتتمازج . فبعد الجَهَر * الكسوف . إننا ننظر ؛ إننا نستعجل ؛ اننا نمدّ ايدينا لنمسك بالذي يحدث ؛ إن كل حادثة هي منعطف من منعطفات الطريق ؛ وفجأة ننتهي الى الشيخوخة . نحن نستشعر صدمة طفيفة ، فاذا كل شيء اسود ، واذا بنا نتبيّن باباً مظلماً . ويقف جواد الحياة القاتم هذا الذي كان يُقلّنا ، ونرى شخصاً محجّباً مجهولاً يُطلقه في الظلمات .

وهبط الغسق لحظةَ شاهد الاطفال المنصرفون من المدرسة هذا المسافرَ يدخل الى تانك . صحيح أن النهار كان ما يزال قصيراً . ولم يقف في تانك . وفيما هو ينطلق خارجاً من القرية رفع ريفيّ كان يصلح الطريق رأسه وقال :

– « ان جوادك متعَب جداً . »

كانت البهيمة ، في الواقع ، تعدو عدواً هو الى المشي أقرب .

واضاف الريفيّ :

– « أذاهب انتَ الى آراس ؟ »

– « نعم . »

* جَهِرتِ العين : لم تبصر في الشمس .

— « اذا ذهبت بهذا البطء فلن تصل باكراً . »
ووقف فرسَهُ وسأل الريفيّ :
— « ما المسافة التي تفصل آراس عن هذا المكان ؟ »
— « سبعة فراسخ طويلة ، تقريباً . »
— « كيف ذلك ؟ إن كتاب البريد لا يشير الى اكثر من خمسة فراسخ وربع . »
فأجابه الريفي :
— « آه ! اذن ، فانت لا تعرف ان الطريق قيد الاصلاح ؟ سوف تجدها منقطعة بعد مسيرة ربع ساعة من هنا . وليس ثمة وسيلة للذهاب الى ابعد من ذلك . »
— « حقاً ؟ »
— « سوف تنعطف نحو الشمال ، وتسلك الطريق التي تقود الى كارانسي ، ثم تعبر النهر . وبعد أن تصل الى كامبلين تنعطف نحو اليمين ؛ تلك هي طريق مون — سان — إيلوا التي تقود الى آراس . »
— « ولكن الليل قد هبط . ولسوف اضلّ سبيلي . »
— « ألست من ابناء هذه المنطقة ؟ »
— « لا . »
— « والى ذلك ، فهذه كلها طرق ضيقة اكثر مباشرةً من الطريق العامة . »
قال الريفيّ هذا ثم اضاف :
— « إسمع ، يا سيدي . اتريد ان اقدّم اليك نصيحة ؟ إن جوادك متعَب ؛ فارجع الى تانك . إن فيها نُزُلاً حسناً . نم هناك . ولسوف يكون في إمكانك ان تذهب الى آراس غداً . »
— « ولكن يجب ان اكون هناك الليلة . »

– « هذه مسألة أخرى . اذن فارجع على اية حال الى الخان وخذ جواداً إضافياً . وفي ميسور الغلام الذي سينطلق مع الجواد ان يهديك سبيلك عبر الطرق الضيقة . »

وعمل بنصيحة الريفيّ ، فارتدّ على آثاره ، وبعد نصف ساعة كان يجتاز بالمكان نفسه ، ولكن في خببٍ تامّ ، ومع جواد إضافي جيد . وكان غلام من غلمان الاصطبلات ، دعا نفسه سائق عربات ، قد جلس على ساق العربة .

ومع ذلك ، فقد استشعر أنه يضيع كثيراً من الوقت .

كان الظلام قد امسى حالكاً .

وانتهيا الى احدى السبل الضيقة . وغدت الطريق مروّعة . وسقطت العُجيلة في ثلم إثر ثلم . وقال للسائق :

– « إلزمِ الخبب اضاعف لك العطاء . »

وإثر احدى الرجّات ، انكسرت قطعة الخشب الامامية المعلّق بها سَيرُ الجرّ .

وقال سائق العربة :

– « سيدي ، لقد انكسرت قطعة الخشب الامامية ، ولست ادري كيف أقرن جوادي الآن . وهذه الطريق رديئة جداً في الليل ، فاذا رغبتَ في ان ترجع الى ثانك وتبيت فيها فعندئذ يكون في إمكاننا أن نصل الى آراس في ساعة مبكرة من صباح غد . »

فأجابه قائلاً :

– « هل عندك قطعة من حبل وسكين ؟ »

– « نعم ، يا سيدي . »

وقطع غصن شجرة واستعاض به عن الاداة الخشبية المكسورة . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أيضاً . ولكنهما ما لبثا ان انطلقا

خبياً .

كان السهل مظلماً . وكان ضباب منخفض ، أسود كثيف ، يزحف فوق الهضاب ، ويطفو متلاشياً كالدخان . وانبثق من السحائب وميض ضئيل . وملأت ريحٌ عنيفة مقبلةٌ من جانب البحر أرجاءَ الافق كلـــه بصوت اشبه ما يكون بذلك الذي يحدثه شخصٌ يحرّك بعض الاثاث . ورانت سيا الذعر على كل ما تحته عيناه . عجباً ، كيف ترتعد جميـع الاشياء تحت انفاس الليل الفظيعة !

وعصف به البرد . إنه لم يأكل شيئاً منذ الليلة البارحة . واسترجع ، على نحو غامض ، ذكرى مسيره الليلي الآخر في ذلك السهل الواسـع المنبسط قرب د ... كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، ولقد بدا له وكأنه لم يكن إلا أمس .

ودق جرس ساعة بعيدة . فسأل الغلامَ :

– « كم الساعة الآن ؟ »

– « السابعة ، يا سيدي . ولسوف تبلغ آراس في الساعة الثامنة . لم يبق أمامنا غير ثلاثة فراسخ . »

وفي تلك اللحظة خطر له لأول مرة – ولقد بدا عجيباً في نظره أن لا يفكر في ذلك من قبل – أن كل العناء الذي يتجشّمه قد يكون غير ذي غَناء ، وانه ما كان يعرف حتى موعدَ المحاكمة ، وأنه كان من واجبه ان يستعلم عن ذلك على الاقل ، وان من البلاهة ان ينطلق في مثل هذه السرعة من غير ان يعرف ما اذا كان لذلك فائـدة ما . ثم تمثّلَ في ذهنه بعض الاعتبارات : ان جلسات محاكم الجنايات تُستَهل عادةً في الساعة التاسعة صباحاً ، وان هذه الدعوى لن تستغرق وقتـــاً طويلاً ، وان سرقة التفاح هذه سوف تكون موجزة جداً ، وان المسألة كلها سوف تكون مسألة تحقيق الهوية ، وأنه لن يكون ثمة غير اربعة

شهود او خمسة وشيء من الكلام قليل يقوله المحامون ؛ وانه قد يصل الى هناك بعد ان ينتهي كل شيء !

وألهب السائق الجوادين بسوطه . كانا قد عبرا النهر ، وخلّفا مون – سان – إيلي وراءهما .

واحلولك الليل اكثر فأكثر .

انتهى الجزء الثالث

ويليه الجزء الرابع وبه يتمّ المجلد الاول

من البؤساء

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

٤

نقله إلى العربية

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

٦
الاخت سيمبليس تجرّب

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جَدَل .

كانت قد قضت ليلة سيئة جداً . سعالٌ مروّع ، وحمّى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين أقبل الطبيب ، كانت تهذي . كان قلقاً ، وكان قد طلب ان يحاط علماً بمجيء مسيو مادلين حالما يتمّ ذلك .

كانت طوال الصباح مغتمة كئيبة . انها لم تتكلم إلا قليلاً ، ولقد راحت تثني غطاء سريرها متمتمة ، في صوت منخفض ، ببعض الحسابات التي بدت اشبه ما تكون بحساب المسافات . كانت عيناها غـائرتين مـحمّرتين . ولقد تراءتا كأن النور كاد يفارقهما ، ولكنهما كانتا تلتمعان ، في بعض اللحظات ، وتتوهجان ، وكأنهما كوكبان . لكأنّ ضيـاء السماء يملأ — عنـد اقتراب ساعة مظلمة ما — اولئك الذين يغادرون ضياء الارض .

وكلما سألتها الاخت سيمبليس عن حالها كانت تجيبها جواباً لا يتغير .

— « بخير . اريد ان ارى مسيو مادلين . »

قبل بضعة اشهر ، حين فقدتِ البقيةَ الباقية من حشمتها ، البقيـة الباقية من حياتها ، البقية الباقية من سعادتها ، كانت خيالَ نفسها . اما الآن فقد أمست شبحَ نفسها . كان الألم الجسدي قد أتم عمـل الالم المعنوي . فاذا بهذه المخلوقة البالغ عمرها خمسة وعشرين ربيعاً ذات جبين متجعد ، وخدين مترهلين ، ومنخرين مقروصين ، ولثة متقلصة ، وبشرة

رصاصية ، وعنق عظمية ، وتَرْقُوَتان * ناتئتان ، واوصال مهزولة ، وجلد ترابيّ شاحب ، وشعر وخطه المشيب . واأسفاه ! كيف يعجل المرضُ الشيخوخة !

وعند الظهيرة ، اقبل الطبيب كرة اخرى ، وترك بعض الوصفات ، وسأل عن العمدة أوَفَدَ على المستشفى ام لا ، وهزّ رأسه .

كان من عادة مسيو مادلين ان يفد في الساعة الثالثة ليرى المرأة المريضة . وإذْ كانت الدّقة من الرفق ، فقد كان دقيقاً في المواعيد .

وحوالى الساعة الثانية والنصف نبا الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين دقيقة سألت الراهبةَ اكثر من عشر مرات :

— « كم الساعة ، ايتها الاخت ؟ »

وأعلنت الساعةُ الثالثةَ . ولم تكد تستكمل دقاتها حتى انتصبت فانتين في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها إلا في عسر ، وشابكت يديها العجفاوين الصفراوين في ضمة تشنّجية ، وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو وكأنها ترفع ثقلاً ثقيلاً . ثم إن فانتين التفتت ونظرت الى الباب .

إن أحداً لم يدخل . إن الباب لم ينفتح قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسمّرة عينيها على الباب ، غير مبدية حراكاً ، وكأنما كانت تحبس أنفاسها . ولم تجرؤ الراهبة على الكلام . واعلنت ساعة الكنيسة الثالثةَ والربع . وانطرحت فانتين على وسادتها .

ولم تقل شيئاً ، وشرعت تثني غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكنّ أحداً لم يأت . وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح على فراشها كرة اخرى .

* الترْقوَة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق ، وجمعا تراقٍ .

كان في ميسور المرء ان يطّلع على افكارها في وضوح ، ولكنها لم تلفظ اسماً ما . انها لم تتشكَّ . إنها لم تلُمْ . لقد سعلت على نحـــو فاجع ، ليس غير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يزعم ان شيئاً مظلماً كان يُسِفّ فوقها . كان لونها أزرق ضارباً الى السواد ، وكانت شفتاهـــا زرقاوين . وابتسمت بين الفينة والفينة .

واعلنت الساعة الخامسةَ . وعندئذ سمعتها الراهبة تقول في صـــوت منخفض جداً ، وفي رفق :

— « ولكن ما دمت انا ذاهبة غداً ، فـــأن من الخطأ ان لا يأتي اليومَ ! »

واستولى العجب على الاخت سيمبليس لتأخر مسيو مادلين .

وفي غضون ذلك حدقت فانتين الى مظلة سريرها . لقد بدت وكأنها تحاول ان تتذكر شيئاً . وفجأة انشأت تغني في صوت واهن اشبه بالهمس . وأصغت الراهبة . كانت هذه هي الاغنية التي أنشدتها فانتين :

سوف نشتري أشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .
ان البنفسج أزرق ، وإن الورود حمراء ،
إن البنفسج أزرق ، وأنا أحب أحبتي .

أمس وفدت مريم العذراء ،
الى فراشي في رداء موشى ،
وقالت لي : « هنا تحت حجابي ،
يختبىء الطفل الذي سألتني إياه يوماً . »
أسرعي الى المدينة ، واشتري نسيجاً قطنياً ،
اشتري خيوطاً ، واشتري كشتبان .

سوف نشتري أشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .

أيتها العذراء المقدّسة الطيبة ، لقد وضعت

الى جانب فراشي مهداً مزيناً بالصاتب .
ولو ان الله اعطاني اجل كوكب من كواكبه
اذن لاحببت الطفل الذي اعطيتني اياه اكثر .
– « سيدتي ، ما الذي أصنعه بهذا النسج القطني ؟ »
– « اصنعي جهازاً لمولودتي الجديدة . »

إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء .
إن البنفسج ازرق ، وانا احب احبتي .

– « إغسلي هذا القماش القطني . » – « اين ؟ » – « في النهر . »
إجعلي منه ، من غير ان تتلفيه او تلوثيه ،
تنورة جميلة ، تنورة طويلة جداً
اريد ان اوشيها واملأها بالازهار .
– « إن الطفل لم يعد هناك ، يا سيدتي ، فما العمل ؟ »
– « اجعلي منه كفناً أدفنَن به . »

سوف نشتري اشياء جميلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .
إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء ،
إن البنفسج ازرق ، وانا أحب احبتي .

كانت تلك اغنية قديمة من اغاني هدهدة الاطفال تعوّدت في ما مضى ان تنشدها لصغيرتها كوزيت قبيل النوم ، ولم تخطر لها ببال منذ ان فارقت طفلتها لخمس سنوات خلت . لقد غنّتها في صوت جدّ محزون ، وفي لحنٍ جدّ عذب بحيث لم يكن في ميسورها الا ان تستدر الدموع حتى من عيني راهبة واستشعرت الأخت ، برغم تعوّدها الصرامة ، ان عبرةً تنحدر على خديها .

واعلنت الساعةُ السادسةَ . وبدت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت وكأنها لا تلقي بعدُ بالاً لأيما شيء حولها .

ووجهت الاخت سيمبليس فتاةً لتسأل بوابة المصنع هل عاد مسيو

مادلين ، وما اذا كان يعتزم المجيء الى المستشفى وشيكاً ، ام لا ؟
ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

كانت فانتين لا تزال جامدة لا تتحرك ؛ ولقد بدت مستغرقة في أفكارها الخاصة .

وفي همس ، روت الفتاة للاخت سيمبليس ان العمدة ارتحل ذلك الصباح نفسه ، قبل الساعة السادسة ، على متن عربة صغيرة مكشوفة يقودها جواد ابيض ، على الرغم من شدة البرد ؛ وانه ارتحل وحده من غير ان يصطحب حتى سائقاً ؛ وان احداً لم يعرف الطريق التي سلكها ؛ وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذاً طريق آراس ؛ وان آخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ؛ وانه حين ارتحل بدا ، كعادته ، لطيفاً جداً ، وانه اكتفى بأن قال للبوابة ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفيما المرأتان تتهامسان ، موليتين ظهريهما سريرَ فانتين — الراهبة تستجوب ، والخادمة تخمّن — نهضت فانتين في سريرها على الركبتين ، بذلك النشاط الحُمّوي المرافق بعضَ الامراض العضوية والذي تختلط فيه حركةُ الصحةِ الطلقةُ بهزال الموت المروّع ، واسندت قبضتيها المتشنجتين على الوسادة ، مُطلعَةً رأسها من فتحة الستارة ، وانشأت تصغي . وفجأةً صاحت :

— « انتما تتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمان بصوت منخفض جداً ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟ »

كان صوتها أجشّ خشناً الى حد خيِّل للمرأتين انهما سمعتا صوت رجل . والتفتتا نحوها مذعورتين .

وصاحت فانتين :

— « لماذا لا تجيبان ؟ »

فتلجلجت الخادمة :

— « لقد قالت لي البوابة انه لن يستطيع المجيء اليوم . »

وقالت الراهبة :

— « إلزمي الهدوء ، يا ابنتي . اضطجعي من جديد . »

ومن غير ان تغيّر فانتين وضعها ، استأنفت الكـلام في صوت مرتفع ، وفي نبرة ثاقبة وآمرة في آن معاً :

— « إنه لا يستطيع المجيء ؟ ولم لا ؟ انتما تعرفان السبب . كنتما تتهامسان به فيما بينكما . اريد ان اعرف السبب . »

واسرعت الخادمة الى الهمس في اذن الراهبة :

— « أجيبيها بقولك إن اعمال المجلس البلدي تشغله . »

واحمرّت الاخت سيمبليس احمراراً طفيفاً . كان ما اقترحته عليها الخادمة كذبةً . ومن ناحية ثانية ، فقد بدا لها ان إعلام المريضة بالحقيقة جديرٌ به أن يكون ، من غير شك ، ضربة فظيعة ، وأنه كان خطِراً في مثل حال فانتين . ولم يستمرّ هذا الاحمرار طويلاً . لقد رفعت الاخت عينها الهادئة المحزونة نحو فانتين ، وقالت :

— « إن السيد العمدة قد ذهب . »

ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتمعت عيناها . لقد أشرق فوق ذلك الوجه الموجع ابتهاج خارق .

وصاحت :

— « ذهب ! لقد ذهب ليأتيني بكوزيت ! »

ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا محيّاها كله ممتنعاً على الوصف . وتحركت شفتاها . كانت تصلي في صوت خفيض .

حتى اذا انتهت صلاتها قالت :

— « ايتها الاخت ، انا شديدة الرغبة في ان أضطجع من جديد ، ولسوف أفعل كل ما تطلبين مني . لقد كنتُ شكسة في هذه اللحظة ، وانا ألتمس عفوك لأني تكلمت بمثل ذلك الصوت العالي . إن من القبيح

جداً ان يتحدث المرء بصوت عالٍ . انا اعرف ذلك جيداً ، ايتها الاخت الصالحة ، ولكن انظري كم انا سعيدة . إن الرب لطيف . وإن مسيو مادلين طيّب . تصوّري انه ذهب الى مونفيرماي لكي يجيئني بصغيرتي كوزيت . »

واضطجعت من جديد ، وساعدت الراهبةَ على تسوية الوسادة ، وقبّلت الصليب الفضيّ الصغير الذي يطوّق جيدها ، والذي كانت الاخت سيمبليس قد منحتها إياه .

وقالت الراهبة :

— « حاولي ، يا ابنتي ، ان تستريحي الآن ، ولا تنطقي بعدُ بكلمة . »

وأمسكت فانتين بيديها النديتين يدَ الراهبة التي آلمها ان تستشعر هذا العَرق .

— « لقد ذهب هذا الصباح قاصداً الى باريس . الواقع انه ليس في حاجة حتى الى المرور بباريس . ان مونفيرماي تقع الى اليسار بعض الشيء ، في طريق المسافر القادم الى هنا . انت تذكرين ما قاله لي ، امس ، عندما حدثته عن كوزيت : قريباً جداً ، قريباً جداً ! تلك مفاجأة يريد ان يقدّمها اليّ . هل تعرفين ؟ لقد طلب اليّ ان اوقّع على رسالة لاسترجاعها من تيناردييه وزوجته . لن يكون عندهما ما يقولانه ، اليس كذلك ؟ سوف يُرجعان كوزيت اليّ . لأنهما نالا اجورهما . إن السلطات لن تسمح لهما بأن يحجزا طفلة بعد ان تُدفع اليهما اجورهما . ايتها الأخت ، لا تؤمئي اليّ بضرورة الامتناع عن الكلام . انا سعيدة جداً ، انا في صحة حسنة جداً . لم اعد احسّ بألم على الاطلاق ، ولسوف ارى كوزيت من جديد . بل إنني جائعة جداً . لقد انقضت خمس سنوات لم أرها خلالها . إنك لا تتصورين ، إنك لا تستطيعين ان تتصوري ، أيّ سلطان يفرضه الاطفال عليك . والى هذا ، فسوف تكون جميلة جداً ، سوف ترين ! وإن لها ، لو عرفتِ ،

اصابع وردية صغيرة فاتنة جداً ! اولاً ، سوف يكون لها يدان جميلتان جداً . يومَ كان عمرها سنة كانت لها يدان مضحكتان . — هكذا ! يجب ان تكون قد كبرت الآن . إنها في السابعة من عمرها . انها سيدة صغيرة . انا ادعوها كوزيت ، ولكنّ اسمها أوفرازي . اسمي . هذا الصباح كنت انظر الى الغبار الذي كان يعلو الموقد ، فخطر لي اني لا بدّ سأرى كوزيت كرةً اخرى في وقت قريب جداً ! يا الـهي ! ما أفدحه من خطأ ان يسلخ الانسان سنوات عديدة من غير ان يرى اولاده ! يجب علينا ان نذكر ان الحياة ليست ابدية . اوه ! كم كان جميلًا من السيد العمدة ان يذهب ! هل صحيح ان الجو بارد جداً ؟ هل ارتدى معطفه على الاقل ؟ سوف يكون هنا غداً ، اليس كذلك ؟ هذا ما سيجعل يوم غدٍ عيداً . وغداً صباحاً ، ايتها الاخت ، سوف تذكّرينني بأن أعتمر قلنسوتي الصغيرة المصنوعة من الوشي . ان مونفيرماي بلدة ريفية . لقد اجتزتُ هذه الطريق ، مرةً ، على قدميّ . كانت الرحلة طويلة جداً بالنسبة اليّ . ولكن العربات العمومية تنطلق في سرعة بالغة ! إنه سوف يكون هنا ، غداً ، مع كوزيت . كم تبعد مونفيرماي عن هذا البلد ؟ »

فأجابت الراهبة ، ولم تكن لديها أيما فكرة عن المسافات :

— « اوه ! أعتقد اعتقاداً قوياً بأنه سيستطيع ان يكون هنا غداً . »

فقالت فانتين :

— « غداً ! غداً ! سوف ارى كوزيت غداً ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، أنا لم اعد مريضة . انا مرحة . واني جديرة بأن أرقص اذا سألني امرؤ ان افعل . »

وما كان في ميسور من قُدّر له ان يراها قبل ربع ساعة ان يفهم هذا . كان لونها كلها وردياً الآن ، وكانت تتكلم في نبرة طبيعية تمور

بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسمة . وبين الفينة والفينة كانت تضحك فيما هي تخاطب نفسها في صوت خفيض . إن ابتهاج الأم يكاد يكون مثل ابتهاج الطفل .

وأستأنفت الراهبة كلامها :

— « حسن ، انتِ سعيدة الآن ، فأطيعيني . لا تتكلمي اكثر مما فعلتِ . »

وألقت فانتين رأسها على الوسادة وقالت في صوت كالهمس :

— « أجل . اضطجعي كرة اخرى . كوني حكيمة ما دمت ستفوزين بابنتك . إن الاخت سيمبليس على صواب . كل من في هذا المكان على صواب . »

ثم انها شرعت تنظر بعد ذلك — من غير أن تتحرك او تدير رأسها — الى ما حولها ، بعينين مفتوحتين الى اقصى مدى ، وبانطباعة بهيجة . ولم تنطق بكلمة اضافية .

وأغلقت الراهبة الستارة ، وجاءَ ان تستسلم المريضة للرقاد .

وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذ لم يسمع صوتاً ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب من سريرها على رؤوس أصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء القُنَيديل الباهت رأى عيني فانتين الواسعتين الهادئتين تنظران اليه .

وقالت له :

— « سيدي ، سوف تسمح لها بأن ترقد الى جانبي في سرير صغير ، أليس كذلك ؟ »

وظنّ الطبيب انها تهذي . وأضافت :

— « انظر . إن ههنا مكاناً يتسع لها تماماً . »

وانتحى الطبيب بالاخت سيمبليس جانباً ، فأعلمته ان مسيو مادلين غادر البلدة في رحلة تستغرق يوماً أو يومين ، وأنها رأت من الخير —

وقد أعوزها اليقين ـ ان لا تخدع المريضة التي اعتقدت ان العمدة قصدَ الى مونفيرماي ، وان من الجائز ، على اية حال ، ان يصدُقَ ظنها . وأقرّ الطبيب ذلك .

وانقلب الى سرير فانتين كرة أخرى . فأضافت :

ـ « وفي الصباح ، عندما تستيقظ ، سوف يكون في إمكاني أن أقول صباح الخير لهذه المرة الصغيرة المسكينة . وفي المساء سوف يكون في امكاني ، انا التي لا تنام ، ان أسمعها وهي نائمة . ان انفاسها الصغيرة هي من العذوبة بحيث تردّ اليّ العافية . »

وقال الطبيب :

ـ « أعطيني يدك . »

وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكةً :

ـ « آه ! رويدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، إنك لا تدري . ولكني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غداً . »

ودُهش الطبيب . كانت في حال خيرٍ من ذي قبل . كان عُسْر التنفس قد خفّ ، وكان نبضها قد قوي . إن ضرباً من الحياة الجديدة قد دبّ فجأةً في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهوكة القوى .

وتابعتْ :

ـ « ايها الطبيب ، هل اخبرتك الراهبة ان مسيو مادلين ذهب ليجيء بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطبيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال أليم . ووصف لها نقيع الكينا الخالصة ، ناصحاً ، اذا عاودتها الحمى ليلاً ، بأن تُسقى دواءً مسكّناً . وفيما هو يمضي لسبيله ، قال للراهبة :

ـ « انها احسن حالاً . واذا شاء حسن الطالع ان يرجع العمدة بالطفلة الصغيرة في غدٍ فعلاً ، فمن يدري ؟ إن ثمة نوْباتٍ تدعو الى الدهش . وكثيراً ما رأينا الجذل العظيم يشفي من الامراض في الحال .

انا اعلم جيداً ان هذا مرض عضويّ ، وانه قد انتهى الى مراحله الخطيرة ، ولكن هذا كله لغز عجيب ! إننا قد نوفق الى انقاذها . »

٧
المسافر يصل ويعد العدة للرجوع

كانت الساعة الثامنة مساء ، تقريباً ، عندما بلغت العُجيلة التي تركناها على الطريق فناء دار البريد في آراس . وترجّل الرجل الذي تبعناه حتى هذه اللحظة ، وردّ على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهول ، وأعاد الجواد الاضافيّ ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ؛ ثم دفع باب غرفة البليارد القائة في الدور الاول ، وجلس على كرسيّ ، وأسند مرفقيه الى الطاولة . كان قد أنفق اوبع عشرة ساعة في هذه الرحلة ، التي توقّع أن يقوم بها بستّ ليس غير . وأقرّ نفسه على ان الغلطة ليست غلطته ؛ أما في أعماقه فلم يكن غاضباً لذلك .

ودخلت ربة الفندق .

— « ايريد سيدي ان ينام ، أيريد سيدي ان يتعشى ؟ »

وهز رأسه .

— « يقول صبيّ الاصطبل ان جواد سيدي متعَب جداً ! »

وهنا قطعَ حبلَ الصمت :

— « ألن يكون الجواد قادراً على العودة صباحَ غد ؟ »

— « اوه ، يا سيدي ؟ إنه في حاجة الى يومي راحة على الأقل . »

وسأل :

— « اليس مكتب البريد هنا ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

وقادته صاحبة الفندق الى المكتب . وابرز جواز سفره وسأل ما اذا كان في إمكانه ان يعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير على متن مركبة البريد . ولم يكن قد بقي غير مقعد واحد ، هو المقعد المحاذي للسائق . فاحتجزه ودفع أجر السفر .

وقال رئيس المكتب :

– « لا تنسَ ان تكون على أهبة السفر ، هنا ، في تمام الساعة الواحدة صباحاً . »

حتى اذا تمّ ذلك غادر الفندق وشرع يتمشى في المدينة .

كان لا يعرف آراس ، وكانت الشوارع مظلمة ، فراح يذرعها كيفما اتفق . ومع ذلك فقد بدا وكأنه يُحجم في عناد عن ان يسأل عابري السبيل ان يدلوه على الطريق . وعبَر نهر كرينشون الصغير ، فوجد نفسه في تيهٍ من الشوارع الضيقة ما لبث ان ضلّ فيها السبيل . وأقبل مواطن يحمل فانوساً . وبعد شيء من التردد وطّن العزم على ان يتحدث الى هذا الرجل ، ولكن بعد أن نظر الى امام والى وراء وكأنما كان يخشى ان يسمع احدٌ السؤال الذي كان على وشك ان يطرحه . وقال :

– « سيدي ، أين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فأجاب المواطن ، وكان رجلاً عجوزاً :

– « انت لست من ابناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، إتبعني . انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ، يعني الى دار البلدية ، ذلك لأنهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالمحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتاً . »

فسأله :

– « وهل تنعقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

– « من غير شك ، يا سيدي . ان دار البلدية ، كما ترى ، كانت قصر

الاسقف قبل الثورة . فقد شيد مسيو دو كونزييه ، الذي كان اسقفاً عام اثنين وثمانين ، قاعة رحبة . وهناك في هذه القاعة تجري المحاكمات . »

وفيما كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الدار قال له المواطن :

– « اذا كان ما يرغب فيه سيدي هو ان يشهد محاكمةً فأحسب انه قد جاء متأخراً بعض الشيء . ان الجلسات تُختم عادةً في الساعة السادسة . »

ومع ذلك ، فحين بلغا الساحة العامة اراه المواطن اربع نوافذ طويلة مضاءة ، عند واجهة بناية واسعة مظلمة

– « قسماً ، يا سيدي ، لقد وصلتَ في الوقت المناسب ؛ انك ذو حظ سعيد . أترى هذه النوافذ الاربع ؟ تلك هي محكمة الجنايات . إن ثمة نوراً . وإذن فهم لمّا ينتهوا . لا بدّ ان القضية قد تطاولت ، فهم يعقدون جلسة مسائية . هل تهمك هذه القضية ؟ أهي قضية جنائية ؟ هل انت شاهد من شهودها ؟ »

فأجابه :

– « انا لم أقبل لغرض ما . انا اريد ان اتحدث الى احد المحامين ليس غير . »

فقال المواطن :

– « هذه مسألة اخرى . قف يا سيدي ! هوذا الباب . وهوذا الحاجب هناك . وليس عليك إلا ان ترتقي السلّم الكبيرة . »

واتبع ارشادات المواطن . وما هي الا بضع دقائق حتى وجد نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير ، وتناثرت جماعات من المحامين في اروابهم يتهامسون ههنا وهناك .

ان مما يقبض النفس دائماً ان يرى المرء الى هذه الجموع من الرجال المتشحين بالسواد يتجاذبون اطراف الحديث في ما بينهم ، بصوت خفيض ، على عتبة قاعة المحكمة . ومن النادر ان تنطلق المحبة والشفقة من

تلك الاقوال كلها . ان ما ينطلق منها في الاغلب أحكام تُلفظ سلفاً . وكل هذه الجموع تبدو في عين الملاحظ الذي يمرّ ويفكّر اشبه بجمهرة من الخلايا القاتمة حيث تتصرف صنوف من الارواح المـــادرة الآزّة الى انشاء مختلف ضروب الابنية المظلمة ، على نحو مشترك .

وكانت هذه القاعة المضاءة ، على رحبها ، بمصباح مفرد ، قاعةً قديمة من قاعات القصر الاسقفي ، وكانت بمثابة غرفـة انتظار . كان باب ذو مصراعين – وكان مغلقاً في تلك اللحظة – يفصلها عن القاعة الكبرى حيث عُقدت محكمة الجنايات .

وكانت الظلمة من الشدّة بحيث لم يستشعر ايّ خوف من مخاطبـــة أول محامٍ التقاه ، قائلاً :

– « سيدي ، الى اين صارت المحاكمة ؟ »

فأجابه المحامي :

– « انتهت . »

– « انتهت ! »

ورُدّدت هذه الكلمة في نبرة جعلت المحامي يستدير .

– « عفواً يا سيدي ، لعلك احد انسباء المتهم ؟ »

– « لا . انا لا اعرف احداً هنا . وهل حُكم على المتهم ؟ »

– « طبعاً . إن شيئاً غير ذلك لم يكن ممكناً . »

– « بالاشغال الشاقة ؟ »

– « مدى الحياة . »

وتابع في صوت واهنٍ الى درجة جعلته لا يكاد يُسمع :

– « لقد اثبتوا هُويّته ، اذن ؟ »

فأجاب المحامي :

– « أية هوية ؟ لم يكن ثمة هوية ينبغي ان تُثبت . كانت المسألة بسيطة . كانت هذه المرأة قد قتلت طفلها ؛ ولقد اقيم الدليل على انها

ارتكبت هذه الجريمة ، ولم يقتنع المحكمون بأنه كان ثمة سابق تصوّر وتصميم ؛ فحُكم عليها بالسجن مدى الحياة . »

فقال :

— « هي امرأة اذن ؟ »

— « طبعاً . انها الفتاة الليموسينية . عمّن كنت تحدثني اذن ؟ »

— « عن لا شيء . ولكن ما دامت الجلسة قد انتهت فعلام لا تزال القاعة مضاءة ؟ »

— « تلك قضية اخرى بدىء النظر فيها منذ ساعتين تقريباً . »

— « اية قضية اخرى ؟ »

— « اوه ! وهذه قضية واضحة ايضاً . إنه لصّ من نوع ما ؛ ذو سوابق ؛ عبدٌ من عبيد الاشغال الشاقة الارقاء . إنها دعوى سرقة . لقد نسيت الاسم . إنه يبدو اشبه بقـــاطع طريق . ولو لم يكن له من ذنب غير حَمْلِهِ مثل هذا الوجه لبعثتُ به الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »

وسأله :

— « سيدي ، هل ثمة وسيلة ما للدخول الى القاعة ؟ »

— « اظن ذلك غير ممكن ، حقاً . إن ثمة حشداً كبيراً . وعلى اية حال ، فقد رُفعت الجلسة الآن للاستراحة . ولقد غادر بعض النظارة المكان ، وفي إمكانك ان تحاول عندما يُستأنف النظر في القضية . »

— « من اين يُدخل الى القاعة ! »

— « من ذلك الباب الكبير . »

وفارقه المحامي . وفي بضع ثوانٍ اجتاحته ، في وقت واحد تقريباً ، وعلى نحو متمازج تقريباً ، جميع الانفعالات الممكنة . كانت كلمـــات هذا الرجل اللامبالي قد ثقبت قلبه ، بالتناوب ، مثل إبر من جليد ، او مثل نصال من نار . وحين علم ان الامر لم ينقضِ بعدُ اخذ نفَساً .

ولكنه لم يكن قادراً علـــى ان يحزر أكان شعوره ذاك ارتياحاً أم كان ألماً .

واقترب من بعض الجماعات واصغى الى ما يقولون . واذ كان جدول الدعاوى مثقلاً فقد رأى القاضي ان ينظر في دعويَيْن بسيطتين قصيرتين في يوم واحد . كانوا قد بدأوا بمحاكمة قاتلة ابنها ، وهـــا هم الآن ينظرون في دعوى المحكوم عليـــه بالاشغال الشاقة ، دعوى المجرم ذي السوابق ، دعوى « المتمرس الخبير » . هذا الرجل سرق شيئاً مـــن التفاح ، ولكن يبدو ان الدليل لم ينهض على ذلك . ان الذي نهض عليه الدليل هو انه كان من قبـــلُ من نزلاء سجن الاشغال الشاقة في طولون ، وهذا ما أفسد قضيته . لقد أنجز استنطاق الرجل ، وأُخذت إفادات الشهود ، ولكن بقيت ثمة مرافعة المحامي ، ومطالعة النيابة العامة ، ومن العسير ان يتمّ ذلك قبل منتصف الليل . واغلب الظن ان الرجل سوف يُدان ؛ فقد كان النائب العام طيباً جداً ، وما كان ليخطيء احداً من متهَميه . كان رجلاً ذا موهبة ، وكان ينظم الشعر .

ووقف حاجب قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة . وسأل هـذا الحاجبَ :

— « سيدي ، هل سيُفتح الباب قريباً ؟ »

فقال الحاجب :

— « الباب لن يُفتح . »

— « كيف ! الن يُفتح عند استئناف الجلسة ؟ ألم تُرفع الجلسة للاستراحة ؟ »

فاجابه الحاجب :

— « لقد استؤنفت المحاكمة ، ولكن الباب لن يُفتح كرةً اخرى . »

— « لم لا ؟ »

— « لأن القاعة ملأى . »

— « ماذا ؟ ألم يبق ثمة مقعد ؟ »

— « لم يبق مقعد واحد . الباب مقفل . وليس في استطاعة أحد أن يدخل . »

وبعد صمت ، أضاف الحاجب :

— « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيـــد رئيس المحكمة ، ولكنّ السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة ان يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاّه ظهره .

وانسحب مطأطىء الرأس ، واجتاز الغرفة المحاذية ، وهبط السلّم في بطء ، وقد بدا متردداً عند كل خطوة . ولعله كان يشاور نفسه ، فالصراع العنيف الذي كان دائراً في ذات نفسه منذ الليلة البـــارحة لم يكن قد انتهى . وفي كل لحظة كان يشهد تحوّلاً جديداً ؛ حتى اذا بلغ منبَسَط السلم انحنى على الدرابزون ، وطوى ذراعيه . وفجأة ، فتح سترته ، واخرج محفظته ، وتناول قلماً ، ونزع ورقة ، وكتب عليها في عجل — على ضوء باهت منبثق من مصباح ذي مرآة عاكسة — هذا السطر : **مسيو مادلين ، عمدة مونتروي سور مير** . ثم ارتقى السلم من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجموع ، وتقدّم نحو الحاجب مباشرة ، وقال له في نبرة ذي السلطان :

— « إحمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »

وتناول الحاجب الورقة ، وألقى نظرة عليها ، وامتثل الامر .

٨
دخول بامتياز

ومن غير ان يحتسب هو ذلك ، كان لعمدة مونـــتروي سور مير ضربٌ من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبّقت شهرة فضيلته آفـــاق « بولونيه الدنيا » كلها ، لتنتهي بعد ذلك الى ان تتخطى حدود الاقليم الصغير وتَذيع في مديريتين او ثلاثٍ من المديريات المجاورة . فإلى جانب الخدمات الجليلة التي أسداها الى البلدة الرئيسية من طريـق إحياء صناعة الخرز الاسود ، لم يكن ثمـة قضاء من أقضية اقلـيم مونتروي سور مير البالغ عددها مئة وواحداً واربعين ليس مديناً له بنعمة ما . بـل لقد سبق له ان عمـل ، عند الاقتضاء ، على إنعاش الصناعـــة في المناطق الاخرى ومدّ يد العون اليها . وهكذا عاضد باعتباره ورأسماله ، حين مسّت الضرورة الى ذلك ، مصنع النسيـج الرقيق في بولوني ، ومصنع غزل الصوف في فريفـان ، والمصنع المائيّ للمنسوجات القنّبية في « بوبر سور كانش » . وفي كل مكان كان اسم مسيو مادلين يُلفظ في إجلال. ولقد حسدت « آراس » و « دوويه » مدينة مونتروي سور مير الصغيرة المحظوظة على عمدتها .

وكان مستشار محكمة دوويه الملكيـــة الذي رئس جلسة محكمة الجنايات هذه في آراس يألف – شأنَ كل امرىء – هـذا الاسم الذي ينعم بأعظم التبجيل وأكثره شمولاً . فما إن فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك البابَ الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، وانحنى خلف كرسيّ الرئيس مقدّماً اليه الورقة التي خُـطّ عليها السطر الذي قرأناه اللحظةَ ، مضيفـــاً : « **هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة** » حتى

اتى بحركة عجلى تنضح بالاحترام ، وتناول قلماً ، وخطّ بضع كلمات في ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلًا :

— « دعه يدخل . »

كان الرجل التعس الذي نروي قصته قد ظل واقفاً قرب باب القاعة ، في المكان نفسه ، حيث تركه الحاجب من قبل ، وبالوضع نفسه الذي غادره عليه . لقد سمع ، من خلال هواجسه ، شخصاً يقول له : « هل يرغب سيدي في ان يشرّفني باللحاق بي ؟ » . كان هو ذلك الحاجب عينه الذي ولاّه ظهره منذ لحظة ، والذي انحنى له ، الآن ، حتى الارض . وفي الوقت نفسه قدّم اليه الحاجب قصاصة الورق فنشرها . واذ اتفق ان كان موقفه قرب المصباح ، فقد استطاع ان يقرأ :

« إن رئيس محكمة الجنايات يقدّم احترامه الى مسيو مادلين . »

وسحق الورقة بين يديه وكأن هذه الكلمات القليلة خلّفت في ذات نفسه طعماً غريباً مريراً .

وتبع الحاجبَ .

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفرداً في شبه ردهة مطوّقة بالخشب ، ذات مظهر صارم ، مضاءة بشمعتين اثنتين وضعتا على طاولة مغطاة بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه لا تزال ترن في أذنه : سيدي ، انت الآن في غرفة المذاكرة وليس عليك إلا ان تدير ممسك هذا الباب النحاسيّ لتجد نفسك في قاعة المحكمة خلف كرسيّ الرئيس . » وفي ذهنه اختلطت هذه الكلمات بذكرى غامضة للاروقة الضيقة والسلالم القاتمة التي اجتازها منذ لحظة .

وكان الحاجب قد تركه وحيداً ، وكانت اللحظة الحاسمة قد أزفت . وحاول ان يستجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك الساعات ، بخاصة ، حين نكون في أمسّ الحاجة الى ان نُلمّ بحقائق الحياة الموجعة تتقطّع خيوط الفكر في الدماغ . كان في قلب تلك

الغرفة التي يتشاور فيها القضاة ويصدرون أحكامهم . لقد رأى في سكينة بلهاء الى تلك الغرفة الصامتة الراعبة التي أزهقت فيها ارواح كثيرة ، والتي سيدوّي اسمه فيها في الحال ، والتي كان قَدَرُهُ مجتازها في هذه اللحظة . لقد نظر الى الجدران ، ثم نظر الى نفسه وقد اذهله ان تكون هذه هي تلك الغرفة ، وان يكون هذا هو إياه .

وكان قد سلخ ما يزيد على اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاماً ما . كانت رجّات العَجلة قد رضّت جسده ، ولكنه لم يستشعر ذلك . لقد بدا له انه لا يحسّ بشيء .

واقترب نحو إطار اسود معلق على الجدار كان يشتمل خلف لوح زجاجيّ على رسالة قديمة خطتها يد جان نقولا باش ، عمدة باريس ، الذي تولى منصب الوزارة ايضاً ، وكانت مؤرّخة ، نتيجة خطأ من غير شك ، هكذا : « ٩ **حزيران** السنة الثانية » * وقد وجّهها « باش » الى رجال البلدية مضمّناً اياها ثبتاً بالوزراء والنواب الذين اعتقلوا ضمن حدود منطقتهم . ولو ان امرءاً شاهده وراقبه آنذاك إذن لخيّل اليه من غير ريب ان تلك الرسالة بدت غريبة جداً في نظره ، إذ لم يرفع عينيه عنها ، وإذ قرأها مرتين أو ثلاث مرات . لقد قرأها من غير ان يلقي اليها بالاً ، ومن غير ان يدري ما الذي كان يفعله . كان يفكر بفانتين و كوزيت .

وحتى فيما هو يفكر استدار على غير وعي منه فوقعت عيناه على المسك النحاسي الخاص بالباب الذي يفصل ما بينه وبين قاعة محكمة الجنايات . كان قد نسي ذلك الباب تقريباً . واضطرب محياه ، وكان

* أي السنة الثانية من الجمهورية ، ويتجلى الخطأ في كلمة « حزيران » على اعتبار ان الثورة الفرنسية ألغت هذه الشهور وأحلّت محلها تقويماً خاصاً . والشهر الذي يوافق حزيران في تقويم الثورة هو شهر بريريال Prairial (من ٢٠ نوار الى ١٨ حزيران) وشهر ميسيدور Messidor (من ٢٠ حزيران الى ١٩ تموز) .

من قبل ساكناً . وسُمّرت عيناه على ذلك الممسك النحاسي ، ثم غدتا منشدهتين محدّقتين ، وامتلأتا بالذعر شيئاً بعد شيء . وتصبّبت من رأسه قطرات العرق ، وتحدّرت على صدغيه .

وفي احدى اللحظات أومأ ، في ضرب من السلطان ممزوج بالتمرد ، تلك الايماءة التي لا سبيل الى وصفها والتي تعني وتقول بأفصح لسان : حسن ! ومن ذا الذي يُكرهني على ذلك ؟ ثم إنه استدار في سرعة ، فرأى امامه الباب الذي دخل منه ، فتقدم نحوه ، وفتحه ، وخرج . إنه لم يمضِ في تلك الغرفة . لقد أمسى خارجها ، في احد الاروقة — في رواقٍ طويل ضيق تجزّئه الدرجات والابواب الفرعية التي تشكل مختلف ضروب الزوايا ، كانت تنيره ههنا وههناك مصابيح معلقة على الجدران هي اشبه بقُنَيديلات المرضى . كان الرواقَ الذي دخل منه . وأخذ نفساً ، واصغى . لم يكن ثمة صوت ما خلفه ، ولم يكن ثمة صوت ما امامه . وركض وكأن احداً كان يطارده .

حتى اذا اجتاز عدداً من منعطفات هذا المجاز ، اصغى كرة ثانية . كان لا يزال محوطاً بالصمت نفسه ، والظلّ نفسه . وضاق نفَسه ، وترنح ، واستند الى الجدار . كان الحجر بارداً ، وكان العَرَق مثلوجاً على جبينه . وتصدّر وهو يرتعد .

وهناك ، في غمرة من الوحدة ، وقد وقف وسط هذه الظلمة ، وارتجف من البرد وربما من شيء آخر ايضاً ، أنشأ يفكر .

كان قد فكر طوال الليل . وكان قد فكر طوال النهار . ولم يسمع الآن ، في ذات نفسه ، غير صوت واحد يقول : « وأسفاه ! »

وانقضت ربع ساعة على هذا النحو . واخيراً حنى رأسه ، وزفر في كَرْب ، وأرخى ذراعيه ، وارتدّ على آثاره . لقد مشى في بطء ، وكأنه يحمل ثقلاً ثقيلاً . لقد تراءى وكأنما ألقي القبض عليه فيما هو يفرّ وأعيد ادراجه .

ودخل غرفة المذاكرة من جديد . كان مقبض البـاب هو اول ما وقعت عليه عيناه . والتمع ذلك المقبض ، المستدير المصنوع من نحاس مصقول ، أمامه مثل نجم مشؤوم . ونظر اليه كما ينظر حَمَـــلٌ الى عين نمر .

ولم تتمكن عيناه من مفارقة ذلك المقبض .

وبين آونة واخرى ، كان يخطو خطوة نحو الباب .

ولو قد أصغى اذن السمع ، كضربٍ من الدمدمة المختلطة ، الضجة المنبعثة من القاعة المجاورة ، ولكنه لم يُصغ ولم يسمع .

وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب البـاب . وأمسك بالمقبض في تشنّج ؛ وفُتح الباب .

كان في قاعة المحكمة .

٩
موطن تتكون فيه البينات

وخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفاً متأملاً ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضاءة اضاءةً باهتةً جداً ، يغمرها الضجيج حينـاً ويرين عليها الصمت حيناً ، حيث كانت آليةُ الدعوى الجنائية كلُّها معروضة ، برزانتها الحقيرة الحِدادية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون أرواباً متهرئة يقضمون اظافرهم ، أو يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جمهرة في أسمال بالية ؛ ومحامون في مختلف الاوضاع ؛ وجنود أولو وجوه محتشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوّثة تطوّق الجدران ،

وسقف قذر ؛ وطاولات مغطاة بنسيج صوفي غليظ هو الى الصفرة اقرب منه الى الخضرة ؛ وأبواب مسودّة من أثر الايدي ؛ ومصابيح حانات توصل الدخان اكثر مما توصل النور معلّقة الى مسامير دُقت في خشب الجدران ؛ وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ؛ وظلمة وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعثت انطباعة كالحة وجليلة . ذلك ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالـهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الأعين كلها مصوّبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبيّ مسند الى باب صغير في محاذاة الجدار القائم الى يسار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي أضاءته عدة شموع ، كان رجل يحيط به اثنان من رجال الدرك .

كان ذلك الرجل هو المتهم .

إنه لم يبحث عنه ؛ لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعيّ وكأنما كانتا تعلمان سلفاً أين هو .

وخيّل اليه أنه يرى نفسه ، وقد تقدمت به السنّ ، وعلى شيء من التباين في المحيّا من غير شك ، ولكن في شبه كامل من حيث الهيئة والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدقتين الضاريتين المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذاك الذي كان يرتديه يوم دخل مدينة د ... ، يملأه الحقد ، حاجباً في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة من الافكار المروّعة التي سلخ تسعة عشر عاماً في جمعها فوق ارض السجن .

وقال لنفسه وهو يرتعد :

— « يا الـهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟ »

لقد بدا هذا المخلوق في الستين من عمره ، على الأقل . كان ثمة في مظهره شيء جافٍ ، أبله ، مروّع على نحو لا سبيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له في مجـال الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . وإذ افترض ان الداخل هو عمدة مونتروي سور مير فقد حنى رأسه تحيةً له . وكان النائب العام قـد رأى مسيو مادلين في مونتروي سور حيث استُدعي غير مرة بحكم وظيفته ، فعرفه وحنى رأسه تحية له ايضاً . أما هو فكاد ان لا يلحظها . كان فريسةً لضرب من الملوسة . وتأمل في ما حوله .

قضاة ، كاتب محكمة ، درك ، حشد من الرؤوس الفضوليـة الى حد وحشيّ — لقد شهد ذلك مرةً في ما مضى ، منـذ سبـع وعشرين سنة . هذه الاشياء المروّعة — لقد وقع عليها كرةً اخرى . لقد كانت هناك ؛ لقد كانت تتحرك ؛ لقد كانت كائنات ذات حياة . إن ذلك لم يَعُدْ جهداً من جهود ذاكرته أو وهماً من اوهام خياله ، ولكنهم درك حقيقيون ، وقضاة حقيقيون ؛ وحشدٌ حقيقي ، واناس حقيقيون من لحم ودم . لقد قضي الأمر . لقد رأى مشاهد ماضيهِ المسخة ، بكل ما في الحقيقة من فظاعة ، تعاود الظهور وتحيـا من حوله كرةً اخرى .

كان ذلك كله فاغراً فمه امامه .

واستبد به الذعر ، واغمض عينيه ، وصاح من اعمق اعماق روحه : « ابداً ! »

وبلعبة فاجعة من لعب القَدَر التي كانت تثير افكاره كلها وتكاد أن تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ! لقد كان القوم كلهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !

كان امام عينيه رؤيا لم يُستَمَع بها من قبـل . ضربٌ من التمثيل لأرهب لحظة في حياته يقوم به طيفهُ .

كان كل شيء هناك : الاداة نفسها ، والساعة نفسها من الليـل ، ووجوه القضاة والجنود والنظارة نفسها تقريباً . الفرق الوحيد انه كان

يرتفع فوق هامة الرئيس تمثال المصلوب ، وهو شيء لم يكن يُرى في قاعات المحاكم يومَ صدر الحكم عليه . فحين حاكموه ، لم يكن الربّ هناك .

كان خلفه كرسيّ ، فألقى بجسده عليه وقد عصف به الذعر إذ خطر له ان القوم قد يرونه . حتى اذا جلس أفاد من ركام من الاوراق كان على منصة القضاة لكي يخفي وجهه عن القاعة كلها . أمسى في ميسوره ان يرى من غير ان يُرى . وشيئاً بعد شيء استعاد سكينته . لقد انغمس في روح الواقع . لقد بلغ من الهدوء ذلك المبلغ الذي يمكّن المرء من الاصغاء .

كان مسيو باماتابوا محلّفاً بين المحلفين .

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود محجوباً عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا فقد كانت قاعة المحكمة مضاءة اضاءة جدّ باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعته . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستثارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ؛ وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلاً — كائناً مجهولاً ، مخلوقاً بائساً ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود — يرزح شيئاً بعد شيء تحت ثقل احتمالٍ رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشرداً عُثِر عليه في احد الحقول حاملاً غصناً مثقلاً بالتفاح الناضج ، كان قد انتزعه من شجرة في مزرعة مسيّجة تدعى مزرعة بَيبرُون . من كان هـذا الرجل ؟ لقد أجري تحقيق ؛ وسُمِع الى شهود ؛ ولقد أجمعوا كلهم على رأي واحد ؛ وانبثقت اضواء من المناقشة كلها . وقال الاتهام : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من سُرّاق الغلات قبل ان تحصد . إن بين ايدينا هنا قاطعَ طريق ، مجرماً ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي

فُرضت عليه الاقامة فيه بعد خروجه من السجن ؛ نزيلا قديماً من نزلاء سجن الاشغال الشاقة ؛ فاتكاً من اخطر الفتّاك ؛ شريراً يدعى جان فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل ، وكان قد ارتكب لثماني سنوات خلت ، لدنْ خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طولون ، سرقةً في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضدّ غلام من سافوا يدعى جيرفيه الصغير ، وهي الجريمة المنصوص عليها في المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة بانزال أقصى العقوبة عندما تُثبت الهوية قضائياً . لقد ارتكب الان سرقة جديدة . إنها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . أحكموا عليه لسرقته الجديدة . أما جريمته السابقة فسوف يقاضى من اجلها في ما بعد . »

وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، كان الانفعال الذي غلب على المتهم هو الانشداه . كان يقوم بحركات وإشارات تفيد الانكار ، أو يحدّق الى السقف . لقد تكلم في عسر ، وأجاب في ارتباك ، ولكن شخصه كله – من قمة رأسه الى اخمص قدميه – انكر التهمة . لقد بدا اشبه بأبله في حضرة هؤلاء الرجال الاذكياء المتألبين لمقاتلته ، واشبه بغريب وسط هذه الجماعة التي أمسكت به . ومع ذلك فقد كان ينتظره غدٌ منذر بأعظم الشرّ ، وكانت الاحتمالات تتزايد كل لحظة ؛ وكان كل فرد من افراد النظارة ينتظر في قلق أشدّ من قلقه هو ، ذلك الحكمَ الفاجعَ الذي بدا متأرجحاً فوق رأسه اكثر فأكثر . وكان ثمة احتمال يومىء ، وراء سجن الاشغال الشاقة ، الى عقوبة الموت اذا ما أثبتت هُويته . وانتهت قضية جيرفيه الصغير الى إدانته . من كان هذا الرجل ؟ من ايّ نوع كانت غفلتُه ؟ أكانت بلاهة أم مكراً ؟ أكان يعرف اكثر مما ينبغي أم كان لا يعرف شيئاً على الاطلاق ؟ تلك كانت اسئلة اختلفت فيها آراء القوم وبدت وكأنها تقسم المحلّفين الى شيَع . كان ثمة شيء مخيف وشيء خفيّ في المحاكمة . إن الفاجعة لم تكن قاتمة

وحسب ؛ لقد كانت غامضة .

وكان محامي الدفاع قد رافع مرافعة جيدة بتلك اللغة الاقليمية التي طالما كانت قوام بلاغة المحاماة ، والتي اصطنعها من قبلُ جميع المحامين سواء في باريس أو في رومورانتين او مونبريزون ، والتي لم يعد يتكلم بها اليوم – بعد ان اصبحت كلاسيكية – غير خطباء النيابة العامة الرسميين الذين تلائمهم تلك اللغة ، بطنطنتها الوقور وجلها المهيبة . لغة يدعى فيها الزوج بعلاً ، والزوجة بعلة ، وباريس **مركز الفنون والحضارة** ، والملك **العاهل** ، وصاحب السيادة الاسقف **الحَبْر المقدس** ، والنائب العام **الشارح البليغ لانتقام القانون** ، والمرافعة **النبرات التي سمعناها الحظة** ، وعصر لويس الرابع عشر **العصر العظيم** ، واحد المسارح **هيكل ميلبومين** ، * والاسرة المالكة دم **ملوكنا الفخم** ، واحدى الحفلات الموسيقية **عيداً احتفالياً موسيقياً** ، والجنرال الذي يقود قوات المديرية **المحارب اللامع الذي** ، الخ ؛ وتلاميذ اللاهوت **هؤلاء الاكليركيين الناضري العود** ، والاخطاء المنسوبة الى الصحف **الكذبة التي تقطر سمّها في أعمدة هذه النواطق بألسنة الاحزاب** . الخ . الخ .

وكان محامي الدفاع قد أسهب في الكلام على سرقة التفاح – وهو شيء لا يتلاءم والاسلوب الفخم ، ولكن بينيني بوسوويه ** نفسه اضطر ذات مرة الى ان يشير الى دجاجة ما في صميم موعظة تأبينية له ، فتصرّف في أبهة وجلال . وكان المحامي قد قرّر ان سرقة التفاح لم يقم عليها دليل مادي . ذلك بأن موكله ، الذي يصرّ هو بوصفه محامياً على دعوته شانماتيو ، لم يُشاهد قطّ متسوّراً الجدار أو قاصفاً الغصن . لقد قُبض عليه وفي حوزته هذا الغصن (الذي آثر

---

* Melpomène وهي في الميثولوجيا ربة التراجيديا .

** Bossuet الخطيب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به في هامش ماض . (ص ٨٠) .

المحامي ان يدعوه فَنَناً) ، ولكنه قال إنه وجده على الارض فالتقطه . أين الدليل على العكس ؟ لا ريب في ان هذا الغصن كان قد كُسِر ومُرِق بعد تسوُّر الجدار ، ثم اطّرحته على الارض يد السارق المهدّد بالخطر . لا ريب في انه كان ثمة لصّ ، ولكن ما الذي يُثبت ان هذا اللص كان شانماتيو ؟ شيء واحد ليس غير . هو انه كان في ما مضى من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . والمحامي لا ينكر ان هذه الصفة تبدو مع الاسف مُثبتة إثباتاً يقينياً . فقد سكن المتهم في فافيرول ، ولقد كان المتهم مشذب اغصان ، ومن الجائز ان يكون اسم شانماتيو محرّفاً عن جان ماتيو ؛ كل ذلك كان صحيحاً ؛ واخيراً فان اربعة شهود قد أجمعوا على نحو اكيد ، ومن غير ما تردد ، ان شانماتيو هو جان فالجان نفسه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ وليس عند المحامي ما يعارض به هذه الادلة وهذه الشهادات غير إنكار موكله ، وهو انكار تقتضيه مصلحته . ولكن حتى اذا افترضنا أنه جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فهل ينهض هذا دليلاً على انه سارق التفاح ؟ ذلك لا يعدو ان يكون حَدْساً على الاكثر ، ولكنه ليس برهاناً . صحيح ان المتهم — وعلى المحامي ان يقرّ بذلك « بسلامة نية » — قد اصطنع « اسلوباً رديئاً في الدفاع . » لقد أصرّ على انكار كل شيء ، انكار السرقة ، وانكار انه كان قد حُكم قبلُ بالاشغال الشاقة . ولو قد اعترف بالنقطة الاخيرة اذن لكان ذلك خيراً له من غير شك ، واذن لضمنَ له ذلك تساهلَ قضاته . ولقد نصحه المحامي بأن يسلك هذه السبيل ، ولكن المتهم رفض في عناد ، معتقداً من غير شك ان عدم الاعتراف بشيء يكفل له النجاة من العقوبة كلها . كان ذلك خطأً منه ، ولكن ألا ينبغي لنا ان نأخذ قصور عقله بعين الاعتبار ؟ ان هذا الرجل معتوه ، بلا خلاف . فالعذاب الطويل الذي قاساه في سجن الاشغال الشاقة ، والبؤس الموصول الذي عاناه خارج سجن الاشغال الشاقة قد

أصاباه بالحبل ، الخ . الخ . انه لم يحسن الدفاع عن نفسه ، ولكن أيكون هذا سبباً لإدانته ؟ اما مسألة جيرفيه الصغير فلم يكن عند المحامي ما يقوله فيها . إنها غير واردة في الدعوى على الاطلاق . وختم المحامي دفاعه بأن توسل الى المحلفين والى المحكمة ، اذا ما بدت هوية جان فالجان واضحة لديهم ، ان يُنزلوا به العقوبات البوليسية التي تُنزل عادةً باولئك الذين لا يلتزمون المواطن المعينة لهم بعد الخروج من السجن ، لا العقوبة المخيفة التي تُنزل بالمحكوم عليه بالاشغال الشاقة حين يرتكب جريمة جديدة .

وردّ النائب العام على محامي الدفاع . كان عنيفاً منمّق الاسلوب ، مثل معظم النواب العامين .

لقد هنأ محامي الدفاع على « صراحته » ، وأفاد من هذه الصراحة في براعة . لقد هاجم المتهم من خلال جميع النقاط التي سلّم بها محاميه . فقد بدا المحامي وكأنه يسلّم بأن المتهم كان جان فالجان فارتضى هذا التسليمَ . واذن ، فقد كان هذا الرجل هو جان فالجان . واعتبر الاتهام هذه النقطة حقيقة مقررةً ، فلا سبيل بعدُ الى المجادلة فيها . وهنا – وباسلوب مجازي بارع ، رقي الى منابع الجريمة وأسبابها – أرعد النائب العام ضدّ لا أخلاقية المدرسة الرومانتيكية ، وكانت آنذاك في فجرها ، مشيراً اليها بوصفها المدرسة الشيطانية ، وهو الاسم الذي خلعه عليها نقّاد صحيفتي الـ « كوتيديين » والـ « اوريفلام » . وعزا – ولم يكن ذلك خلواً من عنصر الاحتمال – الى هذا الادب الداعر جريمة شانماتيو ، أو على الاصح جان فالجان . حتى اذا استنفد هذه التأملات انتقل الى جان فالجان نفسه . من كان جان فالجان ؟ تلك هي صفة جان فالجان : غولٌ مُتقيأ ، الخ . إنا نجد نموذجاً لهذه الضروب من

الاوصاف في حكاية تيرامين* التي لا غَناء فيها ، من وجهة النظر المسرحية التراجيدية ، ولكنها تسدي خدمات جليلة ، كل يوم ، الى البلاغة القضائية . و « ارتعد » النظارة والمحلفون . حتى اذا تمّ هذا الوصف استأنف النائب العام كلامه في اندفاع خطابي قَصِدَ به الى أن يثير حماسة « جريدة الولاية » الى اقصى غاياتها في صباح غد . « وإنه لرجلٌ يماثل الخ . الخ . الخ . متشرّد ، متسول ، لا يملك مــن اسباب العيش شيئاً ، الخ . الخ . — تعوّد طوال حياته الماضية الاعمال الاجرامية ، ولم يُفد غير قليل من أيامه التي قضاها في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كما تثبت الجريمة التي ارتكبها ضد جيرفيه الصغير ، الخ . الخ . إن مثل هذا الرجل الذي أُمسك به على الطريق العام في جرم السّرقة المشهود ، على بضع خطوات من جدار كان قد تسوّره ، وهو لا يزال يحمــل بيده الشيء الذي سرقه — مثل هذا الرجل يُنكر الجــرم المشهود ، يُنكر السرقة ، ينكر تسوّر الجدار ، ينكر كل شيء ، ينكر حتى اسمَه ، ينكر حتى هويته ! وبالاضافة الى مئة اخرى من الادلة التي لن نرجع اليها عرفه اربعة شهود : جافير — جافير ، مفتش الشرطة العفّ النزيه ، وثلاثة من رفاقه القدماء في العار ، هم بروفيه ، وشونيلديو ، وكوشباي المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وبمَ يردّ على هذا الاجماع الصاعق ؟ بالانكار . يا له من تصلب ! انتم سوف تقيمون العدل ، ايها السادة المحلفون ، الخ . الخ . » وفيما النائب العام يتكلم ، اصغى المتهم فاغراً فاه بضرب من الذهول الذي لا يخلو مــن بعض الاعجاب . كان واضحاً انه ما كان قادراً على ان يصدق ان في إمكان رجل ما إن يتكلم هكذا . وبين الفينة والفينة ، عند المقاطع الاكثر

* Théramène رجل دولة أثيني وخطيب بليغ ، ولكنه كان ذا خلق متقلب متلون . وقد أسهم سنة ٤١١ ق.م في قلب النظام الديموقراطي في اثينا ، ثم اتهم بالخيانة فحكم عليه بشرب الشوكران السامّ عام ٤٠٣ . وتيرامين ايضاً أحد شخوص راسين في تراجيديته « فيدر » Phèdre .

« دوة » مـــن مطالعة النيابة ، وفي تلك اللحظـــات التي كانت الفصاحة فيها تعجز عن ان تملك نفسها فتفيض في سيل من النعـــوت الفاضحة وتحيط بالمتهم وكأنهم عاصفة – كان يحرك رأسه في تؤدة مـــن اليمين الى الشمال ، ومن الشمال الى اليمين ، ضربٌ مـــن الاحتجاج الكئيب الاخرس قنع به منذ بدء المناقشة . ومرتين أو ثـلاث مرات سمعه النظارة الاشدّ قرباً منه يقول في صوت كالهمس : « كل ذلك ناشيء عن انه لم يسألوا مسيو بالو ! » ولفت النائب العام نظر المحلفين الى هذا الوضع الابله – وهو مدبَّر من غير شك – الذي لا يدل على الغباء ولكن على البراعة ، والمكر ، وتعوُّد مخادعة العـــدالة ، والذي يُظهر في ضوئه الاقوى « فساد هذا الرجل الخلقيّ العميق الجذور . » وختم مطالعته بأن أدلى بتحفظاته حول مسألة جيرفيه الصغير ، طالبـــاً إنزال اقصى العقوبة بالمتهم

وكان اقصى العقوبة بالنسبة الى هذه الجريمة ، كما نذكر ، الاشغال الشاقة مدى الحياة .

ونهض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة « السيد النائب العـــام » على « مطالعته الرائعة » ، ثم ردّ عليه على قـدر ما استطاع ، ولكن في نبرة اضعف . كان واضحاً ان الارض مادت تحت قدميه .

١٠
طراز الانكار

وأزفت لحظةُ اختتام المحاكمة . فأصدر الرئيس امره الى المتهم بأن ينهض ، ووجه اليه السؤال المألوف :

– « هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونهض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة رهيبة كانت معه . وبدا وكأنه لم يسمع .

وكرّر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدا أنه فهم . لقد أجفل مثل امرىء يفيق من الرقاد ، وأجال عينيه في ما حوله ، ونظر الى الجمهور ، والى الدرك ، والى محاميه ، والى المحلفين ، والى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمتين على الحاجز القائم أمامه . ونظر كرة اخرى . وفجأة سمّر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم . كان ذلك اشبه بثورة بركان . ولقد بدا من الطريقة التي ندّت فيها الكلمات من بين شفتيه متقطعةً ، عاصفةً ، متصادمة ، مختلطة ، أنها كانت كلها تريد ان تنطلق في آن معاً . قال :

— « احب ان اقول هذا : أني كنت صانع عجلات في باريس ؛ وأن ذلك كان في محلّ مسيو بالو ايضاً . كانت حياةً قاسية حياةُ صانعي العجلات تلك . فأنت مضطر دائماً الى ان تعمل في الهواء الطلق ، في أفنية الدُور ، تحت السقائف حين يكون معلّمك رجلاً طيباً ، ولكن ليس داخل جدران المحلّ ، لأن العمل يقتضي سعةً من الارض ، كما ترى . وفي الشتاء كان البرد من القسوة بحيث يتعين على المرء ان يضرب كفاً بكفّ لكي يستشعر الدفء ، ولكن معلّمينا ما كانوا يجيزون لنا ذلك ، قائلين انه مَضْيَعة للوقت . إنه لمن اصعب الاشياء ان تمسك بالحديد حين يكون الجليد مغطياً حصباء الطريق . إنه يهرّيء الانسان في سرعة . وهكذا تشيخ وانت بعدُ فتىً في هذه الصناعة ، وما تكاد تبلغ الاربعين حتى تكون قد انتهيت . اما انا فكنت في الثالثة والخمسين . كنت مريضاً مرضاً شديداً ، وفوق هذا فقد كان العمال خبثاء جداً ! إنهم حين يتجاوز الرجل الساذج مرحلة الشباب يسمونه « الطائر العجوز » ، و « البهيمة العجوز » ! ولم اكن أكسب

غير ثلاثين « سو » في اليوم ؛ فقد كانوا يدفعون اليّ اقلّ ما يستطيعون من أجر ، وكان اصحاب العمل يُفيدون من شيخوختي . والى هـذا فقد كانت عندي ابنتي التي عملت غسالةً على ضفة النهر . وكان ما تكسبه قليلاً ، ولكن دخلي ودخلها كانا يمكّناننا من العيش . وكان عملها مرهقاً ايضاً . كانت تسلخ النهار كله غائصةً حتى خصرها في طبق الغسيل الخشبي ، تحت المطر ، تحتّ الثلج ، وفي قلب الريح التي تقصّ الوجه ، وفي غمرة الصقيع . لا فرق ، فالغَسْل ينبغي ان يتمّ . إن ثمة أناساً ليس عندهم كثير من الملابس الداخلية ، فهم ينتظرون هذه الملابس . واذا لم تغسِل تخسر زبائنك . وألواح الطبق غير متماسكة جداً ، فقطرات الماء تنصبّ عليك من كل مكان . وتبلّل المياه ثيابك وتغور فيها أبعد فأبعد . إنها تنفذ . ولقد اشتغلتْ ايضاً في مصبغة « الاطفال الحمر » حيث تصل المياه بالانابيب . وهناك لا يتحتم عليك ان تعمل في قلب الطبق الخشبيّ . إنك تغسل الثياب قدّامك تحت الانبوب ، وتنظفها بعد الغسل خلفك في الحوض . واذ كانت تقوم بهذا العمل ضمن اربعة جدران فلم تكن تبرد كثيراً . ولكن كان ثمة بخار ماء حارّ الى حد فظيع ، وكان ذلك يُتلف العينين . كانت ترجع الى بيتها في الساعة السابعة ليلاً ، فتأوي الى فراشها سريعاً . كان الأعياء يهدّ قواها . وكان زوجها يضربها . لقد ماتت . إنها لم تكن سعيدة جداً . كانت فتاةً فاضلة لا تذهب الى المراقص ابداً ، فتاة هادئة جداً . واذكر أنها آوت الى فراشها في « ثلاثاء المرفع » من احد الاعوام في الساعة الثامنة . إنتبه . انا اقول الحقيقة . وليس عليك إلا ان تسأل . آه ، أجل ، إسألْ ! ما أشدّ بلاهتي ! إن باريس واسعة جداً . ومن ذا الذي يعرف الاب شانماتيو فيها ؟ ولكنّ هناك مسيو بالو . إذهبْ الى محل مسيو بالو . ولست ادري ما الذي تريدونه مني بعد هذا ؟ »

وكفّ الرجل عن الكلام ، ولكنه لم يجلس . كان قد نطق بهذه الكلمات في صوت مرتفع ، سريع ، خشن ، قاسٍ ، أبحّ ، وبضرب من السذاجة الغاضبة الضارية . ومرةً واحدة قطع كلامه لكي ينحني تحيــــةً لأحد افراد النظارة . وكانت ضروب التوكيدات التي كان يلقيها أمامه كيفما اتفق تنطلق منه وكأنها شهقات ، وكان يضيف الى كل منهـــا ايماءة حطّاب يقطع الخشب . حتى اذا انتهى انفجر النظارة بالضحك . فنظر اليهم ؛ واذ رآهم يضحكون ، ومن غير ان يعرف لماذا ، شرع هو نفسه يضحك .

وكان ذلك نذيراً بشرّ .

ورفع الرئيس صوته ، وكان رجلاً يقظاً رفيقاً .

لقد ذكّر « السادة المحلفين » بأن « السيد بالو » صانع العجلات القديم الذي قال المتهم إنه كان يعمل في خدمته ، قد استُدعي ولكنه لم يحضر . كان قد أفلس ، ولم يكن في الامكان العثور عليه . » ثم إنه التفت الى المتهم وحثّه على الاصغاء الى ما سيقوله له ، وأضاف :

— « انت في وضع يتطلّب التفكير . إن اثقل القرائن لــترهق كاهلك ، وقد تقودك الى عواقب مشؤومة . ايها المتهم ، إني اسألك — لمصلحتك الشخصية — مرة أخيرة ان تجيبني في وضوح عن هذين السؤالين : اولاً ، هل تسوّرت ، حائط مزرعة بيرّون ، وكسرت الغصن وسرقت التفاح ، يعني هل ارتكبت جريمة السرقة بالاضافة الى التسوّر ام لم تفعل ؟ ثانياً ، هل انت جان فالجان المحكوم بالاشغال الشاقة والمطلق سراحه ، ام لا ؟ »

وهزّ المتهم رأسه في انطباعة ذكية ، مثل رجل فهِمَ ما قيل جيداً وعرف بأي شيء يعتزم ان يجيب . وفتح فمه ، والتفت نحو الرئيس ، وقال :

— « قبل كل شيء ... »

ثم نظر الى قلنسوته ، ورفع بصره الى السقف ، واعتصم بالصمت .

وقال النائب العام في صوت فظّ :

- « ايها المتهم ، إنتبه ! انت لا تجيب عن شيء مما سئلت ان تجيب عنه . ان اضطرابك يدينك . من الواضح ان اسمك ليس شاناتيو ، وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المتستّر باديء الامر تحت اسم جان ماتيو ، الذي كان اسم أمه ؛ وانك عشت في أوفيرني ، وأنك ولدت في فافيرول ، حيث كنتَ مشذب اغصان . ومن الواضح انك سرقت تفاحاً ناضجاً من مزرعة بييرّون بالاضافة الى تسوّرك الجدار . إن السادة المحلفين سوف ينظرون في هذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس آخر الأمر . ولكنه ما لبث ان نهض فجأةً ، حين أتمّ النائب العام كلامه ، وصاح :

- « انت رجل رديء جداً ، أنت ! ذلك ما كنتُ أريد أن أقوله . أنا لم اعثر على هذه الكلمة باديء الامر . إني لم اسرق شيئاً قط . إني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنتُ قادماً من آبي ، وكنت امشي إثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ، حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنتُ لا ارى غير طلائع الاعشاب منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدتُ على الارض غصناً يحمل بعض التفاح ، فالتقطت الغصن من غير ان ادري انه سوف يورثني ألماً . فمنذ ثلاثة اشهر وأنا طريح السجن ، أُنقل من مكان الى مكان . أنا لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون لي : « اجب ! » وإن الدركي ، الذي هو رجل طيب ، يدفع مرفقي ويهمس : « اجب الآن ! » انا لا احسن التعبير عن نفسي ؛ انا لم أتلقّ العلم قط ؛ انا رجل فقير . انكم جميعاً مخطئون لعدم رؤيتكم ذلك . انا لم اسرق ، لقد رفعت عن الارض أشياء كانت موجودة هناك . انت تتحدث عن جان فالجان ، جان ماتيو ! انا لا أعرف هذين الشخصين . لا ريب انهما رجلان قرويان . لقد اشتغلتُ عند

مسيو بالو في « جادة المستشفى » . انا ادعى شانماتيو . ينبغي ان تكون ذكياً حتى تخبرني اين وُلدتُ . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحاً باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وأمي كانا يهيمان على وجهيهما في الشوارع ؛ ولكني لست واثقاً . حين كنت طفلاً كانوا يدعونني « الصغير » أما الآن فأنا ادعى « العجوز » . هذان هما اسما معموديتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنتُ في اوفيرني ، وكنت في فافيرول . عجباً ! الا يستطيع الانسان ان يكون في أوفيرني وفافيرول من غير ان يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم اسرق ، واني الاب شانماتيو . كنت اعمل عند مسيو بالو ؛ لقد عشتُ في منزله . لقد تعبتُ من هرائك الذي لا نهاية له ! لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب المسعورة ؟ »

كان النائب العام لا يزال واقفاً . فوجّه الخطاب الى الرئيس :

— « سيدي الرئيس ، امام الانكارات المشوّشة ، ولكن الحاذقة جداً ، التي يعتصم بها المتهم الذي يحاول ان يوقع في روع المحكمة انه معتوه ، والذي لن ينجح في ذلك — فنحن سوف نحول بينه وبين النجاح — نلتمس ان تستدعوا الى هذه القاعة كرةً اخرى ، اذا شئتم وشاءت هيئة المحكمة ، كلّاً من المحكوم عليهم بروفيه ، وكوشباي ، وشونيلديو ، ومفتش الشرطة جافير ، وتستجوبوهم للمرة الاخيرة حول هوية المتهم وانه هو وجان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شخص واحد . »

فقال الرئيس :

— « احب ان اذكّر السيد النائب العام ان مفتش الشرطة جافير الذي دعته واجباته الى التوجّه الى حاضرة احدى المديريات المجاورة ، قد غادر هذه القاعة ، بل غادر المدينة ، بعد ان ادلى بشهادته مباشرة .

لقد منحناه هذا الاذن بموافقة السيد النائب العام ومحامي المتهم . »

فاجاب النائب العام :

— « هذا صحيح . وفي غيبة مسيو جافير ارى من الواجب ان اذكّر السادة المحلفين بالذي قاله هنا منذ ساعات قليلة . إن جافير رجل محترم يشرّف ، بنزاهته القاسية الصارمة ، المهامّ الدنيا ولكنِ الهامة في وقت معاً . وهذه هي التعابير التي انطوت عليها شهادته : « لست في حاجة حتى الى حدسٍ معنوي وأدلة مادية لكي أناقض إنكارات المتهم . انا اعرفه معرفةً تامة . إن اسم هذا الرجل ليس شانماتيو . انه مجرم قديم حُكم عليه بالاشغال الشاقة ، شريرٌ جداً وخبيث جداً ، يدعى جان فالجان : إن سراحه لم يُطلق عند انتهاء اجل عقوبته إلا في أسفٍ بالغ . لقد قضى تسعة عشر عاماً في سجن الاشغال الشاقة بسبب من سرقةٍ موصوفة . وخمسَ مرات او ست مرات حاول ان يفر من السجن . وبالاضافة الى سرقته جيرفيه الصغير ومزرعةَ بيرون يخيّل اليّ ايضاً انه هو الذي قام بسرقة منزل صاحب العظمة اسقف د ... المتوفى . لقد رأيته كثيراً يوم كنت نائباً لضابط حرس سجن الاشغال الشاقة في طولون . اعود فأقول إني اعرفه معرفة تامة . »

وبدا هذا التصريح ، المصوغ في عبارات بالغة الايجاز والدقة ، وكأنما ترك اثراً قوياً في نفوس النظارة والمحلفين . وختم النائب العام كلامه بأن اصرّ ، ما دام جافير غائباً ، على ضرورة الاستماع مرة ثانية للشهود الثلاثة بروفيه ، شونيلديو ، وكوشباي ، واستجوابهم في مهابة .

واصدر الرئيس أمره الى احد الحجاب . وبعد لحظة فُتح باب حجرة الشهود ، وقاد الحاجبُ — يصحبه دركي على اتم الاستعداد لأسداء العون — بروفيه المحكومَ عليه بالاشغال الشاقة . وحبس النظارة أنفاسهم ، وخفقت القلوب جميعاً وكأنما كانت لها نفسٌ واحدة ليس غير .

وكان بروفيه هذا يرتدي السترة السوداء والرمادية الخاصة بالسجون .

المركزية . كان في نحو الستين ، وكان له وجه رجل من رجال الاعمال وسيما وغد من الاوغاد . إنهما في بعض الاحيان يسيران جنباً الى جنب . وكان قد اصبح شيئاً أشبه بسجان في ذلك المحبس الذي أعادته اليه آثام جديدة . كان واحداً من اولئك الرجال الذين يقول فيهم رؤساؤهم : « إنه يحاول ان يجعل من نفسه عنصراً مفيداً . » وشهد كهنة السجن شهادة طيبة في ما يتصل بعاداته الدينية . ويجب ان لا ننسى ان ذلك إنما جرى في العهد الذي شهد عودة آل بوربون الى العرش .

وقال الرئيس :

— « بروفيه ، لقد أنزلت بك عقوبة شائنة ، وليس في استطاعتك ان تقسم اليمين . »

وخفض بروفيه عينيه .

وتابعَ الرئيس كلامه :

— « ومع ذلك ، فقد يظلّ — حتى في الرجل الذي أذله القانون — اذا سمحت العدالة الالـهية بذلك ، إحساسٌ بالشرف والانصاف . الى هذا الاحساس أتوجّه ، مناشداً ، في هذه اللحظة الحاسمة . فاذا كان لا يزال حياً فيك ، وهو ما ارجوه ، ففكّر قبل أن تجيبني . فكّر ، من ناحية ، بهذا الرجل الذي قد تقضي عليه كلمة منك ، ومن ناحية ثانية ، بالعدالة التي قد تنير سبيلها كلمة منك ايضاً . إن اللحظة مهيبة ، ولا يزال امامك متسع للتراجع اذا اعتقدتَ انك كنتَ مخطئاً . ايها المتهم ، قف ! بروفيه ، انظر جيداً الى المتهم ؟ اجمع شتات ذكرياتك وقل لنا ، بذمتك وضميرك ، ما اذا كنت تصرّ على ان هـذا الرجل هو جان فالجان رفيقك القديم في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

ونظر بروفيه الى المتهم ثم التفت كرة ثانية نحو هيئة المحكمة :

— « نعم ، يا سيدي الرئيس . لقد كنت أول من عرفه ، وانا أصرّ على ذلك . هذا الرجل هو جان فالجان . دخل سجن طولون

سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ . لقد خرجت انا في العام الذي تلا . إن سيا الخبل تبدو على وجهه الآن ، ولكن لا ريب في ان الشيخوخة هي التي خبّلته . أما في سجن الاشغال الشاقة فقد كان مرائياً ذا وجهين . أنا أعرفه ، على وجه التأكيد . »

فقال الرئيس :

— « إجلسْ ! ايها المتهم ، إبقَ واقفاً . »

وجيء بشونيلديو ، وهو محكوم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، كما بدا من ردائه الاحمر وقلنسوته الخضراء . كان يتحمل عقوبته في سجن طولون الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ولقد اقتيد من هناك لهذه المناسبة . كان رجلاً ضئيـل الجسم ، في نحو الخمسين من العمر ، نشيطاً ، متجعد البشرة ، مهزولاً ، أصفر ، وقحاً ، قلقاً . وكان في اوصاله كلها وفي شخصه كله ضرب من الضعف المرَضيّ ، وفي نظرتـه قوة هائلة . كان رفاقه في سجن الاشغال الشاقة قد لقبّوه بـ « جو — ني — ديو » * .

ووجّه الرئيس اليـه الكلمات نفسها التي وجهها الى بروفيـه تقريباً . وحين ذكّره بأن عاره قد حرمه الحق في ان يُقسم يميناً ، رفع شونيلديو رأسه ونظر الى الجمهور في وجوههم . ودعاه الرئيس الى ان يجمع شتات أفكاره ، وسأله ، كما سأل بروفيه من قبل ، ما اذا كان لا يزال يصر على انه يعرف المتهم .

وانفجر شونيلديو ضاحكاً :

— « يا الّهي ! ما اذا كنت أعرفه ! لقد سلخنـــا خمس سنوات مشدودَين الى السلـلة الحديدية نفسها . انت مستاء مني ، أليس كذلك ، ايها الغلام العجوز ؟ »

فقال الرئيس :

* Je - nie - Dieu وترجمتها : « أنا أنكر وجود الله . »

— « إجلس . »

واقتاد الحاجب كوشباي . وكان هذا المحكوم عليه ايضاً بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، والمسوق من سجن الاشغال الشاقة ، واللابس رداء احمر مثل شونيلديو ، فلاحاً من لورد ، ونصف دبّ من البيرينيه . كان يرعى الماشية في الجبال . ولقد انزلقت به قدمه من راعٍ الى قاطع طريق . وما كان كوشباي اقل فظاظةً من المتهم ، ولقد بدا اكثر بلاهةً منه . كان واحداً من اولئك الرجال التعسين الذين ترسمهم الطبيعة رسماً خفيفاً وحوشاً كاسرة ، ثم يأتي المجتمع فيتمّ عمله فيهم جاعلاً منهم عبيداً أرقاء في سجن الاشغال الشاقة .

وحاول رئيس المحكمة ان يحرّك عواطفه ببضع كلمات جدية مؤثرة ، وسأله كما سأل زميليه الآخرين ، ألا يزال يصرّ ، من غير ما تردد أو عسر ، على انه يعرف الرجل الواقف أمامه .

فقال كوشباي :

— « إنه جان فالجان . انه هو نفسه الذي كانوا يدعونه « جان رافعة الاثقال » بسبب قوته الهائلة . »

وكان كل من التوكيدات التي أرسلها هؤلاء الرجـــال الثلاثة ، في إخلاص ونية حسنة من غير شك ، قد أثار في صفوف النظارة همهمة من التنبؤ الغاضب ضدّ المتهم ، همهمة كانت تزداد قوةً وتطاولاً كلـــما أضيف الى التوكيد السابق توكيدٌ جديد . وأصغى المتهم نفسه اليها في تلك السيما المشدهة التي كانت ، في زعم الاتهام ، وسيلة دفاعه الرئيسية . ولقد سمعه رجال الدرك المجاورون له يغمغم من بـــين اسنانه عقبَ التوكيد الاول : « آه ، حسناً ! هذا واحد منهم ! » وإثر التوكيد الثاني قال في صوت أعلى وفي سيما من الارتياح تقريباً : « حسن ! » . حتى اذا سمع التوكيد الثالث صاح : « عظيم ! »

وخاطبه الرئيس قائلاً :

— « ايها المتهم ، لقد سمعتَ . هل عندك ما تقوله ؟ »

فأجاب :

— « أقول : عظيم ! »

ومرت في صفوف النظارة ضجة اوشكت ان تغزو المحلفين . كان واضحاً أن الرجل قد هلك .

وقال الرئيس :

— « ايها الحجاب ، أقرّوا النظام . اريد أن أختم القضية . »

وفي هذه اللحظة أتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة . وسُمع صوت يصيح :

— « بروفيه ، شونيلديو ، كوشباي ! أنظروا الى هذه الجهة ! »

كان ذلك الصوت فاجعاً وفظيعاً الى حد جعل جميع الذين سمعوه يحسّون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصُوّبت الأعين كلها نحو النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من أولئك الذين احتلوا مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ، ففتحه ، ووقف في وسط القاعة . وعرفه الرئيس ، والنائب العام ، ومسيو باماتابوا ، وعشرون شخصاً آخرون ، وصاحوا في آنٍ معاً :

— « مسيو مادلين ! »

١١
شانماتيو يزداد دهشاً على دهش

كان هو في الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان يمسك قبعته بيده . ولم يكن ثمة ايّ اضطراب في ملابسه ؛ فقد كانت

سترته الطويلة المشقوقة الذيل (الريدنغوت) مزرّرة في عناية . كان شاحباً جداً ، وكان يرتعد ارتعاداً طفيفاً . اما شعره الذي كان اشيب عند وصوله الى آراس فقد امسى الآن أبيض تماماً . كان قد ابيضّ خلال الساعة التي قضاها هناك .

وأتلعت نحوه الاعناق كلها . كان الاثر الذي تركه هذا الموقف في نفوس الناس ممتنعاً على الوصف . وعبرتِ بالنظارة لحظة تردّد . كان الصوت موجعاً جداً ، وكان الرجل الواقف هناك يبدو هادئاً جداً الى حد جعل الناس لا يفهمون شيئاً أول الامر . وتساءلوا من الذي صاح . إنهم لم يستطيعوا ان يصدّقوا ان هذا الرجل الهادىء قد اطلق تلك الصيحة المروّعة .

ولم تستمرّ هذه الحيرة غير بضع ثوانٍ . وحتى قبل ان يستطيع الرئيس والنائب العام ان يقولا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك والحجاب ان يأتوا بايماءة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهم حتى تلك اللحظة مسيو مادلين قد تقدّم نحو الشهود كوشباي ، وبروفيه ، وشونيلديو .

وقال :

— « ألا تعرفونني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة من الرأس الى انهم لم يعرفوه . وأدى كوشباي ، وقد استبدّ به الرعب ، التحية العسكرية . واستدار مسيو مادلين نحو المحلفين وهيئة المحكمة ، وقال في صوت رخيم :

— « ايها السادة المحلفون ، أطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ، أصدرْ امرك باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنه . انا ذلك الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس انسان . كان صمت اشبه بصمت القبور قد عقبَ الانشداه

الأول . كان في مبسور المرء ان يستشعر في القاعـة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حتى يُنجَز عملٌ عظيم .

ومع ذلك فقد كان وجه الرئيس موسوماً بالحزن والمشاركة الوجدانية . لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهموسة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل في نبرة فهمها الجميـع :

— « هل يوجد طبيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول :

— « سادتي المحلفين ، إن الحادثة الغريبة غير المرتقبـــة التي تقلق النظارة لتوقعُ في نفوسنا ، كما توقع في نفوسكم ، شعوراً لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فأنتم جميعاً تعرفون ، من طريق الشهرة على الاقـل ، مسيو مادلين المبجّل ، عمدةَ مونترويْ سور مير . فاذا كان بـــين النظارة طبيب فنحن نضمّ صوتنا الى صوت السيد الرئيس فنرجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى مسيو مادلين ، ويقوده الى مقره . »

ولم يدع مسيو مادلين النائبَ العام يتم كلامه ، بل اعـــترضه في جَرْس مفعم بالوداعة والسلطان . وهذه هي الكلمات التي لفظها . هذه هي بالحرف الواحد كما دوّنها حالَ اختتام الجلسة واحدٌ من الذين شهدوا هذا الموقف ، وكما لا تزال ترنّ في آذان اولئك الذين سمعوها قبـــل اربعين سنة من هذا التاريخ تقريباً .

— « اشكرك ، يا سيدي النائب العام ، ولكني لستُ مجنونـاً . سوف ترى . لقد كنتَ على وشك ان ترتكب غلطةً كبيرة . أطلِقْ سراح هذا الرجل . إني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التعس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح في هذا المكان ، وإني لاقـول لك الحقيقة . إن ما أعمله في هـــذه اللحظة يراه الله الذي في الاعـالي ، وهذا يكفي . في استطاعتك ان تلقي القبض عليّ ، ما دمتُ موجوداً هنا . ومع ذلك ، فقد بذلتُ غاية جهدي . لقد استترتُ تحت اسم

آخر ؛ لقد غدَوْتُ غنياً ؛ لقد غدوت عمدةً ؛ لقد أودت ان اعاود الدخول الى دنيا الرجـــال الفاضلين . يبدو ان هذا غير ممكن . وبالاختصار ، فهناك اشياء كثيرة لا استطيع ان اقولها ؛ انا لن اروي لك قصة حياتي ، ولسوف تعرفها في يوم من الايام . لقد سرقت صاحب السيادة الاسقف ؛ هذا صحيح . لقد سرقت جيرفيه الصغير ؛ هذا صحيح . لقد كانوا على صواب حين قالوا لك ان جان فالجان كان وجلاً تعساً خبيثاً جداً . ولكن الغلطة كلها قد لا تكون غلطته . اسمعوا ، ايها السادة القضاة ، إن وجلاً يسربله الذلّ بقدر ما يسربلني ليس لديه احتجاج يوجهه الى العناية الالـٰهية ، او نصيحة يقدمهـــا الى المجتمع . ولكن انتبهوا . إن العار الذي حاولت ان اخرج من حضيضه مفسدٌ للرجال . إن سجون الاشغال الشاقة تصنع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . خذوا هذا مثلاً ، اذا شئتم . فقبل ان ادخل سجن الاشغال الشاقة كنت فلاحاً بسيطاً ، قليل الحظ من الذكاء ، شبه معتوه . ولكن سجن الاشغال الشاقة غيّرني . كنت ابـــله ، فاصبحت شريراً . كنتُ حطبةً ، فأصبحت جذوة نار . وفي ما بعد انقذتني الحكمـــة والطيّبة كما سبق للقسوة ان اضاعتني . ولكن ، عفواً ، انتم لا تستطيعون ان تفهموا ما أقوله . سوف تجدون في منزلي ، بين رماد الموقد ، قطعة الاربعـــين « سو » التي سرقتها لسبع سنوات خلت من جيرفيـــه الصغير . ليس عندي ما اقوله غير هذا . ألقوا القبض عليّ ! يا الـٰهي ! إن النـائب العام يهزّ رأسه . أنت تقول : « مسيو مادلين قد اصيب بالجنون . » أنت لا تصدقني ! هذا شيء محزن . لا تدينوا هـــذا الرجل ، على الاقل ! ماذا ؟ هؤلاء الرجال لا يعرفونني ! ليت جافير ذاك كان هنا . لقد كان خليقاً به هو ان يعرفني ! »

وليس في ميسور شيء ان يعبّر عن الكآبة الرفيقة الكالحة التي انطوت عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الى الثلاثة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة :

— « حسناً ، أنا أعرفك ، يا بروفيه ! هل تذكر ... ؟ »

وتمهّل ، وتردّد لحظةً ، ثم قال :

— « هل تذكر حمالة البنطلون تلك ، المزرودة ، ذات الرقع ، التي كانت لك في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

وأجفل بروفيه إجفالة دهش ، وحدّق اليه من قمة رأسه الى اخمص قدميه بنظرات مروّعة . أما هو فتابع كلامه :

— « وانت يا شونيلديو الذي لقّبتَ نفسك بـ « جو ـ ني ـ ديو » ، لقد احترقت كتفك اليسرى احتراقاً عميقاً لانك القيتها ذات يوم على كانون مليء بالجمر لكي تمحو هـذه الاحرف الثلاثة T. F. P. التي لا تزال تُرى على تلك الكتف برغم ذلك . أجبني ، هل هذا صحيح ؟ »

فقال شونيلديو :

— « هذا صحيح ! »

ثم انه التفت الى كوشباي :

— « كوشباي ، ان لك قربَ مَعْطِفِ ذراعك اليسرى تاريخاً نُقش بأحرف زرقاء بواسطة الذرور المحترق . انه تاريخ هبوط الامبراطور الى البرّ ، عند مدينة « كانّ » ، ١ آذار ١٨١٥ . ارفع رُدْنك . »

ورفع كوشباي رُدنه . وصُوّبت جميع الاعين المحيطة به الى ذراعه العارية . وجاء دركيّ بمصباح . كان التاريخ هناك .

والتفت الرجـــل التعس الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه ابتسامة لا تزال ذكراها تمزّق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة النصر ، وكانت كذلك ابتسامة اليأس .

وقال :

— « انتم ترون جيداً أني أنا جان فالجان . »

ولم يبقَ في تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال درك ؛

لم يبقَ فيها غير عيون مسدّدة ، وقلوب خافقة . ولم يعد احدٌ يذكر الدور الذي كان يتعيّن عليه القيام به . لقد نسي النائب العام أنه إنما وُجد هناك ليدّعي ؛ ونسي الرئيس انه إنما وُجد هناك ليرئس الجلسة ؛ ونسي محامي الدفاع انه إنما وُجد هناك ليدافع . ومن عجب ان سؤالاً ما ، لم يُسأل ؛ وان سلطةً ما ، لم تتدخل . إن من خصائص المشاهد الرفيعة الذرى أن تستولي على كل نفس ، وان تجعل من كل شاهد مُشاهداً . ولعل احداً من القوم لم يكن يعي ، بجلاء ، تلك الخبرة التي تمّت له . وليس من ريب في ان احداً منهم لم يقل في ذات نفسه إنه رأى ، ثمةَ ، تألقَ ضياء عظيم . ومع ذلك فقد احسّوا جميعاً ، احساساً باطنياً ، أنهم قد بُهروا .

كان واضحاً ان جان فالجان ماثلٌ أمام أعينهم . لقد أطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافياً لكي يغمر بالضياء تلك القضية التي كان الغموض يكتنفها من اقطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهمَ الحشد في الحال ومن اللمحة الاولى ، وكأنما كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يُحكم على رجل آخر مكانه . اما التفاصيل ، أما ضروب التردّد ، أما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

كانت انطباعةً ما لبثت ان تلاشت ، ولكنها كانت في تلك اللحظة أقوى من أن تقاوَم .

وتابع جان فالجان كلامه :

— « انا لا اريد ان أعطل الجلسة اكثر مما فعلت . أنا ذاهب ، ما دمت لم أعتقل . أن عندي اشياء كثيرة يجب ان أقوم بها . والسيد النائب العام يعرف من أنا ، ويعرف الى أين سأذهب ، ولسوف يصدر أمره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجي . ان صوتاً ما ، لم يرتفع . وان ذراعاً ما ، لم تمتدّ لتمنعه . لقد تنحّوا كلهم عن سبيله . كان يغمر نفسَهُ في تلك اللحظة شيء السّمي لا يوصف يجعل الحشود تنكص على أعقابها وتخلي الطريق لرجلٍ ما . واتخذ سبيله من خلال الجمع في خطىً وئيدة . ولم يُعرَف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت أنه كان مفتوحاً حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

— « سيدي النائب العام ، انا دائماً تحت تصرفك . »

ثم وجّه الخطاب الى النظارة قائلاً :

— « انتم جميعاً ، انتم الذين تضمّكم هذه القاعة جميعاً ، تعتبرون اني جدير بالرحمة ، أليس كذلك ؟ يا الـهي ، حين أفكر بالذي كنت على وشك ان أفعله يخيّل اليّ أني جدير بالحسد . ومع ذلك ، فقد كنت اتمنى لو ان هذا كله لم يحدث . »

وخرج . وأغلق الباب كما قد فُتح من قبل ، لأن اولئك الذين يقومون بأعمال عظيمة سامية هم ابداً على ثقة من ان شخصاً ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقلّ من ساعة صدر حكم المحلفين مبرّئاً المدعوّ شانماتيو من ايّ تهمة . وأطلق سراح شانماتيو في الحال فاتخذ سبيله مشدوهاً ، معتقداً ان الناس جميعاً قد أصيبوا بالجنون ، غير فاهمٍ شيئاً من هذه الرؤيا .

الكتاب الثامن

ضربة معاكسة

١

بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد قضت فانتين ليلة محمومة ، أرقة ، مليئة – مع ذلك – بالرؤى السعيدة . ومع الفجر استسلمت للرقاد . واغتنمت الاخت سيمبليس التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب وتعد مقداراً جديداً من سائل الكينا . ولم تكد الراهبة الطيبة تمضي بضع لحظات في مختبر المستشفى ، منكبة على عقاقيرها وزجاجاتها ، محدقة اليها عن كثب بسبب الضباب الذي يلقيه الضحى على الاشياء كلها ، حتى ادارت رأسها فجأة ، وأطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين

واقفاً امامها . كان قد دخل عليها ، اللحظةَ ، في صمت .

وصاحت :

— « هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »

فأجابها في صوت خفيض :

— « كيف حال المرأة المسكينة ؟ »

— « إنها احسن ، الآن . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقاً . »

وقصّت عليه ما جرى ، وأن فانتين كانت مريضةً جداً الليلة البارحة ولكنها الآن أحسن حالاً لانها اعتقدت أن السيد العمـــدة ذهب الى مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على ان تسأل السيد العمدة ، ولكن سيماه أنبأتها ، في وضوح ، انه ليس قادماً من هناك على الاطلاق .

وقال :

— « هذا كله حسن . لقد أحسنتِ صنعاً حين احجمتِ عن خداعها . »

فقالت الراهبة :

— « اجل ، ولكن الآن ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »

وفكّر لحظةً ثم قال :

— « ان الله سوف يلهمنا ما نقول . »

فغمغمت الأخت في صوت كالهمس :

— « ولكنا لا نستطيع أن نكذب عليها . »

وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فأضاءت وجه مسيو مادلين .

واتفق أن رفعت الأخت عينيها ، فصاحت :

— « يا الٓهي ! ايها السيد ! ما الذي اصابك ؟ إن شعرك أبيض كله ! »

فقال :

— « أبيض ! »

ولم تكن عند الاخت سيمبليس مرآة . فبحثت في صندوق يحتوي

على بعض الادوات واخرجت منـــه مرآة كان طبيب المستشفى يتثبّت بواسطتها من ان مريضاً ما قد مات فهو لا يتنفس البتة .

وتناول مسيو مادلين المرآة ، ونظر الى شعره وقال :

ــ « حقاً ! »

ونطق بهذه الكلمة في لا مبالاة وكأنما كان يفكر في شيء آخر .

واستشعرت الاخت قشعريرة اوقعها في اوصالها شيء مجهول لمحتـه في هذا كله .

وسألها :

ــ « هل أستطيع أن أراها ؟ »

فقالت الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على أن تغامر بطرح السؤال :

ــ « ألن يعيد اليها سيدي العمدة ابنتها ؟ »

ــ « طبعاً . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »

فاستطردت الاخت في خشية :

ــ « اذا لم ترَ سيدي العمدة هنا فلن تعلم أنه قد رجع . وعندئذ يكون من اليسير عليها ان تتصبّر . حتى اذا جاءت الطفلة اعتقـــدت بصورة طبيعية ، ان السيد العمدة قد جاء بها اللحظة . وهكـــذا لا نضطر الى ان نكذب عليها . »

وبدا مسيو مادلين وكأنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال في رصانته الهادئة :

ــ « لا ؛ ايتها الاخت ، يجب ان اراها . لعله أن لا يبقى لديّ متسعٌ من الوقت . »

ولم يبدُ ان الراهبة قد لاحظت « لعل » هـذه التي خلعت مغزىً غامضاً وفريداً على كلمات السيد العمدة . فأجـابت خافضةً رأسهـــا وصوتها في احترام :

ــ « اذا كان الامر كذلك فهي نائمة . ولكن في استطاعة سيدي

أن يدخل . »

وأبدى بعض الملاحظات عن باب لا يُغلق في يُسر فهو يطلق ضجة قد توقظ المريضة .

ثم دخل غرفة فانتين ، واقترب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت نائمة . وكان نفَسُها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع المميّز لهذه الامراض ، والذي يمزّق قلوب الامهات التعسات وهن يشهدن رقاد اولادهنّ المشرفين على الموت . ولكن هذا التنفس المرهق قليلاً ما عكّر ذلك الضرب من الصفاء الذي يعزّ على الوصف والذي شاع في محيّاها ، وغيّر هيئتها اثناء الرقاد . كان شحوبها قد غدا بياضاً ، وكان خدّاها قرمزيين . واختلجت اجفانها الطويلة الشقراء – الجمال الوحيد الذي بقي لها من بتوليّتها وصباها – فيما هي ما تزال مُغمَضة مُسدَلة . وارتعد شخصها كله ، وكأنما كان ذلك الارتعاد برفرفة الجناحين اللذين كان يُشعَر بهما ولكنهما لا يُريان ، واللذين كانا على وشك ان ينتشرا ويحملاها . ولو قد رآها المرء على هذه الحال اذن لما كان في مبوره ان يظنّ مطلقاً أنها كانت مريضة شبه ميئوس منها . لقد بدت وكأنها على اهبة الطيران لا على اهبة الموت .

إن الغصن ليرتجف حين تمتد يدٌ اليه لتقطف الزهرة ، وانه ليبدو وكأنه يرتدّ الى الوراء ويتقدّم نفسه في آن معاً . والجسم البشري ينكشف عن شيء من هذا الاختلاج في اللحظة التي تمتدّ فيها اصابع الموت الخفية لاختطاف الروح .

وظل مسيو مادلين فترة من الوقت جامداً لا يتحرك امام هذا السرير ، ناظراً الى المريضة حيناً والى تمثال المصلوب حيناً ، كما قد فعل منذ شهرين يوم وفدَ للمرة الاولى لكي يراها في هذا المأوى . كانا لا يزالان كلاهما هناك في الوضع نفسه ، هي نائمةٌ وهو مصلّباً . كل ما في الأمر ان شعرها الآن ، بعد ان تقضّى هذان الشهران ، أمسى أشيب

وان شعره أمسى ابيض .

ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ، واصبعه على شفتيه وكأنما كان في الغرفة شخص ما ، يريد ان يُسكته .

وفتحت عينيها ، ورأته ، وقالت في سكينة ، وبابتسامة :

— « وكوزيت ؟ »

٢

فانتين سعيدة

إنها لم تُحفل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عينه . وكان هذا السؤال البسيط : « وكوزيت ؟ » قد طُرح بإيمان عميق جداً ، وثقة مكينة جداً ، ونجوة كاملة من القلق والشك بحيث لم يستطع أن يجد كلمة يجيب بها عنه .

وتابعَتْ :

— « لقد عرفتُ انك كنتَ هناك . كنتُ نائمة ، ولكني رأيتك . لقد رأيتك فترة طويلة من الزمن . لقد تتبّعتك بعينيّ طوال الليل . كانت تحيط بك هالةٌ من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه السماوية ! »

ورفع عينيه نحو تمثال المصلوب .

واستطردت :

— « ولكن قل لي ، اين كوزيت ؟ لماذا لا تضعها في سريري لكي يكون في إمكاني ان اراها لحظةَ أستيقظ ؟ »

واجابها على نحو آليّ بشيء ما ، لم يوفَّق بعدُ الى تذكّره قطّ .

وكان الطبيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احيط علماً بذلك ،

وتقدّم لنجدة مسيو مادلين ، قائلاً :

— « إلزمي الهدوء يا ابنتي ، إن طفلتك هنا . »

وشعّت عينا فانتين بالجذل ، وأضاءتا محيّاها كله . وشبكت ذراعيها في سيماً مفعمة بكل ما يمكن ان تنطوي عليه الصلاة من أعنف العنف وألطف اللطف .

وصاحت :

— « اوه ، إحملوها اليّ ! »

وهمٌ مؤثر من اوهام الأمّ . كانت كوزيت لا تزال ، في نظرها ، تلك الطفلةَ الصغيرة التي تُحمل بين الذراعين .

وتابع الطبيب كلامه :

— « ليس الآن . ليس في هذه اللحظة . انت لا تزالين محمومة بعض الشيء . وان رؤية ابنتك قد تثيرك وتسيء الى صحتك . ينبغي ان نشفيك أولاً . »

فقاطعته في حدة :

— « ولكني شُفيت ! اقول لك إني شُفيت ! هل هذا الطبيب مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطبيب :

— « أرأيتِ كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمتِ في هذه الحال فلن استطيع ان اسمح لك برؤية ابنتك . ليس يكفي ان تريها ؛ يجب أن تعيشي من أجلها . وحين تتغلّبين العقل اجيئك بها أنا بنفسي . »

وحنت الأم المسكينة رأسها :

— « سيدي الطبيب ، ألتمس عفوك . ألتمس عفوك باخلاص . في الماضي ما كنت لأتكلم كما تكلمت الان ولكني ابتُليت بعدد كبير من المصائب جعلني لا ادري ، في بعض الاحيان ، ما أقول . انا افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف أنتظر ما شئتَ لي ان أنتظر . ولكني اقسم لك ان رؤية ابنتي لن تؤذيني . أنا اراها الآن ؛ انا لم أرفع عينيّ عنها منذ

الليلة البارحة . دعهم يحملونها اليّ الآن ، فلن آكلها إلا في رفق . هذا كل شيء . أليس طبيعياً جداً ان ارغب في رؤية ابنتي، التي قصدوا الى مونفيرماي خصيصاً لكي يأتوني بها ؟ انا لست غاضبة . انا ادري اني سوف اكون سعيدة جداً . فطوال الليل ، رأيت اشياء بيضاء ووجوهاً تبتسم لي . وحين يحلو للسيد الطبيب ، سوف يحمل اليّ صغيرتي كوزيت . لقد فارقتني الحمّى ، لأني قد شفيت . أنا احس جيداً أني لم اعد اشكو شيئاً على الاطلاق ، ولكني سوف أعمل وكأنني مريضة ولن اتحرك لكي أدخل السرور على افئدة السيدات في هذا المستشفى . وعندما يَرَيْنَ اني مخلدة الى السكينة يقلن : يجب ان نعطيها ابنتها . »

كان مسيو مادلين جالساً في كرسي الى جانب السرير . والتفتت نحوه ، وبذلت جهداً واضحاً لكي تبدو هادئة و « عاقلة جداً » كما قد قالت في وَهن الداء ذاك الذي يُشبه الطفولة ، لكي يروها لينة الجانب الى حد بعيد ، فلا يكون ثمة عقبة تحول دون رؤيتها كوزيت . بيد انها ، على الرغم من كبحها جماح نفسها ، لم تتمالك عن ان توجه الى مسيو مادلين ألف سؤال .

— « هل كانت رحلتك سعيدة ، يا مسيو مادلين ؟ اوه ! كم كنتَ كريماً في ذهابك لكي تأتيني بها ! ولكن قل لي كيف حالها ؟ هل استطاعت ان تحتمل الرحلة في سهولة ؟ وأسفاه ! إنها لن تعرفني . لقد نسيتني الصغيرة المسكينة بعد هذه الغيبة كلها ! ان الاطفال لا ذاكرة لهم . إنهم مثل العصافير . اليوم يرون شيئاً ، وغداً يرون شيئاً آخر ، ثم لا يذكرون شيئاً . ولكن قل لي هل كانت ثيابها الداخلية بيضاء ؟ هل كان تيناردييه وزوجته يُعنيان بنظافتها ؟ كيف كانا يغذّيانها ؟ اوه ! لو كنت تعرف كم قاسيت في طرح هذه الاسئلة كلها على نفسي أيامَ شقائي ! اما الآن ، فقد انقضى ذلك . انا سعيدة . اوه ! ما اشدّ شوقي الى رؤيتها ! سيدي العمدة ، هل وجدتها جميلة ؟

اليست ابنتي جميلة حقاً ؟ لا شك في انك احسست بالبرد الشديد في تلك العربة العمومية ! اليس في إمكانهم ان يجيئوا بها الى هنا لحظةً صغيرة فقط ؟ في استطاعتهم بعد ذلك ان يُرجعوها ثانيةً في الحال . قل ! أنت الذي تتمتع بالسلطة هنا ، هل ترغب في ذلك ؟ »

وأمسك بيدها قائلاً :

« كوزيت جميلة . كوزيت في حال حسنة . سوف ترينها عما قريب ، ولكن الزمي الهدوء . انت تتكلمين بسرعة اكثر مما ينبغي . والى هذا فأنت تخرجين ذراعيك من السرير ، وهذا ما يجعلك تسعلين . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمة تقريباً .

ولم تتذمر فانتين . لقد خشيت ان تكون قد اضعفت ، بتوسلاتها الملهوفة اكثر مما ينبغي ، تلك الثقةَ التي رغبت في إلهامها ، وشرعت تتحدث في موضوعات ليست ذات أهمية .

— « مونفيرماي جميلة ، اليس كذلك ؟ في الصيف يذهب الناس الى هناك التماساً للمتعة . هل يكسب تيناردييه وزوجته كسباً حسناً ؟ ان قليلاً من الناس يمرّون بتلك المنطقة . ان فندقها ليس اكثر من مطعم حقير . »

وظل مسيو مادلين ممسكاً بيدها ؛ ونظر إليها في قلق . كان واضحاً انه اقبل ليخبرها أشياء كان عقله يتردّد الآن أمامها . وكان الطبيب قد عادها وانسحب . ولم تبقَ الى جانبها غير الاخت سيمبليس .

ولكنْ في غمرة الصمت ، صاحت فانتين :

— « انا أسمعها ؟ اوه ، يا الهي ! انا اسمعها ! »

كان ثمة طفل يلعب في الفناء — ابنُ البوابة او عاملةٍ ما . كانت احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف

جزءاً من الوضع المسرحي الخفيّ الاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وتركض ، لكي تنعم بالدفء ، وتغني وتضحك في صوت مرتفع . واأسفاه ! بأي شيء لا يمتزج لَعِبُ الاطفال ومرحهم ! كانت هذه الطفلة هي التي سمعتها فانتين تغني .

وقالت :

- « اوه ، هذه كوزيتي ! أنا اعرف صوتها ! »

وانصرفت الطفلة كما اقبلت ، وتلاشى الصوت ، وأصغت فانتين فترةً أخرى . ثم اكفهرّ وجهها ، وسمعها مسيو مادلين تهمس :

- « ينبغي ان يكون هذا الطبيب شريراً جداً حتى لا يسمح لي برؤية ابنتي ! ان لهذا الرجل وجهاً مشؤوماً ! »

ومع ذلك فقد عاودها اتجاه أفكارها البهيج . واستمرّت تتحدث الى نفسها ، ورأسها على الوسادة :

- « كم سنكون سعيدتين ! سوف يكون عندنا حديقة صغيرة قبل كل شيء . ان مسيو مادلين قد وعدني بذلك . ان طفلتي سوف تلعب في الحديقة . يجب ان تعرف الاحرف الابجدية الآن . سوف أعلّمها كيف تهجّي الحروف . انها ستطارد الفراشات في الاعشاب . ولسوف اراقبها . وبعد ذلك نحتفل بتناولها القربان اول مرة . آه ، متى سيكون تناولها الاول ذاك ؟ »

وبدأت تعدّ على اصابعها .

- « ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ... إنها في السابعة من عمرها . بعد خمس سنوات . سوف ترتدي خماراً ابيض ، وجوارب ذات ثقوب ، وسوف تبدو مثل سيدة صغيرة . اوه ، ايتها الاخت الطيبة ، انتِ لا تعرفين مبلغ حماقتي ؛ انا افكر الآن في تناول ابنتي الاول ! »

واخذت في الضحك .

كان قد أفلت يد فانتين . واصغى الى هذه الكلمات كما يصغي المرء الى ريح تهبّ ، فعيناه مطرقتان الى الارض ، وروحه غائصة في تأملات لا يُسبر لها غور . وفجأةً كفت عن الكلام ورفعت رأسها على نحو آليّ . كانت فانتين قد غدت مخيفة .

ولم تتكلم بعدُ ، ولم تتنفس بعدُ . كانت قد جلست في سريرها نصف جلسة وقد خرجت كتفها المهزولة من قميصها . وغدا وجهها ، الذي كان مشرقاً قبل لحظة ، شديد الشحوب ؛ وبدت وكأنها تصوّب عينها المتّسعة بالذعر الى شيء مروّع واقف أمامها في الطرف الآخر من الغرفة .

وصاح :

— « يا الّهي ! ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تُجب ؛ ولم ترفع عينها قطّ عن الشيء الذي بدت وكأنها تنظر اليه ، ولكنها مسّت ذراعه بأحدى يديها ، وأشارت اليه بالاخرى ان ينظر خلفه .

والتفت ، فرأى جافير .

٣
جافير منشرح الصدر

فلْنَرَ ما الذي كان قد حدث .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر مسيو مادلين قاعة محكمة الجنايات في آراس . وكان قد رجع الى فندقه في اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي احتجز فيها ، كما نذكر ، مقعداً له . وقبيل الساعة السادسة صباحاً كان قد بلغ

مونتروي سور مير حيث كان أول ما عمله ان حمّل البريد رسالته الى مسيو لافيت ، ليقصدَ بعدُ الى المستشفى ويرى فانتين .

وفي غضون ذلك كان النائب العام قد وجّه الخطاب الى هيئة المحكمة – بعد أن زايله تأثير الصدمة الاولى بُعيد مغادرة مسيو مادلين القاعة – آسفاً للخبل الذي اصاب عمدة مونتروي سور مير المبجل معلناً ان يقينه لم يطرأ عليه تعديل ما نتيجةً لهذه الحادثة الغريبة التي سوف تنجلي في ما بعد ، طالباً – في انتظار ذلك – إدانة شانماتيو هذا الذي كان واضحاً انه جان فالجان الحقيقي . وكان جلياً ان إصرار النائب العام كان مناقضاً لعاطفة الجميع : النظارة ، وهيئة المحكمة ، والمحلفين . ولم يجد محامي الدفاع كبير عسر في أن يدحض هذا الخطاب وان يقرّر ان وجه القضية قد تغيّر ، بعد الذي اعلنه مسيو مادلين ، يعني جان فالجان الحقيقي ، وان هذا التغيّر كان كلياً ، وانه لم يكن امام المحلفين الآن غير رجل بريء . وخلص المحامي من ذلك الى اطلاق بعض الحِكم ، غير الجديدة كثيراً مع الأسف ، حول الاخطاء القضائية ، الخ . الخ . وفي تلخيصه للدعوى أيدّ رئيسُ المحكمة محامي الدفاع . وبعد بضع دقائق كان المحلفون قد برأوا ساحة شانماتيو .

ومع ذلك فقد كان النائب العام في حاجة الى جان فالجان ما ، واذ خسرَ شانماتيو فقد استولى على مادلين .

وبعيد إطلاق سراح شانماتيو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة . وكان موضوع حديثهما يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير . » وكانت هذه العبارة الحافلة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده في التقرير الذي رفعه الى كبير النواب العامين .

وإذ انقضى أثر الانفعال الاول فلم يبدِ رئيس المحكمة غير اعتراضات قليلة . يجب ان تتخذ العدالة مجراها . والى هذا فيتعيّن علينا ان

نعترف ، لكي لا نكتم شيئاً ، ان الرئيس – على الرغم من كرم نفسه وذكاء قلبه – كان في الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، بل ملكياً يكاد يكون متأججاً ، وكان قد اصيب بصدمة عندما كان عمدة مونتروي سور مير يتحدث عن غزو الارض الفرنسية عند « كان » فقال « الامبراطور » بدلاً من «بُونابرت» *Buonaparte*

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير .

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائه بشهادته مباشرةً .

وكان جافير قد نهض ، وما كاد ، من فراشه حين حمل اليه الرسول الأمر بالاعتقال ومذكرة الجلب .

وكان الرسول هو نفسه شرطياً ، وكان رجلاً ذكياً استطاع ، بكلمتين ، أن يحيط جافيرَ علماً بكل ما جرى في آراس .

وكان الأمر بالاعتقال ، الحامل توقيع النائب العام ، مُفرغاً في هذه العبارات : –

« ان المفتش جافير سوف يلقي القبض على جسد السيد مادلين ، عمدة مونتروي سور مير الذي ثبت خلال جلسة اليوم انه هو المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان . »

ولو ان امرأً لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئاً مما كان يجري ، ولحسبَ ان سيماه طبيعية الى ابعد حد يمكن تخيله . كان عابساً ، هادئاً ، رزيناً ، وكان شعره الاشيب صقيلاً أملس ، على نحو كامل ، وكان قد ارتقى السلّم في بطئه المعتاد أما من قدّر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله في انتباه ، فقد كان خليقاً به أن يرتعد . كان ابزيم طوق قميصه

الجلديّ تحت أذنه اليسرى بدلاً من ان يكون على رقبته . وكان ذلك ينمّ عن اهتياج لم يُسمع بمثله من قبل .

كان جافير شخصية كاملة لا تغضُّن في واجبه او في سترته العسكرية . وكان مدققاً مع الآثمين ، قاسياً على ازرار سترته .

ولكي ينحرف ابزيم طوق قميصه عن موضعه لا بد ان يكون قد عصف به انفعال من الانفعالات التي نستطيع ان ندعوها زلازل النفس .

كان قد اقبل في غير مباهاة ، وكان قد اصطحب من أحد مراكز الجند المجاورة عريفاً واربعة أنفار ، وترك الجنود في الفنـــاء ، وسأل البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب في امره ، اذ كانت متعوّدة ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيــد العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفـــع الباب في لطف ممرضةٍ او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

ولو اردنا ان نصطنع الدقة في التعبير لقلنا إنه لم يدخل . لقد ظل واقفاً لدى الباب نصف المفتوح ، وقبعته على رأسه ، ويده اليسرى في معطفه المزرّر حتى ذقنه . وفي انثناءة مرفقهِ كان في ميسور المرء ان يرى رأس عصاه الضخمة الرصاصيّ ، وكانت قد اختفت وراءه .

وظلّ هكذا نحواً من دقيقة لم يحسّ بوجوده احد . وفجأة ، رفعت فانتين عينيها ، ورأته ، ودعت مسيو مادلين الى الالتفات .

وحالما التقت عينا مادلين عيني جافير غدا جافير — من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يبدّل مكانه ، ومن غير ان يقترب - مروّعاً فظيعاً . ان اياً من العواطف الانسانية لا يمكن ان تكون مخيفـــة كالابتهاج .

كان وجهَ شيطانٍ عثر على ضحيته من جديد .

وكان يقينه بأنه قد ألقى القبض ، آخر الامر ، على جان فالجان قد اظهر

على محياه كل ما كان في ذات نفسه . لقد ارتفعت أعماقه المضطربة الى السطح . وكان الخزي الذي استشعره بسبب من انه ضل الاثر وخُدع عن ذات نفسه ، بضع دقائق ، في مسألة شانماتيو - كان هـذا الخزي قد ضاع في الغرور الذي استشعره بسبب من انه وفّق الى أن يحزر ، منذ البدء ، على هذا النحو البارع ؛ ومن انه احتفظ منذ دهر طويـل بغريزة لا تكْذِبُ صاحبَها . وتجلى ارتياح جافـير في مسلكه المفعم بالسلطان والجبروت . لقد انتشرت بشاعة الانتصار فوق جبينه الضيق . كان ذلك أكمل صورة من صور الهول يمكن لوجهٍ جذلان ان يتكشّف عنها .

كان جافير ، في تلك اللحظة ، في السماء . ومن غير أن يحـدّد احاسيسه على نحو واضح ، ولكنْ في حَدْسٍ مشوّش أشعره بضرورته وبنجاحه ، مثّلَ ، هو جافير ، العـدالةَ والنور والحقيقة في مهمّتها السماوية كمدمّرة للشر . كانت من ورائه ومن حولِهِ أعماق لا نهاية لها من السلطة ، والعقل ، والسابقة ، والضمير القضائي ، وانتقام القانون ، وجميع النجوم التي في القبّة الزرقاء . لقد صانَ النظام ؛ لقد أطلـق رعود القانون ؛ لقد انتقم للمجتمع ؛ لقد مدّ يد العون الى المطلـق . لقد وقف منتصب القامة وسط هالة من المجد . لقد كان في انتصاره بقيةٌ من تحدٍّ ومن صراع . كان في وقفته المتغطرسة ، المتألقة ، يعرض في جلالٍ كامل البهيميةَ فوق البشرية الجديرةَ برئيس ملائكة ضارٍ . وكان الظل الرهيب للعمل الذي يقوم به يُبدي ، في جُمـع كفه المتشنج ، بوارقَ السيف الاجتماعي الغامضة . كان يدوس بعقِب قدمه ، في سعادة وفي حنق ، على الجريمة ، على الرذيلة ، على التمرد ، على الهلاك الابديّ ، على الجحيم . كان يتألق ، وكان يُبيد ، وكان يبتسم . كان ثمة عظمة لا يمكن إنكارها في هذه الصورة الفظيعة من صور القديس ميشيل . *

* كبير الملائكة ، وقائد جند السماء .

لم يكن جافير ، رغم انه مخيف ، خسيساً قطّ .

إن النزاهة ، والاخلاص ، وسلامة النية ، واليقين ، وفكرة الواجب هي اشياء قد تصبح بشعة ، حين تخطىء ، ولكنها تظـلّ برغم بشاعتها عظيمة . إن جلالها الخاص بالضمير الانساني ، ليستمرّ في هولها . إنهـا فضائل ذات رذيلة واحـدة : الخطأ . فالابتهاج الصادق الذي لا يعرف الرحمـة والذي يتكشّف عنه المتعصب في عمل من أعمـال القسوة يحتفظ باشعاع فاجع لا نقدر على وصفه ، إشعاعٍ يوقع في نفوسنا الأجـلال . ومن غير ان يشعر بذلك ، كان جافـــير في سعادته التي توحي بالذعر يستحق الرثاء ، مثل كل رجل جاهـــل يكسب معركة . إن شيئاً لا يمكن ان يكون أوجع او افظع من هذا الوجه الذي تكشّف عمـــا يمكن ان ندعوه شرّ الخير .

٤
السلطة تسترد حقوقها

لم تكن فانتين قد رأت جافير من يوم ان اختطفها العمدة من هذا الرجل . ولم يأخذ دماغها المريض بأيّ تعليل ؛ إلا انها لم تشكّ في أنه اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان في ميـورها ان تتحمل هذا الوجه الرهيب ؛ لقد استشعرت وكأنها تُحتضر ؛ وأخفت وجهها بيديها الاثنتين ، وصاحت في ألمٍ نفسيّ مبرّح :

— « مسيو مادلين ، أنقذني ! »

وكان جان فالجان ـ ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم ـ قد نهض . وقال لفانتين في جَرْس ليس ألطف منه ولا اكثر هدوءاً :

— « إلزمي السكينة . إنه لم يأتِ من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال :

— « انا اعرف ماذا تريد . »

فأجاب جافير :

— « هيا ، أسرع ! »

كان في الطريقة التي نُطِقت بها هاتان الكلمتان شيء لا يمكن التعبير عنه ، شيء يذكّرك بوحش ضار وبرجل مجنون . إن جافير لم يقل : « هيّا ، أسرع ! » ولكنه قال : « هيّ ... اسرع ! » وليس في إمكان علم الاملاء ان يعبّر عن النبرة التي أطلق فيها هذا الكلام . إنه لم يكن كلاماً بشرياً قطّ ؛ كان زئيراً .

ولم يجرِ على مألوف عادته ، ولم يدخل قطّ في الموضوع ، ولم يبرز أيما مذكرة جلب . كان جان فالجان ، في نظره ، ضرباً من المقاتل الخفيّ الذي لا سبيل الى فهمه ؛ كان مصارعاً غامضاً سلخ خمسة اعوام وهو يغالبه من غير أن يَظْهرَ عليه . إن هذا الاعتقال لم يكن بداءة ، لقد كان خاتمة . واكتفى بالقول :

— « هيا ، أسرع ! »

وفيما هو يقول ذلك لم يخطُ خطوة واحدة ، ولكنه ألقى على جان فالجان نظرةً اشبه بالكلاّب المعدني كان من عادته أن يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

كانت هي النظرة نفسها التي استشعرت فانتين أنها نفذت الى نخاع عظامها قبل شهرين اثنين .

وكانت فانتين قد فتحت عينيها عندما أطلق جافير صيحته . ولكن العمدة كان هناك ، فمن ايّ شيء يمكن أن تخاف ؟

وتقدّم جافير الى منتصف الغرفة ، صائحاً :

— « هاي ، هناك ! ألن تأتي ؟ »

ونظرت المرأة المسكينة الى ما حولها . لم يكن ثمة احد غير الراهبة

والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكـــلام الاستخفافيّ المحقّر موجهاً ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها .

ثم انها رأت شيئاً عجباً ، شيئاً عجباً لم يتمثّلْ لها نظيره ُ حتى في احلك لحظات الحمى وهذيانها .

لقد رأت جاسوس الشرطة جافير يمسك بخناق السيد العمدة ؛ لقد رأت السيد العمدة يحني رأسه . وبدا لها وكأنّ العالم يتلاشى امام ناظريها .

كان جافير قد أخذ بخناق جان فالجان فعلًا .

وصاحت فانتين :

– « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها .

وقال :

– « لم يَعُدْ هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزعج اليد القابضة على طوق سترته الطويلة المشقوقة الذيل .

وقال :

– « جافير .... »

وقاطعه جافير :

– « نادني ايها السيد المفتش ! »

فتابع جان فالجان كلامه :

– « ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . »

فقال ُجافير :

– « تكلم بصوت عال ! تكلم بصوت عال ! ان الناس يتكلمون معي بصوت عالٍ ! »

وتابع جان فالجان كلامه ، خافضاً صوته :

– « انا اريد ان اتقدم اليك برجاء .... »

– « اقول لك تكلم بصوت عالٍ . »

– « ولكن هذا شيء ينبغي ان لا يسمعه احد غيرك . »

– « وما يهمني ذلك ؟ لن اصغي لكلامك ! »

واستدار جان فالجان نحوه، وقال في سرعة وفي صوت منخفض جداً :

– « أمهلني ثلاثة ايام ! ثلاثة ايام لكي اذهب وأجيء بطفلة هذه المرأة المسكينة ! سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي استطاعتك أن ترافقني اذا شئت . »

فصاح جافير :

– « اتضحك عليّ ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابله الى هذا الحد ! انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تفرّ ثم تزعم انك تريد ان تذهب لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة ! ها ! ها ! هذا جميل ! هذا جميل ! »

وارتعدت فانتين .

وصاحت :

– « ابنتي ! تذهب لكي تجيئني بابنتي ! واذن، فهي ليست هنا ! أيتها الاخت اجيبيني، اين كوزيت ؟ انا اريد ابنتي ! مسيو مادلين ! سيدي العمدة ! »

وخبط جافير الارض بقدمه .

– « ها هي الاخرى، الآن ! اخرسي، اينها الفتاة الخالعة العذار ! مسكينة هذه البلاد التي يكون فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ولاة، والتي يمرّض فيها بنات الهوى مثل الكونتيسات ! ها ! ولكن هذا كله سيتغير . لقد آن الاوان ! »

وحدّق الى فانتين تحديقاً موصولاً، ثم اضاف ممسكاً مكرة اخرى بعقدة رقبة جان فالجان، وقميصه، وطوق سترته :

– « اقول لكِ انه لم يبق هنا شيء اسمه مسيو مادلين، ولم يبق شيء اسمه سيدي العمدة . إن هناك لصاً ؛ ان هناك قاطع طريق ؛ ان هناك

رجلاً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة يدعى جان فالجان ! انه هذا الذي امسك به ! ذلك ما يوجد هنا ! »

وانتصبت فانتين في جلستها ، معتمدة على ذراعيها المتوترتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فمها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من حنجرتها حشرجة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في ألم نفسي مبرّح ، وفتحت يديها في تشنج ، متحسسة ما حولها مثل مشرف على الغرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الوسادة .

واصطدم رأسها بمقدّم السرير ، فارتدّ منقلباً على صدرها . كان فمها فاغراً وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين .

لقد ماتت .

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير الممسكة به ، وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير :

— « لقد قتلتَ هذه المرأة . »

فصاح جافير في حنق :

— « كفى هراء ! انا لم اجيء الى هنا لأستمع الى مواعظ . وفرّ هذا كله . الحرس تحت . إمشِ في الحال ، وإلا وضعت يديك في الحديد ! »

وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق متهدّم كانت كل من الراهبتين تتخذ منه سريراً نقّالاً حين تسهر على خدمة المرضى . فما كان من جان فالجان إلا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدّمه الواهن — وما كان ذلك بعسير على عضلات كعضلاته — ونظر لى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وارتدّ جافير نحو الباب .

وفي بطء ، تقدّم جان فالجان ، متشبثاً بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يُسمع :

- « أنصحك بأن لا تزعجني الآن . »

وارتعد جافير ؛ ذلك شيء لا يتطرق اليه الشك .

وخطر له ان يمضي ليستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتنم هذه الفرصة فيفرّ . وهكذا ظلّ معتصماً بعقب عصاه ، وأسند ظهره الى إطار الباب ، من غير ان يرفع عينيه عن جان فالجان .

واراح جان فالجان مرفقه على القضيب الحديدي ، وأراح رأسه على يده ، وحدّق الى فانتين وقد تمدّدت امامه وليس بها حراك . وظلّ هكذا ذاهلاً ، أبكم ، غيرَ مفكّر من غير شك بأيما شيء في هذه الحياة . ولم يبق على محياه ، وفي هيئته ، غير شفقة تمتنع على التعبير .

وبعد بضع لحظات من الاستغراق في التفكير انحنى فوق فانتين ، وخاطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع ان يقوله هذا الرجل الهالك لهذه المرأة الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ إن أحداً على ظهر هذه الارض لم يسمعها . هل سمعتها المرأة الميتة ؟ إن ثمة أوهاماً مؤثّرة ربما كانت حقائق سامية . والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه هو أن الاخت سيمبليس - الشاهدة الوحيدة لما قد جرى - كثيراً ما روت أنها لحظةَ همس جان فالجان في أذن فانتين رأت في وضوح ، ابتسامةً يعجز البيان عن وصفها تُشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين العينين القاتمتين ، المفعمتين بدهشة القبر .

وأمسك جان فالجان رأس فانتين بيديه ، وقوّمه على الوسادة ، فعلَ الأم برأس طفلها ، ثم عقدَ وثاق منامتها ، وأدخل شعرها تحت قلنسوتها . حتى اذا تمّ له ذلك أغمض عينيها .

وفي تلك اللحظة بدا وجه فانتين مشرقاً على نحو عجيب .

إن الموت هو المدخل الى النور العظيم .

وتدلّت يد فانتين على جانب السرير . وركع جان فالجان أمام

هذه اليد ، ورفعها في رفق ، وقبّلها .
ثم انه نهض ، والتفت الى جافير قائلا :
– « والآن ، انا تحت تصرفك . »

٥
قبر ملائم

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .
وأثار اعتقال مسيو مادلين خواطر الناس في مونتروي سور مير ، بل الاصح ، ان نقول إنه احدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان لا نستطيع كتمان هذه الحقيقة : وهي أنه ما كادت تذيع تلك الجملة المفردة : **كان عبداً رقيقاً من عبيد سجن الاشغال الشاقة** حتى انفضّ من حوله الناس كلهم تقريباً . وفي اقلّ من ساعتين ُنسي جميع الخير الذي اسداه الى البلد والناس ، ولم يعد هو « غير محكوم عليه بالاشغال الشاقة . » ومن الانصاف ان نقول إن تفاصيل الحادث كما وقع في آراس لم تكن قد عرفت بعد . وطوال النهار كانت احاديث مثل هذه ُتسمع في كل جزء من اجزاء المدينة :
– « الا تعرف ؟ لقد كان محكوماً بالاشغال الشاقة أُطلق سراحه ! »
– « من هذا ؟ »
– « العمدة . »
– « عجباً ، مسيو مادلين ؟ »
– « نعم . »
– « حقاً ؟ »
– « ان اسمه ليس مادلين . إن له اسماً مخيفاً : باجان ، بوجان ، بيجان ! »

— « آه ، يا الـهي ! »
— لقد ألقي القبض عليه . »
— « القي القبض عليه ! »
— « ووضع في سجن المدينة ريثما يُنقل . »
— « ريثما يُنقل ؟ الى اين سوف ينقل ؟ »
— « سوف يساق الى محكمة الجنايات لسرقة في الطريق العام كان قد ارتكبها في ما مضى . »
— « حسناً ! لقد ارتبت فيه دائماً . لقد كان هذا الرجل طيباً اكثر مما ينبغي ، كاملًا اكثر مما ينبغي ، لطيفاً اكثر مما ينبغي . لقد رفض ان يتقاضى اجراً ، وكان يمنح الدراهم لكل من يلتقيه من هؤلاء الاوباش الصغار . لقد فكرت دائماً بأنه لا بد ان يكون ثمة قصة رديئة خلف هذا كله . »

واخذت « الصالونات » كلها — على الخصوص — بهذا الرأي .

واطلقت سيدة عجوز ، مشتركةٌ بصحيفة « **الراية البيضاء** » ، هذه الملاحظة التي يكاد يتعذر على المرء ان يسبر غورها :

— « انا لست آسفة . ان ذلك سوف يلقي درساً على البونابرتيين ! »

وهكذا تبدّد في مونتروي سور مير ذلك الطيف الذي كان يُدعى فيها مسيو مادلين . إن ثلاثة اشخاص او اربعة اشخاص من اهـــل المدينة كلها ، ليس غير ، ظلوا اوفياء لذكراه . وكانت البوابة العجوز التي عملت في خدمته واحدةً من هؤلاء .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الفاضـــلة جالسةً في كوخها ، وهي ما تزال مشدوهة ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد أغلق طوال النهار ، وكان الباب الكبير الذي تدخل منـه العربات قد أوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفراً . ولم يكن في المنزل احد غير الراهبتين ، الاخت بيربيتو والاخت سيمبليس ، وكانتا ساهرتين

امام جثمان فانتين .

وحوالى الموعد الذي تعوّد مسيو مادلين العودة فيه الى منزله نهضت البوابة الأمينة على نحو آليّ ، واخذت مفتاح غرفة مسيو مادلين من احد الادراج ، والشمعدان الذي اعتاد ان ينير به سبيله ليلًا وهو يرتقي السلم ، ثم علّقت المفتاح بمسار كان من دأبه أن يتناوله منه ، ووضعت الشمعدان الى جانبه ، وكأنما كانت تتوقع عودته . ثم انهــا عاودت الجلوس في الكرسي ، واستأنفت تأملاتها . لقـد عملت العجوز المسكينة ذلك كله من غير ان تعي .

وانقضى على ذلك اكثر من ساعتين . وفجأة ً أجفلت صائحة ً :

— « ولكن ، يا الـّهي ! إني انا التي وضعت مفتاحه في المسار ! »

وفي تلك اللحظة ، ُفتحت نافذة كوخها . وامتدت يدٌ من خلال تلك الفرجة ، واخذت المفتاح والشمعدان ، وأضاءته بالشمعة المشتعلة .

ورفعت البوابة عينيها فاغرة الفم . ووثبت الى شفتيها صيحة ، ولكنها خنقتها.

لقد عرفت اليد ، والذراع ، وُردن الريدينغوت .

كان مسيو مادلين .

وظلت صامتة ً بضع دقائق ، قبل ان توفق الى الكلام ، **مصعوقة ً** كما عبّرت هي نفسها في ما بعد حين روت الحادثة .

واخيراً صاحت :

— « يا الـّهي ! السيد العمدة ! لقد حسبت ُ انك ... »

وصمتت . كان من الجائز ان تأتي خاتمة جملتها وقد أعوزها الاحترام لمطلعها . فقد كان جان فالجان هو دائماً — في نظرها — السيد العمدة .

وأتمّ فكرها ، قائلًا :

— « في السجن . لقد كنت هناك . لقـد كسرت قضيباً حديدياً من احدى النوافذ ، وقفزت من أعلى سطح مـا ، وها أنا ذا . إني ذاهب الى غرفتي . قولي للاخت سيمبليس إني اودّ ان اراها . انها من

غير شك الى جانب تلك المرأة المسكينة . »

وامتثلت العجوز الأمرَ في سرعة بالغة .

ولم يوصها بشيء . كان واثقاً من انها خليقة بان تحرسه أحسن مما يحرس نفسه.

وما عرف احد قطّ كيف وُفّق الى ان يدخل الى فِناء الدار من غير ان يفتح الباب الكبير الخاص بالعربات . كان لديه مفتاح يحمله ابداً في جيبه ، مفتاح عمومي يفتح باباً جانبياً صغيراً . ولكنهم قد فتشوه من غير ريب ، وانتزعوا منه ذلك المفتاح الذي تعنو له الأبواب كلها . إن هذه النقطة لمّا تُجلَ حتى الآن .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدُور الأعلى ترك شمعدانه على درجات السلم الاخيرة ، وفتح باب غرفته في رفق ، وتلمّس سبيله نحو النافذة فأغلقها وأغلق مصراعها ، ثم ارتدّ على آثاره ، فحمل الشمعدان ، ومضى الى غرفته كرة اخرى .

ولم يكن الحذر غير ذي غناء . فنحن نذكر ان نافذة غرفته يمكن ان تُرى من الشارع .

وألقى نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره الذي لم يضطجع فيه منذ أيام ثلاثة . لم يكن ثمة ايما اثر من فوضى الليلة التي قبل البارحة . ذلك بأن الخادمة كانت قد رتّبت الغرفة ؛ بيد أنها كانت قد التقطت من الرماد عقبي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سو التي سوّدتها النار . ووضعها جميعاً ، بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : **ها هما عقبا عصاي الحديديتان وقطعة الاربعين سو المسروقة من جيرفيه الصغير ، والتي تحدثت عنها في محكمة الجنايات .**
ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكون أول شيء يراه الداخل الى الغرفة . وأخرج من احدى الخزائن قميصاً له عتيقاً ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش لفّ بها الشمعدانين الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجّل أو اهتياج . وحتى فيما هو

يلفّ شمعداني الاسقف انثأ يقضم قطعة من الخبز الاسود . ولعلّ ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فرّ .

وإنما نهض الفُتات الذي وُجد على ارض الغرفة ، حين أجرت العدالة في ما بعد تفتيشاً دقيقاً ، دليلاً على ذلك .

وخفق شخصٌ ما الباب خفقتين رفيقتين .

وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيمبليس .

كانت شاحبة الوجه ، محمرّة العينين ؛ وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها . إن لصدمات القدر هذه الخاصة ، وهي اننا مهما تكن أحاسيسنا مكبوحة أو حسنة الانضباط فان تلك الصدمات تنتزع الطبيعة البشرية من أعماق نفوسنا ، وتكرهنا على ان نُبديها للناس . ففي غمرة من انفعالات ذلك اليوم كانت الراهبة قد عادت امرأةً كرة اخرى . كانت قد ذرفت الدمع ، وكانت ترتجف .

وكان جان فالجان قد كتب بضعة اسطر على قصاصة من ورق ، فقدّمها الى الراهبة قائلاً :

– « ايتها الأخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن . »

ولم تكن الورقة مطوية . فألقت نظرة عليها .

وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرأيها . »

وقرأت : « إني أرجو سيدي الكاهن ان يتولى أمر العناية بكل ما أتركه هنا . وأرجو أن يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المرأة التي توفيت اليوم . أما الباقي فيوزع على الفقراء . »

وحاولت الراهبة ان تتكلم ، ولكنها تلجلجت فلم تنطلق من فمها سوى اصوات غير مُبينة . بيد أنها ما لبثت ان وفّقت الى القول :

– « ألا يريد السيد العمدة ان يرى هذه البائسة المسكينة للمرة الاخيرة ؟ »

فقال :

— « لا . إنهم يطاردونني . ولست احب ان يلقوا القبض عليّ في غرفتها . ذلك خليق به ان يزعجها . »

ولم يكد يتم كلامه حتى اقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد سمعا جَلَبة أقدام ترتقي السلم ، والبوابة العجوز تقول في نبرات مرتفعة الى أبعد الحدود ، ثاقبة الى أبعد الحدود :

— « يا سيدي الطيب ، أقسم لك بالله ان أحداً لم يدخل الى هنا طوال النهار وطوال الليل ، وأني لم أغادر باب كوخي ولو مرة واحدة ! »

فأجابها رجل :

— « ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة . »

وتبيّنا في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب يحجب ، حين يُفتح ، زاوية الجدار القائم الى اليمين . وأطفأ جان فالجان الشمعدان ، وحشر نفسه في تلك الزاوية .

وخرّت الاخت سيمبليس على ركبتيها قرب الطاولة .

وفُتح الباب .

ودخل جافير .

وسُمع همس عدة رجال واحتجاجات البوابة في الرواق .

ولم ترفع الراهبة عينيها . كانت تصلي .

كانت الشمعة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ، ووقف مرتبكاً .

ويذكر القراء ان جوهر جافير ، وعنصره ، والوسط الذي يتنفس فيه كان اجلال السلطة كلها . كان متجانساً اكمل التجانس ، وكان لا يرتضي اعتراضاً او تقييداً . وينبغي ان نعلم ان السلطة الاكليركية كانت عنده اسمى السلطات . كان تقياً ، سطحياً ، دقيقاً في هذه النقطة شأنه في النقاط جميعاً . ففي نظره كان الكاهن روحاً ليس تخطيء ابداً ، وكانت

الراهبة مخلوقة لا تأثم ابداً . كانا روحين يعزلهما عن هذا العالم باب مفرد لا ينفتح ابداً إلا لكي يسمح للحقيقة بالانطلاق .

وهكذا لم يكد يلمح الراهبة حتى كان حافزه الاول يدعوه الى الانسحاب .

ولكن كان ثمة واجب آخر يمسك بـــه ، ويدفعه بصلف في طريق معاكس . كان حافزه الثاني يقتضيه ان يبقى وان يغامر فيطرح سؤالاً واحداً على الاقل .

كانت هذه هي الاخت سيمبليس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يُجلّها على نحو خاص بسببٍ من ذلك .

وقال : « ايتها الاخت ، هل انتِ وحدكِ في هذه الغرفة ؟ »

وانقضت لحظة رهيبة استشعرت البوابة المسكينة خلالها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغماء . ورفعت الراهبة عينيها ، واجابت :

— « نعم . »

وتابع جافير :

— « اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي : ألم تري هذا المساء شخصاً ، رجلاً ، كان قد فرّ ، ونحن نلاحقه — هذا الرجل ، جان فالجان ، ألم تَرَيْه ؟ »

فأجابت الراهبة : « لا . »

لقد كذبتْ . كذبتْ كذبتين متعاقبتين ، احداهما اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد ، وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .

— « ألتمس عفوكِ . »

قال جافير ذلك ، وانسحب منحنياً في احترام .

ايه ايتها الفتاة المقدسة ! انتِ لم تعودي من اهل هـــذا العالم منذ سنوات عديـــدة . لقد التحقتِ باخواتكِ — العذارى — وباخوتكِ — الملائكة — في الضياء . فلْتُذكَرْ لكِ هذه الكذبة في الجنة !

كان توكيد الراهبة لجافير شيئاً حاسماً عنده الى درجة جعلته لا يلحظ

حتى غرابة هذا الشمعدان ، المطفأ منذ لحظة ، المرسل دخانه على الطاولة .

وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعـــداً في سرعة عن مونتروي سور مير موجّهاً وجهه شطر باريس . كان هذا الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين أو ثلاثة من سائقي العربات الذين التقوا به ، أنه كان يحمل صرة ، ويرتدي درّاعـة . من اين جاء بهذه الدراعة ؟ إن احداً لم يَدْر . ومع ذلك ، فأن عامـلًا عجوزاً كان قد توفي في مستشفى المصنَع قبل ايام قليلة ، غـير مخلـّف شيئاً خلا هذه الدرّاعة . فلعلّ هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان .

بقيت كلمة اخيرة عن فانتين .

إن لنا جميعاً أماً واحدة : الارض . لقد أعيدت فانتين الى هذه الأم .

وارتأى الكاهن ، ولعله أحسن في ذلك صنعاً ، ان يحتفظ باكبر قدر ممكن من ثمن ما خلـّفه جان فالجان ليوزعه على الفقراء . وعلى اية حال ، فبمن كان يتصل ذلك ؟ برجل محكوم عليه بالاشغال الشاقـة ، وبينت من بنات الهوى . وهذا هو السبب الذي من اجله بسّط الاحتفال بدفن فانتين ، وقصَرَه على الكفاف الذي يُدعى حقل الفخّاري *

وهكذا دُفنت فانتين في هذه الزاوية المجانية من المقـبرة ، الزاوية التي هي لكل فرد وللناس جميعاً ، والتي يضيع فيها الفقراء . ولكن الله يعرف لحسن الحظ أين يجد النفس . لقد أُضجعت فانتين في الظلام ، بين الرمم التي ليس لها اسم . لقد تحملت فوضى رفـــات الموتى واختلاطه . لقد طُرحت في الجدث العمومي . إن قبرها كان مثل سريرها .

---

* اي مقبرة الفقراء والغرباء . جاء في انجيل متى (٢٧ : ٧) : « فتشـــاوروا واشتروا بها حقل الفخاري مقبرةً للغرباء . »

فهرست القسم الاول : « فانتين »

ص

مقدمة ٥

كلمة اولى ١٧

الكتـاب الاول : رجل مستقيم

١ . مسيو ميرييل ٢١
٢ . مسيو ميرييل يصبح مونسينيور بيينفينو ٢٥
٣ . اسقف صالح – اسقفية جافية ٣٢
٤ . الاعمال تتكافأ مع الاقوال ٣٦
٥ . كيف جعل مونسينيور بيينفينو ثوبه
الكهنوتي يعمر طويلاً ٤٤
٦ . كيف كان يحمي بيته ٤٧
٧ . كرامات ٥٤
٨ . فلسفة ما بعد الغداء ٥٩
٩ . الاخ كما تصوره الاخت ٦٤
١٠ . الاسقف في حضرة ضياء مجهول ٦٩
١١ . تحفظ ٨٦
١٢ . عزلة مونسينيور بيينفينو ٩٢
١٣ . معتقداته ٩٧
١٤ . افكاره ١٠٢

الكتـاب الثاني : السقوط

١ . بعد مسيرة يوم بكامله ١٠٧
٢ . الفطنة تستسلم للحكمة ١٢٣
٣ . بطولة الطاعة العمياء ١٢٨
٤ . تفاصيل حول مجابن بونتارليه ١٣٥
٥ . سكون ١٤٠
٦ . جان فالجان ١٤٧

٧ . أعماق القنوط ١٥٤
٨ . الموج والظل ١٦٤
٩ . مظالم جديدة ١٦٧
١٠ . الرجل يستيقظ ١٦٩
١١ . ما الذي يفعله ١٧٢
١٢ . الاسقف يعمل ١٧٧
١٣ . جيرفيه الصغير ١٨٢

الكتاب الثالث : في عام ١٨١٧

١ . سنة ١٨١٧ . . . . ١٩٤
٢ . رباعية مزدوجة ٢٠٦
٣ . اربعة إزاء اربع ٢١٢
٤ . تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على انشاد اغنية اسبانية . ٢١٩
٥ . في حانة بومباردا ٢٢٣
٦ . فصل من محبة الذات ٢٢٧
٧ . حكمة تولوميس ٢٢٩
٨ . موت فرس ٢٣٨
٩ . نهاية الابتهاج البهيجة ٢٤٣

الكتاب الرابع : الايداع يعني التخلي احياناً

١ . امّ تلتقي أماً ٢٤٨
٢ . رسم اعدادي اول لوجهين مبهمين ٢٦١
٣ . القبرة ٢٦٤

الكتاب الخامس : الانحدار

١ . قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود ٢٦٩
٢ . مسيو مادلين ٢٧١
٣ . اموال مودعة عند لافيت ٢٧٦
٤ . مسيو مادلين في ثياب الحداد ٢٨٣
٥ . بوارق غامضة في الافق ٢٨٦
٦ . الاب فوشلوفان ٢٩٣
٧ . فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس ٢٩٨
٨ . مدام فيكتورنيين تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق . . ٣٠٠

٩ . نجاح مدام فيكتورنيين ٣٠٤
١٠ . عاقبة النجاح ٣٠٨
١١ . المسيح هو مخلصنا ٣١٦
١٢ . بطالة مسيو باماتابوا ٣١٧
١٣ . حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية ٣٢١

الكتاب السادس : جافير

١ . بداية الراحة ٣٣٥
٢ . كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح « شان » ٣٤١

الكتاب السابع : قضية شانماتيو

١ . الاخت سيمبليس ٣٥٤
٢ . ذكاء المعلم سكوفلير ٣٥٨
٣ . عاصفة في دماغ ٣٦٥
٤ . اشكال يتخذها العذاب خلال النوم ٣٩١
٥ . عصيّ في الدواليب ٣٩٦
٦ . الاخت سيمبليس تجرّب ٤١٩
٧ . المسافر يصل ويعد العدة للرجوع ٤٢٩
٨ . دخول بامتياز ٤٣٦
٩ . موطن تكوّن فيه البينات ٤٤٠
١٠ . طراز الانكار ٤٤٩
١١ . شانماتيو يزداد دهشاً على دهش ٤٥٩

الكتاب الثامن : ضربة معاكسة

١ . بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره ٤٦٦
٢ . فانتين سعيدة ٤٧٠
٣ . جافير منشرح الصدر ٤٧٥
٤ . السلطة تسترد حقوقها ٤٨٠
٥ . قبر ملائم ٤٨٦

انتهى المجلد الاول

ويليه المجلد الثاني